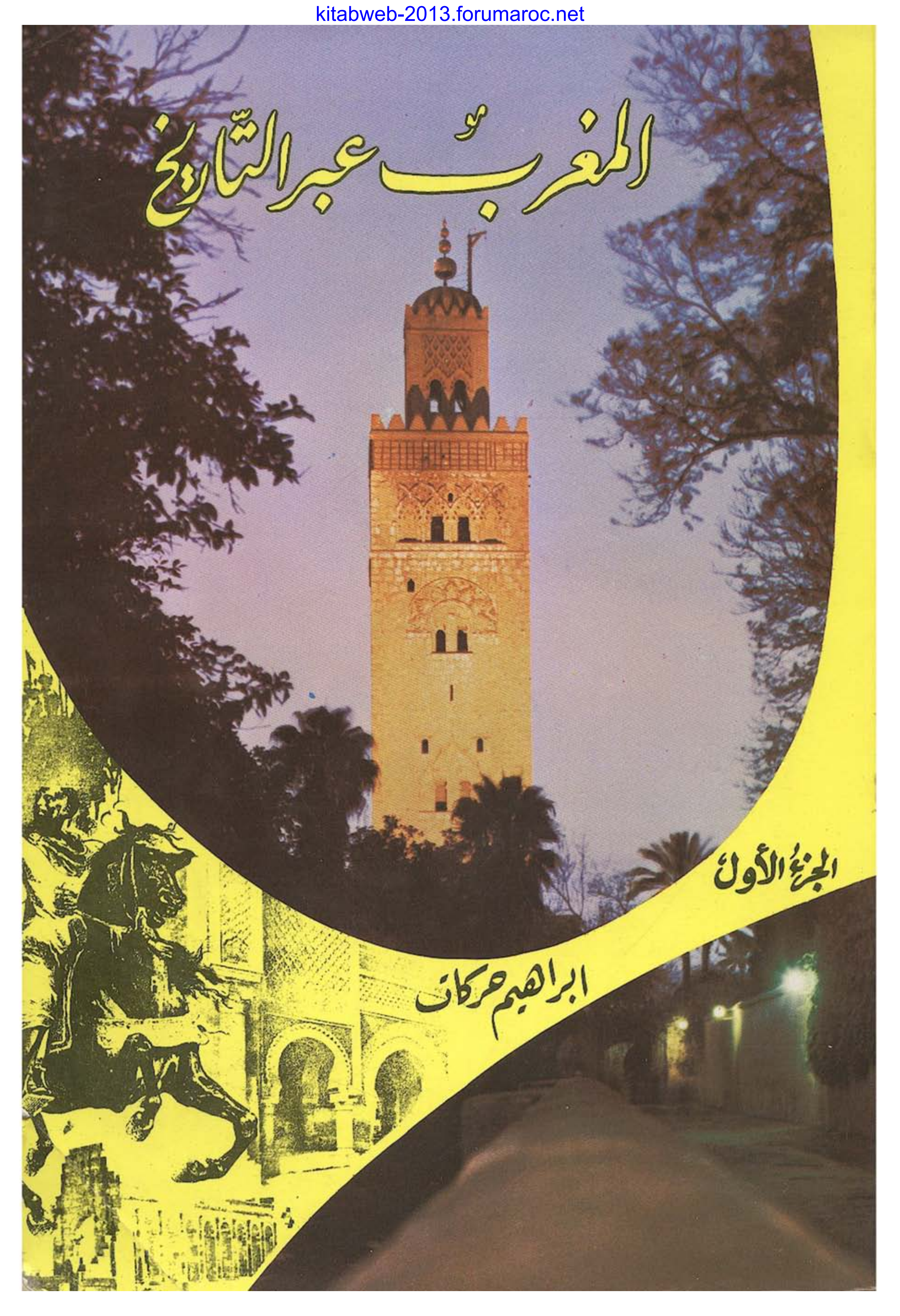
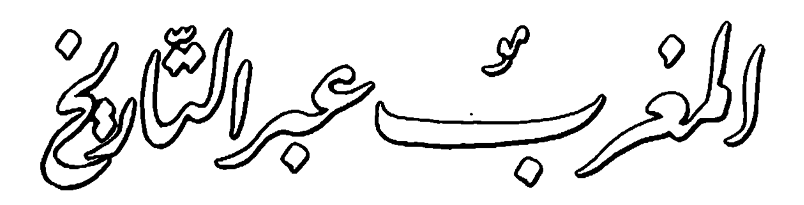

المغرب عبر التاريخ
الجزء الأول
ابراهيم حركات

المغرب عبر التاريخ

ابراهيم حركات



عرض لأحداث المغرب وتطوراته في الميادين السياسية والدينية والاجتماعية والعمرانية والفكرية منذ ما قبل الاسلام إلى العصر الحاضر

الجزء الأول

من عصر ما قبل التاريخ إلى نهاية دولة الموحدين

نشر وتوزيع
دار الرشاد الحديثة
98 شارع فيكتور هيكو
الهاتف : 2732.56-2748.17
الدارالبيضاء (03)

طبعة 1420-2000

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

المغرب بلد يصنع التاريخ ولكن أهله لم يكتبوه بعد. نعم، لم يلم أحد بعد شتات هذا التاريخ ليصل به إلى أحداث القرن الرابع عشر (أو العشرين) وتطوراته العظيمة، ولم يجمع أحد بين التاريخ السياسي والحضاري لهذا البلد الذي لعب دورا بطوليا في الماضي والحاضر.

والمغرب بلد يصنع المؤرخين، ولكن ظروف الحياة وخوف بطش الحاكمين وتعاقب الدول رمَى بهم في زوايا الإهمال والنسيان. فماذا نعرف عن حياة عبد الواحد المراكشي وابن عذاري وصاحب روض القرطاس والحلل الموشية وعشرات غيرهم ممن ساهموا في تسجيل تطورات التاريخ المغربي بقليل أو كثير؟

إن أهمية المغرب في تاريخ حوض البحر المتوسط تتجلّى في نشره للحضارة بين مجموعة من أقطاره، كما نقل حضارة الأندلس إلى أهله، وأقام علاقات ثقافية وسياسية مع مختلف دوله، وإن للمغرب في تاريخ الدبلوماسية لشأنا دونه شأن كثير من دول العالم، ولعل الله عز وجل يعينني على ابراز هذه الحقيقة في كتاب خاص، بل في مجلد حافل يسجل نشاط هذه الدبلوماسية المجهولة[1].

ولقد كانت نيتي تتجه إلى وضع كتاب ضخم يشمل عدة مجلدات لتسجيل كل ما يبلغ إليه جهدي الضعيف من تطور المغرب السياسي والفكري والعمراني والاجتماعي والاقتصادي لولا أن ذلك يحتاج إلى تفرغ ومواصلة للبحث وتيسر

---

(1) تولى هذه المهمة في السنوات الأخيرة الدكتور عبد الهادي التازي

للمراجع، والتمكن من زيارة عدة خزائن وآثار لدراسة شيء من هذا التطور عن كثب . ثم كم عدد هؤلاء الذين يستطيعون أن يدرسوا أو يطالعوا على الأقل كتابا ضخما يتطلب نفقات مرتفعة ومستوَى يفترض أن يفوق مستوَى القارئ العادي ؟ وأين هي المطبعة التي يمكنها أن تخرج مجموعة من المجلدات في زمن معقول ؟ وأين هو الناشر الذي سيتحمل نفقات هذا المشروع ؟

وإذاً ، فقد ارتأيت أن أقتصر على تاريخ وسط للمغرب ، لا هو بالوجيز المخل ولا بالطويل الممل ، فيستفيد منه من بدأ يتلمس خطواته نحو البحث والاطلاع ، كما يرجع إليه الأستاذ الذي يقدم دروسا هي بين التعمق والتبسط ، ولا يصعب تناوله مع ذلك ، على القارئ المتنور . وهكذا لن يكون هذا الكتاب هو نهاية الجودة والاستقصاء ، وإنما هو نقطة انطلاق تفتح آفاق الطالب على أشياء من تاريخ المغرب مجهولة لديه ، ثم يرتكز عليها الباحث ليسير في طريق التعمق والتفصيل .

وهذا الكتاب يحاول به صاحبه أن يضع حقائق التاريخ المغربي في نطاق العلم المجرد ، وليس ثمت ولله المنة ، من عصبية تحدو مؤلفه إلى الاتجاه بالتاريخ عكس الحقيقة . وإن بعض المؤرخين الأجانب المعروفين بتدليسهم ودسهم على التاريخ قد يصادفون أحيانا وجه الحق ولو كانوا من وراء ذلك مغرضين ، فيجب أن نقبل الحق فيما كتب عن تاريخنا ولو كان من خصومنا فتاريخ أي دولة في العالم ليس مجرد أنوار ساطعة وحياة سعيدة على ممر الأيام . وثمت نقط سوداء في كل تاريخ وأحيانا في كل فترة من التاريخ فيجب أن تسجل هذه النقط السوداء كما تسجل الصفحات النقية جنبا لجنب ، وإننا لنظلم التاريخ إذا نوهنا بالباطل وهو باطل ، ولشد ما أكره موقف الذين يرون أن لا يسجل من التاريخ إلا الصفحات الناصعة ، مع أن الأخطاء والجرائم ترتكبها الدول كما يرتكبها الأشخاص ، وإن في مصائر الدول بسبب هذه الجرائم والأخطاء ، لعبرة لو كانوا يعلمون .

ولقد حظيت افريقيا الشمالية من لدن المؤرخين الفرنسيين والاسبان بما لم تحظ به من لدن أبنائها أنفسهم طيلة أيام الاحتلال الأجنبي للمغرب العربي . وإذا كنت قد خصصت المغرب الأقصَى وحده بالدراسة في هذا الكتاب فليس ذلك من باب التعصب السياسي ، وإنما لضرورة حاجة أبناء المغرب الأقصَى إلى أن يعرفوا من

حقائق تاريخ وطنهم الأصغر، ما يتخذونه سبيلا إلى معرفة المغرب الأكبر. والدراسة الحقيقية تبتدئ من البيئة المحلية ثم يتوسع نطاقها شيئا فشيئا.

أما طريقة العرض في هذا الكتاب فقد بدأته بالفترات الغامضة من عصوره أي ما قبل دخول الإسلام ثم الفتح الاسلامي وآثاره، فالادارسة وحضارتهم، فالزناتيين، فالمرابطين وحضارتهم، وهكذا إلى أن انتهى بالأحداث والتطورات المعاصرة وقد عملت على أن يكون الكتاب في ثلاثة مجلدات أولها ينتهي بنهاية دولة الموحدين وحضارتهم، والثاني يؤرخ للمغرب من دولة المرينيين إلى نهاية السعديين. والثالث يؤرخ لدولة العلويين.

وقد قسمت تاريخ كل دولة إلى ثلاث مراحل: دور النشأة. ودور العظمة ثم دور الضعف الذي يتلوه فصل يبين أسباب سقوط الدولة ومراحله فأهمية أعمال الدولة بوجه عام، ثم علاقات المغرب بالخارج في عهد الدولة وأخيرا يأتي الحديث عن الحياة الدينية التي تمثل تطوراتها قسما كبيرا من الحياة السياسية نفسها. وبعد ذلك استعرض الحضارة في عهد الدولة بما يدخل في ذلك من نظم الحكم والادارة والحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والفكرية.

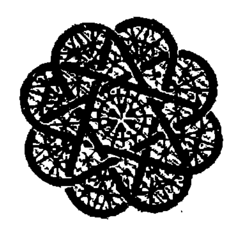
وإذا كان ثمت من نقص يلاحظ في هذا الكتاب فلعلني أول من شعر به لما يحيط بكثير من فترات التاريخ المغربي من الغموض. ولسكوت المصادر عن عرض الميادين الحضارية التي هي معظم ما نقيس به أهمية هذه الدولة أو تلك حتّى إنني قد اضطررت أحيانا إلى اختصار العرض السياسي عن الدولة لصالح العرض الحضاري، لأن الأحداث هي كل ما اهتمت به المراجع السابقة. ثم إن المصادر العربية أعطت للفتن والثورات نصيبا كبيرا على حساب كثير من أنواع النشاط القومي والحكومي، فأخذنا من تاريخنا من المساوئ ما لا تعتبر المحاسن إلا شيئا تافهة دونه. ولقد قلت سابقا إن النقط السوداء يجب أن تسجل جنبا لجنب مع الصفحات النقية.

ويجب أن أسجل بكثير من التقدير جهود الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله في إبراز كثير من مظاهر الحضارة المغربية التي قدم إلينا فيها أبحاثا عميقة إلى جانب الجهود التي بذلها الأستاذ محمد الفاسي عن النشاط الفكري المغربي والأستاذ عبد الهادي

المنوني عن الحركة العلمية في عهد الموحدين . والأستاذ عبد الله كنون في سلسلته الجديرة بالتنويه[2] .

ملاحظـة

هناك تغييرات وإضافات في الطبعة الجديدة من الجزء الأول مع تنقيح هفوات الجزء الثاني في هذه الطبعة أيضا . واختتام السلسلة بالجزء الثالث الذي يظهر لأول مرة (1405 1984) . والسلسلة تظهر كاملة الآن على يد دار الرشاد الحديثة .



(2) كتبت أبحاث ونشرت دراسات عديدة تمس تاريخ المغرب وحضارته ، على يد جامعيين متخصصين برزوا بعد ظهور هذا الكتاب .

وضعية المغرب الجغرافية

يحتل المغرب موقعاً استراتيجياً ممتازا بين البلاد الافريقية ، فهو يحرس مدخل البحر الأبيض المتوسط من الغرب كما تحرسه مصر من الشرق . وقربه من أوروبا جعله ينقل إليها حضارته التاريخية في القرون الوسطَى بالاشتراك مع الأندلس ، كما تلقَّى عنها شيئاً غير قليل من حضارتها العصرية ، إلى جانب حضارته الشرقية الأصيلة .

ولقد شكلت جبال المغرب الشامخة سدا منيعاً في وجوه الغاصبين منذ فجر التاريخ ، فوقف الفينيقيون عند السواحل الشمالية والغربية وعجز الرومان عن إخضاع سكان الريف والتوغل في جبال الأطلس ، كما وقف البيزنطيون عند سبتة ، ولم يتيسر انتشار الاسلام إلا باقتناع من البربر أنفسهم ، واقتضَى هذا الانتشار الشامل أجيالا طويلة امتدت إلى عهد المرابطين .

إن سكان الجبال يستمدون قوتهم وغيرتهم من طبيعة المكان الذي يعيشون فيه ، والذي وقف بجبروته متحدياً أعصاب الغزاة وأسلحة المستعمرين .

ولقد شهدت هذه الجبال تقلبات جيولوجية عظيمة كان لها فيما بعد أثر في التكوين الطبيعي والبشري لسكان البلاد الذين عاشوا بالمغرب منذ عصر ما قبل التاريخ .

وإذا كان سكان الجبال لم يتلقوا من حضارات الغزاة إلا قليلا جدا بالنسبة للقرون المتعاقبة التي وضع فيها المحتلون أقدامهم بهذه البلاد ، فذلك لغيرتهم على الاستقلال والحكم الديمقراطي الذي كان سائدا في اماراتهم وجمهورياتهم البدائية .

ولقد تلقت السهول والمناطق الساحلية من الحضارات المتعاقبة نصيباً كان أوفر مما تلقته المناطق الداخلية ولكن السهول والسواحل لم تكن بدورها لتلقي بنفسها فريسة سهلة للفاتحين ، فالمواقف البطولية التي وقفها سكان هذه المناطق ضد الاسبان والبرتغال ثم ضد الاحتلال الفرنسي لا تقل عن مواقف إخوانهم من سكان الجبال .

وإذا كانت شدة البرد في الجبال ووعورة مسالكها عائقا عن مسايرتها لركب الحضارة الصناعية ، فهي تقدم من انتاجها الغابوي وإنتاج سفوحها في الميدان الزراعي وثروتها المائية ما تسد به نقصها في الميدان الصناعي . أما السهول فهي تقدم من ثرواتها الزراعية ما يساعد على تغذية الأفواه البشرية التي يتزايد عددها يوما عن يوم .

وثروة السواحل تتجلّى في موانئها ورصيدها العظيم من الأسماك المغذية وهي تطل على البحر المتوسط شمالا حيث كانت ممرا للغزاة الأولين إلى البسائط والسهول الشرقية والغربية . ومن هذه المنطقة كانت تحدث هجرات بشرية من المغرب إلى شبه الجزيرة الايبرية وبالعكس . وأما السواحل الغربية فقد توقف نشاطها الحربي زمنا طويلا بعد الفتح الاسلامي ، فلم تتعرض لخطر خارجي يذكر إلا بعد ضعف الدولة المرينية . وفيها تتركز اليوم أكثر المناطق الصناعية .

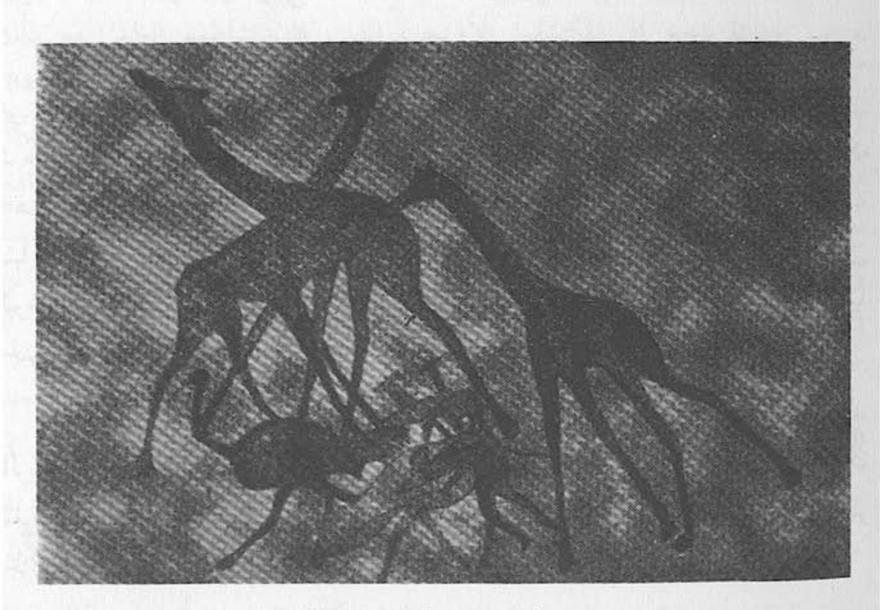
وأما الصحراء الشرقية فهي تكون مع جبال الأطلس الشرقية امتدادا يستمر إلى تونس ، بينما توالي الصحراء هذا الامتداد لتنتهي عند نهاية الحدود المصرية الشرقية . وأما الصحراء الجنوبية . فقد شهدت بدورها تقلبات خطيرة طبيعية وبشرية واقتصادية . فقد كانت هذه المنطقة مأهولة منذ عهود سحيقة ، وكانت خصبة بمياهها وأنهارها الدافقة كما كانت ذات نشاط اقتصادي يتركز على الخصوص في منطقة سجلماسة التي اجتمع بها تجار من العراق والشام إلى جانب التجار المحليين منذ القرن الثالث .

إن المغرب قد عرف بفضل تكامل مناطقه جغرافياً واقتصادياً ، فترات طويلة من الهدوء الذي لم يكدره إلا أخطاء بعض الملوك .

وإذا اتهم بعض المؤرخين الأجانب ، المغرب ، بأنه عاش قروناً طويلة في عزلة عن العالم . فيجب ألا ينسوا أن هذه العزلة إذا كانت ، فقد فرضها وجوده في أقصى العالم المعروف قديماً . كما ساعد عليها جباله التي حمته طويلا من الأطماع الخارجية ومسالمة أهله لمن يسالمهم ، وثروته الاقتصادية التي جعلت سكانه في غنى عن التنقل عبر البحار والأقطار ليستعمروا ويتاجروا ثم انسجام عناصر السكان التي لم يفرق بينها إلا الاستعمار الأجنبي قبل الاسلام كما حاول تفرقتها في النصف الأول من القرن العشرين (م) .

على أن أهمية المغرب الجغرافية قد ازدادت مع الزمن حتَّى ظهرت اليوم أكثر مما كانت. فالمغرب اليوم صلة وصل بين أقطار إفريقيا وأوروبا وأمريكا. وهو محط أنظار الدول الافريقية التي ترَى فيه نموذجاً للبلاد الطموح إلى استكمال نموها الاقتصادي عموما والصناعي بوجه خاص. ثم هو من قبل ومن بعد. المثل الأعلى لمقاومة الغاصبين والمستعمرين.

وكثير من دول العالم تخطب ود المغرب فترتبط بينها وبينه علاقات سياسية وتجارية مما يدل على السمعة الطيبة التي يتمتع بها في الأوساط الدولية. والمغرب اليوم لا يرتبط بأي حلف عسكري أجنبي إذ هو يقر سياسة الحياد التي درج عليها منذ آلاف من السنين ومع ذلك فهو يعطف على الدول التي لم تحصل بعد على استقلالها ويتضامن معها شعبا وحكومة.



رسوم اكتشفت بالصحراء الإفريقية

المغرب فيما قبل التاريخ

لم تتناول دراسة عربية إلى حد كتابة هذه السطور، فترة ما قبل التاريخ بالمغرب، وإذا استثنينا مصادر أجنبية قليلة جداً، فإن الغموض لم يكتنف هذه الفترة فقط، بل هو يشمل حتَّى الفترة التي اصطلحنا على أن نسميها بالعصر القديم، والتي تلي من قريب أو بعيد فترة ما قبل التاريخ.

فكيف إذاً، تمت دراسة المغرب فيما قبل التاريخ، أو على الأصح كيف بدأت محاولة هذه الدراسة؟ وعلى ماذا اعتمد المؤرخون فيها؟

إن مصادر المؤرخ الرئيسية فيما يخص تاريخ المغرب قبل ثلاثة آلاف من السنين هي مجموع الاستنتاجات والاكتشافات التي اهتدى إليها بعض الجغرافيين كـ «Gautier» والمتخصصين في علم طبقات الأرض أمثال «Neuville, Ruhmann» وأهم هذه الاكتشافات الأدوات والقطع الحجرية والنقوش الصخرية التي وجدت منها نماذج عديدة في المناطق الصحراوية. وهذه النقوش تبدو كأثر تركته عناصر من البوشيمان، وهم من الجنس الأسود ولم يبق من أعقابهم الا جماعات بافريقيا الجنوبية[1].

أما فيما يخص بقايا الهياكل البشرية فإن أقدم أثر عثر عليه منها هو فك وجد بالرباط، ويمثل أثراً للعنصر البشري الموغل في القدم. الشيء الذي يدل على أن المغرب قد قطنه البشر منذ عهود سحيقة، أي في نفس الوقت الذي شغل فيه البشر اجزاء مختلفة من حوض البحر المتوسط.

وقد عرف الشمال الافريقي في العصر الحجري الوسيط نفس التقدم الصناعي الذي عرفته أوروبا، ويتمثل هذا التقدم في الأدوات الحجرية المستخدمة كأسلحة أو سكاكين لتجزئة لحوم الصيد. على أن هذه الفترة قد استغرقت زمناً طويلا في

(1) Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord. p.34.

شمالي إفريقيا بالنسبة إلى أوروبا التي دخلها قوم من الذين عاشوا إبان العهد الجيولوجي الرابع ونشروا فيها ما يدعَى بمدنية الرنة[2].

وقد عثر في قسنطينة على عدة جماجم بشرية ترجع إلى العصر الحجري القديم، وأهمها ما وجد بكهوف علي بابا وأيم ومشتّى العربي وأفالوبورومل، وتمثل الجنس الحبشي ببشرته الداكنة وجنس البحر المتوسط ببشرته المتفاوتة صفاء، أو على الأصح فانها تنتمي إلى نوع (Cro - Magnon) الأوروبي الذي ينتمي إليه الجنسان المذكوران فيما يقال[3] وهذا النوع البشري قد عمر معظم أجزاء الشمال الافريقي إلى نهاية العصر الحجري القديم.

أما في العصر الحجري الحديث فقد انتشر السكان في المناطق الصحراوية التي حظيت بنفس التطور الذي حظيت به الأجزاء الشمالية من إفريقيا. وقد عرفت الصحراء ابتداء من هذا العصر تطوراً عظيما، والفضل في دراسة هذه المناطق دراسة حديثة يرجع إلى المكتشفين الأفرنج، الذين كان نشاطهم العلمي مع ذلك تمهيدا لاستيلاء الفرنسيين على هذه النواحي. وعلى رأس هؤلاء المكتشفين Barth الألماني و Duveyrier, الفرنسي. وساعدتهم النقوش الصخرية وبقايا الاحجار المتراكمة في طبقات الأرض على دراسة الحقبة. والحق أن الواحات تمثل نماذج حية لذلك الماضي السحيق الذي شهدت فيه الصحراء فترة طويلة من الخصب والنشاط البشري، فوجود أودية في الصحراء يدل على ما كان يجري بها قديما من انهار كان بعضها لا يجد منفذا إلى البحر.

وإذا صح لأحد أن يستغرب أن الرمال الصحراوية ليست الا مخلفات البحار التي كانت تطغَى على قمم الأطلس فكيف نفسر والحالة هذه، وجود الشطوط في جنوبي الجزائر، وماؤها لا يختلف في كثير عن ماء البحر؟ فالشطوط إذاً تمثل بدورها مخلفات البحر المتوسط الذي انحسر عن شمالي افريقيا ليستقر حيث هو الآن

والواقع أن النقوش الصخرية التي خلفها سكان الصحراء قديما، تمثل براعة فائقة من حيث شكلها وانسجام ألوانها، وخصوصاً نقوش الهكار وتاسيلي. على أن هذه النقوش تتشابه في كل المناطق الصحراوية الممتدة من تخوم مصر إلى المحيط

---

(2) Pellegrin, His. de la tunisie

(3) المصدر السابق ص 27.

الأطلسي مما يدل على أن أفواجاً بشرية هائلة تنقلت فيما بين هذه المناطق . والظاهر أن هذه الأفواج قد قدمت من نجود الحبشة العليا .

وقد تساءل بعض العلماء عما إذا كان سكان شيل وسان اشول بفرنسا ينتمون إلى السلالة البشرية التي قطنت جنوب الصحراء في العصر الحجري القديم ، ذلك أن أدوات في هذه النواحي الفرنسية تماثل أدوات ومخلفات وجدت في ادرار ايفوراس وعرق شش ودرعة[4] .

ومن المؤسف أنه فيما بين العصر الحجري القديم والحديث يتجلّى فراغ من حيث الآثار التي يمكن أن تدل على التطور البشري في هذه الفترة بالصحراء ، ولعلها فترة جفاف شديد فيما استنتجه هنري لوط الأثري الفرنسي .

ومن المعلوم أن العصر الحجري الحديث يمثل فترة انتقال نحو المدنية لا في الشمال الافريقي والصحراء فحسب ، بل في معظم أجزاء العالم . ففي هذا العصر عرف البشر صقل الحجر وصناعة الخزف واستخدم الزراعة لأول مرة كوسيلة لمعاشه بعد أن كان يعتمد كل الاعتماد على الثمار البرية ثم الصيد إلى جانبها . وفي هذه الحقبة بدأ تدجين بعض الحيوانات كالخيل والبقر والغنم والكلاب . وفي هذه الأثناء بدأ ينسج ثيابه وتيسرت لديه إمكانيات التجمع والتآلف .

ولم يكتشف في بلاد المغرب والصحراء ما يدل على أن هذه المناطق قد شهدت عصر البرونز الذي خلف العصر الحجري الحديث فالظاهر أن السكان قد انتقلوا من استعمال الادوات الحجرية إلى الادوات الحديدية مباشرة كما يقول طيراس . ولا يعرف بالضبط ما إذا انتقل الحديد إلى المغرب من الشرق مباشرة أو عن طريق أوروبا التي تعلمت استخدامه بواسطة الشرق . على أن البشر لم يستطع الوصول إلى مرحلة استغلال المعادن إلا في وقت متأخر جداً من تطوره . وفي هذا الوقت يمكننا أن نقول إن عصر التاريخ قد بدأ يشق طريقه .

ولسوء الحظ فإن كل ما وجد من النقوش الصخرية يقتصر إلى حد الآن على الناحية الصحراوية . أما مخلفات الهياكل البشرية المتراكمة ، فمناطق الواحات تتوفر على كثير منها ، ومعها أدوات خزفية . ولكنه من الصعب ارجاع هذه أو تلك إلى حقبة معينة من الزمن . والظاهر أن حياة العصر الحجري الحديث قد تأخرت في

(4) Bruno Verlet, Le Sahara, p. 23, Collection que sais-je, n° 766

بعض نواحي الصحراء إلى عصر التاريخ بسبب الجفاف الذي لم يساعد على التطور لفترة معينة.

ومع أن الأدوات الحجرية التي ترجع إلى العصر المذكور قد وجد منها بالصحراء ما لم يوجد بأي منطقة أخرى من العالم، فإن هذا العصر نفسه مايزال بحاجة إلى دراسة طويلة فيما يخص الشمال الافريقي بصحرائه. إن كميات من عظام الأسماك قد وجدت في كهوف صحراوية كما أن آثار بحيرات قد وجدت جنوب الجزائر. ويحتمل أن وادي ساورة كان يصب في بحيرة عظيمة وكذا جداوله المتفرعة من الأطلس الكبير. ويحتل البقر مكانا مرموقا في حياة سكان الصحراء قديما، بدليل النقوش الحجرية العديدة.

وبصفة عامة فإن هذه النقوش تمثل أربعة أصناف من الحيوانات التي عرفها الشمال الافريقي في الصحراء خاصة:

1 — نوع من الظباء انقرض وتتجلى رسومه إلى جانب رسوم الفيلة والزرافات والنعامات وأشخاص ذوي رأس مستدير وترجع هذه المجموعة من الرسوم إلى ثمانية آلاف سنة خلت.

2 — رسوم البقر الذي بدأ استئناسه بينما كانت الظباء المذكورة في طريق الانقراض، وذلك منذ خمسة آلاف وخمسمائة سنة تقريبا وتمثل الرسوم البشرية إلى جانب البقر، أشخاصا قصار القامة ولكنهم عاديو الخلقة.

3 — رسوم الخيل التي تبدو أحيانا يقودها أشخاص مسلحون بسهام حربية. ويركب الفارس الحصان إلى جانبه جواد آخر يستخدمه في حالة ما إذا سقط الأول صريعاً، وترجع هذه الفترة إلى ما قبل ثلاثة الآلاف سنة بقليل. وقد جلب الحصان إلى جنوب الصحراء عناصر ليبية وفي هذه الأثناء استخدم السكان العربات التي وجدت رسومها أيضا في نقوش الصحراء.

4 — رسوم الابل التي ظهرت في صحراء الشمال الافريقي قبل ميلاد المسيح مباشرة. وكان استقدامها من مصر، وقد خلفت الخيل التي انقرضت من هذه الناحية بسبب الجفاف الذي بدأ يتخذ شكله الحالي منذ هذه الفترة على التقدير، إذ من الصعب تحديد الزمن الذي أصبحت فيه الصحراء قاحلة بالشكل الذي تطورت إليه حتّى الآن، ولو في حدود العصر التاريخي.

لقد عرفت الصحراء منذ خمسة آلاف سنة حياة خصبة رائعة ، حتَّى لقد كانت توجد فيها مجموعة من الحيوانات المائية من تمساح وفرس بحر وغير ذلك .

وكثير من هذه الحيوانات قد استمر إلى زمن متأخر كالفيل الذي لم يختف إلا بعد دخول الرومان ، وتتمثل رسومه في جبل عمور وكان يوجد في أماكن مختلفة من المغرب كناحية طنجة والأطلس وسلا .

وفيما يخص المعتقدات الدينية فإن السكان قد لجأوا إلى تعظيم ظواهر الطبيعة منذ القدم ، حتَّى إذا ما دخلوا في طور المدنية الزراعية عملوا على حماية مزارعهم ومواشيهم بالوسائل الروحية التي اهتدوا إليها ، ودخل الخوف من الجن قلوبهم في هذه الفترة فظنوهم في الأشجار والكهوف والاحجار التي استمر تقديسها إلى زمن متأخر . وزعم بعض المؤرخين الفرنسيين أن الاعتقاد في «بركة» بعض الأشخاص أثر من آثار هذا الماضي السحيق لم تستطع الديانة المسيحية ولا الاسلامية القضاء عليه في هذه المناطق ، مع أن الاعتقاد في بركة القديسين المسيحيين مايزال راسخاً في أذهان كثير من النصارَى الذين يقطنون أرقَى بلاد العالم وأكثرها ارتباطا بالحضارة المادية .

ومن الملاحظ أن المغرب الأقصَى قد اختص ببعض أنواع النباتات والحيوانات التي لا توجد في غيره وهي تنتمي إلى افريقيا الاستوائية[5] ومن بينها اليتوع ، وهو نبات شوكي غليظ . ومن الحيوانات ذات الأصل المداري الدجاج البري الذي يوجد في منطقة زعير .

وعلى كل فقد كان المغرب يشكل منطقة الحيوانات الضارية والمفترسة التي نعم الرومان بمشاهدتها في ملاعبهم .

ومن أحدث الدراسات عن المغرب في عصر ما قبل التاريخ بحث كتبته مجلة «جغرافيا» الفرنسية ، وهذا البحث في الواقع يتناول الصلات الوثيقة بين افريقيا الأطلسية وسواحل امريكا اللاتينية الممتدة على المحيط الأطلسي أيضا . وأذكر أن صاحب البحث حاول أن يبرز أوجه الشبه في أنماط الحياة التي استمرت في كل من الجهتين قائمة حتَّى الآن سواء في أسلوب السكني أو المعيشة ، ومن حيث مدَى

(5) 1 - Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord, p.168

العلاقة الجغرافية بين القارتين ، حتّى ان كاتب البحث يتساءل عما إذا كانت هناك هجرات في عصر ما قبل التاريخ من هذه القارة إلى تلك أو بالعكس .

وكان السكان يدفنون موتاهم في قبور ينحتونها في الجبال ويركمون فيها عدة جثث ، كما يدفنون معهم حليهم وبعض أمتعتهم وكان لباسهم لا يتجاوز ستر العورة بجلود الحيوانات التي يصطادونها ، ثم أخذوا عن الرومان الجبة والبرنس الذي لايزال كثير من المغاربة يستعملونه على شكله البدائي تقريبا .

وقبل خمسة آلاف سنة دخل العنصر الليبي في تاريخ الشمال الافريقي . وكان المصريون يطلقون كلمة ليبو على الشعوب البيضاء التي كانت تقطن افريقيا الشمالية ودخلت بعضها مصر شرقا حتّى ضرب عليها الفراعنة الجزية ، وهذا العنصر الليبي سماه الرومان ثم العرب بالبربر الذين لا يستبعد أن يكونوا من سلالة العصر الحجري الحديث ، ثم انضافت اليهم عناصر من السود والبحر المتوسط أما إذا كان انتماؤهم إلى الأصل السامي فإن الهجرات السامية إلى الشمال الافريقي لابد أن تكون بدأت في العصر الحجري القديم ، وفي الفصل الموالي سأحاول أن أسجل النظريات المتضاربة في هذا الصدد(6) .

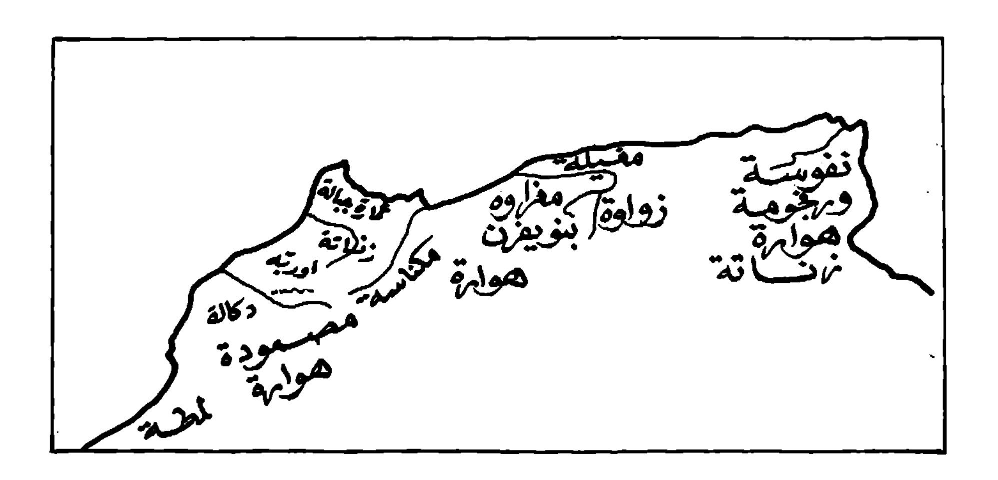
---

(6) انظر بحثاً قيما حول الحضارات المغربية الأولى لميكيل طراديل مترجما بقلم محمد التازي سعود في مجلة البحث العلمي ، ع 6/ 1385 – 1965 ، الرباط وبالنسبة للعنصر الزنجي فإن أحدث الأبحاث توصلت الآن إلى أن المغرب والصحراء وكينيا تكوّن أقدم مناطق ظهور الإنسان الإفريقي ذي الأصل الزنجي الأسود راجع :

Denise Paulme, Les civilisations africaines / Presses universitains de France

البربر

توزيع أهم قبائل البربر قبل الاسلام



أصل كلمة بربر :

يذكر ابن خلدون في أصل كلمة «بربر» ما يلي :

يقال إن إفريقش بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وإفريقية وقتل الملك جرجيس وبنى المدن والأمصار (وباسمه — زعموا — سميت إفريقية) لما رأى هذا الجيل من الأعاجم وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك وقال : ما أكثر بربرتكم ! فسموا بالبربر. والبربرة بلسان العرب ؛ هي اختلاط الأصوات غير المفهومة . ومنه يقال بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة .

هذا كلام ابن خلدون في أصل لفظة بربر[1] ، بالاضافة إلى بعض التفاصيل الأخرى حيث يرد على بعض المؤرخين السابقين كما سيأتي .

ويعتقد بوسكي أن الكلمة من أصل لاتيني وتعني (Barbarus) أي الشخص الذي لا ثقافة له والذي ينتمي إلى مجموعة مختلفة من الشعوب المتخلفة التي كانت تعيش خارج نطاق روما . على أن البربر انما يسمون أنفسهم بالأمازيغ أي الأحرار[2] .

من هم البربر؟

من المؤكد لدَى علماء الأجناس أن البربر لا يشكلون جنسا قائم الذات كما نقول عن الجنس الآري أو القوقازي مثلا . ذلك لأن البربر يمثلون عناصر مختلفة في شكلها وأنماط معيشتها . ونظرية بواسيير هي أن الليبيين وعنصر الجيتول هم أول سكان الشمال الافريقي الذين ينتمون إلى عصر الحجر المنحوت ، وأكثرهم سمر البشرة . وقد اكتسح الآريون بلادهم ـ وهم شقر زرق العيون ينتمون إلى عصر الحجر المصقول ، ولكنهم لقلة عددهم قد انصهروا في السكان الأقدمين الذين أثروا فيهم من حيث التكوين الجسمي . أما الجيتول أو الجزوليون فقد احتلوا المناطق الصحراوية ، وعنهم تفرعت مصمودة فيما يظن ، وهم جيرانهم ، وكذلك غمارة التي تقطن قرب طنجة في منطقة الريف وبينهم سمر وشقر ، وقد كان انصهار الآريين (الذين صحبوا هرقل) في مصامدة غمارة منذ سنة 1600 ق.م .

وإذا قلنا إن البربر لا يشكلون جنسا قائم الذات فذلك لأننا نلاحظ زيادة على ما تقدم عدم وجود صلة نسبية بين مجموعاتهم المختلفة ؛ فبربر جربة مثلا لا ينتمون إلى بربر الأطلس الكبير وهكذا . ومن الملاحظ أن بربر الطوارق يمتازون بطول قاماتهم وأطرافهم ، ولا يبعد أن تكون هناك عناصر كثيرة دخلت إلى الشمال الافريقي من أوروبا . كما دخلت عناصر أخرى من آسيا منذ عصر ما قبل التاريخ .

---

(1) ابن خلدون 6 ص 176

(2) حسب كوتيي (كاف معقودة) كان الأهالي الوطنيون في العصر القرطاجني يطلقون على أنفسهم لقب Mauri أي المغاربة ، أو Barbari أي البربر ، بينما يطلق المؤرخون اللاتين على الأهالي الخاضعين لقرطاجنة اسم «Afri» أي الإفريقيين .
راجع : Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord

ومهما يكن من شيء فإن البربر ليسوا هم سكان المغرب الأولين ، فإن ظواهر الحياة البشرية تتمثل في هذه البلاد منذ مئات الآلاف من السنين كما دلت على ذلك اكتشافات مشتَى أفالو التي أثبتت آثار شعوب بدائية قد انتقلت من مدنية العصر الحجري العتيق إلى العصر الحجري الحديث ، وهذه الشعوب قد اكتسحت المغرب الأوسط وامتدت عبر المغرب الأقصَى وتخطته إلى جزر الخالدات فيما استنتجه Balout

أما ابن خلدون فقد ناقش النظريات القديمة في أصول البربر ، وسأحاول تلخيص كلامه حول هذه النقطة فيما يلي :

بحث النسابون طويلا في أصول البربر فقال بعضهم إنهم من ولد سيدنا ابراهيم عليه السلام ، وقال آخرون انهم يمنيون ، وقال المسعودي انهم من غسان وغيرهم ، تفرقوا عن حادثة سيل العرم . وقال ابن عبد البر نقلا عن غيره : ان النعمان بن حمير بن سبأ بعْث عدداً من أولاده لتعمير المغرب فأرسل لَمْت ، أبا لمتونة ومسفو أبا مسوفة ومرطا أبا هسكورة واصناك أبا صنهاجة ولمط أبا لمطة ، وايلان أبا هيلانة ، فنزل بعضهم بجبل درن وبعضهم بالسوس وبعضهم بدرعة .

وذكر الطبري أن البربر اخلاط من كنعان والعماليق ، فلما قتل جالوت تفرقوا في البلاد وغزا افريقش المغرب ونقلهم من سواحل الشام واسكنهم افريقية وسماهم بربر .

ثم ينقل ابن خلدون نظرية أدلَى بها الشاعر الأديب مالك بن المرحل الذي يقول ان البربر قبائل شتَّى من حمير ومضر والقبط والعمالقة وقريش تلاقوا بالشام ولغطوا فسماهم افريقش بالبربر لكثرة كلامهم .

ويرَى المسعودي والبكري أنهم فروا بعد موت جالوت إلى المغرب ، وأرادوا مصر فاجلتهم القبط فسكنوا برقة وافريقية والمغرب .

وينقض ابن خلدون هذه النظريات واحدة واحدة ، ويحتج بأقوال ابن حزم في عدم ثبوت هجرة حمير إلى افريقيا الشمالية كما ينفي أنهم من ولد جالوت ، ويردهم إلى كنعان بن حام ولكنه يسجل ما ذكره أكثر نسابة العرب من أن صنهاجة وكتامة تنتسبان إلى العرب ، ويقول إن نسابة البربر يزعمون في بعض شعوبهم أنهم من العرب كلواتة الذين ينتسبون إلى حمير وهوارة الذين ينتمون إلى كندة .

ثم يوجز ابن خلدون نظريته عن البربر في قوله : «والحق الذي شهد به المواطن والعجمة أنهم بمعزل عن العرب إلا ما تزعمه نسابة العرب في صنهاجة وكتامة ، وعندي أنهم من اخوانهم[3] . وبذلك يكون ابن خلدون قد نقض هنا ما احتج به سابقا من كلام ابن حزم .

والظاهر أن أفواجا عظيمة من البربر قدمت إلى الشمال الافريقي عن طريق مصر وليبيا مهاجرة من جنوب آسيا الغربي ، وتتكون هذه الأفواج من الكنعانيين الذين قطنوا قديما منطقة لبنان الحالية . ونستفيد من تضارب أقوال المؤرخين النسابين أن ضمن هذه الهجرات . هجرة جماعات من حمير وأخرى من اليهود الذين صحبوا إخوانهم الكنعانيين من الشام .

وان حياة رحل البربر ونوايلهم وطريقة معيشتهم لشبيهة جيدا بحياة عرب الصحاري والبوادي في الشام وجزيرة العرب . والصلة على أي حال وثيقة بين العرب والبربر من الوجهة الاجتماعية .

اللهجات البربرية :

أصبح من المؤكد لدى العلماء أن اللهجات البربرية تعود في أصلها إلى لهجة واحدة ، كما أثبت علماء أصول اللغات الصلة الوثيقة بين البربرية واللغات السامية والحامية ، ومن المعلوم أنه يوجد تشابه كبير بين السامية والحامية من حيث الشكل وحركات الاعراب فمها حاول بعض علماء الأجناس والمؤرخين الأجانب أن يربطوا البربر بأصل أوروبي ، فهم لا يستطيعون أن ينكروا الصلات اللغوية بين البربرية واللغات المذكورة ، حتى ان لغة الطوارق التي عدها بعضهم أقل اللهجات البربرية تأثرا بالعربية ، وجدت بها أصول عربية ترجع إلى 200 سنة ق.م أي قبل دخول العرب إلى المغرب بثمانمائة سنة ، فالكتابة البربرية المنقوشة على يد الطوارق في هذا العهد تماثل ما وجد منقوشاً على الأحجار في حدود الصحراء العربية[4] .

أما اللغات الحامية الأخرى التي تتشابه من قريب أو بعيد واللغة البربرية فمنها القبطية والكوشية التي هي لغة الصومال والكالا ، وكلها ذات ارتباط أكيد باللغات السامية من عربية وعبرية وغيرها .

(3) ابن خلدون 6 ص 176 – 192 .

(4) 4 - Bousquet, Les Berbères, pp.21 - 22

وعلى كل ، فإن اللهجات البربرية على اختلافها تنتمي إلى اللغة الليبية القديمة . والواقع أن أكثر المؤرخين تطرفاً من غير العرب يلاحظون أن البربر كان يسهل عليهم التفاهم مع القرطاجنيين والفينيقيين ومساكنتهم نظرا لتقارب لغاتهم أو على الأقل للقرابة التي تجمع بينهم .

على أن اللهجات البربرية الرئيسية ثلاث ، أو على الأصح ، فإن المجموعات التي تشكل هذه اللهجات ثلاث :

1 — زناتة ، وينتمي إليها بربر الجزائر ماعدا القبائل . كما ينتمي إليها بربر تونس وليبيا . أما في المغرب فينتمي إليها بربر الأطلس المتوسط الجنوبي ومنطقة الريف وجبل بني يزناسن وزكار وشرق الأطلس الكبير جهة بودنيب ، ثم توكورت ومزاب ووراغلة في الصحراء .

2 — مصمودة ، وينتمي إليهم قسم من غمارة غرب الريف وشلوح الأطلس الكبير الغربي وأكثر بلاد السوس والأطلس الصغير .

3 — صنهاجة وينتمي إليهم قسم من بربر التخوم المغربية الجزائرية والقبائل والأطلس المتوسط وتافيلالت وطوارق الصحراء ووسط الأطلس الكبير وملوية العليا . وسأرجع إلى هذه المجموعات بشيء من التفصيل .

وتوجد إلى ذلك عدة لهجات محلية عدها Basset بأكثر من ألف ومائتين .

وقد وجدت عدة آثار للخطوط الحميرية بالشمال الافريقي ، فقد عثر على قبر مكتوب بالحميرية في قرطاجنة منذ قرون عديدة . كما اكتشفت نقوش حميرية في بعض مداشر تونس[5] وغيرها .

وقد أورد الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله في كتاب مظاهر الحضارة بحثاً ساق فيه عدة ألفاظ مما أخذته البربرية عن العربية ككلمة أمان بمعنَى الماء وازرو المحولة عن أصر بمعنَى الحجر وأكلزيم بمعنَى الفاس وهي محولة عن القلزم .

الحـــراطيـــن

هم مجموعة من السكان الذين حلوا بواحات الصحراء وشمال الأطلس الكبير

(5) عبد العزيز بنعبد الله ، مظاهر الحضارة المغربية ، 1 ، 60

قبل حلول البربر . ولا يعرف بالضبط . ما إذا كانوا يمثلون جنسا خاصاً أو هم أصبحوا ملونين بازدواج عناصر من السود مع عناصر أخرى من البيض . وهم يمتازون ببشرتهم البرونزية وأكفهم البارزة من الداخل وبدقة تقاسيمهم . أما من الوجهة الاجتماعية ، فهم يمتازون بروح العمل والمهارة في تزيين الحدائق وفن الغراسة . وتلاحظ فيهم طبيعة الصدق والصراحة والقناعة ، وهي مجموعة من الفضائل التي يندر أن تتوفر في غيرهم من العناصر وهناك من العلماء من يردونهم إلى الجنس الأثيوبي أو جماعة الجيتول الذين استقروا بالصحراء منذ آلاف عديدة من السنين . وقد نزح كثير منهم أيام الحماية الفرنسية إلى المدن للعمل في البساتين وبعض الحرف اليدوية ، ودراسة هذا العنصر البشري تشكل لغزا تاريخيا يتجاوز في غموضه قضية العنصر البربري . وإلى حد الآن لم يحظ بدراسة عميقة كالتي حظي بها المجتمع البربري .

ويعتبر المغرب أكبر موطن للبربر ، فهم يشكلون 45 في المائة من مجموع سكانه ، مقابل اثنين في المائة بتونس و30 في المائة بالجزائر . وتنتشر المجموعات البربرية في مختلف أجزاء المغرب باستثناء معظم سهول المحيط الأطلسي وبعض مدن الشمال . ومن البديهي أن انتشار اللغة العربية سيقضي أو يكاد ، على اللهجات البربرية بعد بضعة عقود من السنين ، أما إذا استمرت فستكون مستعملة إلى جانب العربية .

أقسام البربر

البتر والبرانس :

لا يعرف مصدر هذا التقسيم الذي لم يصبح معروفاً إلا بعد الفتح الاسلامي . وقد أجمع علماء النسب فيما ينقله ابن خلدون على أن البربر يجتمعون في جدين هما برنس ومادغيس الأبتر ، وإليهما تنسب الأمتان . ويرَى ابن حزم أن برنس والأبتر من أب واحد هو كنعان بن حام ، بينما يرَى بعض نساب البربر وبينهم سابق المطماطي أن البرانس وحدهم من نسل كنعان ، بينما البتر ينتمون إلى بُرّ بن قيس بن غيلان بن مضر . ويرفض «Gautier» هذه النظريات جملة ويرَى أنه لا وجود لبر ولا مادغيس ولا الابتر ، والواقع أن هذا تطرف من جانبه . فإن حفظ الانساب مما اختص به العرب والبربر على السواء . فمن الأحسن التحفظ ازاء مثل هذه

النظريات عوض رفضها من غير مناقشة ، بل إن طيراس قد نوه بجهود ابن خلدون في محاولته ارجاع البربر إلى أصول معينة .

والظاهر أن تقسيم البربر إلى بتر وبرانس ليس من وضع ابن خلدون وانما هو من وضع نسابة العرب والبربر .

ويفهم من كلام ابن خلدون أن البتر يوجد بينهم مجموعة كبيرة من المستوطنين والذين يجمعون بين حياة التنقل والاستيطان وقد عاشوا بعيدين عن مدنية قرطاجنة وروما ، وتشكل نفوسة ولواتة نصف عدد البتر ، ومقرهم الأصلي طرابلس . وكان اللواتيون يعيشون في ناحية برقة . ومن المحتمل أن الاغريق حرفوا لفظ لواتة إلى ليبيا فيما يستنتجه كوتيي ، وتنتمي زناتة أيضا إلى البتر .

والبرانس هم بدورهم يجمعون بين الحياة الحضرية وحياة التنقل حسب قبائلهم ومواطنهم ، فهناك جماعات منهم قطنت السهول وتأثرت بالحضارة الرومانية . وجماعات أخرى عاشت عيشة البداوة كملثمي صنهاجة .

أما الخلاف الذي سجله بعض المؤرخين ، بين البتر والبرانس ، فهو ليس خلافا بين هاتين الكتلتين العظيمتين ، وإنما هو خلاف كان ينشأ بين بعض قبائل الفريقين لأسباب تتصل بالسياسة والحياة الاجتماعية أكثر مما تتصل بنزاع عنصري . وهل نشأ نزاع خطير بين البتر والبرانس قبل الفتح الاسلامي ؟ فدخول العرب نشأ عنه محالفة زناتة البترية لهم لأن عدداً من رؤسائهم أسلم على يد عثمان الذي أبقاهم في مناصبهم رؤساء في قومهم فحفظ الزناتيون هذه النعمة لبني أمية حتّى النهاية . أما صنهاجة البرانس فقد تقربوا إلى أهل البيت بما فيهم الفاطميون والأدارسة والعباسيون من غير أن يهدفوا بذلك إلى الوقوف ضد زناتة ولو أنه لا يمكن أن ينكر انتساب صنهاجة إلى العرب .

والبتر يتكونون من عدة قبائل أشهرها زناتة ومديونة ولواتة وصدينة وزواوة وزواغة ونفزة ونفوسة ومغيلة ومطغرة ومطماطة .

وأغلبية البتر يقطنون الصحراء والمناطق الرعوية ابتداء من طرابلس إلى تازا . وبعضهم ينزل نجود طرابلس وجبال الأوراس .

أما البرانس فمنهم صنهاجة وكتامة وأوربة ومصمودة وهسكورة وجزولة ولمطة وعجيسة .

ويشكل البرانس أكثر من نصف البربر ، وهم ينزلون في جبال الأطلس الكبير إلى المحيط الأطلسي كما يوجدون في وسط الجزائر وجنوبها .

أما القبائل التي لمع اسمها في تاريخ الفتح الاسلامي فهي أوْربة التي قامت على سواعدها دولة الادارسة ثم زناتة وصنهاجة والمصامدة . والبرانس على كل حال ، أكثر احتكاكا بالحضارات القديمة من البتر ، ولكن الفضل في نقل الحضارة الأندلسية في صورتها النهائية إلى المغرب يرجع إلى زناتة البتر .

زنـاتـة :

تنتمي هذه المجموعة إلى البتر كما تقدم ، وقد هاجر قسم منهم إلى الشمال الافريقي ابان العصور التاريخية . وقد لاحظ ابن خلدون وجوه الشبه بينهم وبين العرب من الوجهة الاجتماعية حيث يسكنون الخيام ويركبون الخيل والابل وينتقلون بخيامهم من مكان إلى آخر ، فكانوا يقضون الصيف في التل والشتاء في الصحراء ولا يخضعون لحكم قار وتعتبر زناتة أكثر قبائل البربر قابلية للتعريب نظرا لاحتكاكهم المستمر بالعرب ، ولكن طبيعة التنقل والحياة البدوية التي فطروا عليها مما أبعدهم عن العناصر البربرية الأخرى التي كانت أكثر قابلية للتمدن والاستقرار كالمصامدة مثلا .وهكذا فإن القرن الرابع الهجري شهد المغرب خلاله صراعا مريرا بين النزعات الزناتية المختلفة ، دون أن تتمكن احداها من اقرار حكومة منظمة تشمل بنفوذها كل مناطق المغرب . ومما يؤكد وجود صلة متينة بين العرب وزناتة أن المرينيين قربوا اليهم البدو والمهاجرين أكثر مما قربوا اليهم سائر العناصر القاطنة بالمغرب .

وتتفرع زناتة إلى بطون عديدة ويبدو أن طلائعهم هاجرت من ليبيا وجنوب تونس منذ الفتح الاسلامي واستمرت هجراتهم إلى المغرب متصلة بضعة قرون . ويمتاز الزناتيون بمهارتهم في فن الفروسية الذي اكتسبوه بفضل حياة الترحل المستمر .

وكانوا في القرن الثاني الهجري يشكلون ما لا يقل عن ثلثي سكان المراعي

بافريقيا الشمالية . أما قبائلهم الرئيسية . فهي مغراوة ويفرن ومكناسة . وكلها لعبت دوراً في تاريخ المغرب خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين .

صنهاجة

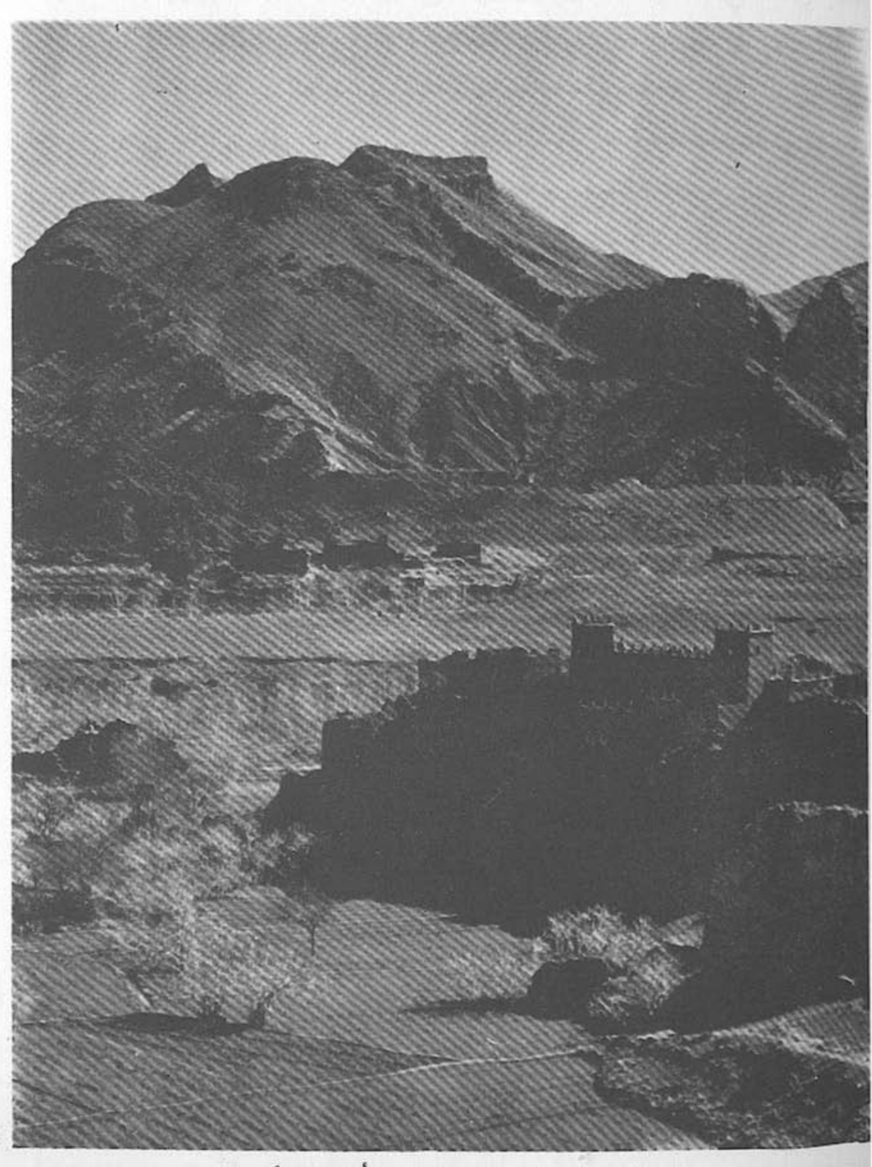
لفظ «صنهاجة» تحريف عربي للفظ «ازناكان» البربري . ويتكون صنهاجة من فريقين رئيسيين ، أحدهما المستوطنون وهم كتلة القبائل الجزائرية الذين توجد مواطنهم على الحدود الغربية لما كان يسمَّى بنوميديا الرومانية ، ثم الرحل ، ولغتهم شبيهة بلغة القبائل ، ومجموعاتهم الرئيسية هي جزولة ولمطة ولمتونة . ومواطنهم الصحراء الغربية ابتداء من المغرب إلى السينغال . وتنتمي صنهاجة في مجموعها إلى البرانس . وهم مؤسسو الدولة الزيرية ودولة المرابطين ، وقد تقدم أن نسابة العرب وصنهاجة ، يردون صنهاجة إلى أصل عربي .

وتنتشر صنهاجة انتشاراً عظيماً في الشمال الافريقي خصوصاً الجزائر والمغرب . ومواطنها في الجزائر ما بين المسيلة وميلة . وفي المغرب من تازا إلى الغرب . ويوجد قسم منها في منطقة الريف بالإضافة إلى الواحات الصحراوية . وعلى العموم فإن صنهاجة المغرب يشكلون فريقين : الرعاة المتنقلون ، والمستوطنون . وأهم مجموعاتهم بهذه البلاد تتكون من زناكة الذين يشغلون منطقة الأطلس المتوسط حتَّى بني ملال . وقد تحولوا تدريجيا من الحياة الرعوية إلى الاستيطان .

مصمودة :

من البرانس المستوطنين المتحضرين ، وكانوا يؤلفون معظم سكان المغرب أيام الفتح الاسلامي . حيث كانوا يشغلون أكثر المناطق الجبلية وسهول المحيط الأطلسي ، ويعتبر الاطلسان الصغير والكبير موطنا للمصامدة اليوم وبينهم الشلوح . أما كتلهم الرئيسية القديمة . فثلاث : برغواطة الذين كانوا يشغلون ما بين نهر أبي رقراق وأم الربيع . وغمارة الذين يقطنون منطقة الريف وجبالة . ثم دكالة فيما بين نهر أم الربيع ونهر تانسيفت الذي تشغل ركراكة سهوله . وقد أنشأ المصامدة مدناً وقرَى عديدة وتعاطوا الفلاحة التي لاتزال مهارتهم متجلية فيها في منطقة الشلوح . وساعدهم على ذلك إتقانهم لشؤون الري كما سنرَى ذلك في دولة الموحدين .

وقد استمرت سيادة المصامدة على المغرب إلى ظهور الزناتيين على المسرح السياسي في القرن الثالث حيث اكتسحوا بلادهم . وكان مقدمهم آنذاك من المغرب الأوسط . ومنذ ذلك الحين أخذ المصامدة ينحازون إلى المناطق الأطلسية . وقضَى الملثمون على برغواطة منهم . كما تم تعريب دكالة على أيدي دولة الموحدين نفسها . فالشلوح إذا يمثلون اليوم في ناحية السوس نموذجا حياً لرقي المصامدة .



قرية بربرية عند سفوح الأطلس الكبير

الفينيقيّــون

ينتسب الفينيقيون فيما حققه كثير من المؤرخين إلى العنصر السامي الذي ينتمي إليه العرب والعبرانيون وغيرهم . وقد استقر الفينيقيون منذ عهد قديم في لبنان الحالية ، وكان وطنهم يومئذ يدعَى بفينيقيا ، وساعدهم خشب الأرز الذي كانت أشجاره تغطي لبنان . على صناعة السفن . وقد انشأوا عدة مدن استقلت كل منها عن الأخرى . كصور وصيدا وبيروت وعكا . وأهم مصادر التاريخ الفينيقي التوراة والنقوش الأشورية والمصرية وما كتبه عنهم بعض الرومان والاغريق . ومن ملوكهم حرم الذي كان حليفاً لداوود وسليمان عليهما السلام . وكان النزاع والتنافس على السيطرة شديداً بين المدن الفينيقية قصد احتكار الأسواق التجارية . كما كان النزاع أشد فيما بين طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء التي كانت تتألف من الجنود والبحارة وغيرهم . وأدَّى ذلك إلى هجرة بعض الأحزاب المنهزمة كما فعل سكان صور الذين هاجروا إلى افريقية حيث أنشأوا قرطاجنة .

وبفضل احتكاك هذا العنصر النشيط بالمصريين والايجيين ، تفوق في ميدان التجارة العالمية وأنشأ كتابة خاصة تعتبر مصدراً للكتابة العربية ، وهكذا كان منهم تجار وصيارفة وبحارة وصناع ومهندسون .

ويشكل تاريخ الفينيقيين ثلاث مراحل :

1 — عصر صيدا التي تمكنت من إنشاء مراكز تجارية في مصر باتفاق مع الفراعنة ، كما امتدت تجارتها عبر بلاد البحر المتوسط ، وبلغت أوج نشاطها بين ق 15 و13 قبل الميلاد ، وكان ضمن المواد التجارية التي تصدرها التماثيل والحلي والثياب . وقد وصلوا في مغامراتهم التجارية إلى البحر الأسود والقوقاز ، حيث كانوا يحصلون على المعادن والرقيق .

2 — عصر صور التي خلفت صيدا في احتكار الأسواق التجارية من القرن العاشر إلى السادس ق.م خصوصاً في غرب البحر المتوسط . وقد انشأ الصوريون

مستعمرات في سواحل الغال كما انشأوا باليرم بصقلية واسواقاً بالجزر الشرقية وسردينيا . وأخيراً أسسوا قرطاجنة بتونس وقادس بالأندلس .

وقد سقطت صور في أيدي الاشوريين في القرن السادس ق.م بسبب اطماع هؤلاء في ثروات سكان صور . وبذلك تحول مركز الحضارة الفينيقية إلى قرطاجنة التي نسبت إليها مدنية جديدة في الشمال الافريقي .

إن أهم حدث في تاريخ الانسانية هو اختراع الفينيقيين للخط الذي تفرعت عنه مختلف الخطوط العالمية من عربية ولاتينية وعبرانية وإفريقية وغيرها .

والظاهر أنه كان للفينيقيين أدب يتضمن على الخصوص أشعاراً ملحمية ودينية بدليل بعض النقوش التي اكتشفت في قرطاجنة . أما عبادتهم فكانت تدور حول تقديس مجموعة من الآلهَة كبعل وعشتروت وأناة مع بعض الطقوس القاسية التي كانت تجري تحت إشراف الكهنة الذين كانوا يؤلفون طبقة خاصة .

وقد ظهر الفينيقيون في سواحل المغرب حوالي القرن الخامس عشر ق.م وذلك بعد أن أجلاهم العبرانيون سكان فلسطين نحو الشواطئ[1] . ويحيط الغموض بالمراكز التي أنشأوها في شمال المغرب ، ولكن أهم هذه المراكز فيما يظهر مستعمرة طنجة التي كانت موجودة قبلهم على شكل مجموعات من المساكن . وقد وجدت نقوش كتابية منذ سنة 530 ب م في عمودين فينيقيين . ويقول مؤرخ إسباني إن هذين العمودين قد وجدا في «طنجة البالية» كما عثر على قبور في تل مرشان ، محفورة في الصخر ، وهي شديدة الشبه بقبور العهد الليبي الفينيقي .

واكتشفت مسلة فينيقية منحوتة من حجر جلب من محاجر رأس سبارتيل .

---

(1) بدأ الفينيقيون قبل استقرارهم بالسواحل المغربية بالقيام بغزوات بحرية . وكانت تجارتهم في البداية بضائع خفيفة . (انظر : Tarradell, Marruecos Púnicos, p.212)



كان الكبش من معبودات القرطاجنيين وهذا رسم يمثله وقد اكتشف قرب فيجيج .



من نقوش شالة الرومانية وشالة أسسها الفينيقيون

طُنجة الحديثة . ذات الأصل الفينيقي

القرطاجنيّــون

814 ــ 146 ق م

نشأة قرطاجنة – دور العظمة – دور الضعف والحروب البونيقية – أهمية اعمال القرطاجنيين – الحياة الدينية – نظام الحكم والادارة – الحياة الاجتماعية والحياة الاقتصادية – العمارة والفن – الحياة الفكرية .

نظـرة عامــة

ينتمي القرطاجنيون إلى الطبقة الأرستقراطية القادمة من صور تحت قياد أميرة تدعَى أليسا أخت ملك صور بكماليون ، وذلك سنة 800ق م . وقد قدم القرطاجنيون أفواجاً متتابعة إلى افريقية حيث أنشأوا مدينتهم العظيمة قرطاجنة .

نشأة قرطاجنـة :

تقع المدينة على خليج تونس عند رأس يمكنها من مدافعة الاعداء ومراقبتهم عن كثب . وهي إلى ذلك تتوسط البحر الأبيض المتوسط مما يزيد في أهميتها الجغرافية والتجارية . وقد تقاطرت عليها أفواج الفينيقيين من صقلية واسبانيا وافريقيا ، مما جعل سكانها يتكاثرون حتّى أصبحت تكون أمبراطورية بإضافة المستعمرات التابعة لها . وتمكنت مع ذلك من التغلب على منافسة الاترسك والاغريق حتّى قضَى عليها الرومان في القرن الثاني ق م . وفي أوائل نشأة قرطاجنة كان الفينيقيون يؤدون ضريبة سنوية للقبيلة الليبية التي كانت تملك الأرض التي أقيمت عليها المدينة . ثم أوقف القرطاجنيون هذه الضريبة وأعلنوا الحرب على القبيلة المذكورة وبسطوا إلى ذلك سلطتهم على الأراضي الساحلية المجاورة حتّى يتمكنوا من ضمان تزويد أهل قرطاجنة بالأقوات الضرورية . وهكذا أنشأوا في هذه النواحي مستعمرات فلاحية لزراعة القمح وغرس أشجار الزيتون والكروم وتربية الماشية .

دور العظمة :

ظهر في قرطاجنة خلال القرن السادس ق م قائد عسكري ممتاز يدعَى مالشوس «Malchus» الذي قاد حروب القرطاجنيين في صقلية وسردانيا وافريقيا ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على الحكم في قرطاجنة بعد محاولة فاشلة . ثم تولت قيادة الدولة عائلة «Mogen» خلال قرن من الزمن نشأت فيها حروب طاحنة بين القرطاجنيين والاغريق الذين حاولوا التوسع خارج بلادهم وآسيا الصغرى التي كانت تحت نفوذهم . وهكذا أنشأوا بدورهم مستعمرات في صقلية وشبه الجزيرة الايبرية وسردانيا وكورسيكا ، ولكن القرطاجنيين طردوهم من هاتين الجزيرتين ثم انهزموا أمامهم في معركة حيمير «Himère» سنة 480 ق.م.. وقد نعم القرطاجنيون بعد ذلك بفترة من السلم استغرقت ثلثي قرن . ثم ظهر بينهم شخصيتان مغامرتان هما حيميلكون وحنون (Hannon - Himilcon) أما الأول فقد ذهب في رحلة اكتشافية إلى سواحل المانش وبريطانيا ومنابع الرين . وأما الثاني فقد صار في غزوة طويلة تعميرية ينشئ المدن على سواحل البحر المتوسط الغربي ويصحبه جيش مؤلف من 30 ألف مقاتل وبينهم عدد من النساء ، وحظي المغرب باهتمامه . فأنشأ على سواحله عدة مراكز حتَّى وصل إلى السنيغال وغينيا ، ولقد اشتهرت هذه المغامرات بطواف حيميلكون وحنون[1] .

ثم استأنف القرطاجنيون والاغريق الحرب في صقلية في أواخر القرن الخامس واستمرت إلى القرن الرابع ق.م حيث تولى الحملة ضد قرطاجنة القائد الاغريقي أغاطوكل «Agathocle» الذي أحرق بواخر اعدائه في رأس بون سنة 310 ق.م وحاصر قرطاجنة نفسها بينما كان القرطاجنيون يحاصرون بدورهم سرقوسة . عاد القائد الاغريقي ليخلص سرقوسة ثم كر من جديد على افريقيا الشمالية من غير طائل ، وأخيرا اضطر إلى عقد هدنة مع القرطاجنيين ، استمرت إلى وفاته سنة 289 ق.م ، ثم استأنفت الحرب ضد القرطاجنيين من غير أن ينال منهم الاغريق شيئا .

على أن الاغريق مع هذا استطاعوا أن يحتكروا في النهاية بعض الأسواق التجارية التي كان يحتكرها قبلهم القرطاجنيون خصوصاً في صقلية . بل ان الاغريق

(1) انظر بشأن طواف حنون :
— Tarradell, Marruecos púnicos, pp. 241-250
— Dureau et Yanoski, Afrique, p. 198
— Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord, p. 44
— Carcopino, Le Maroc antique, pp. 73-162

قد أثروا ثقافياً في القرطاجنيين بفضل احتكاك هؤلاء بهم وتفوق الاغريق في النشاط الفكري . وفقدان هذه الاسواق بل وخطر الرومان جعل القرطاجنيين يتجهون إلى الجزيرة الايبيرية التي كانوا قد استولوا فيها من قبل على ناحية قادس . وقد توبع فتح الجزيرة على يد أملكار «Amilcar» في مطلع القرن 3 ق.م . حتَّى إذا مات سنة 228 ق.م خلفه Asdrubal الذي أنشأ مدينة قرطاجنة جنوب شبه الجزيرة فأصبحت عاصمة الفينيقيين في هذه البلاد .

دور الضعف (الحروب البونيقية) :

لم يكن القرطاجنيون محاربين بطبيعتهم . فقد كان استيطانهم للبلاد تجارياً اقتصاديا ولم يكن سياسياً أو حربياً . فكانوا يحصلون على الجند من المرتزقة في بلاد مختلفة ويسرحونهم حالما تنتهي الحرب . وكانوا يعتمدون على الغزو البحري نظرا لتفوقهم في إنشاء الأساطيل . حتَّى إذا ما بدأ الرومانيون يعملون على التوسع والسيطرة العالمية . كونوا أساطيل ضخمة ليمكنهم بواسطتها القضاء على قوة القرطاجنيين البحرية . فبدأوا بمهاجمتهم في صقلية سنة 264 ق.م واعدوا العدة لقتالهم في افريقيا الشمالية . فطردوهم بقيادة قائد اغريقي هو «Xanthippe» ثم استؤنفت الحرب في حوض المتوسط حتَّى اضطر القرطاجنيون إلى تسليم صقلية للرومان سنة 241 ق.م . وبينما انشغل الأولون بشغب أحدثه المرتزقة في قرطاجنة . انتهز الرومان الفرصة للاستيلاء على كورسيكا وسردانيا . وفي هذه الأثناء تولى قيادة الجيش القرطاجني في اسبانيا هانيبال بن أملكار . وهو أحد كبار قادة قرطاجنة . وكان يحقد على الرومان الذين أنذروا سلفه أسد روبال أن لا يتجاوز ما استولى عليه القرطاجنيون في إسبانيا من قبل . وقد تحدَّى هانيبال هذا الانذار واستولى على بعض مراكز الجنوب ثم قام يحارب الرومانيين في عقر دارهم متخطيا جبال البرانس وجبال الألب الشاهقة . ومضحيا في ذلك بمئات من جنوده وفيلته وهم بمحاصرة روما لولا أن الرومانيين استعدوا لحربه في افريقيا بقيادة سيبيون Scipion الذي استمال عدداً من أمراء نوميديا خصوصاً ماسينيسا «Massinissa» ولم يتمكن من استمالة صيفاقس «Syphax» الذي رفض مساعدتهم بايحاء من زوجته القرطاجنية .

ثم قدم هانيبال من ايطاليا وأخذ يناضل الرومان الذين قهروه بسبب غدر النوميديين . ثم اضطر إلى تسليمهم اسبانيا والتنازل لهم عن عدد من مستعمرات قرطاجنة في الشمال الافريقي . ولكنه في نفس الوقت بدأ يعمل على تقوية قرطاجنة

بالسلاح والتنظيم . وكان الحزب المعارض لسياسته يتقرب إلى الرومان . حتَّى إذا شعر بأنه سيسقط بين أيدي اعدائه هاجر إلى سوريا ثم طارده الجواسيس الرومان فتجرع كأس سم ليتخلص منهم سنة 183 ق.م .

وفي هذه الأثناء كان ماسينيسا يتوسع لحسابه الخاص بضم بعض مستعمرات قرطاجنية إلى نفوذه . حتَّى إن قرطاجنة اعترفت بنفوذه هذا وأصبحت تؤدي إليه جزية سنوية باهظة . وكانت فكرة ماسينيسا تهدف إلى التخلص من كل سيطرة أجنبية . وأذهلت فتوحاته روما التي فضلت مع ذلك أن تقضي نهائيا على قرطاجنة . وهكذا اعدت جيشا ضخما في سنة 149 ق.م وحاصرت به قرطاجنة التي استنجدت بالنوميديين وكان جيشها لا يقل عن 80 ألف مقاتل واقتحم الرومان المدينة سنة 147 بقيادة Scipion Emilian بينما كان أسد روبال يقود القرطاجنيين الذين قاوموا اعداءهم داخل المدينة لمدة سبعة أيام . وأخيراً استسلمت قرطاجنة ، ولكن الرومان دمروها سنة 146 ق.م ، وبذلك تم القضاء سياسياً على أمة من أعظم شعوب الأرض مدنية . وهذه الحروب المتوالية بين الرومان وقرطاجنة تدعَى بالحروب البونيقية التي تشكل حلقات ثلاثاً : الأولى (264 ــ 241 ق.م) والثانية (219 ــ 201 ق.م) والثالثة (149 ــ 146 ق.م) .

أهمية أعمال القرطاجنيين

كان تأثير القرطاجنيين في حياة البربر العامة قوياً بسبب سلوك سياسة المسالمة التي انتهجها القرطاجنيون والتي نتج عنها احتكاك أخوي بين عنصرين يتشابهان من حيث طباعهما الشرقية[2] . وهكذا تناول هذا التأثير القرطاجني وجوه النشاط الاجتماعي والفني والاقتصادي إلى جانب الحياة الدينية . وقد قام القرطاجنيون بأعمال عمرانية كثيرة على طول سواحل المغرب من شرقي مليلية إلى حدود السنغال .

والتأثير البونيقي واضح في الميدان اللغوي حيث الصلة قريبة بين البربر والقرطاجنيين الذين ترجع لغاتهم جميعا إلى أصول سامية . ومن الطبيعي أن يكون التأثير البونيقي في تونس ثم في الجزائر أقوَى منه في المغرب وإذا كان حكم القرطاجنيين مباشراً في تونس . فإنه يفقد هذه الصفة خارجها حيث كان لقرطاجنة بين بربر المغرب والجزائر حلفاء يمدونها بالجند في ساعة الحرب ويباشرون الحكم

(2) انظر بشأن علاقة الأهالي بقرطاجنة : Dureau et Yanoski, Afrique, pp. 192-193

بأنفسهم في ممالكهم . بل إن بعض رؤساء نوميديا صاهروا البونيقيين الذين عملوا على استمالتهم بهذه الطريقة . ومن ملوك البربر المغاربة الذين اشتهروا في عهد القرطاجنيين بكار «Bokkar» الذي حكم المغرب في مطلع القرن 3 ق.م ولكنه لم يلبث أن أصبح تابعا لماسينيسا النوميدي بعد أسر صيفاقس . وكانت طنجة يومئذ عاصمة المغرب .

الحياة الدينيـة

لم يكن للقرطاجنيين دين خاص مستحدث . فقد استمدوا طقوسهم من الكلدان . وهي تمتاز بتضحيات قاسية . وكان لكل مدينة إلهها «بعل» الذي يقدم إليه عباده أولادهم إذا لزم الأمر، وكانت الأمهات يحضرن بزينتهن عند تقديم أبنائهن للقتل . وكل ذلك إرضاء لبعل الذي يغضب عندما يعصي القرطاجنيون أوامره .

والواقع أن القرطاجنيين كانوا شديدي التدين . حتَّى لقد كان عظماؤهم يفاخرون بما يقدمونه إلى آلهتهم من ضحايا بشرية . ومعظم أسمائهم ترتبط بالديانة مباشرة . فأملكار بمعنَى خادم الاله «Melquart» وهانيبال[3] بمعنَى الذي يحظَى برعاية بعل وهكذا .

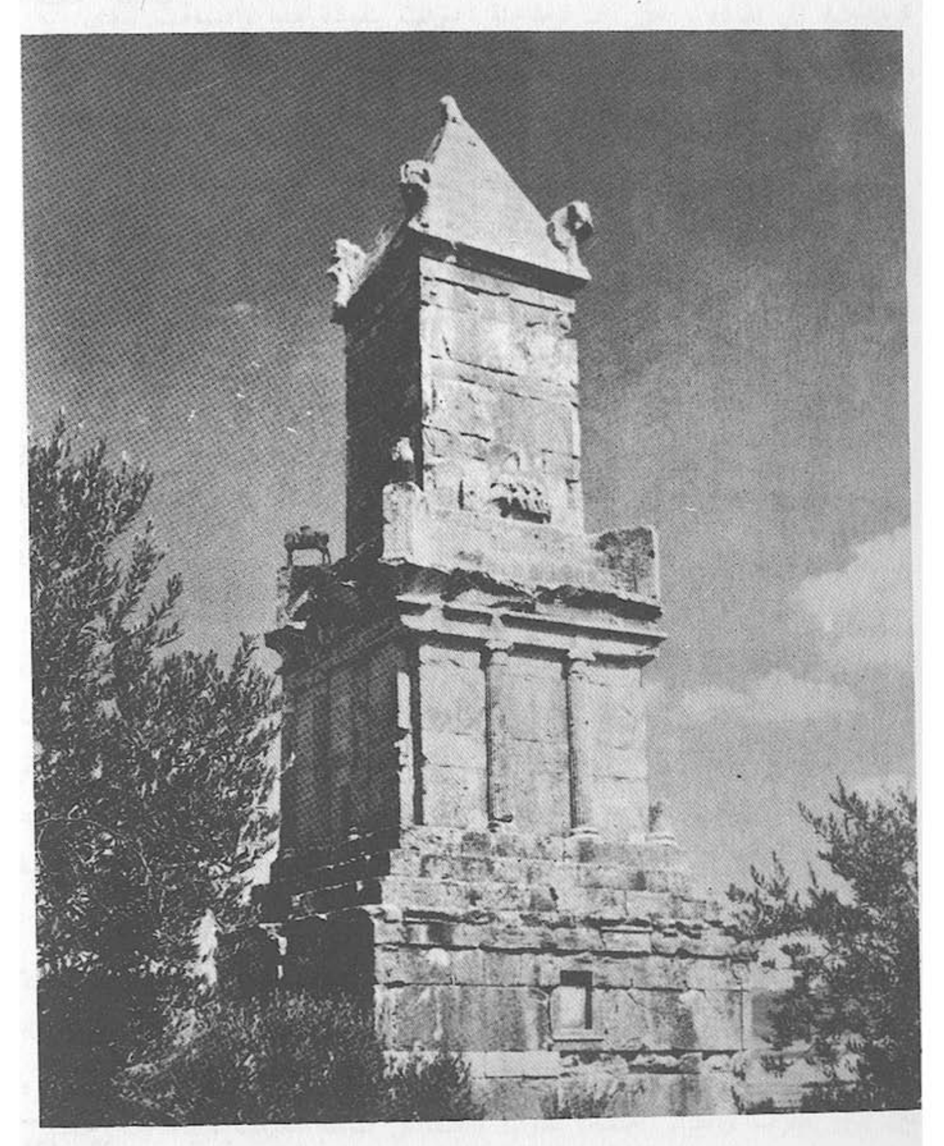
ولمقابر القرطاجنيين التي عثر عليها . فضل كبير في التعرف على حياتهم الدينية . ولسوء الحظ لا نكاد نعرف شيئاً عن معتقداتهم حول الآخرة . ولكنهم كانوا شديدي العناية بدفن موتاهم الذين كانوا يضعونهم في نعش من خشب أو رخام ثم يقبرونهم في قبور منحوتة في حجر الطباشير . ويتوصل إلى القبور بواسطة آبار عميقة . ثم بدأوا يحرقون موتاهم ابتداء من القرن 4 ق.م ولكنهم ظلوا يقبرونهم في قبور عميقة .

وإذا كان بعل أكبر آلهة قرطاجنة . فقد كان هناك آلهة ثانويون متعددون ككافون «Gafon» وعشتروت «Astaroth» وإشمون «Eschmoun» وكان إيمان القرطاجنيين بالسحر شديدا . فقد كانوا يدفنون مع موتاهم مجموعة من التمائم والأقنعة وغير ذلك .

---

(3) والأصح حانيبعل

ومن الصعب أن نعرف بالتحديد مدَى التأثير الديني للبونيقيين في البربر . غير أن بعض آلهتهم كانت موضع تقديس من لدن البربر . خصوصا تانيت وبعل وبين «Bene» وبعل عمون الذي هو إله مزدوج يمثل عمون الليبي (وهو ذو رأس يشبه رأس كبش) مع بعل إله الفينيقيين في كل من صور وقرطاجة .



ضريح دكا البونيقي بتونس

حضارة القرطاجنيين

1 - نظام الحكـم والادارة

طيلة أيام الحكم القرطاجني في الشمال الافريقي لم تكن هناك تأثيرات خارجة عن النطاق البونيقي . فعاش البربر والحالة هذه في شبه عزلة عن العالم الخارجي وخصوصاً عن دول الشرق ذات المدنية الراقية . وقد كان القرطاجنيون يحكمهم ملوك أو حكام تساعدهم حكومة من كبار الموظفين المنتمين إلى عائلات معينة . وكان الملوك أو الحكام يدعون بـ «Suflètes» أما الحكومة فكانت تتألف من مجلس الشيوخ الذي كان له الحق في اعلان الحرب أو السلم . كما حدث بالنسبة للحروب البونيقية واستسلام قرطاجنة . بل ربما كان هناك مجلس آخر للنواب على ما يظن . ظهر في أثناء القرن الثاني ق.م . وكان مجلس الشيوخ يقرر الضرائب اللازم استخلاصها . كما يصدر التشريعات القانونية ويشرف على تعمير المدن وانشاء الموانئ .

ولا يلقي التاريخ ضوءا كافياً على مدى اقتباس البربر من هذا النظام الشبيه بالديمقراطي . ومع ذلك . فإن الروح القبلية ظلت تسيطر على مجموع البربر . ولو أنها لم تتضح (في التاريخ على الأقل) إلا بعد الفتح الاسلامي . ومهما يكن من شيء . فإن البربر عاشوا في أغلب أيام القرطاجنيين يشكلون إمارات أو جمهوريات مستقلة ترتكز قبل كل شيء على النظام القبلي الذي يتسم من الوجهة السياسية بروح الديموقراطية . حيث لا حكم ولا قرار إلا للجماعة . أما الرئيس فهو رجل النصيحة والتوفيق بين الآراء .

2 - الحياة الاجتماعية

كان لباس القرطاجنيين يتكون من قميص طويل وطاقية شبيهة بالطربوش بالإضافة إلى برنوس أحيانا وكانت لحاهم متوسطة الطول وقد يصبغونها إذا ابيضت . أما شعر رؤوسهم فكان قصيرا . وكانوا يستعملون الكحل والحناء للزينة .

وكان للأب في الأسرة القرطاجنية السلطة المطلقة على سائر أفرادها ، ومع ذلك فقد كان الرجال يحترمون مكانة المرأة التي كان في إمكانها أن تتولى بعض المناصب الدينية . بل كان لبعض القرطاجنيات مقام سياسي رفيع كزوجة أسدروبال .

وكان القرطاجنيون يرسلون أبناءهم إلى المراكز التجارية الخارجة عن قرطاجنة ليتعلموا فن التجارة وقد يسر لهم الاحتكاك بشعوب مختلفة . تعلم عدة لغات . وكانت الطبقة الحاكمة تتكون من الارستقراطيين يليهم في المقام الاجتماعي طبقة التجار فالعمال والصناع الذين كانوا يشكلون نقابات أو «حناطي» كالتي لانزال نرَى لها نظيرا في . المغرب .

وكانت عوائدهم شرقية في مظهرها وجوهرها كما قرر ذلك كل من Gautier و Gsell . وكانوا يحرمون أكل الخنزير ويتناولون طعام الكسكس . كما كانوا يعاملون الرقيق معاملة طيبة ويسمحون لهم بانشاء أسر خاصة وكانوا يرسمون يدا بشرية على أبوابهم لتقيهم من «العين» على غرار ما يفعله حتّى الآن بعض العوام بحذوة النعل .

ومن هذه المعلومات الوجيزة عن حياة القرطاجنيين الاجتماعية نعرف مخلفاتهم في حياة المجتمع البربري من حيث الزي ومكانة المرأة والطعام والعوائد[1] .

3 – الحياة الاقتصادية

شغلت التجارة معظم النشاط الاقتصادي القرطاجني . فقد كان التجار القرطاجنيون منبثين في كل أنحاء آسيا وفي قسم كبير من سواحل افريقيا وأوربا . وهكذا كانوا يجلبون من الجزر الاغريقية الرخام والصدف والنحاس ومن مصر الكتان والقطن والخيل . ومن اسبانيا المعادن والقمح . ومن الهند أنواع الخشب الممتاز والاحجار الكريمة والعاج والبقول ومن شبه جزيرة العرب أنواع العطور .

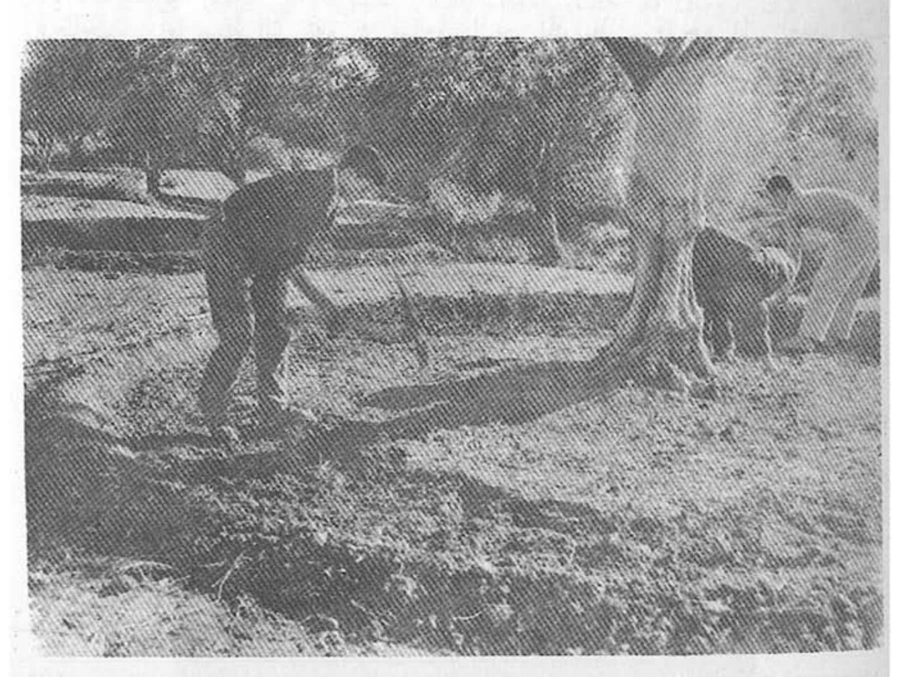
وكانت تجارتهم عن طريق البحر بواسطة البواخر . كما كانت تتم عن طريق البر بواسطة القوافل . وقد بدأ تداول العملة لديهم في القرن الرابع ق.م . وكانوا يصدرون بدورهم المنسوجات والأسلحة والخمور والأواني الزجاجية والمعادن الثمينة . كما كانوا يتعاطون تجارة الرقيق التي كانت من أهم أنواع تجارتهم . وكان الرقيق

(1) انظر بشأن النظام الاجتماعي الوطني : Tarradell : Marruecos púnicos, p.272...

يجلب على الخصوص من ايطاليا والحبشة والقوقاز . وذلك لتزويد عظماء وأمراء الشرق والشمال الافريقي بما يلزمهم من خدم .

وكان للقرطاجنيين مصانع تجمع عدداً كبيراً من العمال للقيام بانتاج يسد الحاجيات المحلية والخارجية . وكانوا يقلدون المصنوعات المصرية وينتجون الملابس وأنواع الآلات الزجاجية والحلي وصبغة الانسجة التي برعوا في زخرفتها وتلوينها الصناعي مما اكسبها شهرة ظلت خالدة حتَّى بداية الفتح الاسلامي . ونظراً لطبيعتهم التجارية التي ترغبهم في الكسب السريع . لم تكن منتجاتهم الصناعية في جملتها مما يدل على براعة فنية إذ كانوا يهتمون بالزيادة في الانتاج دون مراعاة الاتقان .

وكانوا مع ذلك متفوقين في الزراعة والغراسة . حتَّى ان ماكون وضع أول كتاب في الفلاحة وهو مواطن بونيقي . وقد اهتموا بغرس غابات الزيتون وزراعة القمح والشعير وغرس الكروم والرمان والتين . كما عنوا بتربية الماشية والخيل . وكانت لهم معاصر كثيرة للزيتون .



الزيتون مما أدخله القرطاجنيون إلى الشمال الافريقي

4 – العمارة والفن

لا شك أن أعظم أثر عمراني تركه البونيقيون هو مدينة قرطاجنة التي لاتزال أطلالها شاهدة على هذه العظمة. أما في المغرب فإن من أوائل المدن التي أنشأها الفينقيون مدينة ليكسوس Lix خلال القرن الثاني عشر ق.م بقرب العرائش[2]. وفي القرن 6 ق.م أنشأوا مدينة تينجي التي يحتمل أن تكون طنجة قد أخذت اسمها عنها، إذ لا ريب أن نواة مدينة طنجة عرفت قبل هذا التاريخ، كما أنشأوا مدينة روسادر «Russaddir» بناحية مليلية عند رأس المذاري الثلاث. وثرنكي «Thrinké» التي لا يعرف مكانها[3] ولعلها قريبة من رأس سبارتل وتيمياطيريون «Thymiaterun» عند مصب سبو. وميليطا «Mélitta» بين ليكس ورأس سبارتل. أما أشهر المدن التي ترجع إلى هذا العهد من غير شك فهي سلا التي كانت تأخذ موقع شالة. وهناك مراكز أخرى على المحيط الأطلسي يحيط بها الغموض التاريخي وتعزى إلى حنون ومنها أكرا «Akra» مكان أكلو الحالية. وكاريكون طيكوس «Karikon Teikos» مكان الصويرة حيث اكتشفت نقود قرطاجنية. أما سبتة التي تقع في ساحل البحر المتوسط. فترجع إلى العهد الفينيقي أي إلى ما قبل تأسيس قرطاجنة.

وفيما يخص الناحية الفنية. فقد كان القرطاجنيون مقلدين أكثر منهم مبتكرين. وكانوا يستمدون من الفن الاغريقي والمصري في مبانيهم وأوانيهم الخزفية. ومن أمثلة استمدادهم من الفن الاغريقي ضريح دكا بتونس. أما في الفن المصري فيتمثل التقليد في الأوعية والمصنوعات الخزفية والبرونزية.

فلم يكن هناك إذا فن قرطاجني أصيل أو هندسة أصيلة في البناء. بيد أننا نجهل تماماً مدى التأثير البونيقي في البربر من حيث طريقة البناء. والظاهر أن هذا التأثير كان ضعيفا جداً حيث كانت عناية البربر بالفلاحة أكثر من عنايتهم بأي شيء آخر. ولا ريب أن البربر قد أخذوا كثيرا عن القرطاجنيين في فن الفلاحة الذي كان المورد الأساسي لمعيشتهم.

---

(2) تم بناؤها قبل قادس وأوتيكا، انظر طاراديل، ص Marruecos Púnicos 131

(3) Terrasse. Histoire du Maroc. I. 42

5 - الحياة الفكرية

كانت عناية البونيقيين بالنشاط الفكري تتمثل في ما تركوه من دواوين شعرية وكتب في الفلسفة والتاريخ والفلاحة ومن فلاسفتهم Asdrubal Citomaque ومن المؤرخين Silénos ومن المختصين في شؤون الفلاحة ماكون الذي تقدم ذكره. وقد وجد عدد من مؤلفاتهم في خزائن النوميديين بعد انهيار امبراطورية قرطاجنة والظاهر أن الرومانيين قد استفادوا من هذه المصادر في إعطاء بعض المعلومات عن تاريخ البونيقيين. ولكن أهم مرجع اقتبس منه المؤرخون هو نقوش القرطاجنيين وكتاباتهم في مختلف الآثار.

وقد أجمع المؤرخون على أن أهم المؤثرات البونيقية في البربر هو اللغة الفينيقية التي انتشرت انتشاراً واسعاً بين البربر. حتّى ان رهبان الكنائس في تونس ظلوا يلقون خطبهم بالفينيقية إلى وقت متأخر من الحكم الروماني. كما استمرت هذه اللغة الشبيهة بالعبرانية والعربية لغة التخاطب إلى جانب اللاتينية والبربرية عدة قرون.

وعلى كل حال فمن الصعب أن نعرف مدَى التأثير البونيقي في اللهجات البربرية. لأن الرومان قد حطموا معظم الآثار المكتوبة التي تركها البونيقيون. ثم لأنه لا توجد آثار بربرية ترجع إلى هذا العهد. ويمكن أن تفيدنا بنقوشها الكتابية.



قناع بونيقي

الرومـــان

146 ق م ــ 439 ب م

نشأة الاحتلال الروماني – الملوك الوطنيون – الحكم المباشر – أهمية أعمال الرومان بالمغرب – نظام الحكم والادارة – الحياة الاجتماعية – الحياة الاقتصادية – الحياة الدينية – العمارة والفن – الحياة الفكرية .

نشأة الاحتلال الروماني

لم يعمد الرومان إلى احتلال الشمال الافريقي مباشرة بعد احتلال قرطاجنة بل اكتفوا في البداية بالنواحي المجاورة لها وأصبح القسم المقتطع تابعا للجمهورية الرومانية تحت اسم افريقيا وفصل عن الامارات الوطنية بحدود هي عبارة عن خندق يمتد من طبرقة إلى ناحية صفاقص . وحولت العاصمة الادارية لهذا الاقليم إلى أوتيكا «Utica» شمال تونس ووضع على رأسه حاكم روماني لم يلبث أن أصبح يحمل لقب قائمقام القنصل حوالي سنة 80 ق.م . غير أن هؤلاء الموظفين السامين الذين أسندت إليهم إدارة الاقليم كان همهم الوحيد الاثراء العاجل على حساب المواطنين الأهالي الذين بدأ الشعور بجور الحكام الرومان يتحول لديهم شيئاً فشيئاً إلى ثورات خطيرة . وفي مطلع القرن الثاني كانت الحالة الفلاحية في ايطاليا قد بدأت تسوء . وتعين على الحكومة أن تفكر في حل لمساعدة بعض الفلاحين الفقراء . فعمدت إلى تجزئة مجموعة من الأراضي الزراعية على ستة آلاف فلاح نقلوا من ايطاليا ليستقروا بناحية قرطاجنة . أما المدينة نفسها فقد حرم على السكان الدخول إليها على اعتبار أنها «ملعونة» وقد شكل هذا الفوج بداية عهد الاستعمار المباشر للشمال الافريقي في عهد الرومان . ولو أن هذا الاستعمار لم يتجاوز مناطق محدودة من هذه البلاد .

الملوك الوطنيون

من العبث أن نحاول إعداد تاريخ متسلسل للملوك الذين قاموا بإنشاء ممالك في مختلف اجزاء الشمال الافريقي فالمراجع القديمة التي اعتمدت عليها الكتب الافرنجية لا تقدم الينا تفاصيل مرتبطة الحلقات عن هذه الممالك . ثم إن الآثار التي عثر عليها في شمالي افريقيا لا تعطينا الا معلومات مفككة في جملتها ولو انها دقيقة بالنسبة لبعض الملوك المحليين .

باخوس الأول ويوغورطا

ففي سنة 105 ق.م كان المغرب يخضع لحكم ملك بربري هو باخوس الأول «Bokkos» الذي كان يستقر بطنجة وفي هذا العهد ظهرت شخصية يوغورطا النوميدي الذي كان صهراً لباخوس الأول وملكاً على نوميديا .

ويوغورطا حفيد ماسينيسا ربي في بلاد ميسيبسا ملك نوميديا التي كان شعبها معجبا بذكاء يوغورطا وشجاعته . وكان ميسيبسا «Micipsa» يكرهه لنفس السبب ويخشى أن يستبد بالعرش دون ولديه أدهربال وحيمبسال«Adherbal - Hiempsal» فأقصاه إلى اسبانيا ليحارب هناك مع الجيش الروماني صحبة فرقة من النوميديين بعد أن استنجد به الرومان . ونظراً لشجاعته الفائقة التي نالت إعجاب القائد الروماني Scipion فقد أوعز إلى ميسيبسا بتبنيه . ولم يلبث الملك النوميدي أن قضى نحبه فاستبد يوغورطا بعرش نوميديا وقتل حيمبسال . بينما استنجد أدهربال بالرومان الذين تدخلوا سياسيا بين الأخوين . فأعطوا أكبر قسم من نوميديا ليوغورطا ليحتفظ أدهربال بالباقي . بيد أن يوغورطا ضم إليه القسم الثاني واستولى على صرطة «Cirta» التي قتل فيها أخاه وكل من وجد بها من الرومان . وقد أغضب هذا العمل الحكومة الرومانية التي أعدت له جيشا من أربعين ألف مقاتل ، الا أن مندوب الحكومة سرعان ما عقد هدنة مع يوغورطا الذي التزم بدفع غرامة مالية . ولم يوافق مجلس الشيوخ على هذا التنازل . فاستؤنفت الحرب من جديد رغم أن يوغورطا ذهب بنفسه إلى روما ليعتذر فطرد شر طردة . وقاد يوغورطا الجيش النوميدي يسحق جيوش الرومان الذين اضطروا إلى إعادة النظر في نظامهم العسكري بالشمال الافريقي وأسندوا قيادة الجيش إلى Metellus بينما خرجت بجاية بدورها عن طاعتهم وأتى أهلها قتلا على حاميتها الرومانية . وجند الرومان قوات

هائلة استقدموها من ايطاليا ثم راحوا يخربون بعض القرى والمدن التي خرجت عن طاعتهم. وكان تحت قيادة ميتيلوس ضابط يدعى ماريوس. فتعقب بقواته يوغورطا الذي انسحب إلى الجنوب ثم دخل المغرب مستنجداً بباخوس الأول صهره المذكور سابقا. وإذا كان باخوس هذا قد قدم إليه مساعدات حربية كثيرة من قبل. فقد شعر بالخطر يحدق به وبعرشه بعد دخول يوغورطا إلى المغرب، وفي هذه الأثناء فتح سيلا «Sylla» مساعد ماريوس ومنافسه فيما بعد مفاوضات مع باخوس لتسليم يوغورطا. وأذعن باخوس لتهديد الرومان فدبرت المكيدة ليوغورطا الذي سلم إلى أعدائه سنة 105 ثم حمل إلى روما حيث قتل خنقا في سجنه. أما باخوس الأول فقد ظل وفيا لسيلا حتّى في أوقات نزاعه مع ماريوس. وأضافت روما إلى نفوذه جزءا من المملكة النوميدية.

على أن باخوس قد تعرض ملكه لازمة قاسية بعد ذلك. حيث ان قائدا رومانيا اسمه سيرطوريوس خرج عن طاعة سيلا وهم بفتح طنجة. بينما قام دعي يسمى اسقاليس «Ascalis» وطرد باخوس مغتصبا عرشه ومستنجدا بسيلا الذي أمده بقوة من جيشه. وحينئذ تدخل سيرطوريوس «Sertorius» فهزم جيش سيلا واستولى على طنجة ملقيا بالدعي في غياهب السجون سنة 82 ق.م.

بوغود «Bogud» وباخوس الثاني

في هذه الأثناء مات باخوس الأول حوالي سنة 80 ق.م وذهب سيرطوريوس إلى اسبانيا بينما اقتسم العرش ولداه[1] بوغود وبوخوس الثاني فأخذ الأول القسم الغربي من المغرب بما فيه طنجة وأخذ الثاني القسم الشرقي ابتداء من ضفاف ملوية، وتدخل فيه الجزائر.

وخلال ذلك كانت الحالة في اضطراب شديد بين الجمهوريين والملكيين من الأحزاب الرومانية. كما أن فترة طويلة قد تبلغ أربعين سنة مضت بعد هذا التاريخ دون أن نعرف شيئا مضبوطا عن المملكة المغربية خلالها وان كان المؤرخون يذكرون أن بومبي قد نال تاييد بوغود، وبومبي أحد كبار قادة الرومان، وقد قاد حروبا عديدة في اسبانيا والشمال الافريقي وغيرهما. وقد ناصره بوغود المذكور ضد الملك النوميدي يرباس «Yarbas» ثم ناصر الأخوان بوغود وبوخوس الثاني سيزار «قيصر»

(1) أي ولدا بوخوس الأول

الذي استولى على الحكم في روما بدهائه وفتح بلاد الغال وكان خصماً عنيداً لبومبي الذي تحول عنه الأخوان المغربيان . وبعد حكم دكتاتوري طويل تم اغتيال سيزار في مجلس الشيوخ بروما سنة 44م . فاقتسم حكم الامبراطورية الرومانية وريثه أوكتاف «Octave» ومساعده مارك أنطوان «Marc Antoine» وحينئذ دخل باخوس الثاني في حزب أوكتاف ودخل بوغود في حزب انطوان . ولم يلبث بوغود أن قتل في احدَى مدن اليونان سنة 31 ق.م فضم باخوس إليه مملكة أخيه بتعضيد أوكتاف . فصارت الجزائر والمغرب موحدين تحت حكم واحد .

ويسود الغموض تاريخ باخوس هذا الذي ضم إليه المغرب والجزائر . حتَّى ان «طيراس» قد ذهب به الارتباك إلى أن جعل وفاته أربع سنوات قبل ضم البلدين . ولا يعقل أن يحكم ملك بعد[2] موته ! .

وعلى كل ، فان عرش المغرب قد فرغ بعد موت باخوس هذا . فتم لأوكتاف السيطرة على الشمال الافريقي بواسطة الملك النوميدي جوبا الثاني الذي كان بوغود وبوخوس خصمين لوالده جوبا الأول . وهكذا أنشأ أوكتاف مجموعة من المستعمرات شمال المغرب جهة وادي سبو .

جوبا الثاني (نظام الحماية)

كان جوبا الثاني كما تقدم ولداً لجوبا الأول الذي كان ملكاً لنوميديا . وكان على قدر وافر من الثقافة فقد تزوج كليوباطرة ابنة كليوباطرة المشهورة . وقد تربت في حجر أوكتاف الذي بدأ يحمل لقب أوغسطس ابتداء من سنة 25 ق.م واستمر جوبا الثاني في الملك تحت حماية الرومان حوالي نصف قرن . ولكن كانت أيامه عهد استقرار وهدوء حتَّى توفي سنة 23م . ويعتقد «كاركوبينو» أن جوبا الثاني قد اتخذ من «وليلي» عاصمة له .

بطوليمي Ptolémée (نهاية نظام الحماية)

خلف بطوليمي جوبا الثاني ، وفي عهده ظهر ثائر نوميدي هو تاكفاريناس الذي فر من الجيش الروماني سنة 17 وبسط نفوذه على قبيلة « مسلمة Musulames ؟» التي كانت مواطنها بين قفصة والأوراس ثم هاجم الجيوش الرومانية بحيدرة . غير أن

(2) Terrasse, Hist. du Maroc. T1. PP.49 et 50.

الحاكم الروماني بالشمال الافريقي وهو فوريوس هزمه ثم أعاد الكرة بعد بضع سنوات ، وهزم جيوش الرومان بدوره عدة مرات حتَّى قتل بالجزائر . وفي هذه الفترة الخطيرة من تاريخ الاحتلال الروماني لافريقيا . ظل بطوليمي سائراً على سياسة المسالمة التي سلكها قبله حيال الرومان سلفه جوبا الثاني . وكان جزاء بطوليمي على هذا الاخلاص أن قتله كاليكولا حسداً وبغضا سنة 41م الشيء الذي شجع البربر على المضي في الثورة ضد الرومان بزعامة إدمون مولى بطوليمي . وجند الرومان بدورهم جيوشا هائلة بقيادة سويطونيوس ثم هازيديوس جيتا **Hasidius Geta** وقد استطاع الأول أن يبلغ في زحفه على البربر ما وراء جبال الأطلس إلى نواحي تافيلالت ، بينما تمكن الثاني من القضاء على آخر ثائر بربري وهو سابال **Sabal** سنة 42 أو 44م . ومنذئذ وضع الامبراطور كلود بلاد المغرب تحت الحكم الروماني المباشر ، وقسمها إلى قسمين : موريطانيا القيصرية وعاصمتها شرشال ، وموريطانيا الطنجية وعاصمتها طنجة . وبما أن القسم الثاني هو الذي يدخل في المغرب الأقصى فسأخصصه بالدرس .

الحكم المباشر 42 – 429م

بعد أن وضع المغرب تحت الحكم الروماني المباشر منذ عهد الامبراطور «كلود» تعاقب الحكام الرومانيون على هذه البلاد خلال القرن الأول للميلاد . حتَّى إذا كان عهد الأسرة الأنطونية التي دشنت حكمها على يد الامبراطور طراجان **Trajan** «97 – 117م» نعم المغرب بحقبة طويلة من الاستقرار والتنظيم في إطار الحكم الروماني بالشمال الافريقي . وكل أفراد هذه الأسرة وهم خمسة . كانوا من المقاطعات التابعة لروما . وكان من أعمال طراجان المذكور أن أقصَى الحاكم «ماريوس» عن إدارة شؤون إفريقيا . وقدمه لمجلس الشيوخ الذي حكم بنفيه نفيا مؤبداً ، نظراً لجوره وسوء تصرفاته في تدبير الشؤون المالية ، هذا بالإضافة إلى ما قام به طراجان من إنشاء للطرق والقناطر وتأمين المواصلات .

وخلف «طراجان» على عرش روما ، الامبراطور «هادريان – **Hadrien** » الذي امتد حكمه من 117 – 138م وقد اشرك كثيراً من الشخصيات الافريقية في الحكم المحلي وحتَّى المركزي . خصوصاً الفقيه سالفيوس حاكم روما وهو من مدينة حضرموت (سوسة) .

وقد انتهت هذه الأسرة بموت الامبراطور كومود Commode الذي لم ينهج سياسة أسلافه في سلوك الحكمة والنظر في مصالح الامبراطورية . فكان عنيداً غبيا يفخر بأعصابه وقوته البدنية أكثر مما يفخر بعمل صالح يقدمه لبلاده . وهكذا اغتيل هذا الامبراطور سنة 192م بعد أن ابتز خيرات الشمال الافريقي حيث أنشأ أسطولا خاصاً لتموين روما من انتاج افريقيا الزراعي .

وانتقل الحكم المركزي بعد ذلك إلى عائلة Les Sévères أي «القساة» وفي عهدهم دخل الجمل إلى الشمال الافريقي بواسطة بدو الشام التي كانت بدورها تابعة للحكم الروماني . ولم يطل حكم هذه الأسرة التي انتهت سنة 235م لتنشب بعدها ثورات عنيفة في روما وإفريقيا بين الرومان أنفسهم . وذلك في سبيل احتلال عرش الامبراطورية . ولم توفق أسرة الكرديين Les Gordions في إقرار النظام . واستمرت هذه الثورات إلى سنة 285م .

ومنذ بدأ الحكم المباشر في الشمال الافريقي كان الامبراطور يرسل حاكماً إلى موريطانيا الطنجية . ويستمر حكمه لمدة سنة . ويتبع الامبراطور مباشرة .

حتّى إذا كان عهد Diolectien 285 ــ 305م أصبحت موريطانيا الطنجية تابعة لأسقفية اسبانيا بقيادة قومس محلي . وفي عهد قسطنطين الكبير 306 ــ 337 صارت موريطانيا الطنجية تابعة لمقاطعة الغال من الناحية الادارية . حيث كان حاكم الغال يعين عنه مندوباً لحكم المغرب . ولجنة من خمسة أشخاص لادارة الشؤون المالية .

وقد اشتهر قسطنطين الأكبر بعدالته وحزمه إلى جانب تسامحه الديني ، حيث أباح للناس اعتناق المسيحية بمحض ارادتهم . بيد أن أسقف نوميديا حاول الاستقلال عن الكنيسة الرومانية . وهكذا بدأ الانشقاق داخل الأوساط المسيحية في وقت مبكر من تاريخ المومنين «بالثالوث» .

وما كاد يموت قسطنطين الأكبر . حتّى نشبت ثورات خطيرة داخل الشمال الافريقي ، حتّى إن ثائراً من الجزائر سحق جيوش الرومان خلال عامين متوالين منذ سنة 369 . وهذا الثائر هو فرموس Firmus الذي تخلّى عن الجنسية الرومانية لصالح وطنه .

واجتاحت الامبراطورية الرومانية موجة من الاضطرابات حتّى نقلت العاصمة

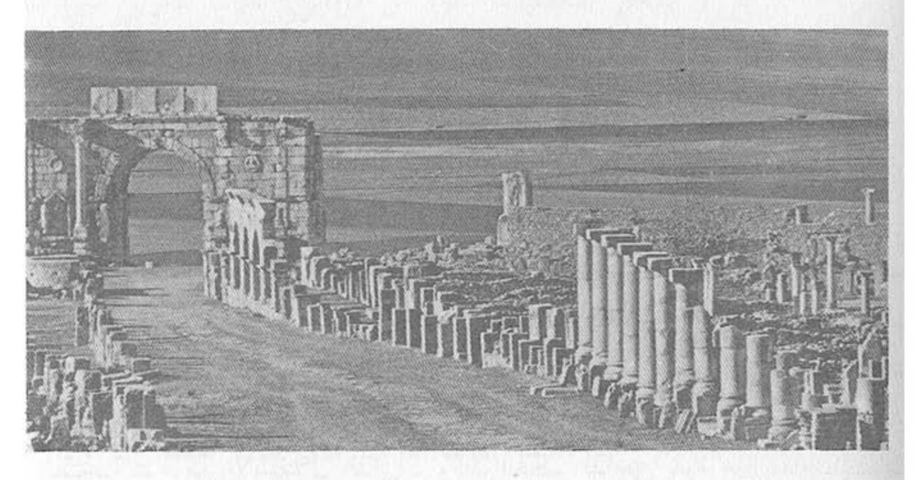
إلى رافينا Ravenne بايطاليا ، وتسلط البرابرة على انحاء المملكة وهكذا انتهى الحكم الروماني بافريقيا سنة 429م على يد القائد العسكري الروماني الذي كان يقطن بسبتة ، والذي سلم الحكم إلى الوندال بسبب عداوته للحكومة المركزية . واحتل هؤلاء قرطاجنة سنة 439م فتم لهم بذلك احتلال مجموع الشمال الافريقي .

أهمية اعمال الرومان بالمغرب

لم يتجاوز الاحتلال الروماني للمغرب مناطق محدودة . فكانت الحدود الجنوبية تمتد من نهر أبي رقراق لتنتهي شرقاً عند نهر ملوية . ولم تكن جبال الريف داخلة عملياً في «موريطانيا الطنجية» التي كانت حدودها الشمالية تمتد إلى ساحل البحر المتوسط . وإذا كان القرطاجنيون سابقاً قد أسسوا مراكز على سواحل المحيط الأطلسي فيما وراء نهر أبي رقراق . فإن الرومان قد وقفوا عند هذا النهر . ولم يتوغلوا بجيوشهم جنوبا إلا في ظروف عابرة . والواقع أن البربر لم يستفيدوا شيئاً كبيراً من الاحتلال الروماني إذا استثنينا بعض مظاهر الحضارة . مع العلم بأن هذا الاحتلال قد استغرق عدة قرون . فالاحتلال الروماني كان عسكرياً اقتصادياً يهدف إلى الاستيلاء على خيرات الشمال الافريقي لصالح كبار الموظفين الرومان ولسكان روما المحظوظين مع العلم بأن أباطرة الرومان لم يسلكوا كلهم سياسة الجور حيال مستعمراتهم . ولما كان الرومان لم يشمل نفوذهم الا قسما صغيرا من المغرب . فإن معظم البلاد ظل منعزلا عن المحتلين يشكل كذي قبل جمهوريات وامارات صغيرة نعمت في الغالب بالهدوء وحسن التعايش . وخرافة السلم الروماني في الشمال الافريقي يدحضها ما كانت تعيش فيه هذه المناطق المستقلة من هدوء من غير حاجة إلى التدخل الروماني . كما يدحضها ما تعرض له الاحتلال الروماني من هزات عنيفة بسبب الثورات الوطنية ضد جور الحكام .

ومع هذا وذاك . فينبغي أن لا نستهين بالتأثير الروماني في بعض أوضاع الحياة المغربية خصوصاً في الميدان المعماري والفلاحي . أما الأثر الفكري واللغوي والسياسي فضعيف جدا بالقياس إلى القرون الستة التي قضاها الرومان في الشمال الافريقي . وأما الأثر الديني فإن انتشار الاسلام قد محاه كلياً أو كاد . ولا ريب أن اعتناق البربر للاسلام قد كان فيه نوع التضامن الروحي مع العرب الذين نزل فيهم الاسلام

أول ما نزل . وقد كان من السهل على البربر الذين تمسحوا في عهد الرومان أن يحتفظوا بمسيحيتهم لو شاءوا . غير أن الأثر الديني للرومان كان ضعيفا في أوساط البربر كما تقدم .



بقايا مآثر عمرانية رومانية بالمغرب



حضارة المغرب في عهد الرومان

1 – نظام الحكم والادارة

لم تكن روما راغبة في فتح الشمال الافريقي على ما يظهر. لولا منافسة قرطاجنة. ثم خوفها من تكرار الهجوم على سواحل ايطاليا كما فعل هانيبال الذي غزا الرومان في عقر دارهم. وقد استغرق الحكم الروماني المباشر زمنا طويلاً من الاحتلال الروماني. وتقدم أن موريطانيا الطنجية أصبحت خاضعة من الوجهة الادارية لأسقفية إسبانيا ابتداء من عهد دوليكتيان (285 – 305م). ومعنَى ذلك أن هذه المنطقة لم تعد تنال من رعاية الأباطرة ما نالته إفريقية التي كان حاكمها دائماً تابعاً للامبراطور مباشرة. وحتَّى خلال هذا الحكم المباشر نعمت موريطانيا الطنجية بنوع من الاستقلال الذاتي. وكان الحكم الداخلي يقوم على نظام البلديات الكبرى. إذ كانت المدينة في النظام الروماني تلعب دوراً عظيماً في الحياة البشرية. وأشهر المدن التي حظيت في موريطانيا الطنجية باهتمام الرومان هي طنجة ووليلي. ولسوء الحظ. فإن الآثار الرومانية التي عثر عليها في طنجة قليلة. إذ في دراسة هذه الآثار ما يساعد كثيرا على التعرف على نظم الحكم بهذه المنطقة من خلال المباني الادارية والمراكز العسكرية وغير ذلك.

وقد كانت المنطقة تعتبر مستعمرة رومانية إذا حظي أهلها بحقوق المواطنة الرومانية. ومن ثم تحظى هذه المستعمرة أو المدينة باستقلال ذاتي عن طريق انتخاب مجلس بلدي ورغما عن هذا النظام الديمقراطي. فقد كان شكليا أكثر منه فعليا. حيث كانت البلديات تخضع لضرائب مالية فادحة لصالح الحكومة المركزية. أما في خارج المدن. فقد كانت هناك مجالس قروية عرفها البربر قبل دخول الرومان بزمن طويل. وكانت المجالس البلدية في أيام الرومان تخضع لسلطة الحاكم الروماني عن طريق رؤساء يسميهم هذا الحاكم. وفي الواقع لم تتمتع لا المدن ولا القرَى الخاضعة للرومان في المغرب بقوانين كافية تحدد حقوق وواجبات السكان المحليين الذين كانوا ينالون الحظوة من لدن السلطة تبعاً لما يبدونه نحوها من الاخلاص.

على أن المستعمرات الرومانية نالت من رعاية الرومان في عهد الأباطرة أكثر مما نالته في عهد الجمهوريين . فقد منح الأباطرة حق المواطنة لكثير من سكان المستعمرات خصوصاً في عهد كلود الذي منح حق المواطنة جماعياً لسكان الغال الا أن التاريخ لا يسجل شخصيات كثيرة من مواطني الشمال الافريقي نالوا مناصب عالية في الحكومة المركزية . مع أن هذه المنطقة تحتل موقعاً استراتيجيا هاما بالنسبة لروما .

ومن المؤكد أن المغرب لم يشهد تغييرا ملموساً في نظم الحكم البلدي إذا استثنينا بعض المدن . أما خارج المدن . فقد ظلت المجالس الجماعية والنظام القبلي معمولا به كذي قبل . ولم يفعل الرومان شيئا لتطوير هذا النظام .

أما معلوماتنا عن التنظيم العسكري بالمغرب وسائر الشمال الافريقي . فهي أوسع من المعلومات التي تقدمها المراجع عن نظم الحكم الأهلي بهذه البلاد أيام الرومان .

وكان أول من أنشأ جيشاً نظاميا قاراً . الأمبراطور أغسطس . وبلغ مجموع الجيش الروماني خلال القرن الثاني ما يناهز 350 ألفاً . وكانت الاطارات العليا تتكون من الايطاليين . ويتم الانخراط في الجيش تطوعاً . ويحق للجندي الحصول على حق المواطنة الرومانية بمجرد انخراطه . غير أن نظام التطوع سمح لكثير من المقاطعات التي تمت رومنتها بالتخلي عن الانخراط في الجيش فقلت بذلك أهميته وضعف عدده .

ولم يكن الجيش في الشمال الافريقي خاضعاً لسلطة الحاكم . بل كان القائد العسكري يخضع مباشرة لسلطة الأمبراطور ابتداء من عهد كاليكولا . وفي المغرب على الخصوص كان الجيش النظامي يتألف من القوات المساعدة التي بلغ عددها 14 الفا في عهد هادريان وثمانية آلاف في عهد طراجان . ولعبت سبتة دوراً كبيراً كمركز لتجمع الجيوش الرومانية . وكانت الحاميات توزع على المدن والمراكز الاستراتجية .

وكانت القوات المساعدة تتشكل من السكان المحليين واللفيف الأجنبي الذي لا يتمتع أفراده بحقوق المواطنة وفيها فرسان ومشاة . أما القيادة العامة للجيش الافريقي فكانت شرقي الجزائر بجيدرة ثم نقلت إلى تبسة فلمبيزيا

وكان الجيش يتركز خصوصاً في الحدود . ويتم تدريبه أيام السلم بواسطة

المناورات العسكرية وانشاء التحصينات التي لم تكن تكتسي أهمية كبيرة في المغرب الا في مواقع خاصة كضفة أبي رقراق ومركز بوهلو بين تازا وفاس . وما عدا ذلك . فإن الجيش يعمل في بناء الطرق والقناطر أيام السلم .

وكانت التحصينات تمتد من طرابلس إلى سواحل المحيط الأطلسي على طول التخوم الصحراوية . وكان الجند قارين في هذه المواقع . وكانت تعطاهم قطعة من الأرض يفلحونها لحسابهم الخاص حتّى يشجعوا بذلك على الدفاع عن أرضهم وأسرهم . وبالتالي عن المستعمرات الرومانية .

وكان الاهتمام بتحصين المدن بالغاً . حيث تحاط بأسوار ضخمة وأبراج دفاعية . وكان من سياسة الأباطرة ابتداء من أغسطس أن لا تمتد حدود المملكة الرومانية أكثر مما كانت عليه . إذ كانت تنقلات الجيوش وبعد المسافات يكلف الحكومة مصاريف باهظة . وقد عثر في لمبيزيا بالجزائر على خطاب ألقاه هادريان في جيشه بافريقيا . ومما جاء فيه قوله : «لقد حفرتم خندقاً في أرض صلبة . وبمجهودكم تمكنتم من تمهيدها وتسويتها . وعندما رضي قادتكم عن عملكم وعدتم إلى معسكركم بمنتهى السرعة تناولتم عن عجل طعامكم وبادرتم إلى أسلحتكم . ثم جريتم هاتفين نحو الفرسان تطاردونهم حتّى ارجعتموهم معكم . اني لأهنئ قائدكم على تعليمكم هذه الأعمال التي هي صورة من صور المعارك . وعلى تدريبكم الذي استحق ثنائي» .

وقد أنشأ الرومان طرقا للمواصلات تبدأ من طنجة إلى ليكسوس (العرائش) ومن ثم تتفرع إلى طريقين . أحدهما يمتد إلى باناسا وسلا من الداخل . والثاني يمر عبر القصر الكبير إلى وليلي وطوكولوسيدا«Tocolosida»وهناك طريق يصل بين طنجة وتمودا (تطوان)[1] حيث كانت تمتد مجموعة من المراكز العسكرية . وبينها مركز «Duga» الذي تدعَى اليوم أطلاله بالبنيان . وهو في جبل وادراس .

---

(1) راجع بشأن الحدود والطرق الرومانية وتقسيم مناطق الشمال الإفريقي :

— Carcopino, pp. 233-244
— Dureau et Yanoski, Afrique, p. 208,219,224,235
— Cautier, Le passé de l'Afrique du Nord, p. 210

2 – الحياة الاجتماعية

من الصعب ان نعرف شيئا عن كثافة السكان في عهد الرومان . على أن المدن منها بلغ من كبرها في الشمال الافريقي لم تكن تتجاوز 40 ألفا . إذا استثنينا قرطاجنة . وكان سكان المدن في معظمهم فلاحين يشتغلون في الأراضي المجاورة للمدينة . ثم يروحون إلى مساكنهم مساء . على أن المهاجرين من الاقطار الخاضعة للاحتلال الروماني . كان بينهم سوريون وفينيقيون وعرب وغيرهم من العناصر . ومن البديهي أن يكون بينهم عدد من المهاجرين الاسبانيين نظراً لقرب شبه الجزيرة الايبرية من المغرب .

وكانت المدن مجهزة أتم تجهيز . بحماماتها وفنادقها وأسواقها وغير ذلك من مرافق الحياة . وكان الأغنياء يملكون القصور الفخمة التي كانت بدورها مجهزة بأفخر المرافق والأثاث . وبما أن الحياة العامة كانت تعتمد أكثر ما تعتمد على خدمة الأرض . فقد نعم السكان بفترات من الاستقرار تطول أو تقصر بحسب موقف الحكام وسياسة حكومة . وقد دخلت العوائد اللاتينية في حياة كثير من البربر القاطنين في موريطانيا الطنجية . إلا أن هذه العوائد قد اختفت بدخول الاسلام وكان السكان يشاركون في الاحتفالات الشعبية وفي مشاهدة الألعاب الرياضية والمصارعة التي كانت تجري في ميادين خاصة وقد شكل الفلاحون الكبار نوعاً من المجتمع الارستقراطي بما كانوا يتوفرون عليه في المدن من قصور شامخة وحياة رغدة .

3 – الحياة الاقتصادية

إذا كان اهتمام الرومان بالفلاحة يشكل أكبر حظ في الميدان الاقتصادي . فقد كانوا يعنون خصوصاً باستغلال المناجم وانشاء المصانع سيما معاصر الزيتون التي كان في وليلي عدد كبير منها كما تدل على ذلك الآثار الباقية هناك . وقد أخذ البربر عن الرومان كثيرا من الوسائل الزراعية كغرس أشجار الزيتون وآلات الحرث والحصد[2] . ولاشك أن الأمبراطورية الرومانية شهدت أحسن فترة من ازدهارها

---

(2) راجع بشأن الفلاحة الوطنية قبل الرومان وفي عهدهم :
Lacroix : Afrique. pp.62-63

الاقتصادي في القرنين الأولين. وكانت المنتجات الزراعية الافريقية تصدر في البواخر إلى ايطاليا إلى جانب الصوف والمواشي والمعادن.

على أن الفضل في رقي الرومان الفلاحي يرجع إلى القرطاجنيين الذين سبقوهم في هذا الميدان. الا أن الرومان توسعوا في استغلال الأراضي الشاسعة وغرسوا الكروم وغابات الزيتون في مختلف أجزاء الشمال الافريقي. وإن ناحية زرهون لتشهد بذلك الماضي الذي كان لمقاطعة وليلي في انتاج الزيتون وعصره. وكان الزيتون يصدر إلى ايطاليا. كما أن الحكومة كانت توزع الأراضي على الأهالي المحظوظين بالإضافة إلى الجنود النظاميين وتحتفظ بالأراضي التي تدخل في إطار الأملاك العامة. حيث تشغلها جمعيات أو شركات رأسمالية تكتريها بالمزايدة. أما المستنقعات أو «المرجات» وكذا الأراضي ذات الأعشاب البرية فكان يسمح باستغلالها لأول من احتلها من غير حق الحصول على ملكيتها. ومن الطبيعي أن يكون هذا النظام خاصاً بالقسم الذي تحتله الدولة الرومانية وأما خارجة. فقد كان نظام الملكية الجماعية منتشراً في إطار الحياة القبلية.

أما نظام الري فكان متقنا. ولا يزال الأثر الروماني متجليا في المناطق الزراعية التي لم تأخذ بعد بطرق الري الحديثة. وهكذا كان ماء العيون والأنهار والأمطار يستغل عن طريق السواقي والمطافئ والنواعير وقد ساعد تعبيد الطرق على تسهيل المواصلات الداخلية. وكانت هناك مصانع متعددة في المدن لصهر الحديد وتكييفه ودبغ الجلود ونسج الملابس وصنع الأثاث وغير ذلك من لوازم الحياة وكمالياتها.

وكانت الطرق بين المدن تتوفر على فنادق لاستراحة المسافرين. كما كانت هناك نصب تبين المسافات. وكان لدخول الجمل أثر كبير في تيسير أسباب النقل ورواج الحركة التجارية.

4 – الحياة الدينية

دخلت المسيحية إلى المغرب عن طريق قرطاجنة. ولكننا لا نعرف بالضبط متى وكيف دخلت. وقد كانت اليهودية عرفت طريقها إلى المغرب في وقت مبكر من تاريخها. غير أن انتشار المسيحية في شمالي افريقيا بدأ خلال القرن الثاني. وكان معتنقوها من المدن خاصة. وقد كانت والدة القديس أغسطس بربرية. ونجهل

التاريخ الطريقة التي تم بها اعتناق بعض البربر للمسيحية ، ولكن المهم أن كثيراً من آلهة روما المعروفة قبل المسيحية ظلت إلى وقت طويل موضع تقديس في كثير من مدن الشمال الافريقي إلى جانب بعض الآلهة التي كان يقدسها القرطاجنيون ، حتَّى إن بعض الكهنة من هؤلاء في القرن الثاني كانوا يلحون على أتباعهم في تقديم ذبائح من أبنائهم إلى الاله بعل مولوخ . مما أدَّى بالحكام الرومان إلى مطاردتهم وصلبهم .

وقد شهدت موريطانيا الطنجية بدورها اضطهاد المسيحيين كما دلت على ذلك حفريات بطنجة حيث تأكد من النقوش الأثرية أن مسيحيا يدعَى مارسيل قتل سنة 298 وآخر يدعَى كاسيان قتل حوالي 305م .

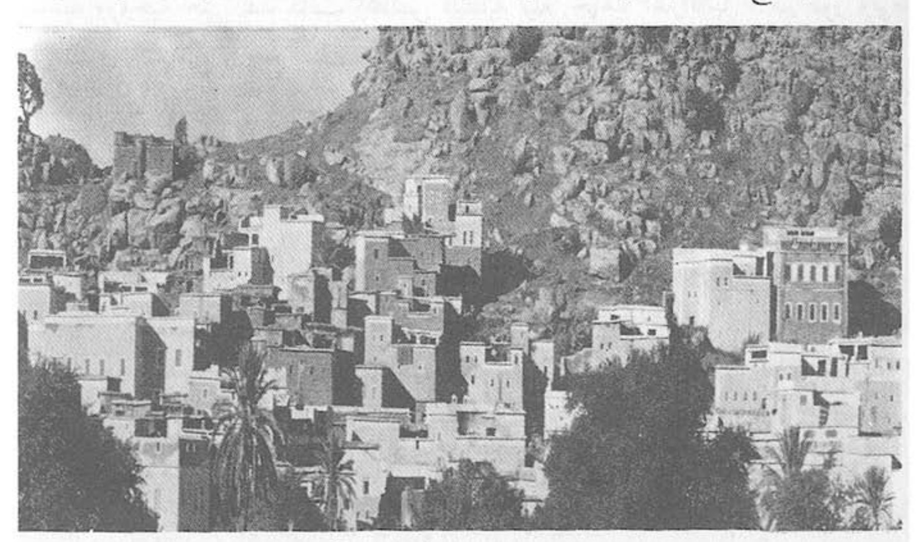
ولم تنتشر المسيحية في قسم كبير من موريطانيا الطنجية فحسب . بل تعدتها إلى باقي أجزاء المغرب كما تشهد بذلك حروب العرب ثم الأدارسة مع البربر . ومن غير شك كانت هناك بعثات تبشيرية تنطلق من طنجة ووليلي عبر القبائل البربرية حيث ثبت أن المسيحية بلغت ناحية الحوز عند المحيط الأطلسي .

وكانت تقام حفلات موسمية دينية لتقديس الأباطرة الذين كانت لهم سلطة سياسية وروحية حتَّى لقد كانت المجالس البلدية تبلغ جماعياً اعترافاتها للامبراطور ولو في النطاق السياسي . ومع ذلك . فلا شيء يؤكد مطلقاً أن موريطانيا الطنجية قد اعتنقت كلها المسيحية كما تخيل ذلك المؤرخ طيراس . حتَّى ان العرب عندما دخلوا إلى المغرب وجدوا الوثنية في جبال الريف وغمارة أقوَى منها في أي مكان آخر . مع أن هذه المنطقة كانت داخلة من الوجهة السياسية ضمن حدود موريطانيا الطنجية .

وإذا فإن افريقيا الشمالية قد عاشت فيها المسيحية جنباً لجنب مع اليهودية والوثنية . وكان ايمان كثير من البربر بالسحرة والمنجمين شديداً . وما شخصيّة الكاهنة في صدر الفتوح الاسلامية وشخصية حاميم المتنبي بعدها الا بعض الأمثلة على هذا النفوذ الذي تمتع به السحرة والمنجمون . كما اعتنق البربر كثيراً من الديانات الشرقية التي دخلت الشمال الافريقي عن طريق قرطاجنة . حتَّى ان هذه المدينة نفسها قد استمر فيها تقديس الإلهة كالستيس «Caelestis» إلى وقت متأخر جداً من الحكم الروماني لا من لدن الوثنيين فحسب . بل حتَّى من قبل بعض المسيحيين .

ولما كانت المسيحية قد انتشرت في الشمال الافريقي . وكان للمذهب الكاثوليكي خصومه في أوروبا وآسيا الجنوبية على السواء . فإن النزاع المذهبي والطائفي قد دب إلى افريقيا الشمالية نفسها . ونشأ في نوميديا مذهب نسب إلى Donat المتوفى سنة 355 وكان اتباع هذا المذهب يعتقدون أن رهبانهم لهم الحق وحدهم في تسيير شؤون القداس مما أحدث نزاعاً خطيراً بين ضونا والكنيسة الرومانية . وأدّى الأمر إلى اضطرابات دموية كان ضحاياها عدة أتباع لضونا الذين طردوا من الكنائس الكاثوليكية . ورغما عن محاولة القديس أغسطس في وضع حد سلمي لهذا النزاع . فقد ظلت هناك مجموعة كبيرة من البربر الخاضعين للنفوذ الروماني ضد المسيحية بشهادة عدد من المؤرخين كبوسكي وبيلكران وكان يهود البربر من الذين يحرضون الوثنيين على الثورة ضد المسيحيين . وكان اليهود يدعون بدورهم للديانة اليهودية . وقد كان مجيئهم إلى الشمال الأفريقي في هجرات متقطعة كانت أولاها صحبة الفينيقيين .

والواقع أن اليهود تمكنوا من معايشة البربر المسالمين في أجزاء كثيرة من المغرب . بل واستطاعوا أن يجلبوا إلى دينهم عدداً من البربر الذين لايزال أعقابهم يعيشون جنبا لجنب مع المسلمين في الأطلس وتافيلالت وغيرها[3] . وكانوا يشكلون أحيانا



جانب من قرية أصيلة بالأطلس

(3) كان هذا حتى أوائل الستينات من القرن 20م.

دويلات مستقلة كما فعلوا في كورارا شمال توات حيث أنشأوا دويلة استمرت إلى نهاية القرن الخامس عشر.م.

5 - العمارة والفن

لم تكن تختلف مباني الرومان في المغرب عنها في باقي أجزاء الأمبراطورية من حيث الشكل العام. وقد ترك الرومان بالمغرب آثاراً يمكن اعتبارها قليلة بالنسبة للمدة التي استغرقها حكمهم في هذه البلاد. ويمتاز الفن الروماني الاغريقي بكثرة صوره الجدرانية والتماثيل التي تزين أبواب المباني خصوصاً الضخمة منها. وضمن الفن الروماني وجدت مجموعة كبيرة من القناديل التي تزدان بصور حيوانية وغيرها. وتغطي الفسيفساء صحون المنازل مشتملة أحيانا على صور بشرية ونباتية وحيوانية. وتمتاز الجدران بضخامتها ونقوشها النباتية. ومن أهم المدن التي تحتفظ بآثار رومانية.

1) **طنجة** : وقد كانت أكبر مدينة مغربية في عهد الرومان. إلا أن الآثار المتبقاة من هذا العهد قليلة. وقد شاهد البكري في القرن 11م عددا كبيرا منها.

وعثر على قناة كانت تمتد من مصب وادي اليهود إلى المدينة حيث يستغل ماء هذا النهر لحاجيات السكان كما عثر على فسيفساء في الكنيسة الاسبانية وتمثل الشاعر أورفي «Orphée» وهو يغني بالناي وسط مجموعة من الحيوانات. وهناك جملة أعمدة وتيجانها. بالاضافة إلى ضريح تعلوه قبة ويتوصل اليه بواسطة بئر. ويشتمل الضريح على مجموعة من الأواني الطينية. ومن أهم الآثار المكتشفة فيما بين 1908 و1909م مجموعة أخرى من القبور التي تعلوها صور نباتية ومناظر مختلفة بينها منظر جندي بين حصانين. ويحمل في يده اليمنى سوطاً وفي ساعده الأيسر ترساً. وقد اكتشفت إحدى البعثات العلمية بعض النقوش الرومانية التي ترجع إلى عهود مختلفة وحماماً عمومياً في «عين الحمام» كما اكتشف كهف يدعى كهف الأصنام جنوب رأس سبارتل.

ومن المؤسف حقاً أن لا نعرف بعد هذا ما يكفي عن حياة طنجة العمرانية أيام الرومان. بيد أنه من المؤكد أن الحروب المتوالية التي عرفتها هذه المدينة. مع موقعها الستراتيجي كممر إلى جبل طارق والمحيط الأطلسي كل ذلك قد عرضها

لخراب الغزاة . كما أن السكان المحليين لم يكونوا قد تشبعوا من الحضارة بما يكفي لمواصلة العناية بمخلفات الرومان وتجديدها . والظاهر أن المدن الرومانية هجرها السكان من تلقاء أنفسهم في ظروف غامضة وكانوا يبنون قربها أو على أنقاضها مدنا جديدة ولكنها أقل روعة ومتانة من مباني الرومان . وعلى كل . فقد كان للحروب والزلازل وغيرها أثر في ضياع هذه الآثار .

2) **وليلي** : تعطى صورتها الحالية نظرة حقيقية عما كانت عليه هذه المدينة التي كانت على أي حال دون طنجة أهمية وهي محاطة بسور يبلغ محيطه 2530م وقد بنيت بقربها بعض الأحياء في وقت متأخر من الحكم الروماني . وهي دون أحياء المدينة قيمة أثرية .

وتشتمل مبانيها على منازل وحمامات وسواقي . كما كان يوجد بها ساحة عمومية لتجمعات السكان «Forum» ومسرح ومسبح ودكاكين وأسواق . وقد وجد بها تمثال هرقل وآخر يمثل كلباً منحوتاً من البرونز . بالاضافة إلى معاصر الزيتون وأفران الخبز ومخازن لايداع المنتجات الزراعية . ومن أهم آثار المدينة قوس النصر الذي يوجد بشرقه مجموعة من القصور التي ترجع إلى مطلع القرن الثاني .م. وقد جلب الماء إلى المدينة من منحدرات زرهون عن طريق ساقية تستمد ماءها من عين قريبة من زرهون .

ويرجع الفضل في اكتشاف وتقديم المعلومات الأولى عن المدينة إلى شارل تيسو «Charles Tissot» ممثل فرنسا بطنجة الذي زار وليلي قبل سنة 1880م .

وقد جمعت كثير من القطع التي عثر عليها الباحثون الأثريون وضمت في متحف وليلي وبينها قطع من النقود وقطع من الرخام وتمثال الالهة فينوس والكلب البرونزي الذي اكتشف في أحد القصور .

وتقع المباني الرسمية في الساحة العمومية . خصوصاً الكنيسة الكبيرة التي كانت تعقد فيها جلسات القضاة والحكام وأعضاء المجلس البلدي . ويتجلى من بعض النقوش التي ترجع إلى سنة 196م أن الامبراطور سيفير «Septiéme Sévère» قد زار المدينة وكانت زيارته مناسبة لتجميل الساحة العمومية .

أما قوس النصر فقد بني في القرن الثالث م . لاستقبال كاراكالا «Caracalla»

الأمبراطور الروماني الذي حكم بين 188 – 217م . وهو الذي منح حق المواطنة لجميع الأحرار في الامبراطورية . وكان بناء القوس على يد حاكم موريطانيا الطنجية آنذاك وهو مارك أوريل سيباستين «Marc-Aurèle Sébastène»

3) **سلا** : كان موقعها مكان شالة الحالية . ويرجع عهدها إلى الفينقيين الذين لم تكتشف حتّى الساعة آثارهم بها . وحتّى الرومان الذين يبدو أنهم جددوها لم يبق من آثارهم الا شيء قليل جداً . وتقع المدينة في أقصَى الحدود الجنوبية للمستعمرة الرومانية بالمغرب . على أن موقعها الستراتيجي لا يمثل أهمية بالغة في الميدان الحربي حيث لا توجد جبال منيعة تحميها وقد بدأ اكتشاف الاطلال الرومانية بها منذ سنة 1930م وأهمها الساحة العمومية وقوس النصر . أما المنازل التي عثر عليها شرقي الساحة العمومية فقد وقع تجديدها خصوصاً في العصر المريني . ويبلغ طول سورها 500م في عرض 300م وكما يقول المؤرخ Pline فإن المدينة قد أخذت اسمها من نهر أبي رقراق الذي كان يدعَى بسلا . ومن المحتمل أن يكون العكس . وقد استعمر الرومان سلا في وقت مبكر من حكمهم . أي في مطلع القرن الأول . وقبل أن يبسطوا نفوذهم المباشر على «موريطانيا الطنجية» .

وكان لقوس النصر ثلاثة أبواب كما اكتشفت بها آثار بعض الطرق . ومقبرة في المكان الذي بنيت به السفارة الفرنسية (الاقامة العامة) . وعثر على أعمدة حجرية تدعم قناة كان يجري فيها الماء من عين بسلا (شالة) . والظاهر أن اختيار موقع المدينة كان من أجل هذه العين أو العيون التي كانت تتدفق مياهها هناك .

ومن مكتشفات تيسو صورة منقوشة تمثل يهوديا من أصل إسكندري . وكذا بعض الحلي . وأوان طينية . وقد لعبت شالة دورا هاماً في تاريخ البربر خصوصا في أيام الزناتيين حيث قطنها بنو يفرن . ولكن المرابطين خربوها في عهد يوسف بن تاشفين . أما الموحدون فقد بنوا بها ثكنات ومستشفَى شبيها بمستشفَى مراكش وقصراً ومسجدا . بينما كانت أحياء سلا الحالية قد بدأت تتسع كذلك في عهدهم كما سنرَى في مباني الموحدين . الا أن الحفريات لم تؤد إلى اكتشاف شيء من آثار الموحدين بشالة . وتقول بعض الروايات القديمة إن بناء سلا يرجع إلى سنة 1500 ق.م وهذا يدل على أن الفينيقيين قد دخلوا إلى المغرب في هذا الزمن السحيق .

وإلى جانب هذه المدن المشهورة توجد مدن أخرى من أهمها :

1) تمودا على مقربة من تطوان . والظاهر أنها بنيت على أنقاض مدينة قرطاجنية . على أن اسم «تمودا» يرجع إلى العهد القرطاجني نفسه .

2) باناسا على ضفة وادي سبو . وقد كانت ذات أهمية كبيرة . ولا تزال بعض أطلالها قائمة . ومن جملتها خرائب حمامات ومنازل . ولعلها كانت مدينة تجارية تباع فيها منتجات ناحية الغرب . واكتشف فيها قطع من البرونز وآثار قصور أنيقة مما يدل على أن سكانها كان بينهم طبقة من الفلاحين الأرستقراطيين .

وفي عين المكان الذي أنشأ به الادارسة مدينة البصرة كانت هناك مدينة تريمولا التي لا يفيدنا التاريخ عنها شيئاً يستحق الذكر . وهناك مدينة تاموسيدا «Thamusida» التي تقع في الضفة العليا لسبو مقابل القنيطرة .

أما القيمة المعمارية للمباني الرومانية . فتتجلَّى في تناسقها وملاءمتها للبيئة والمجتمع المحلي . وكانت المنازل تتكون في أغلب الأحيان من طابق واحد . ويستعمل في البناء الحجر المنحوت والآجر والجير والطين . والغالب أن يستعمل الحجر أسفل البناء ثم يعلوه الآجر . أما المباني الرسمية فقلما يستعمل فيها غير الحجر . وتبلط الحجرات في منازل الأغنياء بالفسيفساء . أما منازل الطبقة الفقيرة فبالجص والجير . ولا يعرف ما إذا كانت هذه الفسيفساء تصنع محليا أو تجلب من خارج المغرب .

وكان المنزل يحتوي على صحنين . أحدهما صغير ينفذ منه إلى حجرات السكنى . ووراء المنزل الصحن الثاني الذي يوجد به الحمام ومعصرة الزيتون . وهذا الصحن الثاني منفذ إلى الطريق .

وتكثر الزخرفة الهندسية إلى جانب الزخرفة النباتية . ولا يوجد في الأولى تنوع يستحق الذكر . ويرجع طيراس وهو خبير بالآثار المغربية . أن هذه الزخارف الهندسية من التأثير البربري المغربي والنوميدي (بالجزائر) . وهكذا يتفاعل الفن البربري والروماني في مباني وليلي على الخصوص . ولو أن أثر الثاني أقوى وأبرز .

أما النحت فيبدو فيه الطابع الاسكندري (اليوناني) فيما يخص التماثيل . كما نشاهد في الكلب البرونزي وتمثال الشيخ الأجرد بوليلي . وبعض قطع الأثاث بيناسا .

وقد تأثر الفن المغربي ولاشك بالفن الروماني والبيزنطي فيما يخص هندسة الحصون والأسوار . بل حتّى في بعض أنواع الزخارف النباتية التي استمدها مباشرة أو عن طريق أمويي الأندلس الذين نقلوا الفن البيزنطي إلى هذه البلاد .

6 – الحياة الفكرية

أجمع الذين أرخوا من الافرنج لحياة سكان موريطانيا الطنجية . على أن اللغة اللاتينية قد انتشرت انتشارا واسعاً بين البربر . وإذا كان هذا أمراً طبيعياً في بلد استمر الاحتلال الروماني فيه عدة قرون . فإن الأثر اللغوي اللاتيني لم يكتب له الصمود أمام اكتساح اللغة العربية التي بدأت اللاتينية تختفي لحسابها بمجرد العقود الأولى للفتح الاسلامي . ومهما يكن من شيء . فإن انتشار اللغة اللاتينية بين البربر . يدل على تقبلهم للحضارة وأسبابها . ولكن المغرب لم ينتج من المفكرين البارزين في عهد الرومان أحداً . أو على الأقل من الذين انتجوا في حقل الفكر شيئاً مشرفا . وعلى العكس من ذلك بعد الفتح الاسلامي ببضعة عقود حيث ظهر علماء ومثقفون بارزون من البربر كما سيرد ذلك في مكانه . والظاهر أن الثقافة اللاتينية تركزت على الخصوص في قرطاجنة لقربها من إيطاليا . ولأنها كانت في افريقيا الشمالية بمثابة الحارس لهذه المنطقة ومنفذا سياسيا لها . وعلى كل . فإن المدن الرومانية بالمغرب . لم تكن تخلو من نشاط ثقافي . بدليل المسارح التي عثر عليها .

ومن المعلوم أن اللغة البونيقية ظلت تكتب أحيانا إلى جانب اللغة اللاتينية كما أثبتت ذلك الحفريات هذا إلى أنها ظلت لغة التعامل لدّى بعض السكان إلى وقت متأخر من حكم الرومان .

وأهم أثر تركته اللغة الرومانية . في أسماء الشهور الفلاحية سواء بالبربرية أو العربية . وكذلك في بعض المصطلحات الفلاحية .

مراجع عن القرطاجنيين والرومان

1 - Villes et Tribus du Maroc. T : VII (Mission Scientifique)
2 - Les Berbères : (Bousquet)
3 - Histoire de la Tunisie (Pellegrin)
4 - Le Maroc et Ses Villes d'Art (Champion)
5 - Histoire du Maroc (Terrasse)
6 - Histoire de l'Afrique du Nord : (Ch.A.Julien)
7 - Hist. Ancienne de l'Afrique du Nord (Gsell)
8 - La Maroc des Romains (L. Chapelin)
9 - Le Maroc antique (Carcopino)
10 - Tarradell. Marruecos púnicos
11 - Dureau et Yanoski, Afrique



فسيفساء رومانية بوليلي

الونــــدال

هاجرت شعوب الوندال من سواحل البلطيق حوالي القرن الأول ق.م ثم قصدوا ناحية الرين حيث تلتهم جماعات أخرى من البرابرة . وزحفت هذه الجموع على بلاد أوروبا خصوصاً الغال واسبانيا التي قصدوها حوالي سنة 409 واستولوا على اشبيلية وقرطاجنة بالأندلس سنة 425 بقيادة Candéric الذي خلفه في الحكم أخوه Genséric سنة 428 وهو من أشهر ملوك الوندال .

وأثناء اكتساح الوندال للشمال الافريقي كان النزاع شديداً على عرش الامبراطورية الرومانية التي أضعفها الانقسام السياسي . وكان القائد العسكري بونيفاس يعضد تولية الامبراطور الصغير فالنتينيان الثالث «Valentinien»بينما كانت إفريقيا تستعد للثورة ضد هذا الامبراطور . وأدّى الحال إلى استيلاء الغوطي Sigisvult على قرطاجنة فاستنجد بونيفاس بالوندال الذين كانوا يهاجمون سواحل موريطانيا الطنجية بين آن وآخر . وأغرتهم خيرات البلاد والأزمة الاقتصادية التي كانت ولاشك أهم دواعي هجرتهم . إلى التدخل بافريقيا التي كانت ترغب في الاستقلال عن الامبراطورية . وكان البربر أنفسهم ينتظرون دخول الوندال بلهفة . حتّى يخلصوهم من الضرائب الفادحة والاستغلال الذي جعل من بلادهم مخزنا لروما كما قال بعض المؤرخين القدماء .

وهكذا بدأ اكتساح الوندال الحقيقي لافريقيا عن طريق طنجة وسبتة سنة 429 في جيش لا يقل عدده عن ثمانين ألفا . وكانوا يخربون في طريقهم المزروعات والمباني ويطاردون أتباع مذهب Donat. ورجع بونيفاس إلى قيادة الجيش الروماني لمجابهة خطر الوندال الذي كان سابقا من أسبابه . وبفضل حكمته صمدت قرطاجنة وقسنطينة حوالي عام ونصف في وجه الوندال المحاصرين وأخيراً انعقدت الهدنة بين جنسيريك والرومان سنة 435. وهي تسمح للوندال باستيطان افريقيا مقابل اداء ضرائب خفيفة. بيد أن الوندال خرقوا هذا الميثاق واستولوا على قرطاجنة سنة 439

ثم زحفوا إلى صقلية فتجلى خطرهم على الامبراطورية الرومانية بشقيها . ثم اضطر الامبراطور تيودوز إلى التنازل عن أكثر ممتلكات الامبراطورية في افريقيا باستثناء موريطانيا الطنجية . بينما كان Genséric يتقوّى أسطوله البحري الضخم .

وتقول الروايات القديمة التي تميل إلى تهويل فظائع الوندال . أن هؤلاء قد استولوا على أخصب الأراضي وطردوا ملاكها من البربر والرومان على السواء . كما طردوا رجال الكنيسة المسؤولين في قرطاجنة . ونفوهم إلى إيطاليا . وبعد مقتل الامبراطور فالنتينيان . بدأ النزاع يشتد مرة أخرى على العرش . فانتهز جنسيريك الفرصة للانقضاض على روما التي رجع منها إلى افريقيا بغنائم وافرة سنة 455 . وكان امبراطور القسطنطينية أضعف من أن ينصر زميله الجديد مارسيان في «Ravenne» وبعد سنة من تدخل الوندال بروما . انضمت موريطانيا الطنجية إلى الحكم الوندالي . ولكن بشكل صوري حيث لم يكن حكمهم بها مباشراً كما كان في عهد الرومان .

وعبثاً حاول امبراطور رافينيا أن يقضي على الوندال في اسبانيا وموريطانيا بواسطة أسطوله الضخم الذي استولى جنزيريك على معظمه . وجند الرومان كل قواهم التي وزعوها بين سردانيا وطرابلس ومصر وساحل بونة . وتمكن جنسيريك من تحطيم هذه القوّى جميعا . حتّى إذا كانت سنة 476 اعترفت الامبراطورية الغربية بسيادة جنسيريك على عدة أقطار منها الشمال الافريقي . ولم تكد تمر سنة على هذا الاعتراف حتّى انتقلت السلطة على بقايا الامبراطورية الرومانية إلى امبراطور القسطنطينية .

وساعد جنسيريك على انتصاراته الباهرة . ذكاؤه ودبلوماسيته التي شهد بها مؤرخون قدماء كبروكوب «Procope» ومحدثون كأندري جوليان . ومات هذا الملك سنة 477 بعد أن بلغ الوندال أوج عزهم في عهده . وقد اتخذ من قرطاجنة بافريقية عاصمة لمملكته . ثم خلفه ولده هونيرك .

وقد فرض جنسيريك هيبته على المناطق التي دخلت في حكمه . ولكن خلفاءه كانوا دونه مستوًى في تسيير دفة الحكم[1] .

---

(1) راجع : Martroye. Genséric. p.322

هونيرك 477 – 484

كان أكبر ابناء والده جنسيريك ، ولكن حكمه لم يدم طويلا ، وقد حدثت ثورة ضده وحاول خصومه خلعه . فظفر بهم وأحرقهم أحياء ، كما كان خصماً عنيداً للكاثوليكيين . وقد مات سنة 484 .

كونطامون «Guntamond» 484 – 496

هو الذي خلف «Hunéric» على عرش الوندال ، وقد رد إلى رجال الكنيسة اعتبارهم وأرجع المطرودين منهم في عهد جنسيريك ، ولكن عهده اتسم ببدء انتشار الثورة البربرية على الوندال .

ثرازامون 496 – 523

كان ثرازامون «Thrasamun» مثقفاً أحاط نفسه بحاشية من العلماء ورجال الفكر ، كما عرف بلاطه من البذخ ما يضاهي بذخ أباطرة الرومان ، ومع ذلك ، فقد كان أقل تسامحاً من سلفه كونطامون ، إذ اضطهد رجال الكنيسة الكاثوليكية ونفاهم إلى سردانيا . وقد دهي بانهزام جيشه أمام ثوار البربر في طرابلس ، ومات غما من أجل ذلك سنة 523م .

هيلديريك 524 – 530

كان والده هو نيريك قد تزوج ابنة امبراطور القسطنطينية حيث تربَّى «Hildéric» في بلاطها . ولم ينصب ملكا للوندال حتَّى كان قد تقدم به السن . وكان تسامحه حيال الكنيسة الكاثوليكية مثاراً لغضب الرهبان والأشراف الوندال . ومما يستحق الملاحظة هنا أن رابطة الصهر التي كانت بين ملوك الوندال واباطرة الرومان قد عملت على تدبير مؤامرات متوالية في بلاط الوندال . وهكذا فإن أرملة ثرازامون البيزنطية وهي أخت ثيودور ، حاولت أن تدعو لنفسها في أوساط البربر ، ولكنهم اعتقلوها ، ومات أخوها الامبراطور ثيودور خلال ذلك سنة 524 ، وتابع البربر ثورتهم ضد هيلديريك بقيادة أنطالاس رئيسهم . وحينئذ خلع الوندال ملكهم وأعلنوا جيليمير مكانه .

جيليمير هذا من أعقاب جنسيريك ؛ وما كاد يتولى الحكم حتَّى اعتقل هيلديريك وقتل أتباعه . وحينئذ تدخل الامبراطور جوستينيان مطالبا بارجاع هيلديريك إلى عرشه . وبعد أن رفض جيليمير استقبال مبعوث الامبراطور استعد الفريقان لحرب حاسمة شاركت فيها قوات بحرية وبرية عظيمة حيث بلغ أسطول البيزنطيين فقط 500 قطعة ، كما بلغ عدد قطع الاسطول الوندالي 150 . وكانت قيادة الجيش البيزنطي يتولاها القائد Bélisaire الذي عسكر قرب سوسة ، ثم وجه نداء إلى الأفارقة يدعوهم لمساندته ويتوجه إليهم كمحرر . وتقول الروايات (البيزنطية طبعا) ان البيزنطيين قد عسكروا عند قرطاجنة لمدة اسبوعين قبل أن يقتحموها بدون مقاومة تذكر ، وعلى انغام وافراح السكان الذين اضاءوا المدينة ليلة دخول الغزاة الجدد .

وحاول جيليمير أن يجمع فلوله ويستدعي جيشه بسردانيا. غير أنه انهزم انهزاماً ساحقاً للمرة الأخيرة على بضعة فراسخ من قرطاجنة ، وفر بنفسه إلى القبائل حيث عاش مشردا ثم استسلم لخصومه الذين عاملوه بالحسنَى ونقلوه إلى غاليسيا حيث قضَى بقية حياته مع أسرته . أما هو فقد كان قد أتَى قتلا على هيلديريك وأسرته . وبخلع جيليمير تنتهي حياة الوندال كدولة استغرق حكمها قرابة قرن .

وكان مما أضعف وضع الوندال في إفريقيا أنهم كانوا يجابهون غزو بيزنطة والبربر في آن واحد . كما أن سياستهم تجاه الكاثوليك كانت تتسم في كثير من الأحيان بالعنف والاضطهاد . وساعد على اسقاطهم دسائس النساء اللواتي كان يضمهن بلاط الوندال ، ويرجعن إلى أصل بيزنطي . وفي عهدهم انتشر استخدام الجمل على يد البدو الرحل الذين كانوا يتنقلون بمواشيهم انتجاعا للكلإ .

ومن المؤسف أن لا تقدم الوثائق شيئا وافيا عن حياة موريطانيا الطنجية في عهد الوندال . إلا أنه من المؤكد أن البربر قد استقبلوا الوندال عند دخولهم بكثير من الحماس والتأييد . ولا شيء مع ذلك يثبت أن الرومان قد غادروا هذه البلاد اثر دخول الوندال .

نظم الحكم والادارة

وفيما يخص نظم الحكم والادارة ، فقد احتفظ السكان والرومان والأفارقة

بأعرافهم وبالقوانين الرومانية . أما الوندال فكانوا يخضعون لقوانينهم ومحاكمهم الخاصة . وبذلك لم يغير الوندال شيئا أساسياً مما وجد قبلهم من الأنظمة الادارية ، فظل العمال يطلق عليهم اسم الحكام ويمارسون كما كانوا في الماضي سلطات ادارية وقضائية [2] .

ولم يعد الرومان يحملون خيرات افريقيا إلى ايطاليا . أما الوندال فقد اختلفت سياسة ملوكهم مع الأهالي الذين اضطروا إلى رفع راية الثورة بسبب استيلاء الوندال على أخصب أراضيهم . وظلت العملة الوندالية تضرب في دار السكة بقرطاجنة العاصمة .

وكانت السلطة الدينية في أيدي الكنيسة الآرية التي يخضع لها الوندال وكانت هذه الكنيسة تعمل على محو الكنائس الكاثوليكية من افريقيا ، ولكنها لم توفق إلى ذلك .

وكان الملك يحتفظ بقسط من مداخيل الشمال الافريقي . ويقسم الأراضي الفلاحية إلى مناطق كبيرة تقطن كلا منها فرقة من الجند بعائلاتهم التي تبلغ ألفا في كل منطقة . ومن ثم كان نظام هذا الجند القار لا يختلف في كثير عن نظام الرومان .

وخلال فترة الاحتلال الوندالي ظل التأثير الروماني طاغيا على حياة البلاد والسكان . ومع ذلك ، فمن المؤسف أن تاريخ الوندال لم يشارك في وضعه مؤرخ وندالي حتّى يمكن التوفيق بين رواياته وروايات خصومهم الرومان وغيرهم من الافرنج الذين سبق للوندال أن احتلوا بلادهم . ومن التعسف أن نحكم على الوندال بأنهم همج رعاع خصوصاً بعد استقرارهم وممارستهم الحياة الفلاحية التي لابد أن يكون أهلها على درجة ما من الرقي ، فضلا عن احتكاكهم الطويل بالرومان ، ومن الآثار المكتشفة سنة 1928م ، لوحات تحمل نقوشاً كتابية عثر عليها بتبسة ، وهي تضم عقوداً بنقل ملكية أرضية إلى جانب معلومات أخرى . وهذه اللوحات من مخلفات الوندال .

---

(2) راجع : Martroye, Genséric, p.26

البيزنطيـــون

646 - 531

جستنيان وثورة البربر

أصبحت افريقيا الشمالية خاضعة لاحتلال البيزنطيين منذ عهد جستنيان كما تقدم ، ولم يستمر الصراع بينهم وبين الوندال في هذه البلاد سوَى بضعة أشهر . وقد عين القائد سليمان «Salomon» كاول حاكم بيزنطي بافريقيا الشمالية حيث اتخذ البيزنطيون قرطاجنة عاصمة لهم. ولكنهم اقتصروا في المغرب على نقطة محدودة في الشمال : (سبتة وناحيتها) ذلك لأنهم جابهوا مقاومة عنيفة من بربر المغرب على الخصوص ومن سائر البربر في المناطق التي كانت تخضع من قبل للاحتلال الروماني. وزاد الطين بلة ان البيزنطيين حاربوا اليهود واتباع «دونا» والآريين حربا دينية عنيفة ، فتألّبت عليهم مختلف عناصر السكان. ولم يصف أحد موقف البربر من البيزنطيين بأحسن مما وصفه المؤرخ [1] «Lacroix» حيث قال : «ان بربر المدن والسهول والأودية قد اكتسحهم الغزاة ، ولكن ساكن الصحراء والجبل لم يصله التأثير الروماني قط ؛ فبعد سبعة قرون من الاحتلال الايطالي أجد سكان البلاد الأصليين كما كانوا قبل هذا الاحتلال ، وقد عاقب القائد سليمان ثوار القرن السادس في الأوراس وبيزنطيا حيث كانوا هم نفس البربر الذين حاربوا قبل هذا التاريخ بستمائة سنة تحت راية يوغورطا ، وكانت لديهم نفس العادات والأخلاق ، ونفس البغض للأجنبي وحب الاستقلال وكيفية القتال . وهؤلاء السكان قد بقوا هكذا لم يكن ليبلغ اليهم أي تأثير خارجي . وكان عدد الثوار العظيم الذي هزم قوة جستنيان بعد طرد الوندال كما كان عدم تمكن الرومان من اقرار سلطتهم على الاجزاء المغربية من ممتلكاتهم القديمة دليلا واضحا على أن الأغلبية الساحقة من السكان قد ظلت أبعد ما تكون عن متناول الغزاة» .

---

(1) نقلا عن Mercier, Histoire de L'Afrique septentrionale, T, 1P, 168

وعلى كل حال فقد كانت سيطرة البيزنطيين على ليبيا وافريقية أقوى منها في باقي اجزاء افريقيا الشمالية . وحتّى في افريقية كانت مقاومة البربر شديدة ، إذ رفضوا أداء الضرائب والخضوع لسلطة الدولة .

وقد أدّى التهور بسرجيوس «Sergius» حاكم طرابلس إلى اعتقال رؤساء لواتة وقتلهم في قصره فتألب البربر على البيزنطيين تعضيدا لاخوانهم وقاد الثورة البربرية أنطالاس «Antalas» الذي قضى على سليمان وجيشه في معركة قسرين سنة 543 . ولم يوفق سرجيوس الذي خلف سليمان في التغلب على البربر الذين اكتسحوا مدن افريقية ونوميديا وهزموا جيوشه في كل مكان . ورغم تعيين القائد أريوبندوس «Aréobindus» مساعداً له فإن انطالاس استمر في اكتساحه للمدن والقرى ، بينما دبرت مؤامرة ضد اريوبندوس من لدن بعض أعدائه العسكريين الذين قدموا رأسه إلى انطالاس ، وأخيرا عين القائد جان طروكليتا «Jean Troglita» على جيش بيزنطة بافريقية . وبعد سنوات طويلة من الصراع استطاع اخضاع انطالاس سنة 548 ، حتّى إذا مات جستينيان سنة 565 استأنف البربر الكفاح ضد البيزنطيين الذين قاموا بانشاء تحصينات عديدة في المراكز التي كانوا يحتلونها بما في ذلك سبتة .

وهكذا فإن جوستين «justin» الذي حكم بين 565 و578م لم يكن أحسن حظا من سلفه الذي كان مع ذلك من أعظم أباطرة بيزنطة .

نهاية الحكم البيزنطي

وكما فعل البيزنطيون من قبل برؤساء لواتة ، أبدى قائد قرطاجنة «Gennadius» رغبته في مفاوضة رؤساء البربر الذين استدعاهم إلى قصره وقتلهم جميعا سنة 596 ، ففت ذلك في عضد البربر حتّى إذا كانت سنة 610 . اعتلى ولد القائد البيزنطي السابق هرقل عرش القسطنطينية . وكان الولد يحمل اسم أبيه . وفي عهد هرقل هذا شهدت افريقية فترة من السلم والرخاء . بينما كان العرب يكتسحون الامبراطورية البيزنطية منذ سنة 632 أيام أبي بكر رضي الله عنه ، وكان التمرد يسود صفوف الجيش البيزنطي . أما هرقل فقد اعتنق فكرة توحيد الله التي بدأت تسود بعض الأوساط الدينية . والظاهر أن هذه الفكرة من تأثير انتشار الاسلام الذي يدعو إلى التوحيد خاصة وان هرقل كان شديد العطف على الاسلام حتّى لقد عزت

إليه المصادر العربية أنه كاد يعتنقه لولا خوفه من بطش مواطنيه ثم لا تنس استقباله لرسالة النبي عليه السلام ومبعوثه إليه .

وهكذا كان على هرقل أن يجابه صراعا جديدا من الكاثوليكيين في الشمال الافريقي نفسه حيث أعلن حاكمه جرجير انفصاله عن الحكومة المركزية وأعلن نفسه أمبراطورا سنة 646 ثم اتخذ من سبيطلة عاصمة له حتّى يبتعد عن خصومه بقرطاجنة ، كما ضرب السكة باسمه . وأثناء ذلك كان العرب قد بدأوا مناوشاتهم للبيزنطيين بقيادة عبد الله بن أبي سرح عامل مصر في عهد عثمان وتحولت هذه المناوشات إلى حرب حقيقية منذ تأسيس الدولة الأموية .

الوضع في سبتة

احتفظ البيزنطيون في موريطانيا الطنجية بسبتة التي حصنوها وأقاموا بها أسطولا لحراسة الشواطئ المؤدية إلى جبل طارق . أما في باقي المغرب فإن الحالة السياسية والاجتماعية يسودها الغموض الشامل . ولا نعرف مع ذلك شيئا وافيا عن تاريخ سبتة نفسها في هذه الحقبة . إذ نجد أنفسنا فجأة أمام شخصية يليان الغماري الذي كان على ما يظهر حاكما قوطيا لسبتة تحت السلطة الاسمية للبيزنطيين ثم العرش القوطي ، وذلك قبل أن يتسلم حكم المغرب موسَى بن نصير . ولا يستبعد أن تكون سبتة قد عرفت هذه السلطة الغير المباشرة في عهد البيزنطيين قبل حكم يليان . وعلى كل فإن العرب لم يجابهوا في المغرب خطرا يذكر من لدن البيزنطيين ، بل كان الصراع بينهم وبين سكان البلاد الأصليين خاصة .

مراجع عن الوندال والبيزنطيين

1 - Bibbiographie de l'Afrique du Nord (Christian Courtois Alger 1953)
2 - L'Afrique Romaine (Albertini Eugéne)
3 - Guerre Vendale (Procobe)
4 - La Paix Vendale (CH, Saumagne)
5 - Hist. de l'Afrique du Nord ; T. 1 (A Julien)
6 - Hist de l'Afrique Septentrionale (Ernest Mercier - Paris 1888)
7 - Genséric (F. Martroye)

الفتـــح الاســـلامي

62 ـ 89 هـ / 681 ـ 708 م

فكرة فتح المغرب العربي – الظروف التي ساعدت على الفتح – مراحل الفتح – الاضطرابات وانتشار المذهب الخارجي – آثار الفتح الاسلامي

فكرة فتح المغرب العربي

ترجع فكرة فتح المغرب العربي إلى عهد عمر بن الخطاب سنة احدَى وعشرين هجرية. بعد أن تم لعمرو بن العاص فتح مصر. ذلك أن هذا القائد المحنك، توجه إلى برقة في هذه السنة بكتيبة من الفرسان، فصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار جزية، وكان أهل برقة من قبيلة لواتة التي تنتسب إلى البتر، ثم تمكن من فتح طرابلس، فلم تفلت الروم إلا بما خف من مراكبهم وغنم عمرو ما كان في المدينة[1]، ثم كتب إلى عمر بن الخطاب: «إنا قد بلغنا طرابلس، وبينها وبين افريقية تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل» فكتب إليه عمر: «لا... إنها ليست بافريقية ولكنها المفرقة، غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت».

ومن الصعوبة بمكان أن نتصور المعلومات التي كانت لدَى العرب عن الشمال الافريقي، ولكن من المؤكد أنهم كانوا على علم بقوة شكيمة البربر وبصعوبة اخضاعهم من لدن الغزاة والفاتحين، والجملة التي فاه بها عمر في تبرير عدم السماح بفتح الشمال الافريقي أقوَى دليل على ذلك. وكان عمر يعز عليه أن يلقي بجيوش العرب في الاقطار النائية عن مركز الخلافة.

وقد تمكن عقبة بن نافع من استمالة برابرة فزاز إلى الاسلام، وكان أحد قواد عمرو بن العاص حينئذ.

---

(1) ابن عبد الحكم: فتوح افريقية والأندلس

ولما تولى عثمان بن عفان ، عزل عمرو بن العاص وولى عبد الله بن أبي سرح الذي يمكننا أن نقول إن التفكير الجدي في فتح المغرب العربي قد بدأ على يده ؛ ومع ذلك ، فإن ما لا يقل عن ثلثي قرن قد مضى ، قبل أن يتوصل العرب إلى إخضاع البربر ؛ ولم يقضوا في غير الشمال الافريقي مثل هذه المدة من الفتح ، اللهم إذا استثنينا القسطنطينية التي أعجزتهم بسبب حصانتها واستخدام البيزنطيين للأسلحة الفتاكة التي لم يكن يتوفر عليها العرب وخصوصا النارية .

ولم تكن شجاعة البربر وحدها سببا في عدم تمكن العرب من استمالتهم بسهولة ، فالعرب لا يقلون في الواقع شجاعة عن البربر ؛ ولكن هناك أسباباً أخرى لصعوبة الفتح ، منها أن الولاة العرب لم يحسنوا في الغالب معاملة البربر مما يسر للمذهب الخارجي التسرب إلى شمالي افريقيا ، إذ وجد فيه كثير من البربر متنفسا من الضغط الذي لاقوه من الولاة الأمويين . وينبغي أن لا ننسَى أن الأمويين لم يكونوا يحسنون معاملة الفرس حتّى بعد اسلامهم ، وأن اعتزازهم بالجنس العربي إلى حد التعصب ، كان من أهم أسباب سقوطهم ، فلا عجب أن تكون معاملتهم للبربر شبيهة بمعاملتهم للفرس ، حتّى إذا ظهرت الدعوة إلى أسرة النبي ، أقبل الفرس في الشرق يعضدون العباسيين ، بينما أقبل البربر في المغرب يعضدون الأدارسة ، لأن كلا من العباسيين والأدارسة ، سلكوا سياسة اسلامية وسووا بين المحكومين .

ومن أسباب صعوبة الفتح كذلك ، وعورة أراضي الشمال الافريقي ، بما يكتنفها من جبال وأنهار وغابات ، فهم لم يصادفوا مثل هذه الصعوبة في الشام ولا في جزيرة العرب ، حتّى ولا في مصرا وبلاد الفرس ، لأن أكثر هذه البلاد دون شمالي افريقية وعورة ؛ هذا بالاضافة إلى أنه ليس من اليسير إرسال جيوش كافية بمعداتها ومؤونتها من مركز الخلافة إلى شمالي افريقيا .

والآن ، هل كانت فكرة الفتح لمجرد الفتح والتوسع ، أم كانت من أجل نشر الاسلام واقرار نفوذه الروحي والدنيوي أم أنها كانت بقصد الثراء والحصول على موارد اقتصادية جديدة ؟

الجواب يختلف في رأيي باختلاف الأشخاص الذين باشروا الفتح ، أو أشرفوا عليه من بعيد ، ويختلف كذلك ، باختلاف الظروف التي اكتنفت الفتح .

فأما إذا رجعنا إلى عهد عمر بن الخطاب ، فسنجد أن هذا الخليفة لم يكن يفكر في أكثر من إقرار الاسلام في الربوع التي يحل بها الفاتحون العرب ، ومع ذلك فلم يسمح لعمرو بن العاص بمباشرة فتح افريقية ، ثم لا ننس أن بقاء الروم في هذا الجزء من افريقيا كان يضايق هذا القائد العظيم . وبالتالي كان يضايق وجود العرب في مصر واقرار الاسلام بها ، فالقضاء على الاحتلال البيزنطي ، كان يعني لدَى العرب ، تيسير نشر الدعوة الاسلامية ، ووضع حد لجبروت البيزنطيين الذين كانوا يبسطون فيما مضَى سلطتهم على عرب شمالي الجزيرة أنفسهم . أما فكرة التسلط لمجرد التوسع ، فلم تكن تدور بخلد قادة العرب ، ولكن هذا لا يمنع من الاعتراف بأن العرب الذين كانوا يقطنون فيما مضَى خياما متواضعة ويعيشون عيشة الضنك ، قد وجدوا في أكثر البلدان التي فتحوها موارد اقتصادية استفادوا منها بوسائل مختلفة .

أما إذا نزل بنا التاريخ إلى عهد الخلفاء الأمويين فسنظلم التاريخ إذا قلنا إنه لم يكن لهؤلاء الخلفاء من قصد سوَى العمل على نشر الدعوة الاسلامية . وإذا استثنينا عمر بن عبد العزيز الذي فكر جديا في استقدام الجيش العربي من الأندلس لأنه كان يخشَى عليه ما كان يخشاه عمر بن الخطاب ، ثم معاوية بن أبي سفيان الذي كان من جملة أهدافه وضع حد للسيطرة الرومانية في العالم ، فسيصعب علينا أن ننفي أن خلفاء أمويين آخرين لا يتحملون مسؤولية ما جرَى في ربوع الشمال الافريقي من ارهاق للبربر بالضرائب ومعاملتهم معاملة الرقيق .

الظروف التي ساعدت على الفتح

كان صراع العرب عنيفاً ضد البربر . إذ لم يلاقوا من شدة المقاومة البربرية مثلما لاقوه من البيزنطيين. وتم النصر في النهاية للعرب أيام حسان بن النعمان ثم موسَى بن نصير . ومهما يكن من شيء ، فثمت ظروف قد ساعدت العرب على فتح هذه البلاد ، يمكن اجمالها فيما يلي :

1 – سوء الادارة البيزنطية بعد وفاة الأمبراطور جوستينيان

كان الأمبراطور جوستينيان قد قسم الأجزاء المحتلة من الشمال الافريقي إلى مقاطعات ادارية ، وكان القائد الأعلى للجيش يستقر بقرطاجنة ، وكان تحت قيادته ضباط على رأس مقاطعات عسكرية تقابل المقاطعات الادارية ، الا أن الجيوش الرومانية التي كانت من أجناس مختلفة . كان ينقصها الامتثال والطاعة حتَّى ان

بعض الضباط حاولوا تدبير مؤامرة ضد سولومون القائد الأعلى في عيد الفصح سنة 536م ، كما أن عدداً من الجنود وضعوا على رأسهم أحد القواد الثانويين ويدعَى سطوطزاس . وقد استطاع أن يجمع حوله ثمانية آلاف جندي بينهم عدد من الجنود الونداليين الذين فروا من جيش القسطنطينية والتحقوا من جديد بافريقيا ثم راحوا يحاصرون قرطاجنة ، ولم يتمكن المسؤولون من صدهم إلا بمساعدة قائدهم في صقلية .

وفي طرابلس قبض الحاكم على رؤساء قبيلة لواتة وفتك بهم . فعمت الثورة مقاطعة «بيزاصين» وحاول سولومون قمعها فأحاط الثوار بجيشه وقضوا على كل من الجيش وقائده سنة 543م .

وفي مقاطعة «موريطانيا» استمرت ثورة البربر حوالي خمس عشرة سنة بقيادة الملك البربري كرمول ، وهلك خلالها ثلاثة من القواد العامين للجيش البيزنطي بافريقيا ، ولم تنته هذه الثورة إلا بقتل الملك المذكور سنة 578 .

وكانت رغبة المستعمرين هي الثراء العاجل ، على حساب الأهالي ليرجعوا أغنياء بعد الفقر إلى روما . وكان من المعتاد أن يجمع الدائن الروماني ثروة ضخمة بطريقة الربا ، مستعملا أقسَى أنواع الشدة مع مدينيه البربر ، مما أهاب بالأمير النوميدي جوكورطا إلى اعلان الثورة على الرومان مدة طويلة .

2 – عدم وجود روابط سياسية أو دينية بين البربر

لم يفكر البربر قط في توحيد صفوفهم تحت قيادة ملك واحد أو حكومة موحدة ، فكان من السهل على الغزاة أن يضربوا بعضهم بالبعض الاخر وكان سكان الجبال أكثر الأهالي حرصاً على الاستقلال ، يرفضون الخضوع لسلطة الفاتحين ، ولسوء الحظ لم يحفظ التاريخ مزيداً من المعلومات عن الأمراء الأهالي وماذا كان يجري في «بلاطهم» من أحداث لنعرف مدَى العلاقة فيما بينهم وبين الأهالي من جهة ، وفيما بينهم وبين بعضهم من جهة أخرى وبالاضافة إلى ذلك ، لم تستطع المسيحية الصمود والانتشار بين البربر بشهادة كثير من المؤرخين الأجانب ، فكنا نجد في الشمال الافريقي أدياناً مختلفة ، من مسيحية ويهودية ووثنية في مختلف أشكالها . وهكذا كنا نجد عبدة النجوم إلى جانب عبدة الشمس وغيرهم . فالمسيحية لم تستطع أن تستميل كل البربر ، حتَّى ولا معظمهم على ما يظهر ، لأنها لم تخلف

أثراً اجتماعياً يذكر. وفي الميدان الحضاري كلما ابتعدنا عن قرطاجنة، نجد الأثر الروماني يتضاءل شيئا فشيئا إذا استثنينا مراكز محدودة.

3 – رغبة البربر أنفسهم في التخلص من الاحتلال البيزنطي

لم يكد العرب يزحفون نحو شمالي أفريقيا، حتّى أقبل البربر يستجيبون لدعوتهم، ويساعدونهم على التخلص من النفوذ البيزنطي الذي ضاقوا به ذرعا فقد رفض معظمهم مساعدة البيزنطيين على العرب، ولم يسجل تاريخ الفتح الاسلامي مقاومة تذكر من جانب زعماء البربر، إذا استثنينا الكاهنة، وكسيلة الذي ثار لكرامته الشخصية. غير أنه لا يعزب عن البال أن ثورة الخوارج وغيرهم من البربر لم تكن في الغالب ثورة على الاسلام نفسه. وإنما كانت ثورة على عسف الولاة الأمويين الذين كان هم معظمهم موجها نحو الكسب والغنائم.

هذه أهم الظروف، أو الأسباب التي ساعدت العرب على فتح المغرب العربي. ولو أن الولاة الأمويين أحسنوا السياسة وطبقوا مبادئ الاسلام الصحيحة في هذا الجزء من العالم الاسلامي لسهل عليهم كسب البربر؛ ولعل عبد الرحمان الداخل كان يجد من المغرب العربي عونا له على بسط نفوذه في هذه البلاد الشاسعة.

مراحل الفتح

1 – فتح برقة وطرابلس: عمرو بن العاص

يبدو من خلال المراجع القديمة، أن عمرو بن العاص لم يستأذن عمر بن الخطاب في فتح أجزاء القطر الليبي، على أنه لم تكن هناك حدود مرسومة بين مصر وليبيا، إذ كلتاهما كانت تحت سلطة البيزنطيين قبل الفتح الاسلامي، وهكذا يروي لنا كل من البلاذري وابن عبد الحكم، أن عمراً بن العاص، لما فتح الاسكندرية، سار في جنده يريد المغرب حتّى قدم برقة، فصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار «يبيعون فيها من أبنائهم من أحبوا بيعه»[2] وكانت برقة يومئذ من أخصب أراضي القارة الافريقية، حتّى ان سكانها لم يكونوا يحتاجون إلى جاب يستخلص منهم الخراج؛ بل كانوا يرسلون الخراج رأساً إلى والي مصر. وكان فتح برقة سنة 21هـ. ثم تابع عمرو بن العاص فتوحه، فغزا طرابلس وافتتحها عنوة بسنة 22.

(2) البلاذري، ص 314 وابن ع الحكم، ص 34.

2 – التمهيد لفتح افريقيا : عبد الله بن سعد ، وابن حديج

بعد أن تم لعمرو بن العاص فتح برقة وطرابلس ، استأذن الخليفة عمر في فتح افريقية ، فنهاه عن ذلك كما تقدم . حتَّى إذا كانت خلافة عثمان ، عزل ابن العاص عن مصر ، وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح مكانه . فبدأ عبد الله محاولاته الأولى ببَعث سرايا تهاجم أطراف افريقية ثم ترجع بعد حصولها على الغنائم . ورأى أن يأخذ أمر الفتح مأخذ الجد . فكتب إلى عثمان يستشيره ، فأذن له سنة 27هـ وأمده بجيش عظيم شارك فيه كثير من الصحابة كمروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الرحمان بن أبي بكر . وتم لعبد الله القضاء على جرجير الذي كان والياً على الشمال الافريقي من قبل هرقل . ثم استبد بالحكم لنفسه . وكانت غنائم الجيش الاسلامي عظيمة في هذا اللقاء ولكن القواد البيزنطيين صالحوا عبد الله بن سعد على مبالغ طائلة من الذهب ، على أن ينسحب من افريقية .

ولما كانت سنة 45هـ عين معاوية بن أبي سفيان ، معاوية بن حديج كأول وال على افريقية تابع لسلطة الخليفة مباشرة . وسبب توجيهه إلى افريقية أن القواد البيزنطيين عندما صالحوا المسلمين على 300 من قنطار الذهب إثر هجوم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، غضب الامبراطور هرقل من ذلك وطالبهم بأداء مثلها لخزانته وكانوا قد عينوا عليهم ملكا عوض جرجير ، وهو هباهيا «HABAHIA» فبعث إليهم هرقل قائده نقفور الذي طرد هباهيا ، فالتجأ إلى الخليفة معاوية الذي أمده بجيش عظيم يقوده معاوية بن حديج وكان لقاء الجيش العربي بجيش هرقل في مدينة قونية التي بنيت القيروان مكانها فيما بعد ، إلا أن الجيش البيزنطي سرعان ما انسحب نحو سوسة فلحقه المسلمون واستولوا على المدينة ، كما استولوا على بنزرت .

وإذا لم تكن أعمال عبد الله بن سعد بن أبي سرح ومعاوية بن حديج سوَى مناوشات خفيفة ، فإنها كانت ولا شك تمهيدا لفتح المغرب العربي لأن تدخل الجيش العربي ، قد أطلع قادته على مواطن الضعف في افريقية ، ومهد السبيل لعقبة بن نافع الذي كان قائدا صغيرا في الجيش الاسلامي منذ أيام عمرو بن العاص .

وقد استغرق هذا الدور التمهيدي من سنة 27هـ إلى 45[3] .

(3) راجع بشأن فتوح الشمال الافريقي في عهد الراشدين ما ورد في دراسة للمؤلف بعنوان : «السياسة والمجتمع في عصر الراشدين» ، طبع بيروت .

3 – متابعة فتح افريقية : عقبة بن نافع سنة 50 (670م)

بعد معاوية بن حديج تعين عقبة بن نافع الفهري واليا على افريقية سنة 46هـ على ما ذكره ابن عبد الحكم ؛ وقبل سنة 50هـ على روايات كثيرة ؛ وقبل أن يدخل افريقية ، افتتح في طريقه عدة حصون ومدن من ليبيا . ولما دخل افريقية اختط مدينة القيروان لتكون مقراً لجيشه .

وقد أصبح عقبة يستعين في فتوحه بالبربر ، بعد أن دخل افريقية واليا ، وبدأت مقاومة البيزنطيين تضعف شيئا فشيئا حتّى تركزت أخيراً في قرطاجنة غير أن عقبة لم يهتد إلى مهاجمة الروم في عقر دارهم ، ومع ذلك فقد تجلى أن الجيش الاسلامي قد استقر حقيقة بافريقية بعد اختطاط القيروان .

4 – فتح المغرب الأوسط : أبو المهاجر 51 – 61 (671 – 680)

في سنة احدَى وخمسين عين معاوية بن أبي سفيان سلمة بن مخلد الأنصاري واليا على مصر والمغرب العربي ، فعين هذا بدوره أبا المهاجر واليا على افريقية ، وكانت بينه وبين عقبة عداوة ، فأساء عزل عقبة .

ويذكر ابن خلدون أن أبا المهاجر توغل في ديار المغرب حتّى وصل تلمسان ، وهو أول قائد مسلم بلغ المغرب الأوسط . والظاهر أن أبا المهاجر لم يلق مقاومة تذكر من جانب البربر أو الروم . وخلال هذه الغزوة الطويلة ، أسلم كسيلة رئيس قبيلة أوربة التي كانت على دين النصرانية .

5 – فتح المغرب الأقصَى : عقبة بن نافع 62 – 63 (681 – 682)

حنق عقبة على أبي المهاجر ، وبادر يحتج لدَى الخليفة يزيد ، ويمتن عليه بما قام به من خدمات جليلة في افريقيا الشمالية فرده يزيد إلى ولاية افريقية سنة 62 ، فانتقم بدوره من أبي المهاجر إذ حمله معه موثقا بالحديد حتّى بلغ السوس ، وكان هذا الوالي قد بنَى مدينة قرب القيروان فخربها عقبة وكان كسيلة قد كسبه أبو المهاجر فأسلم هو وكثير من قومه وصار صديقا له فلم ترق عقبة هذه الصحبة وكره كسيلة من أجلها ، ثم صار يصحب كسيلة في غزواته ويحتقره أمام قومه . ومع أن أبا

المهاجر كان أسيراً ، فقد نهَى عقبة عن امتهان كسيلة ، فلم يحفل به ، حتَّى إذا تم له النصر على جموع البربر والروم في المغرب الأقصَى . بعث بمعظم جيشه إلى القيروان ، واحتفظ بالقليل معه ، فما كان من كسيلة إلا أن انتهز الفرصة وصار مع قومه يتعقب عقبة حتَّى بلغ الزاب فأفنَى جيشه الصغير عن آخره ، وقتل عقبة وأبو المهاجر نفسه بين بسكرة وطبنة[4] .

وخلال زحف عقبة على المغرب الأقصَى ، دخل في طاعته الأمير الغماري جليان ، وأصبح دليلا له في تحركاته ، وينقل صاحب الاستقصا عن صاحب «الجمان» أن عقبة كان ينوي أن يتوجه إلى الجزيرة الخضراء ، فنصحه جليان بعدم المغامرة في الأندلس نظراً لأنّ أقدام الجيش الاسلامي لم تثبت في المغرب بعد[5] .

وتبدأ مصاعب العرب بشكل خطير في المغرب العربي ، منذ ثورة كسيلة التي كان مرجعها إلى معاملة عقبة ، ولسوء الحظ ، لم يستفد الولاة بعد عقبة من هذا الدرس الذي تلقاه الجيش العربي بمقتل نخبة من خيرة قادته ، ومع ذلك ، فإن فضل الأمويين لا ينكر ، في فتح شمالي افريقيا .

ثم توجه كسيلة الذي ينتمي إلى أوربة[6] نحو القيروان وكان زهير بن قيس البلوي معتصما بها وهو الساعد الأيمن لعقبة ، فأشار على وجوه أهل القيروان . بالخروج للقاء كسيلة ، فرفض كثير منهم وانسحبوا نحو الشرق ، فاضطر زهير إلى الانسحاب بدوره إلى برقة . بينما تمكن كسيلة من الاستيلاء بسهولة على القيروان سنة 64 . حيث ظل أميراً بها طيلة خمس سنوات . وفي هذه الظروف نشبت فتنة الضحاك بن قيس بالشرق ورجع كثير من البربر عن الاسلام . إذ بقيت افريقيا الشمالية بدون وال مدة خمس سنوات .

6 – بعد قتل كسيلة : زهير بن قيس 69 – 71 (688 – 690م)

بعد أن التجأ زهير إلى برقة ، وصله المدد من عبد الملك بن مروان ، وزهير بن

(4) عقبة بن نافع هو الوالي الوحيد من ولاة بني أمية المشرق الذين دخلوا المغرب (بروفنصال : نخب تاريخية ، ص 12 . وابن عذاري ، بيان 1 ، 37) .
(5) استقصا . ج 1 .
(6) السنوسي ، الدرر السنية ، ص 21 .

قيس البلوي من كبار القواد الذين شاركوا بنصيب وافر في فتح شمالي افريقيا إلى جانب عقبة بن نافع. ولما وصلته أمداد الخليفة، قصد ممس قرب القيروان. وهناك وقعت معركة حاسمة بينه وبين كسيلة سنة 69، وتَمَّ النصر لزهير وقتل كسيلة وجمع عظيم من البرانس الذين أذعنوا للاسلام بعد هذه المعركة؛ بل صارت قبيلة أوربة من أكبر الأعوان على نشره. ولم يتمكن زهير البلوي من متابعة نشاطه الحربي، إذ سرعان ما وصلت امداد ضخمة من جيوش صقلية تحاول أن تسترجع برقة، فسار نحوها لتخليصها، ولم يكن الجيش الصغير الذي كان يصحبه. قادرا على الصمود طويلا أمام جحافل الروم، وهكذا هلك زهير سنة 71 بعد محاولته الموفقة لاخضاع البربر.

7 – دك قرطاجنة ومقتل الكاهنة 73 – 86 (692 – 705م)

في الوقت الذي مات فيه زهير بن قيس، كان الأمويون في صراع مع عبد الله ابن الزبير، ولم يتم لعبد الملك التفرغ لارسال جيش قوي إلى المغرب العربي إلا سنة 73 حينما تعين حسان بن النعمان والياً على افريقية فاستقر أولا بطرابلس. ثم زحف نحو قرطاجنة ليصفي حسابه بصفة نهائية مع البيزنطيين حتَّى يتفرغ للبربر وحدهم. وكانت هذه الخطة أحكم من خطة أسلافه الذين كانوا يصطدمون بالبربر والروم في آن واحد ورغم امدادات صقلية واسبانيا لم يستطع أهل قرطاجنة الثبات أمام جيش حسان القوي، فاقتحم المسلمون المدينة وحطموها حتَّى لا يعود للروم فيها مطمع، وبذلك تم القضاء نهائيا على الروم بالمغرب العربي، وتعين على حسان أن يواجه قوات الكاهنة داهية الزناتية التي تجمع البربر تحت زعامتها بعد مقتل كسيلة، وكانت تشتغل بالسحر والكهانة، إلا أن هذا الزحف لم يكن موفقا بالنسبة لحسان، فقد هزمته الكاهنة، فتراجع نحو برقة بعد أن طاردته حتَّى قابس وقد دام ملكها بعد هزيمتها لحسان مدة خمس سنوات حطمت فيها أشجار المغرب وهدمت حصونه، مما اضطر كثيرا من الأفارقة والنصارَى إلى الهجرة إلى الأندلس والجزر البحرية، وكان مقر الكاهنة واسمها داهية بنت ينفاق الزناتية بباغاية قرب مسكيانة بسفوح الأوراس[7]. وأوحت اليها فكرة شيطانية بتخريب المدن والقرَى والأشجار التي تصادفها في الطريق، توهما منها أن العرب لم يأتوا إلى شمال افريقيا إلا بقصد

(7) ابن عذاري، بيان، 1، 26. حميري، روض معطار، ورقة 68، ابن أبي دينار، مؤنس ص 32

استيطانها واستغلال مواردها ، وكان هذا مما أثار البربر الذين صاروا يمدون لحسان يد المساعدة حتّى تخلص منها بقتلها في جبال الأوراس وبتشريد جموعها ، غير أن ولديها أصبحا من أكبر دعاة الاسلام في منطقة جبال الأوراس[8] .

ولا نسمع شيئاً كثيراً عن أخبار حسان بعدما تقدم ؛ لكن الظاهر أن المغرب العربي قد نعم ببعض سنوات من الاستقرار في عهد هذا الوالي الحازم إذ نَرَى أنه يستقر بالقيروان ليبني مسجدها الجامع ولينظم الشؤون الادارية والمالية ، دون أن يرغم البربر على الاسلام ، فقد احتفظ كثير منهم بنصرانيته أو وثنيته مع ايفائه بواجبه في الخراج ؛ كما بنَى حسان بأمر من عبد الملك ترسانة لصناعة السفن والآلات البحرية بتونس .

وكانت افريقية تابعة لوالي مصر ، وكان إذ ذاك عبد العزيز بن مروان ، فعزل حسان سنة 86 ثم ولى مكانه موسَى بن نصير اللخمي .

موسَى بن نصير :

تضطرب الأخبار حول السنة التي عين فيها موسَى بن نصير والياً على المغرب العربي ، ولكن الظاهر أنه مرت فترة بعد انتقال حسان إلى مصر ، وقبل أن يأتي موسَى سنة 89 إلى المغرب على ما ذكرته بعض الروايات ، ولا يحدثنا التاريخ أن موسَى قد وجد صعوبة تذكر في إخضاع البربر . فقد وجد سلفه قد مهد له الأمور ، ونشر الأمن في هذه الربوع ، ومع ذلك فإن موسَى بن نصير قد تمكن من استمالة حاكم سبتة يليان الغماري وولى على طنجة طارق بن زياد وأنزل معه 27 ألفاً من العرب[9] . وكان موسَى مغرماً بالغنائم والسبي مما أحنق البربر الذين ظلوا يتربصون الفرص للثورة من جديد . وقد استطاع ابن نصير أن يبلغ بجيوشه إلى ناحية درعة التي يبدو أنه لم يمتد إليها نفوذ أجنبي من قبل كما لاحظ ذلك الأستاذ حسين مؤنس في «فجر الأندلس» .

ولما كانت مطامح موسَى بعيدة ، وميله إلى الغزو شديداً ، فقد فكر في فتح

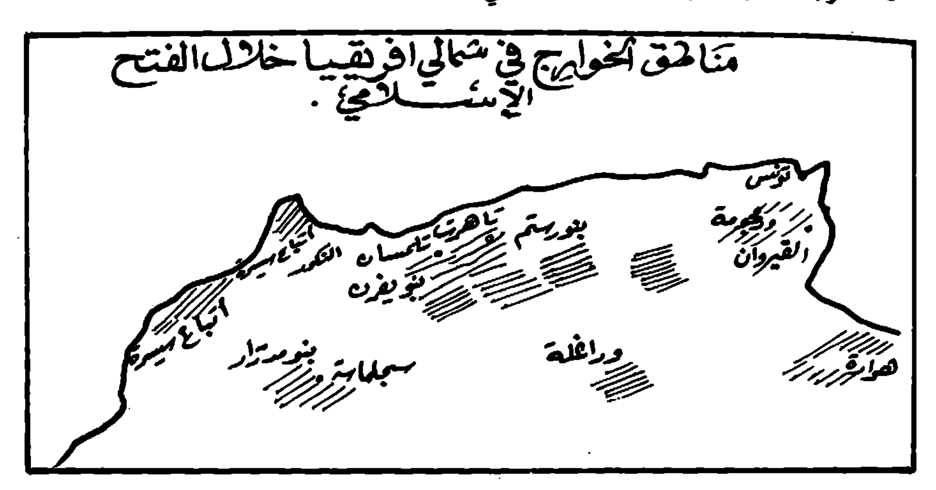
---

(8) ابن عبد الحكم ، فتوح افريقية والأندلس ، ص 74 .

(9) حسب ابن عذاري ، بيان ، 1 ، 37 ، كان طارق بن زياد نفزياً من سبي البربر وكان مولى لموسَى بن نصير .

الأندلس ، بايعاز من الكونت يليان الذي كانت بينه وبين لذريق عداوة شخصية ، ولأول مرة في تاريخ الاسلام يرتبط مصير الأندلس بالمغرب لقرون عديدة ، ويتجلّى أثر المغرب السياسي والحربي في الأندلس منذ أن زحف طارق بن زياد إلى هذه البلاد يوجد أجزاءها ويثبت فيها أقدام البربر والعرب على السواء .

الاضطرابات وانتشار المذهب الخارجي



كانت نية موسَى بن نصير ، تتجه إلى الاستمرار في فتح أوروبا بعد الأندلس لينتهي إلى القسطنطينية ويتصل عن طريقها بعاصمة الخلافة ، فلم تصادف هذه الفكرة هوًى في نفس الخليفة الوليد ؛ وقرر استقدام موسَى سنة 96هـ . فصار إليه مثقلا بالغنائم والأسرَى الذين بلغ عددهم آلافا كثيرة ، وبينهم آلاف من أجمل نساء البربر !

وكان من أحسن أعمال موسَى أن أشرك البربر في الجهاد بالأندلس ؛ فتألفهم بذلك لصالح الاسلام ، وصرفهم عن التفكير في إحداث الاضطرابات ولو إلى حين .

وتوالى الولاة على المغرب بعد موسَى بن نصير ، ولم يكن الخلفاء يعينون ولاة محليين في كل من أقطار المغرب العربي حتَّى يسهل على الوالي العام ضبط الأمور ، بل كانوا تارة يعينون على المغرب العربي والأندلس والياً عاماً ، وطوراً يعين هذا

مندوبا عنه بالأندلس ، وكان من أحسن ولاة بني أمية على المغرب العربي اسمعيل ابن عبيد الله بن أبي المهاجر الذي عينه عمر بن عبد العزيز سنة 100 ، وكانت سياسته تهدف إلى نشر الاسلام بالاقناع والدعوة السلمية ونقل صاحب الاستقصاء عن أبي العرب ، أن عمر أرسل إلى هذا الأمير عشرة من التابعين يفقهون أهل المغرب في الدين ، منهم حبان بن أبي جبلة[10] .

ثم تولى بعد ابن أبي المهاجر ، يزيد بن أبي مسلم ، وكان يشرف على خراج العراق فيما سبق . وكانت توليته على يد يزيد بن عبد الملك سنة 101هـ وكان شديدا على الموالين لبني نصير ، حتَّى أنه أخذ موالي موسَى بن نصير من البربر . فوشم أيديهم واتخذهم حراسا له[11] وأنف هؤلاء البربر ما صنع بهم يزيد . فقتلوه سنة 102 ، ثم استعمل بعده بشر بن صفوان ، فعبيدة بن عبد الرحمن .

ولما كانت سنة 116 عين عبيد الله بن الحبحاب على الشمال الافريقي والأندلس ، في عهد هشام بن عبد الملك . فولى عمر المرادي طنجة وباقي شمال المغرب ، كما استعمل ولده (أي ولد عبيد الله) على السوس وما وراءه . وعامل المرادي البربر بمنتهَى الغلظة . وكتب اليه ابن الحبحاب بتخميس البربر المسلمين منهم وغير المسلمين فأساء السيرة كما يقول ابن عذاري وتعدى في الصدقات والعشر حتَّى كانت الثورة ضده أول ثورة في الإسلام بالمغرب وإفريقية . وهكذا اجتمع البربر في الشمال بزعامة ميسرة المدغري الذي قتل المرادي عامل طنجة ، وعين نفسه خليفة ، وجعل على طنجة والياً من قبله ، هو عبد الأعلى بن حديج ، وهو من أصل رومي ، حسب رواية ابن عبد الحكم . ثم أرسل ابن الحبحاب خالد بن أبي حبيب الفهري ، فاصطدم بجيوش ميسرة في طنجة ، وقتل مع جماعة من وجوه العرب .

وقد اختلف المؤرخون في أمر ميسرة ، إذ يقول ابن خلدون أنه كان رئيساً على مطغرة ، بينما يروي ابن عبد الحكم والبكري أنه كان سقاء في القيروان .

ولم يحسن ميسرة السيرة في اخوانه البربر ، فقتلوه ، وولوا عليهم خالد بن حميد

---

(10) الاستقصا ج 1 ص 101 .
(11) ابن عبد الحكم 112 .

الزناتي . وخلال ذلك ، تفاقمت الأحداث في الأندلس وشمالي افريقيا وانتقض البربر على عبيد الله بن الحبحاب ، فبادر هشام بعزله سنة 123 وتولية كلثوم بن عياض القشيري الذي استعان بقائد قدر له أن يلعب فيما بعد دوراً خطيراً في الأندلس ، وهو بلج بن بشر القشيري ، وكان عرب المغرب قد ألفوا الحياة هناك ، وأصبحوا يعتبرون أنفسهم مواطنين كباقي السكان . وكان يتزعمهم حبيب بن أبي عبيدة .

تقدمت جيوش كلثوم إلى المغرب الأقصى لمجابهة البربر وهم بقيادة خالد الزناتي ، وكان في صحبة كلثوم حبيب ابن أبي عبيدة . وقد قتل أثناء المعركة ، ثم انهزم العرب بعد أن تكاثر عليهم البربر ، وفر في مقدمتهم بلج بن بشر ، حيث تحصنوا بسبتة فضيق عليهم البربر الخناق وقطعوا عنهم الامدادات والأقوات وكانت هذه الهزيمة من أفظع ما مني به الأمويون في افريقية .

وسرعان ما وصلت امدادات هشام من مصر ، بقيادة عاملها حنظلة بن صفوان سنة 124هـ وأثناء ذلك تجمع بعض البربر حول أحد قادتهم ، عكاشة بن أيوب الفزاري الخارجي ، وهددوا عاصمة افريقية ، ولكن حنظلة تمكن من صدهم وهزمهم .

وكان عبد الرحمن بن حبيب قد التجأ إلى الأندلس بعد هزيمة بلج بن بشر والتجائه إلى سبتة ، ولما كان عبد الرحمن يمنيا ، ووالي الأندلس عبد الملك بن قطن يمنيا كذلك ، فقد اتفقا على طرد القيسية من الشمال الافريقي وضاق الأمر بحنظلة ، ولم يكن يرغب في سفك دماء المسلمين ، فغادر افريقية سنة 127هـ ، واستبد بالأمر عبد الرحمن بن حبيب ، بينما كانت الدولة الأموية في الشرق تقترب من نهايتها . والظاهر أنه عجز عن اخضاع البربر الذين ثاروا في كل مكان يوجد به عرب ، وان كان قد تمكن من الظفر بثابت الصنهاجي وعروة بن الوليد الصفري وغيرهما من زعماء البربر الثائرين ؛ ولكن الفوضى قد استمرت في أيامه ، ثم في عهد أسرته التي انشقت على نفسها يؤيد كلا منها فريق من العرب حتّى إذا كانت سنة 135هـ ، انقضت ورفجومة على عرب القيروان . وورفجومة من البربر الزناتيين الصفريين ، وكانوا يكرهون سلطة العرب ، فثار ضدهم بربر نفوسة الاباضيون

وطردوهم من افريقية بقيادة أبي الخطاب الذي بادر بتعيين عبد الرحمن بن رستم أميراً عليها . وهو من أصل فارسي . ولكنه سرعان ما غادر القيروان بعد أن وصل قائد المنصور محمد بن الأشعث ، ثم توجه ابن رستم إلى تاهرت ، وهناك أنشأ دولة خارجية لعبت دوراً هاماً في تاريخ المغرب الأوسط . وبدأت تتشكل دويلات حقيقية على يد الخوارج ، وأهمها دولة بني مدرار بسجلماسة .

وقد لاحظ «كوتيي»[12] أن مناطق الثورة تتمثل في مواطن زناتة انطلاقا من طرابلس الغرب . وأن هذه الثورة الزناتية تتشابه من بعض نواحيها مع الطبيعة الزناتية التي هي طبيعة الرحل ، حيث يستحيل خضوعهم لقيادة موحدة بينما لم تقم المدن بأكثر من دور التأييد لهذه الثورة .

الخـــوارج :

نشأ عن قضية التحكيم بين علي ومعاوية ، الدعوة إلى المذهب الخارجي الذي انقسم أصحابه إلى عشرين فرقة أهمها أربعٌ :

1 – **الأزارقة** : وهم أتباع نافع بن الأزرق ، وهم يكونون أعظم فرق الخوارج . وقد كفروا علياً وأصحابه ، كما أنهم يكفرون مرتكب الكبيرة ، بل انهم تبرأوا من سائر المسلمين ، واستحلوا قتل أطفالهم .

2 – **النجدية** : وهم أصحاب نجدة بن عامر الحنفي الذي انفصل عن نافع ابن الأزرق وخالفه جملة في مذهبه. ومن رأيه أنه يحرم غصب مال المسلمين وسفك دمائهم . وقد ألغى الحد على شارب الخمر وأجاز التقية . وعاش نجدة في أيام يزيد بن معاوية .

3 – **الاباضية** : اتباع عبد الله بن أباض التيمي الصريمي وهم يحكمون للمسلمين بحكم المنافقين ، ويرون التزوج من غيرهم ولم يحلوا قتال غيرهم غيلة .

4 – **الصفرية** : وهم أصحاب زياد بن الأصفر ، ويتفقون مع الاباضية الا في القعدة ، أي المتخلفين عن القتال ، فهم لا يكفرونهم ولا يحكمون بقتل اطفال المشركين . واكثرهم كانوا لا يحاربون .

---

(12) Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord pp.290-295

وقد صحب الخوارج من مختلف المذاهب ، الجيوش الاسلامية التي حاربت في مختلف الأقطار ، وجاءوا إلى شمال افريقيا بوصفهم محاربين[13] ، غير أن أكثرهم كانوا اباضية وصفرية . لأنهم كانوا أكثر الفرق اعتدالا . وقد وجدوا البربر مستعدين لاعتناق مذهبهم الذي يجيز قتل الامام إذا كان عاصيا والبربر بطبيعتهم إباة ضيم ، فهم لم يخضعوا لغيرهم من الفاتحين السابقين الا في نطاق محدود . ولم يكن الأمويون يسلكون في الغالب سياسة تتفق ومبادئ الاسلام الحقيقية ، فإن ولاة عبيد الله بن الحبحاب قد عاملوا البربر المسلمين معاملة غير المسلمين . وهكذا ثار ميسرة الخفير بناحية طنجة ، وكان يعتنق مذهب الصفرية ، فقتل عامل طنجة عمر المرادي ، ودعا لنفسه بالخلافة ، والخوارج لا يرون أن الخلافة يجب أن تكون في قريش بالذات لأن روايات المحدثين تضطرب في هذا الشأن . ولم يتفق ميسرة مع أصحابه فقتلوه وولوا عليهم خالد بن حميد الزناتي الذي تمكن من صد هجوم العرب في وادي شلف. وكانت الدولة الأموية قد قضي عليها بالشرق. فانتفض البربر على العرب وقامت جماعة من بربر مكناسة الصفرية تؤسس دولة بسجلماسة بزعامة عيسَى ابن يزيد الأسود، وذلك سنة 140هـ ولم تمض خمس عشرة سنة حتَّى انتفضوا عليه وقتلوه، ومن أعظم ملوك بني مدرار اليسع بن أبي القاسم، وهو الذي أتم بناء سجلماسة وسورها وفي عهد الفاطميين، دخلها مصالة بن حبوس الكتامي سنة 309هـ. ثم فتحها جوهر الصقلي سنة 347هـ، وسرعان ما انتفضت على الشيعة. ثم احتلها المغراويون بعد بضع سنوات . وقضوا على نفوذ بني مدرار سنة 366هـ . ولكن العمارة استمرت مع ذلك في سجلماسة إلى القرن العاشر ، ثم اندثرت بعد ذلك حتَّى فقدت آثارها ، وهي قريبة من الريصاني ، وقد أجريت بها حفريات أولية ابتداء من 1972م .

ويلاحظ أنه كان بين ملوك بني مدرار اباضيون وصفريون ، فاليسع بن أبي القاسم مثلا كان صفريا ، وكان محمد بن ميمون أباضيا .

برغواطة :

كانت برغواطة من قبائل المصامدة المستوطنين فيما بين سلا واسفي ، وعاصمتهم

---

(13) راجع بحثا عن الخوارج للأستاذ ابن تاويت ، مجلة البحث العلمي ، 4 ، 5 . الرباط .

هي شالة ثم أزمور . وكان من بينهم صالح بن طريف أحد قواد ميسرة والداعين لمذهبه . حتَّى إذا قتل ميسرة ، استمر صالح في تامسنا يتزعم برغواطة . وحسب ما ساقه كل من صالح بن عبد الحليم وابن خلدون ، فقد كان على كثير من العلم ، مما أدَّى به إلى ادعاء النبوة واحداث كتاب «مقدس» بالاضافة إلى طقوس وقوانين خطيرة على المجتمع ، كالتزوج بعدد غير محدود من النساء ، والاستشفاء ببصاق الاولياء وقد انتشرت هذه الطقوس بين البرغواطيين الذين تمردوا على الأدارسة ، ولم يستطع أن يقطع دابرهم سوَى المرابطين ، وليس بعيدا ان تكون هذه الطقوس والبدع قد تسربت إلى الصحراء ، وأثرت في سكانها حتَّى جاء المرابطون ليقروا هناك وفي شمالي المغرب ، مبادئ الاسلام الصحيحة .

وقد صادفت ثورة برغواطة ثورات عارمة أخرى في الشمال الافريقي كلها على يد الخوارج ، بل كانت ثورة خوارج المغرب أسبقها لما كان من تعدِّي المرادي عامل طنجة على السكان بتخميسهم وحشد بناتهم لإرسالهن إلى خلفاء بني أمية ، وكانت بداية هذه الثورة سنة 122 . وزعيمها ميسرة الحفير المذكور والذي خلفه صالح بن طريف زعيم برغواطة . وذكر ابن عذاري نقلا عن ابن القطان(14) أن طريفا من أصل يهودي ، وقد اتصل بسكان تامسنا داعيا لنفسه ، ثم خلفه ابنه صالح ، وكلاهما حضر الحروب التي خاضها ميسرة ، ولما مات هذا خلا الجو لصالح ، فتولى قيادة برغواطة ، وصارت الإمارة وراثية في عقبه .

وكان صالح الذي ولد سنة 110 قد تنبأ في قومه وشرع لبرغواطة ديانة لم يظهرها وإنما أوصَى بها ابنه إلياس كما أوصاه أن يكون موالياً لبني أمية . غير أنه تمسك بالإسلام ولم يعمل بكلام والده حتَّى خلفه نجله يونس ، وهو الذي أظهر ديانة صالح جده وأخلى عددا كبيرا من المدن من أجلها لأنه أرغم المصامدة عليها بحد السيف ، كما قتل العديد من صنهاجة وزناتة ، وقد ذكر البكري أسماء عدد كبير من القبائل التي دانت بالطاعة لبرغواطة كزواغة ، ومطغرة ومطماطة وغيرها . وقد حاربهم الأمير تميم اليفرني بعد سنة 420هـ كما يشير إلى ذلك البكري ، كما حاربهم الأدارسة فيما قبل ، من غير طائل ، وبينما يذكر البكري أن هذا الأمير «غلبهم على بلادهم وسباهم وجلا من بقي منهم واستوطن ديارهم وانقطع أمرهم وعفَّى آثارهم

(14) ابن عذاري ، بيان ، 1 ، 60 .

ولم يبق لضلالتهم باقية ...» نرَى أن المرابطين قد أعلنوا عليهم فيما بعد حرباً ضارية حتَّى بدا أن الإسلام قد تمكن منهم في عهد يوسف بن تاشفين لكن الواقع أن الذي انقطع هو ملكهم بموت عيسَى بن عبد الله في عهد يوسف بن تاشفين. ذلك أن ابن الخطيب يشير إلى أن المهدي بن تومرت حاربهم أيضا، ثم كان لايزال لهم أثر في العهد المريني[15].

ولا يعرف على وجه التحقيق أصل تسمية برغواطة. وقد فنَّد ابن خلدون ما ذكره مؤلف «نظم الجوهر» وهو مغربي، من أن تكون التسمية المذكورة تحريفاً للفظ برباط الذي هو واد قرب شريش بالأندلس. كما استنكر أن يكون صالح بن طريف من أصل يهودي، أو أن تكون برغواطة من غير مصمودة نظراً لوجودها بمناطقهم. وقد علل ذلك بأنه «لا يتم الملك والتغلب على النواحي والقبائل لمنقطع جذمة دخيل في نسبه»[16]. وهذه غفلة من مؤرخنا الكبير. فكيف تم الملك لبني رستم في تاهرت؟ وما شأن المماليك الذين أسسوا عدة دول بالمشرق العربي ولا تحفظ أنساب جل مؤسسي دولهم؟

أما الذي نرجح به علاقة الديانة البرغواطية بالأصل اليهودي، فهو عدة أسباب مجتمعة:

1 — أن عدداً من ملوك برغواطة سموا بأسماء عدد من أنبياء إسرائيل، كاليسع ويونس وإلياس.

2 — أن عدداً من سور «القرآن» الذي وضعه صالح تحمل أسماء تتعلق ببني إسرائيل بما فيها أسماء بعض أنبيائهم، من ذلك مثلا: يونس، فرعون، سورة الجراد، سورة هاروت وماروت.

---

(15) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، 3، 187. يقول بالنص: «وقبيلهم اليوم قبيل ضعيف، لعب سيف الملثمين فيهم ثم سيف المهدي بعده». غير أن ابن خلدون، ج 6، 434 لا يشير إلى بقايا البرغواطيين في عهده، بل يؤكد أيضا أنهم انقرضوا أيام المرابطين.
انظر روض القرطاس 1، 171 و2، 24، 31، 142 فهو يذكر أنه كان بين برغواطة وعبد المومن الموحدي حروب عظيمة. وراجع مادة (بَرْغواطة) في معلمة المغرب (الرباط).
(16) ابن خلدون: تاريخ، 6، 435.

3 — ان برغواطة كانوا ضليعين في السحر والتنجيم . ومعلوم أن بني اسرائيل كانوا من أقدر شعوب العالم في هذا الباب . وعندما أنعم الله على موسَى بمعجزة ، كانت هذه المعجزة هي العصا التي يبطل بها السحر كما هو منصوص عليه في الثوراة والقرآن .

وقد كان لبرعواطة أدباؤهم ومثقفوهم . كما أن لهم مؤرخاً من بينهم هو زمور البرغواطي الذي ضاع كتابه واستقى منه مؤرخون وجغرافيون لاحقون كالبكري وابن عذاري وغيرهما .

آثار الفتح الاسلامي في المغرب

كان للفتح الاسلامي في المغرب آثار عميقة شملت الناحية الاجتماعية والثقافية والسياسية . وتجلى بعض هذه الآثار بصفة مباشرة عقب الفتح الاسلامي كما أن بعضها تجلى في ظروف مختلفة . ويهمنا في هذا المقام أن نعرف الآثار المباشرة التي نتجت عن هذا الفتح قبل دخول الادارسة .

وإذا كان العرب قد لقوا مقاومة عنيفة من بربر المغربين الأدنَى والأوسط ، فإن طيراس يرَى أن هذه المقاومة كانت ضعيفة من بربر المغرب حيث لم يصطدم العرب مطلقا بمقاومة جماعية ، بل يبدو أنهم كانوا يحاولون ان يضموا البربر إلى صفوفهم عوض محاربتهم «ففي نواح كثيرة من المغرب لم يقم الفتح الاسلامي سوَى بادخال دين جديد ، واقرار أو توطيد سيادة قبيلة أو رئيس . بدون تغيير عميق في حياة البلاد»[17] .

أما أن العرب لم يكن يهمهم أكثر من نشر الاسلام في ربوع الشمال الافريقي ، فهذا أمر لا يعدو الحقيقة[18] ، خصوصا في عهد الولاة الأولين ، كعقبة وحسان ، وأما أنهم لم يقوموا بتغيير عميق في حياة البلاد ، فإن تغيير الأوضاع الاجتماعية لا يحدث مباشرة بعد امتزاج أمة بأخرى ، وخصوصا إذا كانت الأمتان في وضعية البربر والعرب ، فحياتها الاجتماعية لا تكاد تختلف سواء من حيث السكنَى أو

(17) طيراس الجزء 1 ص 88

(18) يذكر البكري ، ص 179 بأن جيوش بني أمية وصلت إلى غانة وأن ذرية هذه الجيوش كانت معروفة باسم الهُنيهين (بضم الهاء الأولى) في القرن الخامس (الهجري) .

الطعام أو الاخلاق والعادات. وبعبارة أخرى فإن العرب خلال قيامهم بفتح المغرب العربي، لم يكونوا هم أنفسهم قد بلغوا من الحضارة درجة تذكر، ولكننا مع ذلك، لا ننسَى الأثر الديني في البربر. وهو أثر يستطيع المرء أن يؤكد أنه كاد يكون مباشرا من حيث اشتراك البربر في فتح الأندلس، وظهور المذاهب الخارجية في كثير من اجزاء المغرب.

وإذاً، يمكننا أن نجمل الاثار التي تركها الفتح الاسلامي مباشرة في المغرب كما يلي:

1 — بدء انتشار الاسلام في المغرب: لأن اقرار هذا الدين في عموم المغرب الأقصَى انما تم على يد الأدارسة، لكن يمكن القول أن الأثر الديني كان في الشمال أعمق منه في سائر جهات المغرب، ففي هذا الجزء بالذات استقرت الحاميات العربية الأولى. وهنا أيضا ظهر الخوارج الأولون في المغرب أما في الغرب، فلم تتمكن مبادئ الدين الصحيحة من نفوس البربر، حيث نجد البرغواطيين قد أحدثوا بدعا كثيرة في الاسلام. ولم يستطع لا الأدارسة ولا دويلات القرن الرابع الهجري أن تضع حداً لهذه البدع حتّى قضَى عليها يوسف بن تاشفين كما سبق في غير هذا المقام.

2 — اشتراك البربر في فتح الأندلس: كانت أربعون سنة من استقرار العرب بالشمال الافريقي منذ قدوم عقبة كافية لجعل كثير من البربر يعتنقون الاسلام عن عقيدة واقتناع وكان من بين هؤلاء المؤمنين طارق بن زياد الذي بفضله ثم اقرار الاسلام في الأندلس.

وقد اختلف في نسب طارق بن زياد. حتّى ان بعضهم عده فارسيا، على أن أغلبية المؤرخين عدوه بربريا[١٩]. والمهم أنه لعب دورا رئيسياً في فتح الأندلس. كما أن الجيش الفاتح كاد يكون كله من البربر الذي بلغ عددهم اثني عشر ألفا عند اجتيازهم إلى الأندلس لأول مرة، وتمكن طارق من فتح قرطبة ومالقة وغرناطة ومرسية وطليطلة على التوالي. وحصل على مائدة ثمينة من الزبرجد نسبت إلى سليمان عليه السلام.

---

(19) ابن عذاري 2 ص 7

وإذا كان موسَى بن نصير قد حسد طارقا على ما حصل عليه من فتوح وغنائم ، حتَّى إن الأمر أدَّى به إلى اعتقاله ، فإن هذا لم يحرك ساكنا ، مع ما كان يتمتع به من نفوذ بين قومه . وقد قيل أن موسَى كان قد أوصاه بعدم تجاوز قرطبة في فتوحه فلم يمتثل . وعلى أي . فقد كانت المعركة الحاسمة في وادي البرباط بين جيش طارق وجيش لذريق سنة 92 . وكان في رفقة طارق جماعة من القواد المسلمين المشهورين كمغيث الرومي وعبد الملك المعافري .

والواقع أن موسَى بن نصير قد أساء إلى طارق باعتقاله ، والتنكيل به ، بيد أن عمله هذا ليس إلا حلقة من سلسلة المساوئ التي ارتكبها الولاة الأمويون ضد البربر في المغرب . وقد انتقلت هذه السياسة السيئة بانتقالهم إلى الأندلس ، خصوصا في أيام عبد الملك بن قطن الذي تولى سنة 123هـ وفي أيامه قدمت طالعة بلج بن بشر ، فاشتد بهم عضد العرب ، وقاموا ينتقمون منهم في شذونة حيث «لم يكن للعرب فيهم إلا نهضة واحدة حتَّى أبادوهم وأصابوا أمتعتهم ودوابهم ، فاكتسَى أصحاب بلج ، وانتعشوا وأصابوا المغانم ! !»[20] .

مهما كان من معاملة الأمويين للبربر ، فإن هؤلاء قد أخلصوا للاسلام ، وبفضلهم استمر الحكم الاسلامي للأندلس ثمانية قرون .

3 ـــ التأثير الحضاري : استغرقت الفترة الواقعة بين قدوم عقبة بن نافع إلى المغرب ، وقيام الدولة الادريسية ، ما يناهز قرنا وربعاً ، فما هو مدَى تأثير الحضارة العربية في بلاد البربر خلال هذه المدة ؟ وماذا يمكن أن نعرف عن النظم الادارية والمنشآت العمرانية والحركة الثقافية بالمغرب خلال هذه الفترة ؟

إن المصادر المعروفة لحد الساعة ، لا تفيدنا بشيء كثير من آثار الفتح الاسلامي من الوجهة الحضارية ، كأن العرب لم يكن يعنيهم سوَى أن يفتتحوا هذا الجزء من العالم ، وأن يبسطوا سلطتهم على اخوانهم البربر . وكأن المؤرخين لم يكن يهمهم سوَى الجانب السياسي من التاريخ بما فيه من فتن واضطرابات ومساوئ . من غير أن يهتدوا إلى إيفاء الجانب الحضاري حقه من البسط والتوسع . ومع ذلك ، فإن القارئ الكريم يستطيع أن يجد معلومات متناثرة في مختلف الكتب التي عالجت

(20) ابن عذاري ج 2 ص 43

تاريخ المغرب ، وجادت على هذه النقطة الهامة ببضع جمل أو سطور .

لم تكن جيوش العرب الفاتحة ، كثيرة العدد ، إذ لم تكن تتجاوز في الغالب 110.000 رجل معظمهم يظلون إلى جانب الوالي العام بشمال افريقيا في القيروان ، أو في المدن الكبيرة[21] ، ولذلك فلم يتأثر الاقتصاد المغربي كثيرا على ما يظهر بقدوم العرب الأولين ولكنه سوف يتضرر إلى حد الخطورة ، حينما سيكتسح بنو هلال المغرب . وفي الغالب كانت الأندلس تابعة للقيروان . والمرجح أنه كان للأمويين عمال كثيرون في مختلف أقاليم شمال إفريقيا ، وسلطتهم لم تكن محددة ، ولكن مهمتهم الأساسية جباية الزكاة والخراج . وكان الاتصال قليلا بمركز الخلافة ، نظرا لبعد المسافة وبطء وسائل المواصلات ، غير أن الولاة كانوا لا يبتون في الشؤون الهامة من غير استشارة الخليفة ، فتوسيع مسجد القيروان في عهد حسان ، وفتح الأندلس في عهد موسَى بن نصير من بين الأمور التي استدعت مثل هذه الاستشارة . وإلى جانب ذلك . كانت تقع سوابق خطيرة في شمال افريقيا أو في الأندلس ، فيقرها الخليفة ، كعزل وال وتعيين آخر مكانه من لدن الأهالي .

ويعتبر عهد حسان بن النعمان من الوجهة السياسية والادارية ، أحسن حقبة مرت في تاريخ الفتح الاسلامي بالمغرب العربي . فقد عمل على تنظيم الشؤون الادارية بانشاء الدواوين ، وكتب الخراج على عجم شمال افريقيا[22] ، وكانت النقود تكتب بالعربية واللاتينية . وقد يشترك غير المسلمين من أهالي البلاد في شؤون الادارة : وخلافا لما ذكره طيراس من أن البربر قد أسلموا بالقوة ، فإن بقاء كثير منهم على المسيحية أو اليهودية ، وحتَّى الوثنية في بعض المناطق ، لقاء خراج يؤدونه (مقابل الزكاة المفروضة على المواطنين المسلمين) يدل على أن الولاة لم يرغموا الأهالي على الاسلام ، وان كان هذا لا ينفي أنهم أساءوا أحيانا معاملتهم من غير مراعاة لدينهم .

وقد أحاط ولاة القيروان أنفسهم بجنود من العرب . أصبحوا يكونون طبقة ارستقراطية تحافظ على امتيازاتها وعصبياتها القبلية . ولا يعطينا التاريخ أسماء ولاة كثيرين للأقاليم تابعين لحاكم القيروان ، ونسمع فقط عن وال واحد بطنجة هو عمر المرادي الذي قتله الخوارج بسبب سوء تصرفاته كما نسمع عن يليان حاكم سبتة

(21) طيراس 1 ص 91.

(22) ابن خلدون 6 ص 219 وابن عذاري 1، 30.

الذي أقره موسى بن نصير عاملا عليها[23] ومصير هذا الحاكم يكاد يكون مجهولا بعد تدخله في الأندلس إلى جانب المسلمين كما أن طارق بن زياد تولى على طنجة وسائر المغرب الأقصى حسب ما يرويه ابن عذارى[24]. وتمدنا المراجع القديمة بمعلومات أكثر نسبيا فيما يرجع إلى الناحية العمرانية فمن المؤكد أن استقرار العرب بالمغرب منذ الفتح إلى قيام دولة الأدارسة كان مصحوبا بأعمال عمرانية.

ولا يعرف ما إذا كان عقبة قد قام بأعمال من هذا النوع في المغرب ، إذ من المشكوك فيه أن لا يكون قد قام بعمل البتة في ميدان العمران ، خصوصاً وقد تمكن من بناء مدينة بسائر مرافقها في افريقية ، واقصد بها القيروان . ومهما يكن من شيء ، فيصعب على الباحث أن يستقصي آثار الولاة العمرانية واحداً واحداً .

وقد اتجه العرب في البداية إلى الناحية الدينية فاسسوا مساجد كثيرة ، وحولوا عدة كنائس إلى مساجد ، وجهزوا الجوامع بالمنابر وفي سنة 85 أسس مسجد بأغمات في عهد موسَى بن نصير على ما يفهم من رواية ابن عذاري[25] كما نسب البكري مسجدا بنفيس إلى عقبة .

وفيما يخص المدن . فإن «غساسة» الواقعة غرب مليلية ، والتي عثر على بعض آثارها حديثا ، تعتبر من أقدم المدن الاسلامية بالمغرب ، ولا يعرف بانيها بالضبط ، ولكن من المحقق أنها بنيت في عهد الأمويين . وكانت ميناء هاماً على شاطئ البحر المتوسط وقد نزل بها أبو عبد الله آخر ملوك بني الأحمر بعد خروجه من الأندلس .

وفي النصف الأول من القرن الثاني الهجري بنيت مدينة نكور بين تمسمان والحسيمة . وقد نقل الاستاذ أحمد المكناسي عن البيان المغرب ، ما يفيد ان بانيها هو أحد أحفاد صالح بن منصور أحد رجالات العرب القادمين على المغرب في أيام الوليد بن عبد الملك . وقد قام صالح بنشر الاسلام بين بربر صنهاجة وغمارة في الشمال ، وكان له ثلاثة أولاد أحدهم يدعَى ادريس وخلف هذا ولداً اسمه سعيد من امرأة صنهاجية ، وهو باني نكور . قال ابن عذاري : وكان لها أربعة أبواب منها باب سليمان وباب بني ورياغل وباب المصلى وباب اليهود . وبها جامع كبير ، وأكثر

(23) ابن خلدون 6 ص 437
(24) ابن عذاري 1 ، 37
(25) ابن عذاري 1 ، 37

خشبهم الأرز وبها حمامات كثيرة وأسواق عامرة ممتدة ، وهي بين نهرين أحدهما اسمه نكور وبه سميت المدينة ، ودخلها المجوس سنة 244هـ وتغلبوا عليها وانتهبوا ما كان فيها .

وقد خرب هذه المدينة يوسف بن تاشفين سنة 473هـ . ولا تزال خرائبها تشهد بماضيها المجيد ، وهي على بعد 26 كم من الحسيمة . ويقول أحد الأثريين المغاربة(26) : أنه قد تمكن من استخراج كسرات قديمة من الخزف بنكور وتعتبر أقدم خزف اسلامي عرف حتى الآن . وقد عد الاستاذ عبد العزيز بن عبد الله «نكور» كأول مدينة اسلامية بالمغرب ، ونسب بناءها إلى ادريس بن صالح في عهد عبد الملك . والصحيح أن بناءها لم يشرع فيه قبل نهاية القرن الأول بناء على رواية ابن عذارى المذكورة ، كما أن الباني هو سعيد بن إدريس كما تقدم ، أما أن تكون أقدم مدينة إسلامية بالمغرب فذلك ما يدعو إلى الشك ، فالأستاذ المكناسي في بحثه القيم عن المدن المندرسة بشمال المغرب قد ذكر بأن حياة بليونش التاريخية ، تبدأ حينما عبر المسلمون جبل طارق لفتح الأندلس وأنها كانت تدعَى بمرسَى موسَى ، لأن موسَى نزل بأحد جبالها الوعرة .

وفي سنة 140 بنيت مدينة سجلماسة ، قبل حلول الأدارسة بنحو ثلث قرن وذلك في عهد عيسَى بن يزيد الأسود ، أحد الخوارج(27) الصفرية ، وقد عمرها بربر مكناسة ، وأصبحت مستقلة عن ولاة القيروان . وبنيت في البداية بدون سور . ولما تولاها اليسع بن سمعون المكناسي أحاطها بسور أسفله من الحجارة وأعلاه بالطوب(28) ، وبنَى بها عدة مصانع وقصور(29) ومن ملوكها محمد بن الفتح الذي دعا لبني العباس ثم اعتصم بحصن تاسكرات القريب من سجلماسة ، بعد أن طارده جوهر . وقد تقدم في غير هذا الموضوع أن دولة بني مدرار المكناسية قد انتهت سنة 366هـ ، وأن عمران المدينة قد استمر بعدهم إلى القرن العاشر الهجري .

وأما إذا أردنا أن نعرف شيئا عن الحياة الفكرية بالمغرب في هذا العهد فسيكون

---

(26) الأستاذ أحمد المكناسي في بحثه عن المدن الاسلامية المندرسة في شمال المغرب .
(27) الاستقصا جزء 1 وابن خلدون 6 ص 265
(28) ابن عذاري 216
(29) ابن خلدون 6 ص 268

ذلك أعسر شيء يمكن استنباطه من خلال المصادر القديمة القليلة ، والظاهر أن معظم العرب الذين دخلوا إلى المغرب كانوا أميين أو أشباه أميين . وكان بينهم عدد قليل من التابعين الآخذين بنصيب من علوم الدين . ويحدثنا ابن عذارى أنه لما تولى اسمعيل بن أبي المهاجر سنة 100 كان حريصا على دعوة البربر إلى الاسلام ، حتّى أسلم بقية البربر بافريقية على يديه في دولة عمر بن عبد العزيز . وهو الذي علم أهل افريقية الحلال والحرام ، وبعث معه عمر عشرة من التابعين أهل علم وفضل ، كعبد الرحمن بن نافع ، وسعيد بن مسعود التجيبي .

وقد وصف ابن خلدون سعيد بن واسول جد بني مدرار بأنه من مشاهير حملة العلم في هذه الدولة ، وأنه أدرك التابعين وأخذ عن عكرمة مولى العباس ، كما أخذ عنه من بربر مكناسة عالم آخر يدعَى بسمقو[30] .

يراجع عن الفتح الاسلامي للمغرب الكبير :

1 — ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية والأندلس
2 — البلاذري ، فتوح البلدان
3 — ليفي بروفنصال ، نخب تاريخية
4 — ابن عذارى ، البيان المغرب
5 — البكري ، المسالك والممالك
6 — تاريخ ابن خلدون

---

(30) ابن خلدون ج 6 ص 267
وانظر بشأن آخر الاكتشافات المتعلقة بسجلماسة : تقريرا أعده :
A Cura Di Boris de Bachcuviltz : Missione etno - archeologica nel Sahara maghrebino, Roma, 1972
Gautier, Le passé de l'Afrique du Nord

الادارســة

172 ــ 375 هـ / 788 ــ 985 م

من ادريس الأول إلى مقتل ابن كنون

نـظـرة عـامـة :

نشأة الدولة، إدريس الأول ــ دور العظمة (177-234) ــ دور الضعف (234-375) ــ تدخل المروانيين ــ أدارسة الريف وتداول النفوذ الفاطمي والأموي.

1 ــ دويلات في عهد الأدارسة :

البرغواطيون ــ بنو مدرار ــ بنو صالح ــ بنو عصام...

2 ــ أسباب سقوط دولة الأدارسة :

الأسباب الداخلية، الأسباب الخارجية: تدخل المروانيين والفاطميين ومراحله.

3 ــ أهمية أعمال الدولة.

الحضارة في عهد الأدارسة :

1 ــ نظام الحكم والأدارسة :

الأقاليم ــ السكة ــ الجيش ــ لغة الإدارة ــ مذهب الدولة.

2 ــ الحالة الاقتصادية.

3 ــ البناء والعمران :

المدن ــ جامع القرويين.

4 ــ الحركة الفكرية :

قلة الانتاج ــ مؤرخو الأدارسة ــ العلوم الدينية ــ الحركة الأدبية.



بقايا أطلال وليلي



منظر عام لمدينة فاس

1 – نظرة عامة عن الدولة[1]

نشأة الدولة : إدريس الأول (172 – 177هـ / 788 – 793م)

إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي، فر من وقعة فخ التي شهدتها ضواحي مكة سنة 169هـ، والتي خاضها العباسيون ضد العلويين وأشياعهم . كما فر من نفس الوقعة ، أخوه يحيَى الذي قصد بلاد الديلم ووقع في النهاية في قبضة الرشيد . أما إدريس ، فقد صحبه مولاه راشد إلى مصر ، حيث ساعدهما «واضح» والي البريد بها على النجاة إلى إفريقيا الشمالية وقد نفذ فيه حكم الإعدام بأمر الرشيد . ولم يلبث إدريس أن حل بالمغرب الأقصَى حيث نزل بوليلي عند إسحاق بن محمد بن عبد الحميد رئيس أوربة ، الذي رحب به وقبل دعوته . وهكذا تمت بيعته سنة 172 وبمساعدة هذه القبيلة التي تنتسب إلى البرانس[2] ، تمكن إدريس من الزحف إلى تامسنا لمحاربة البرغواطيين ، ونشر الاسلام بين القبائل البربرية التي لا تزال تدين بالنصرانية واليهودية . وفي سنة 173 انتهَى إلى تلمسان حيث بايعه أميرها محمد بن خزر ، وأسس بها مسجدا ، كان لا يزال قائماً في عهد ابن خلدون على ما ذكره في تاريخه (مجلد 4) . وقد تم اكتشاف المسجد الإدريسي سنة 1974م .

وتواردت أخبار إدريس الأول على الرشيد ، فأرسل إليه من حاشيته رجلا يدعَى بسليمان بن جرير الشماخ الذي قدم إليه سماً في صورة عطر ، بعد أن وجد غفلة من راشد الذي كان لا يفارق إدريس . ورغم أن راشداً طارد الشماخ إلى شرق المغرب على ما قيل ، فإنه لم يستطع قتله وإن كان قد تمكن من قطع يده على ما قيل . وقد كافأ الرشيد جريراً بتعيينه مكلفاً ببريد مصر . وكانت وفاة إدريس سنة 177 .

---

(1) الاستقصاء والطبري وابن خلدون وابن عذاري والبكري وصالح بن عبد الحليم
(2) راجع روض القرطاس ، 1 ، 16

وقد ضايق العباسيون الادارسة منذ قيام دولتهم حتَّى انهم عملوا على تأسيس دولة الأغالبة في افريقية لهذا الغرض[3] وقد كان هناك اصطدام حقيقي بجيوش العباسيين قبل أن يضطر الرشيد إلى توجيه سليمان بن جرير. فقد استعمل على افريقية روح بن حاتم وأمره بان يغزو مناطق النفوذ الإدريسي، فلم يحصل على طائل[4].

دور العظمة: إدريس الثاني (177 – 213هـ / 793 – 828):

ترك إدريس الأول الذي دفن بزرهون جنيناً في بطن أمه كنزة؛ ولم تلبث أن وضعت هذه ولدا فسمي باسم والده بينما تولى أمور الحكم راشد بموافقة البربر. حتَّى إذا كانت سنة 188 تمت مبايعته وهو بعد في مطلع العقد الثاني من عمره. وقد تمكن إبراهيم بن الأغلب من استمالة بعض البربر الذين حرضهم على قتل راشد، فأتوه برأسه سنة 186 بينما قام بكفالة إدريس بعده رجل يدعَى بيزيد بن إلياس العبدى، وروي صاحب الاستقصا أن راشد لم يمت إلا بعد مبايعة إدريس[5] سنة 188. ولم تلبث وفود العرب أن قدمت على إدريس الثاني من الأندلس وافريقيا. والظاهر أنه لم يطمئن كثيرا إلى البربر. فقد اتخذ من هؤلاء العرب بطانته وعين منهم وزيراً هو عمير بن مصعب الأزدي القادم من الأندلس كما استكتب عبد الله بن مالك الخزرجي واستقضَى عامر القيسي الوارد من الأندلس أيضاً.

وبينما كان إدريس يستعد لبناء مدينة فاس، كان ابراهيم بن الأغلب يهيئ الخطط لاثارة البربر ضده بزعامة بهلول المضغري الذي كان من كبار رجال الدولة؛ ولم يتأخر إدريس الثاني عن مكاتبة ابن الأغلب ملتمساً منه أن يخلي بينه وبين المغرب، فتركه وشأنه[6]، كما أن إدريس استمال بهلولاً من جديد بينما قتل إسحاق ابن محمد الأوربي الموالي لابن الأغلب وقد ظلت أوربة وفية للأدارسة حتَّى بعد

---

(3) اصطخري: المسالك والممالك، ص 37

(4) زياني. ترجمان معرب. ص 261

(5) انظر أيضا: السنوسي: الدرر السنية، ص 81، والحلبي، الدر النفيس ورقة 75. م خزانة عامة الرباط، وابن الخطيب، اعمال. 3، 197.

(6) انظر بهذا الشأن: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 3، ص 14، و196

مقتل زعيمها هذا حيث نرى أن علي بن عمر بن إدريس صاحب الريف قد التجأ إليها بعد ثورة عبد الرزاق الخارجي المديوني الصفري[7].

ولما كانت سنة 192 اختط أو أتم اختطاط مدينة فاس التي سيأتي الكلام عليها في موضوع الحضارة في عهد الأدارسة، ثم راح إدريس يحارب صفرية البربر ويقضي على دعوتهم[8]. وكانت وفاته سنة 213 بعد أن امتد حكمه من السوس الأقصَى إلى وادي شلف.

محمد بن ادريس (213 – 221 / 828 – 836) :

ترك إدريس الثاني 12 ولداً ذكراً. وقد عهد بالأمر إلى ابنه محمد الذي قسم المغرب بين اخوته، باشارة كنزة جدته[9]، وكان في هذا التقسيم ضرر على الدولة، إذ لم يلبث أن خرج على محمد بن إدريس بأزمور، أخوه عيسَى الذي دعا الناس إلى نفسه، وتدخل عندئذ عمر صاحب تكساس، بأمر من أخيه محمد بعد أن رفض القاسم بن ادريس أن يواجه شقيقه عيسَى وهكذا تعين على عمر أن يزحف إلى أزمور وطنجة ويستولي عليهما ليضيفهما إلى ما بيديه، بقرار من أخيه محمد. واعتزل القاسم في مسجد بناه قرب أصيلا حيث ضل يتعبد الله سائر حياته، بينما لم يلبث عمر الذي اخلص الطاعة لأخيه، أن اخترمته المنية سنة 220، وتلاه محمد سنة 221هـ.

علي بن محمد (221 – 234هـ / 836 – 848) :

عهد إليه أبوه محمد قبل وفاته، ولم يقع في عهده ما يستحق الذكر رغم أنه ولي صغيراً في العاشرة من عمره، بل ان الأحوال كانت مرضية في عهده، نظرا لاجتماع الكلمة عليه، وكان يلقب بحيدرة، وهو لقب الامام علي.

(7) محمد التنسي، نظم الدرر، ص 83، راجع أيضا ابن الأبار، الحلة السيراء، 1، 111

(8) روض القرطاس، 1، 29، 30

(9) يذكر الزياني في الترجمان المعرب أن كنزة هي بنت عبد الحميد أو اسحق بن عبد الحميد الأوربي رئيس قبيلة أوربة، وقد تزوج بها ادريس الأول. وكانت شديدة الحنو على ابنها ادريس الثاني حيث كانت تتولى اطعامه وطبيخه خوفا من تسميمه. (الهمذاني، البلدان، ص 40)

دور الضعف (234 – 375 / 848 – 985)

يحيَى بن محمد وولده يحيَى

تولى يحيَى سنة 234. وفي عهده اتسع العمران بفاس، وبني مسجد القرويين، ثم تولَى بعده ابنه يحيَى الذي أساء السيرة بمعاقرته الخمر والاعتداء على أعراض النساء . حتَّى انه لم يتورع عن الدخول على يهودية في أحد الحمامات ، فأغضب بذلك أهل فاس ومات بعدوة الأندلس التي اختفَى بها فراراً من نقمتهم ولم يضبط تاريخ وفاة هذين الملكين.

علي بن عمر

هو جد الحموديين ، وقد انتقل به الملك من بني محمد بن إدريس إلى بني عمر ابن إدريس. وثار ضده عبد الرزاق الخارجي الصفري من مديونة بناحية فاس، وأصله من وشقة بالأندلس ، ولم يستطع علي أن يتغلب عليه ، فدخل الخارجي فاسا ، بينما استغاث سكان عدوة القرويين بيحيَى بن القاسم بن ادريس ولا يعرف شيء كثير عن مصير علي بن عمر بعد استيلاء يحيَى بن القاسم على فاس .

يحيَى بن القاسم بن ادريس مات سنة (292 / 904م) :

طرد عبد الرزاق الخارجي من فاس ، ويقول ابن خلدون ان الربيع بن سليمان قد اغتاله سنة 292 . وكان يحيَى هذا يلقب بالصرام أو العدام ، وفي عهده ساءت الحالة الاقتصادية إلى حد بالغ الخطورة ، وانتشرت الأوبئة والأمراض.

يحيَى بن ادريس بن عمر (مات سنة 332 / 943م) :

كان على شيء كثير من العلم بالفقه والحديث ، وقد شمل بسلطته عموم المغرب الأقصَى ، وهو ابن أخي علي بن عمر وفي أيامه استتب الأمر للعبيديين بافريقية ، وطمعوا في بسط نفوذهم على المغرب ، واستعانوا في ذلك بمصالة بن حبوس صاحب تاهرت ، وعجز يحيَى بن ادريس عن الصمود أمامه فتنازل للعبيديين عن

الأمر ، غير أن مصالة أقره أميراً على فاس وحدها وعين على باقي المغرب ابن عمه موسَى بن أبي العافية المكناسي صاحب تازا ؛ وكان يكره يحيَى لعطف سكان المغرب عليه ، فكاد له حتَّى نفاه إلى أصيلا بأمر من مَصالة ، حتَّى إذا حاول أن يبرئ نفسه أمام العبيديين بتوجهه إلى إفريقية وجد الثورة قائمة عليهم هناك ، يحركها أبو يزيد . وهلك أثناء تلك الثورة .

حسن بن محمد الحجام (مات سنة 313هـ / 925م) :

هو من عقب إدريس الثاني ، ثار سنة 310 بفاس ضد الوالي الذي عينه عليها موسَى بن أبي العافية ، ولكنه ما لبث أن وقع في قبضة حامد الأوربي الذي اعتقله ليتقرب بذلك إلى موسَى . ثم ندم على اعتقاله ، واطلق سراحه ودعاه إلى الافلات ، فرمَى بنفسه من السور فقتل ؛ بينما هرب حامد الأوربي إلى المهدية . أما موسَى فقد نفى الادارسة من فاس إلى الريف حيث ضيق عليهم الخناق في حجر النسر وهو عبارة عن حصن عظيم بناه أحدهم سنة 317 . ولم يوافق البربر موسَى على القضاء على الادارسة نهائياً . وبعد بضع سنوات أصبح نفوذ ابن أبي العافية يشمل المغربين الأقصَى والأوسط .

تدخل المروانيين [الأمويين]

رغب عبد الرحمان الناصر في أن يشمل بنفوذه المغرب ، ولعله كان يريد أن يوسع هذا النفوذ فيما بعد ليستعيد الخلافة الأموية على المملكة الاسلامية وهكذا راسل موسَى بن أبي العافية الذي لم يكن يعتمد على نسب قرشي ليحول الخلافة لصالحه ، وتكررت الاتصالات عن طريق مبعوثي عبد الرحمن حتَّى وافق موسَى على الثورة ضد العبيديين . وخطب في المساجد للناصر . فجرد إليه العبيديون جيشا عظيما برياسة حميد المكناسي ، وكانت الهزيمة على موسَى . ثم سرحوا جيشا ثانيا بقيادة ميسور الخصي ، بعد أن ثار أحمد الجدامي بفاس ضدهم ولصالح الأمويين . وتعقب ميسور موسَى الذي أصبح شريداً في الشمال الشرقي من المغرب ومات حوالي سنة 341هـ .

أدارسة الريف وتداول النفوذ الفاطمي والأموي

منذ انحاز ادارسة فاس إلى ادارسة الريف سنة 313 أصبحوا تابعين تارة

للشيعيين وتارة للأمويين. وأصبحوا يستقرون بحجر النسر. وطيلة امارة موسى بن أبي العافية، لم يكن لهم أي نفوذ سياسي حتّى في منطقة الريف نفسها. أما بعد فراره إلى شرق المغرب، فقد بايعوا القاسم كنون بن محمد بن القاسم بن إدريس الذي دعا للفاطميين فتركز بذلك نفوذه في المغرب على العموم، واتخذ من «حجر النسر» عاصمة، وتوفي سنة 337، فتولى ابنه أبو العيش أحمد الذي دعا للأمويين. ولم يكتف عبد الرحمن الناصر بذلك، بل طلب منه أن يتخلّى له عن طنجة، لتكون تحت نفوذه المباشر. حتّى إذا رفض أبو العيش جرد إليه جيشاً. فلم ير بداً من التخلي نهائياً عن الحكم ليلتحق بالأندلس كمجاهد ضد الاسبان ومات سنة 348. وخلال ذلك، أصبح يتداول امارة فاس بنو يفرن ومغراوة الذين كانوا يتعاطفون مع الأمويين. غير أن أدارسة الريف حاولوا في يأس أن يستمروا في امارتهم الصغيرة بحجر النسر، فعينوا عليهم الحسن بن كنون. وفي سنة 347 أرسل الفاطميون أشهر قوادهم جوهر الصقلي على رأس جيش واجه جيش زناتة الموالي للناصر في تاهرت، وكان على رأس هذا الجيش، يعلي اليفرني الذي اغتاله بعض قواد كتامة. ثم زحف جوهر إلى سجلماسة فاستولى عليها، واستمر في فتحه للمغرب حتّى اقتحم فاساً[10] ورجع إلى المهدية بعد أن نكل بالزناتيين أشنع تنكيل. أما الحسن بن كنون، فلم يكن من الممكن أن تثبت امارته من غير تبعية للفاطميين أو الأمويين. وقد فضل الأولين لبعدهم النسبي عن المغرب، ولكراهته للأمويين. ولم يلبث الحكم المستنصر أن بعث بجيش إلى المغرب في غيبة القائد الفاطمي، ثم اتبعه بجيش ثان يرأسه مولاه غالب فلم يجد الحسن بداً من التنازل عن البصرة وقلعة حجر النسر ثم نفاه غالب إلى الأندلس وطرد جميع الادارسة من هذه القلعة، حتّى إذا كانت سنة 365، لم يستطب الحكم بقاء الحسن بن كنون بالأندلس، فسمح له بالذهاب إلى مصر حيث استنجد بالعزيز الفاطمي الذي أمر عامله بافريقية بلكين الصنهاجي أن يمده بجيش يقتحم به المغرب، وأثناء ذلك كان الأمر في الأندلس قد صار إلى المنصور بن أبي عامر فبعث بجيش لحرب ابن كنون،

(10) في هذه الحملة قبض جوهر على عامل العبيديين السابق بسجلماسة والذي استقل بحكمها وتلقب بالشاكر لله، كما قبض على عامل فاس من قبل عبد الرحمن الناصر الأموي وجعل كلا منهما في قفص فطيف بهما في المنصورية (صبرة) (انظر المؤنس، ص 64، وأعمال الأعلام، 3، 220 وأنيس 1، 133)

فيئس هذا من بسط نفوذه على المغرب ، والتمس الرجوع إلى الأندلس من جديد ، ولكن المنصور بعث اليه من اغتاله سنة 375هـ وبه انتهت دولة الادارسة بالمغرب .

2 – دويلات في عهد الادارسة

الواقع أن المغرب لم يخلص كله للأدارسة ، فلئن استطاعوا أن يمدوا نفوذهم شرقاً إلى تلمسان ، فقد كانت ناحية تامسنا خارجة عن ملكهم يتحكم في شؤونها البرغواطيون بينما كان في سجلماسة بنو مدرار وبنو صالح في نكور ، وبنو عصام في سبتة .

وقد عجز الأدارسة عن إخضاع البرغواطيين الذين استمرت دولتهم حوالي أربعة قرون ، وامتد نفوذهم من أبي رقراق إلى حدود سوس . وحتّى جيش المنصور بن أبي عامر لم يستطع اقتحام بلادهم ولا اخضاعهم لنفوذ الأمويين . واستمروا يؤدون طقوسهم الغريبة في حرية تامة ، يمتنعون عن أكل البيض ، ولا يتناولون رأس السمك ولا لحم الديك . ويصومون يوم الخميس من كل أسبوع ويصلون عشر صلوات في اليوم . وعاملوا بقسوة قطاع الطرق واللصوص ، كما أخضعوا لسيطرتهم القبائل الاسلامية المجاورة لهم .

أما بنو صالح[11] ، فهم نسل صالح بن منصور الذي بنى حفيده سعيد مدينة نكور في الشمال . وكان صالح قد اقتطع ناحية تمسامان وأقره عليها الوليد بن عبد الملك ، حتّى إذا بنيت نكور ، أصبحت مركزاً للدعاية الاسلامية التي شملت قبائل غمارة . وبقي أكثر الغماريين مخلصين لدويلة بني صالح الذين تعاقبوا على نكور أزيد من مائتي سنة ، حتّى قضى عليهم الفاطميون في مطلع القرن الرابع الهجري وعلى العموم فقد كانت علاقتهم طيبة بالأمويين أصحاب الأندلس ، وحتّى الأدارسة لم يبطشوا بهم نظراً لاخلاص الغماريين لهم .

وأما بنو عصام فهم بربر استقلوا بسبتة منذ سنة 123هـ وبقيت بأيديهم إلى أن استولى عليها الناصر الأموي بعد قرنين ونيف .

---

(11) راجع بشأن دولتهم ، ابن الخطيب أعمال 3 ، 171 ، 179 . البكري ، مسالك ، 90 ، 99 . ابن عذاري ، بيان 1 ، 246 – 252

وعلى كل حال فإن قسماً كبيراً من المغرب خرج عن سلطة الأدارسة ، أو على الأصح ، استمر في خروجه على الأدارسة ، أما الصحراء المغربية ، فلا نكاد نعرف شيئا عن تدخل الادارسة في شؤونها باستثناء منطقة كوليمين التي عين عليها أحد إخوة محمد بن ادريس ؛ ولكن من المؤكد أن نشر الاسلام في ربوع الصحراء خلال القرن الثالث ، يرجع الفضل فيه إلى الادارسة .

3 – أسباب سقوط دولة الأدارسة

يرجع انهيار دولة الأدارسة ، إلى أسباب داخلية ، وأخرى خارجية .

أما الأسباب الداخلية ، فهي :

1 – تقسيم المملكة بين أمراء العائلة المالكة . وقد بدأ هذا التقسيم منذ عهد محمد بن إدريس . ويعتبر المرحلة الأولى من مراحل انهيار هذه الدولة . وإذا كان من مزاياه مباشرة الادارسة للشؤون في عين المكان ، ووضع حد لأطماع الخارجين عن الدولة فإن نزاعات كثيرة نشبت فيما بين الأمراء أنفسهم . كما أن الحكم المركزي ضعف إلى حد أن فقد الأدارسة بفاس وحجر النسر كل نفوذهم تقريباً على باقي تراب المملكة ، في معظم أيامهم ، أي منذ وفاة محمد بن ادريس ومع ذلك فقد استمر نفوذهم الروحي على المغرب طيلة أيام حكمهم .

2 – عدم قدرة الادارسة على السيطرة على أجزاء مهمة من المغرب ، كسجلماسة وتامسنا ، بل وحتّى فاس في الغالب ، مع أنهم هم الذين اتخذوا منها عاصمة لدولتهم .

3 – إهمالهم أو يأسهم من القضاء على المذاهب المتناقضة والتي تخالف روح الاسلام في أكثرها . فلم يواصلوا مقاومة البرغواطيين ، كما أنهم لم يوقفوا نشاط الخوارج الذين هددوهم في عقر دارهم . وفي آخر دولتهم بفاس ظهر في غمارة حاميم المتنبي ؛ وهو شخص بربري أنشأ دينا وقرآنا بربرياً ، وشرع صوم يومي الأربعاء والخميس وأبطل الحج وسن صلاتين في اليوم ؛ وكانت الطقوس على ما رواه البكري تؤدى باسمه واسم أخيه ووالده وعمته الكاهنة ، كما كانت له أخت تدعَى بدبو وهي أيضاً ساحرة كاهنة . وحتّى بعد وفاة حاميم سنة 315 استمر

انتحال السحر في أسرته ، وقد استقبل الناصر ولده عيسَى في قرطبة . وأغلب الظن أن أدارسة الريف لم يحاولوا القضاء على هذه الأسرة التي بنت دعوتها على السحر والكهانة .وأفسدت دين كثير من بربر الشمال .

4 ـــ عدم تأسيس حكومة وجيش قويين ، يساعدان على اقرار هيبة الدولة . فتاريخ الأدارسة يدور في معظمه على أشخاص الأمراء أنفسهم ؛ ولا نكاد نعرف في عهدهم قواداً بارزين أو وزراء ذوي حنكة وشخصية عالية ، بخلاف ما سنجده لدَى المرابطين والموحدين ومن يلونهم . وحتَّى الأمراء الحاكمون ، استندوا على النفوذ الروحي وشرف النسب . وإذا كان لا ينكر أن هذا الشرف قد ساعدهم على أن يكتسبوا عطفاً قلبياً من لدى كثير من سكان البلاد حتَّى في أشد الأزمات التي تعرضوا لها ، فإنه لم يغنهم شيئا في اقرار النفوذ السياسي على البلاد إذا استثنينا عصر الملوك الثلاثة الأولين .

وأما الأسباب الخارجية فهي :

1 - تدخل الفاطميين .

اعتمد الفاطميون في تأسيس دولتهم على الصنهاجيين ، وإذ وجدوا الفرصة سانحة للانقضاض على المغرب ، استعانوا في سحق جيوش الأدارسة الضعيفة بصنهاجة المغرب وببربر مكناسة . وبمجرد أن سيطر العبيديون على المغرب أصبح الأدارسة معزولين في رقعة ضيقة ، بينما كان المروانيون يعملون من جهتهم على كسب عطف الزناتيين أعداء الصنهاجيين. ولحسن الحظ ، فإن الفاطميين لم يطل استقرارهم بالشمال الافريقي ، وإلا لكان المغرب قد أصبح مجرد إقليم تابع لسلطة القيروان المباشرة .

وقد استغرق التدخل الفاطمي بالمغرب حوالي ستين سنة ، أي فيما بين قدوم مصالة بن حبوس سنة 307 واندحار الحسن بن كنون أمام جيش الأمويين (العامريين) وخلال هذه المدة ؛ كان للتدخل الأموي أيضاً نصيب غير قليل .

وقد كانت مراحل تدخل الفاطميين كما يلي :

أولا : قدوم مصالة بن حبوس سنة 307هـ ومساندة موسَى بن أبي العافية له في التمكين للعبيديين، وذلك في أيام يحيَى بن إدريس بن عمر الذي نفي إلى أصيلا .

ثانيا : قدوم جوهر الصقلي سنة 347هـ الذي افتتح سجلماسة وفاساً ومعظم المغرب من غير أن يتعرض بسوء للحسن بن كنون المعتصم بقلعة حجر النسر.

ثالثا : قدوم بلكين بن زيري سنة 362 . وقد أيد الحسن بن كنون الفاطميين تأييداً حقيقياً في هذه المرة حيث خطب للشيعة وهزم جيش الحكم الأموي بعد رجوع بلكين من المغرب[12] .

2 – تدخل الأمويين :

كان الأمويون يخشون تسرب النفوذ الفاطمي إلى المغرب . ويرون في ذلك تمهيداً لاستيلاء الفاطميين على الأندلس مما أهاب بعبد الرحمن الناصر أن يعلن نفسه خليفة حتَّى يجابه بذلك خلافة الشيعيين بوصفه سنياً . وقد حاول الأمويون ما أمكنهم أن لا يتدخلوا بالقوة في المغرب حتَّى يكون لهم منه نصير على الفاطميين ؛ ولم يكونوا يتأخرون عن كسب البربر بالمال والخلع كما فعلوا مع ولد حاميم المتنبي . وكانت تلك سياستهم مع بني صالح أصحاب نكور ومع الادارسة أيضاً ولم يكن اشتغال الأمويين بحرب النصارَى مما ييسر لهم الاستيلاء على المغرب . ولذلك كان يهمهم قبل كل شيء أن يجعلوا من بعض مدن الشمال مراكز عسكرية حصينة تسمح لهم بمنع كل تسرب عسكري من المغرب إلى الأندلس وبهذه الصفة . وضعوا أيديهم على سبتة وأرغموا أبا العيش ، على التخلي لهم عن طنجة ، وتحببوا بالمال إلى سكان الشمال .

أما مراحل التدخل الأموي بالمغرب ، فهي كما يلي :

أولا : الاستيلاء على سبتة من يد بني عصام الموالين للأدارسة .

ثانيا : موالاة موسَى بن أبي العافية للناصر سنة 321هـ وقد بدأت جيوش الفاطميين تطارد موسَى منذ ذلك الوقت. وحاولت فاس أن تنقض بيعة الفاطميين لصالح المروانيين سنة 322 ولكن من غير جدوَى ، إذ كان تدخل ميسور الفاطمي سريعاً .

(12) يراجع بشأن تدخل العبيديين : أنيس مطرب 1 ، 116— 137 ويعتبر Gautier (Le passé de l'Afrique du Nord) ان تدخل الزيريين (صنهاجة افريقية) كان مجرد أحداث عابرة ليست لها صبغة الاستمرار ، (ص 401) .

ثالثا : بيعة أبي العيش للمروانيين سنة 337 ثم رفضه التخلي للناصر عن طنجة واستيلاء هذا بالقوة عليها ، وقد عين الناصر والياً مغراوياً على فاس وبسط سيطرته على المغرب من تاهرت إلى طنجة كما ذكر صاحب الاستقصا وقد بقي أبو العيش مع ذلك وفياً للناصر.

رابعا : ارسال جيش إلى المغرب سنة 362 بقيادة محمد بن قاسم بن طملس لمحاربة الحسن بن كنون الخارج عن بيعة الناصر. وقد انهزم هذا الجيش وقتل قائده ، ولكن سرعان ما أتت نجدة عظيمة من الناصر بقيادة غالب الذي هزم الحسن بن كنون أمام قصر مصمودة وغربه إلى الأندلس.

خامسا : ارسال القائد عسكلاجة من لدن المنصور بن أبي عامر سنة 373هـ وذلك لمحاربة الحسن بن كنون الذي التجأ بعد خروجه من الأندلس إلى مصر وأنجده الفاطميون بجيش من إفريقية لاسترداد ملكه. وبعد أن استسلم الحسن للمنصور بعث إليه من اغتاله سنة 375 قبل قدومه عليه ، ومنذ ذلك الحين ، أصبحت زناتة تسيطر على شؤون المغرب مع التبعية للمروانيين إلى وفاة المعز بن زيري بن عطية سنة 422هـ وكانت الأمور في الأندلس قد اضطربت كثيراً بظهور ملوك الطوائف. وقد استغرقت فترة التدخل الأموي في المغرب حوالي 20 سنة في عهد الأدارسة وأقل من خمسين سنة بعدهم.

4 – أهمية أعمال الدولة

من البديهي أن يكون لدولة الأدارسة جوانب حسنة كما أن لها جوانب من الضعف. وقد برهن الأدارسة على شيء غير قليل من الحنكة في استغلال الفرص وخطب ود الفاطميين تارة والأمويين تارة أخرى ؛ إذ لم يكن ينفعهم أمام ضغط القوات التي تصارعهم في الداخل والخارج ، إلا أن يسلكوا سياسة المرونة. وكان في دخول الأدارسة ، إلى المغرب ، انتصار للعربية لا يستهان به. ولم يعرف عنهم تعصب جنسي ، كما أن سيرتهم في سياسة الملك على العموم كانت طيبة يسودها اللين والتأثر إلى حد كبير بتعاليم الاسلام. وما من شك في أنهم عملوا على نشر الدين الحنيف في ربوع الصحراء ؛ ذلك لأن صنهاجة الجنوب لم يعتنقوا الاسلام إلا

منذ القرن الثالث ، وهو القرن الذي نشط فيه الأدارسة للعمل الاسلامي وخاصة في النصف الأول منه .

وقام الأدارسة إلى جانب ذلك بمجهود مشكور في ميدان العمران بتأسيس عدة مدن ، لاسيما فاس التي قدر لها أن تلعب فيما بعد أعظم دور في تاريخ المغرب السياسي والفكري . وبدأت فاس تستمد حضارتها في عهد الأدارسة من القيروان وقرطبة لتصير بعد ذلك مركز إشعاع حضاري في المغرب العربي .

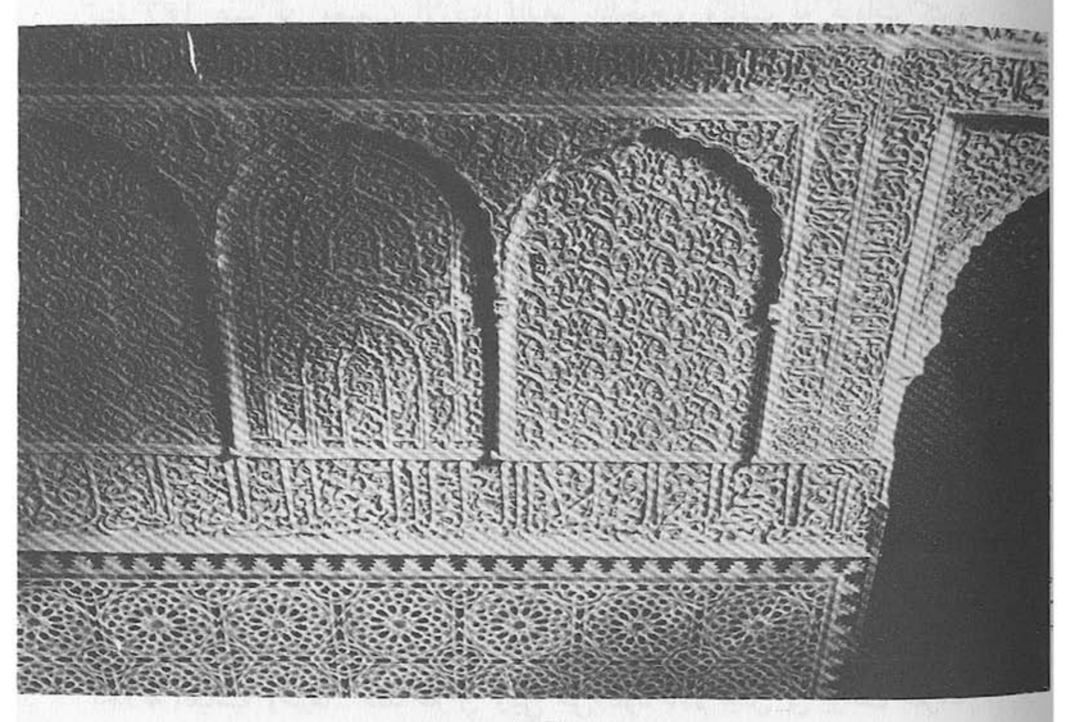
على أن الأدارسة لم يؤسسوا خلافة ، وإنما ملكاً وإمامة ، وكان العاهل الادريسي يخاطب بقولهم : السلام عليك يا ابن رسول الله[13] .

وقد خضعت تلمسان لنفوذ الأدارسة منذ عهد ادريس الأول سنة 173هـ . وبعد أن تركوا عليها أميرها محمد بن خزر المغراوي تولوها مباشرة في عهد ادريس الثاني حيث بايعت زناتة سليمان بن عبد الله الذي بقي الملك في عقبه إلى أيام الفاطميين . ويعتقد التّنسي[14] أن دولة بني زيان من عقب سليمان هذا ، وقد استرجعوا ملكهم في عهد ضعف الموحدين على يد يغمراسن بن زيان .

(13) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ص 89
(14) التنسي ، نظم الدرر ، ص 89

الحضارة في عهد الادارسة

1 - نظام الحكم والادارة



من روائع الفن الاسلامي بفاس

من العسير أن يتوصل الباحث إلى معلومات وافية عن نظام الحكم والادارة في عهد الأدارسة ، غير أنه يمكن أن يستنتج ، اعتماداً على المصادر القليلة جدا في هذا الباب ، أن الوزراء لم يكونوا في عهد الأدارسة متعددين ، بعكس النظام الذي كان موجوداً لدى الأمويين في الأندلس ، حيث وزعوا مهام الدولة على بضعة

وزراء . وقد استعان الأدارسة بالبربر والعرب على السواء في تسيير شؤون الدولة .. غير أن ولاة الأقاليم أصبحوا يعينون من أمراء العائلة المالكة منذ أن اعتلى محمد بن إدريس منصة الحكم . وبناء على رواية البكري فإن مناطق النفوذ الادريسي أصبحت موزعة في عهد هذا الأمير كما يلي : صنهاجة وغمارة لعمر ، هوارة في ناحية وهران لداود ؛ البصرة وطنجة وما حولها للقاسم ؛ ناحية بني ملال ليحيى ؛ وأزكور وسلا لعيسى ، وليلي وناحيتها لحمزة ، لمطة (قرب كوليمين) لعبد الله ، بينما احتفظ محمد بفاس والتسيير المركزي ، وإلى سنة 186 لم يكن لإدريس الثاني وزير ولا قاض أو حاجب أو كاتب ، ثم استوزر من العرب القادمين من الأندلس وإفريقية سنة 187 عمير بن مصعب الأزدي المدعو بالملجوم ، وكانت له غزوات كثيرة بالأندلس ، وهو الذي اختار موقع فاس المنسوبة لادريس الثاني ، وقيل ان قدوم الوفد العربي كان سنة 189 وقد بلغ عدده خمسمائة شخص كان منهم معظم الموظفين الرئيسيين والمركزيين . وفي سنة 202 تعزز العنصر الأندلسي بفاس باللاجئين من ثورة الربض وقد قدر عددهم بنحو ثمانية آلاف ، وجلهم من أصل سلْتيّ روماني[15] . وقد استكتب ادريس الثاني عبد الله بن عبد الملك الأنصاري ، كما استقضى بفاس عبد الله بن مالك الخزرجي . وقد اعتبر طيراس حكومة إدريس الثاني نواة لنظام المخزن ، وقد كان من محاسن هذا النظام اللامركزي أن اهتم كثير من الأمراء الاقليميين بالعمارة في أقاليمهم إلى جانب الدعاية لصالح الاسلام .

وكانت مداخيل الدولة من الزكوات والأعشار ، ولم يثقل كاهل السكان بضرائب إضافية .

أما فيما يرجع إلى النقود فقد ضربت دراهم باسم إدريس الثاني[16] سنة 181 و183 . والظاهر أن التعامل بالنقود المحلية كان يجري إلى جانبه ، التعامل بنقود الخلافة العباسية وغيرها . فقد عثر في وليلي على نقود باسم قيس بن يوسف ضربت عام نيف ومائة وثمانين . بل إن النقود قد بدأ ضربها منذ عهد إدريس الأول بتدغة

---

(15) راجع : محمد بن جعفر الكتاني ، الأزهار العطرة ، ص 136 ، السنوسي ، درر ، ص 61 . الحلبي . الدر النفيس ، ورقة 76 ، وكذلك (نشرة ج تاريخ المغرب) Eustache وانظر روض القرطاس 1 ، 35 و38

(16) مظاهر الحضارة المغربية 1 ص 75

سنة 174 ونقش في أحد وجهيها «لا إله إلا الله لا شريك له ، باسم الله ، ضرب هذا الدرهم بتدغة سنة 174» ، وفي الوجه الثاني صورة هلال ثم «محمد رسول الله» وتحته : مما أمر به «إدريس بن عبد الله ، جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا» وقال الأستاذ المرحوم ابن زيدان : إنه رأى هذه السكة ووزنها غرامان و69 [17] .

وقد كان من المعتاد في الدولة الاسلامية أن يضرب بعض الأمراء والقادة المحليين ، نقوداً باسمهم إلى جانب نقود الدولة ، فقد مر في غير هذا الموضع أن خالد بن الوليد ضرب نقودا في طبرية أيام عمر بن الخطاب . ولم يشذ المغرب عن هذه الطريقة كما سنرى .

وقد بلغ وزن درهم إدريس الأول القدر الشرعي [18] الذي يعادل 14 قيراطاً أي 2.7356غ . وقد ضربت نقوده بكل من وليلي وتدغة من 172 — 175هـ . على أن تدغة الواقعة قريباً من تينغير [19] (فيما بين قصر السوق وواززازات) كانت تابعة للخوارج الصفرية إلى سنة 200 حيث دخلت في حكم إدريس الثاني .

وهذه بالتفصيل أماكن ضرب النقود في عهد ادريس الثاني كما أثبت ذلك «أوسطاش» [20] :

— أصيلا
— البصرة (بين سوق الأربعاء ووازان)
— تدغة (قرب تينغير)
— تلمسان
— تهليط (من بناء ادريس الثاني ، على وادي اللكوس قرب القصر الكبير)
— سبو (من بناء ادريس الثاني حول سيدي حرازم)

---

(17) الاتحاف 2 ص 10

(18) Eustache, Op. Cit.

ويظهر أن دراهم إدريس الثاني لم تكن كلها من نفس الوزن ، انظر : الحلبي ، الدر النفيس ورقة 136

(19) أوسطاش ، المصدر السابق

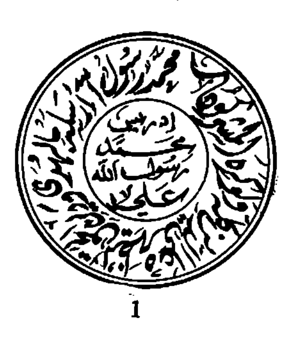
(20) نفس المصدر

ـ طنجـة
ـ العالية (عدوة القرويين)
ـ مريرة (قرب مريرت الحالية ، بين آزرو وخنيفرة)
ـ ورغة (فاس البالي ، على وادي ورغة)
ـ وزقور (على وادي بوزقور الذي يصب في الضفة اليسرى لأم الربيع)
ـ وطيط (بجبل وطيطة ، جنوب غربي سيدي قاسم في طريق سيدي سليمان)
ـ وليلة (وليلي)
ـ يكم (على وادي يكم بين الرباط والدار البيضاء)
ـ زيز (على وادي زيز بمقاطعة جرس)
ـ وامانا أو (ومهنا ؟)
ـ بهت (بأعلى سد قنصرة على وادي بهت قرب الخميسات)
ـ تاجراجرا[21] (على وادي تيجريجير ، غرب آزرو)

وهذه المراكز كانت تابعة في جلها لأمراء الأدارسة المحليين الذين كان لهم حق ضرب النقود باسمهم مع الاعتراف بالسلطة المركزية.

وآخر درهم من الوجهة التاريخية اكتشف حتى الآن ضرب باسم أحمد بن عيسى سنة 276 بوزقور ، أما الفترة الموالية التي تمتد إلى 375/ 985 فتمثل عصر التنافس على السلطة بين الأمويين والفاطميين.

وفيما يلي نموذج من سكة ادريس الثاني :


1


2

(21) انظر بشأن هذه المدن : ابن الفقيه الهمذاني ، البلدان ، ص 32 . وتعاليق الصادوق ، صفحات 95ـ 97 . وانظر البكري ص : 114 و155

وهذا نموذج سكة محمد بن إدريس[22] :


3


4

الجيـــش :

كان يجمع في البداية عناصر مختلفة من البربر المتطوعة من عناصر شتّى كغياثة ومغيلة وبني يفرن وسدراتة وأوربة وزواغة ، ثم أصبح في عهد إدريس الثاني منظماً ، حيث انضم إليه 500 فارس من العرب الواردين من الأندلس وإفريقية[23] ومن المعلوم أن إدريس الثاني كان قد تلقّى تدريباً عسكرياً طويلاً على يد راشد ، قبل أن يصبح ملكاً .

لغة الادارة :

كانت بدون شك ، اللغة العربية ، بدليل نقوش السكة وخطبة إدريس الثاني . والملاحظ أن المناطق التي استقر فيها الأدارسة ، انتشرت فيها اللغة العربية انتشاراً واسعاً ، ومازلنا نلاحظ هذا الأثر العميق ، في الريف والسوس وهما من مناطق البربر الأصيلة . وحتّى احتكاك البربر بالأمويين الذين وضعوا المغرب تحت نفوذهم أزيد من قرن كان له أثره في نشر العربية بين السكان .

---

(22) يلاحظ في الوجه الثاني وضع لفظ «محمد» بين لا إله إلا الله، وعبارة وحده لا شريك له وهو وضع غير صحيح ولكنه غير مقصود.

(23) زهرة الأس للجزنائي، Ismaël Hamet في : Histoire du Maghreb, p. 13 فإن المجموعة الأندلسية قد تعززت فيما بعد بثمانية آلاف من مسلمي قرطبة الذين لجأوا إلى المغرب على إثر ثورة الربض، وهم من أعقاب العنصر السلتي الروماني الذي اعتنق الإسلام.

مذهب الدولة :

دخل الاسلام إلى المغرب في القرن الأول مبنيا على تعاليم الكتاب والسنة ، حتَّى إذا كان مطلع القرن الثاني وبدأ الخوارج يتسربون إلى المغرب في صفوف الجيش الاسلامي ، وجدوا المغرب ميداناً خصباً لنشر مذاهبهم ، خصوصاً والولاة الأمويون لم يعودوا يطبقون تعاليم الكتاب والسنة تطبيقاً حقيقياً . ولما جاء الأدارسة ، وجدوا الخوارج في سجلماسة وغيرها ، كما وجدوا البرغواطيين في تامسنا وقد دخل المذهب الحنفي إلى المغرب عندما جاءت جيوش العباسيين إلى شمالي إفريقيا ، ولكن هذا المذهب لم يكتب له الانتشار لأن الدولة لم تتبنه . والظاهر أن مؤسسي الدولة الادريسية لم يأخذوا المسلمين بمذهب مالك ، خاصة وأن مذهب مالك ، لم يصبح مذهباً حقيقياً إلا بعد أن انتشر تلاميذه في بقاع المملكة الاسلامية وصاروا يتبسطون في كتابه وأقواله بالشرح والتدقيق . ولا يمكن أن نقول على أي حال أن مذهب مالك انتشر في المغرب بفضل الأدارسة كدولة ، فأصحاب الفضل ، بحق هم أولاً بعض الفقهاء الذين قاموا بتلقين هذا المذهب بصفة تلقائية في العهد الادريسي ، وفي إطار جغرافي غير محدد ؛ ثم المرابطون الذين عملوا على إقرار المذهب في المغرب كله . ومهما يكن من شيء فإن عهد الأدارسة قد عرف مذاهب متعددة : الخارجية ، الشيعية ، المالكية ، حسب الظروف المكانية والزمانية التي اكتنفت حياة هذه الدولة ، وحسب البكري فقد كان بنو صالح بالشمال على مذهب مالك الذين كانوا أول المعتنقين له بالمغرب .

وعلى كل حال ، فإن الأدارسة كانوا أميل إلى المذهب الشيعي منهم إلى غيره . حتَّى انهم كانوا ينتهزون أول فرصة تسنح لهم ، ليلغوا الخطبة باسم الأمويين ، ويقروها باسم العبديين ، ولا أظن أن هذا شيء يدعو إلى الاستغراب فكل من الأدارسة والفاطميين يشترك في شرف النسب، إذا سلمنا بأن الفاطميين من سلالة النبي . ثم إن الفاطميين يقرون عصمة الامام كشيء واجب ، وهذا مما يفيد الأدارسة معنويا في أوساط البربر ، ولو أنهم لم يتعصبوا للشيعة تعصب الفاطميين أنفسهم ، هذا إلى جانب اعتبارات سياسية ، جعلت الأدارسة يميلون إليهم .

ومن المؤكد أن مذهب مالك قد دخل أيضا في عهد الأدارسة بفضل الأندلسيين والمغاربة ، أما في الأندلس نفسها فقد أدخله يحيَى بن يحيَى الليثي

الذي درس على مالك ، وهو بربري من طنجة ، قوي نفوذه لدَى بني أمية في الأندلس أواخر القرن الثاني حتَّى أصبح تعيين القضاة بمشورته[24] . ومع أن الموطأ قد روي بخمس عشرة رواية فإنه لم يبق منها إلا رواية محمد بن الحسن الشيباني ورواية يحيَى الليثي وقد توفي سنة 234هـ وإذا كان الأمويون بفضل نفوذهم السياسي قد عملوا علي إقرار مذهب مالك في الأندلس . فإن المغرب قد ساهم في إقرار هذا المذهب بجهود فردية . وهكذا اظهرت الطبقة الأولى ممن «انتهَى إليهم فقه مالك والتزموا مذهبه» دون أن يتصلوا به مباشرة ، ابتداء من أوائل القرن الثالث الهجري . فليس أبو ميمونة أول من أدخل هذا المذهب إلى المغرب ، فقد سبقه عدد من الفقهاء ، منهم حماد بن يحيَى السجلماسي وابنه حسن[25] ، ثم أبو هرون عَمْران بن عبد الله (من ذرية عمر بن الخطاب) وأحمد بن حُذافة البصري وبشار ابن بركانة البصري (وكلاهما من بصرة المغرب)[26] . وأخيرا تأتي طبقة أبي ميمونة : درَّاس بن إسمعيل الفاسي ، وخيرالله بن القاسم الفاسي ، وكلاهما من رجالات القرن الرابع .

وتذكر عدة مصادر من جهة أخرى ، أن أحد قضاة إدريس الثاني وهو عامر ابن محمد (أو عامر بن سعيد بن محمد) القيسي كان قد تلقَّى دراسته على كل من مالك وأبي سفيان الثوري ، وربما كان هذا القاضي على مذهب أحدهما أو على مذهب الأوزاعي الذي كان عليه المغاربة قبل وصول مذهب مالك ، وكان عامر رجلاً صالحاً ، وربما تبنَّى مذهب قاضيه[27] هذا .

والظاهر أن أبا ميمونة درَّاس بن اسمعيل كان له فضل تلقين مذهب مالك على نطاق واسع . وقد وصف بأنه فقيه حافظ للرأي كما ذكر أنه حج ولقي بالاسكندرية

(24) راجع ترجمته وأسماء عدد هام من تلاميذه في جذوة المقتبس : ص 359 ــ 361 لمؤلفه أبي عبد الله محمد الحميدي . ت 488هـ ، وترتيب المدارك لعياض ، 3 ص 379 ــ 393

(25) عياض ، ترتيب المدارك ، 1 ، 16 ، و4 ، 97 . أبو العرب : طبقات علماء افريقية ، ص 203

(26) عياض 1 ص 45 . وانظر أيضا ص 61

(27) راجع : الحلبي ، الدر النفيس ، ورقة 76 ، وورقة 90 . السنوسي ، الدرر السنية ، ص 62 ، الأنيس المطرب بروض القرطاس ، ص 35 ، 38 الكتاني ، الأزهار العطرة ، ص 136 ــ 137

علي بن عبد الله بن مطر ، وسمع منه الموازية ، وحدث به بالقيروان حيث سمع منه أبو الحسن القابسي وغيره ، وقد جاهد في ثغور تونس كما سكن طليطلة واشتغل فيها بالتعليم قبل أن يعود إلى بلاده بقصد التدريس . وكانت وفاته بفاس سنة 357هـ[28] . وبها مدفنه ، وقد جدد ضريحه أبو عنان المريني .

ولقد حفظت في بطون بعض المخطوطات العربية وثيقة بالغة الأهمية تؤكد مدَى اهتمام مؤسس الدولة الادريسية بالسنة كما تثير عاطفة السكان المغاربة حتَّى يتجاوبوا مع الدعوة الجديدة ، وينصروا مؤسسها بحد السيف .

وقد نشر هذه الوثيقة لأول مرة ، الأستاذ المجاهد المرحوم علال الفاسي ، وها نحن ننقلها عن المصدر الذي نشرت فيه حتَّى يمكننا مناقشة بعض آراء الأستاذ علال بشأنها[29] :

«بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذي جعل النصر لمن أطاعه ، وعاقبة السوء لمن عند عنه ، ولا إله إلا الله المتفرد بالوحدانية ، الدال على ذلك بما أظهر من عجيب حكمته ، ولطف تدبيره ؛ الذي لا يدرك إلا أعلامه .

وصلَّى الله على محمد عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه ، أحبه واصطفاه ، واختاره وارتضاه ، صلوات الله عليه وعلى آله الطيبين .

أما بعد ، فإني :

1 — أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

2 — وإلى العدل في الرعية والقسم بالسوية ، ورفع المظالم والأخذ بيد المظلوم .

3 — وإحياء السنة وإماتة البدعة ، ونفاذ حكم الكتاب على القريب والبعيد .

---

(28) أحمد بابا ؛ نيل الابتهاج ، ص 99 ، ابن زكور ، المغرب المبين ، ورقة 29 . وابن الأبار ؛ الصلة ؛ 1 ، 227

(29) نشرت الوثيقة في مجلة التضامن سنة أولى ، عدد 3 ، ذو الحجة 1393/ 1974 والمخطوط الذي نقلت عنه هو «المرجع الشافي» لعبد الله بن حمزة من أئمة الزيدية . وهذا الكتاب موجود باليمن ، حسبما ذكره الأستاذ علال .

4 — واذكروا الله في ملوك غيروا ، وللأمان خفروا ، وعهود الله وميثاقه نقضوا ، ولبني بيته قتلوا .

5 — واذكركم الله في أرامل احتقرت ، وحدود عطلت ، وفي دماء بغير حق سفكت .

6 — فقد نبذوا الكتاب والاسلام ، فلم يبق من الاسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه .

7 — واعلموا عباد الله أن مما أوجب الله على أهل طاعته ، المجاهرة لأهل عداوته ومعصيته ، باليد وباللسان[30] :

ا) فباللسان الدعاء إلى الله بالموعظة الحسنة ، والنصيحة والحض على طاعة الله ، والتوبة عن الذنوب بعد الإنابة والإقلاع ، والنزوع عما يكرهه الله ، والتواصي بالحق والصدق ، والصبر والرحمة والرفق ، والتناهي عن معاصي الله كلها ، والتعليم والتقديم لمن استجاب لله ورسوله ، حتَّى تنفذ بصائرهم وتكمل ، وتجتمع كلمتهم وتنتظم .

ب) فإذا اجتمع منهم من يكون للفاسد دافعاً ، وللظالمين مقاوماً ، وعلى البغي والعدوان قاهراً ، أظهروا دعوتهم ، وندبوا العباد إلى طاعة ربهم ، ودافعوا أهل الجور على ارتكاب ما حرم الله عليهم ، وحالوا بين أهل المعاصي وبين العمل بها ، فإن في معصية الله تلفاً لمن ركبها ، وإهلاكاً لمن عمل بها .

ج) ولا يؤيسنكم من علو الحق واضطهاده ، قلة أنصاره ، فإن في ما بدا من وحدة النبي ﷺ ، والأنبياء الداعين إلى الله قبله ، وتكثيره إياهم بعد القلة ، وإعزازهم بعد الذلة ، دليلا بيناً ، وبرهانا واضحاً . قال الله عزل وجل : «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة» . وقال تعالى : «ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز» . فنصر الله نبيه وكثر جنده وأظهر حزبه ، وأنجز وعده ، جزاءً من الله سبحانه ، وثواباً لفضله وصبره ، وإيثارة طاعة ربه ، ورأفته بعباده ، ورحمته وحسن قيامه بالعدل والقسط ، في تربية ومجاهدة أعدائهم ، وزهده فيما زهده فيهم ، ورغبته فيما يريده الله ومواساته أصحابه ، وسعة أخلاقه كما أدَّبه الله ، وأمر

(30) ننقل الوثيقة كما جاءت بترتيب الأستاذ علال الفاسي .

العباد باتباعه وسلوك سليم (كذا) . والاقتداء لهدايته ، واقتفاء أثره ، فإذا فعلوا ذلك أنجز لهم ما وعدهم ، كما قال عز وجل : «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» .

قال تعالى : «وتعاونوا على البر والتقوَى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان» .

وقال : «إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربَى ، وينهَى عن الفحشاء والمنكر والبغي» .

وكما مدحهم وأثنَى عليهم كما يقول : «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله» .

وقال عز وجل : «والمومنون والمومنات بعضهم أولياء بعض» .

د) وفرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأضافه إلى الايمان والإقرار لمعرفته ، وأمر بالجهاد عليه ، والدعاء إليه ، قال تعالى : «قاتلوا الذين لا يومنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق» .

وفرض قتال المعاندين على الحق ، والمعتدين عليه ، وعلى من آمن به ، وصدق بكتابه ، حتَّى يعود إليه ويفيء ، كما فرض قتال من كفر به وصد عنه ، حتَّى يومن به ، ويعترف بشرائعه . قال تعالى : «وإن طائفتان من المومنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما ، فإن بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتَّى تفيء إلى أمر الله ؛ فإن فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين» .

هـ) فهذا عهد الله إليكم ، وميثاقه عليكم بالتعاون على البر والتقوَى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ، فرضا من الله واجبا وحكما لازما ؛ فأين عن الله تذهبون ؟ وأنَّى توفكون ؟

و) وقد خانت جبابرة في الآفاق شرقاً وغرباً ، وأظهروا الفساد ، وامتلأت الأرض ظلماً وجوراً ؛ فليس للناس ملجأ ، ولا لهم عند أعدائهم حسن رجاء .

فعسَى أن تكونوا معاشر إخواننا من البربر ، اليد الحاصدة للظلم والجور ، وأنصار الكتاب والسنة ، القائمين بحق المظلومين ، من ذرية النبيئين ، فكونوا عند الله بمنزلة من جاهد مع المرسلين ، ونصر الله مع النبيئين .

8 — واعلموا معاشر البربر أني أتيتكم ، وأنا المظلوم الملهوف الطريد الشريد ، الخائف الموتور الذي كثر واتره ، وقل ناصره ، وقتل إخوته ، وأبوه وجده ، وأهلوه ؛ فأجيبوا داعي الله ، فقد دعاكم إلى الله ، فإن الله عز وجل يقول : «ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ، وليس له من دونه أولياء» .

أعاذنا الله وإياكم من الضلال ، وهدانا وإياكم إلى سبيل الرشاد .

9 — وأنا إدريس بن عبد الله ، بن الحسن ، بن الحسن ، بن علي بن أبي طالب ، عمّ رسول الله ﷺ ، ورسول الله وعلي بن أبي طالب جدّاي ، وحمزة سيد الشهداء ، وجعفر الطيار في الجنة عمّاي ، وخديجة الصديقة ، وفاطمة بنت أسد الشفيقة جدتاي ، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ وفاطمة بنت الحسين سيد ذراري النبيئين أمّاي ؛ والحسن والحسين أبنا رسول الله ﷺ أبواي ، ومحمد وابراهيم أبناء عبد الله المهدي والزاكي أخواي .

10 — هذه دعوتي العادلة غير الجائرة ، فمن أجابني فله ما لي وعليه ما عليَّ ، ومن أبَى فحظه أخطاء ، وسيرَى ذلك عالم الغيب والشهادة أني لم أسفك له دماً ، ولا استحللت محرماً ولا مالا ، وأستشهدك يا أكبر الشاهدين ، وأستشهد جبريل وميكائيل أني أول من أجاب وأناب .

فلبَّيك ، اللهم لبيك ، مزجيَّ السحاب ، وهازم الأحزاب ، مُصَيِّر الجبال سراباً ، بعد أن كانت صُمّا صِلابا ..

أسألك النصر لولد نبيك ؛ إنك على كل شيء قدير ، والسلام . وصلّى الله على محمد وآله وسلم» .

وقد استنتج الأستاذ علال من هذه الوثيقة ، ومن سياق التاريخ أيضاً :

1) أن ادريس الأول إمام من أئمة السنة ، وأنه هو وإخوته كانوا أبعد الناس عن التشيع .

2) أنه بدأ دعوته بخطبة أعرب فيها عن كونه لا يدرك إلا ما أعلم الله به سبحانه ، بمعنَى أن إدراك الشرائع وكل شيء لا يكون إلا باعلام الله لا بمجرد العقل كما هو عند المعتزلة .

3) أن مالكا بايع أخاه محمداً ، ومالك لا يبايع غير سنّي .

4) أن العباسيين والأغالبة لو علموا أن إدريس كان معتزلياً أو شيعياً لشنعوا عليه في مؤامراتهم .

5) أن المؤرخين لم يذكروا تصريحا رسميا بـ«اتهام» الأدارسة بالاعتزال .

6) أن الإمام ادريس قد يكون زيدياً من الوجهة السياسية ، وليس جاروديا ً ومع تقديرنا لآراء الأستاذ الراحل فلابأس أن نطرح قبل مناقشتها سؤالاً هو : لماذا لم يرد ذكر لهذا الخطاب الإدريسي في أي مصدر مغربي معروف حتَّى الآن ؟ وكيف يكون منطقياً أن ينشر هذا الخطاب بين القبائل المغربية ولا يرد ولو بالاشارة في أي مصدر آخر حتَّى يرد في مصدر فريد باليمن ؟

وبالرغم من ذلك فلا نود أن نتهم أصل الوثيقة نفسها ولا حتَّى ما تتضمنه من حيث كونها لا تتناقض في جملتها مع سياق الأحداث .

أما من حيث وجود مذهب الاعتزال بالمغرب ، فهذا ما تناولته عدة مراجع بعضها عاصر العهد الادريسي نفسه :

1 — ابن الفقيه الهمذاني الذي كتب كتاب البلدان في القرن 3 هـ يذكر بالنص ما يلي[31] :

«وبلاد طنجة مدينتها وليلة ، والغالب عليها المعتزلة ، وعميدهم اليوم ، إسحق ابن محمد بن عبد الحميد الأوربي ، وهو صاحب ادريس بن إدريس ، وادريس موافق له» .

2 — قدامة بن جعفر[32] البغدادي المتوفَّى سنة 320هـ يقول في كتاب «الخراج وصنعة الكتابة» :

«ووراء تاهرت ، مسيرة أربعة وعشرين يوماً ، بلد المعتزلة ، وعليهم رئيس عادل (؟) . وعدلهم فائض ، ودارهم (أي بلادهم) طنجة ونواحيها ، والمستولي عليها في هذا الوقت ولد محمد بن ادريس» .

(31) الهمذاني . البلدان (منتخبات) ، ص 40

(32) قدامة بن جعفر ، نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، ص 265 — 266

3 — البكري[33] يذكر أن إدريس الأول «نزل على إسحق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي المعتزلي فتابعه على مذهبه، وذلك سنة 172هـ».

4 — الاصطخري[34] المتوفى في منتصف القرن 4هـ يذكر أن أغلب أهل المغرب على مذاهب أهل الحديث، وأغلب فتياهم على مذهب مالك. ومعنَى هذا أن مذاهب أخرى كانت لاتزال موجودة بالمغرب خلال القرن الرابع، ومن بينها الاعتزال والتشيع كما ورد في مسالك البكري أيضا.

5 — الشهرستاني في «الملل والنحل»[35] يثبت أن «القدرية ابتدأوا بدعتهم في زمان الحسن، واعتزل واصل عنهم، وعن استاذه بالقول منه بالمنزلة بين المنزلتين، فسمي هو وأصحابه معتزلة، وقد تلمذ له زيد بن علي، وأخذ الأصول، فلذلك صارت الزيدية كلهم معتزلة».

ثم يقول في مكان آخر من الكتاب المذكور[36]:

«واصل بن عطاء الألثغ كان تلميذاً للحسن البصري يقرأ عليه العلوم والأخبار وكانا في أيام عبد الملك بن مروان، وهشام بن عبد الملك. وبالمغرب الآن منهم شرذمة قليلة في بلد ادريس بن عبد الله الحسني الذي خرج بالمغرب في أيام أبي جعفر المنصور».

والآن ينبغي توضيح بعض النقط:

1) إذا كان إدريس الأول ومن خلفه من عقبه سنيين فإنه لا يوجد أي نصّ ولا رواية تاريخية تثبت أنهم دعوا إلى مذهب مالك رسمياً ولا أن مؤسس الدولة الادريسية أخذ بالمذهب المالكي. وعلى العكس من ذلك، لا غرابة مطلقاً في أن يكون الأدارسة شيعيين وهم جاءوا بالذات إلى المغرب لا مجرد لاجئين، بل لتأسيس دولة من سلالة البيت النبوي كما تنص عليه الوثيقة الآنفة الذكر نفسها.

2) لا أحد يمكن أن ينفي عن المعتزلة ايمانهم الصحيح بالله ورسوله وكتابه

(33) البكري، المسالك، ص 118
(34) الاصطخري، المسالك، ص 37
(35) ص 30
(36) ص 46

المنزل ، فليس الاعتزال تهمه ، بل هو مذهب يتفق مع نصوص القرآن العديدة حول استخدام العقل والفكر . وقد لا يكون الأدارسة أخذوا بالاعتزال ، لكن من المرجح أن المذهب كان له أنصاره خصوصا إسحق الأوربي ، ولربما وجد إدريس الأول من الحكمة أن يساير إسحق وأتباعه في مذهب مهما يكن من شيء فهو لا يحارب الاسلام وإنما يختلف مع السنيين في نقط اجتهد فيها وأدلَى بحججه .

3) لا عبرة بأن يبايع مالك محمداً بن عبد الله باعتباره سنياً فيكون ادريس والحالة هذه سنياً ، لأن الأسرة الواحدة قد يجمعها الأصل المشترك وتفرق بينها المذاهب . وظروف المغرب الذي ذهب إليه إدريس الأول هي غير ظروف المشرق .

4) لم يغامر إدريس بنفسه في وقعة فخ إلا وهو شيعي من حيث كونه يجاهر بأن الخلافة من حق ذرية فاطمة قبل غيرهم فكيف يشنع العباسيون على إدريس حقاً أو ما كان آل البيت يعتبرونه حقاً ؟ والاعتزال نما وترعرع وأثمر في ظل الدولة العباسية وعلى مرأى ومسمع منها ، فكيف تحارب هذه الدولة شخصاً من أجل اعتزاله وهو بالمغرب ، في وقت يكاد الاعتزال فيه قد بلغ أوجه في عاصمة الخلافة وحولها ؟

5 — لقد ذكرنا من روايات الجغرافيين الذين كانوا يهتمون بشؤون المذاهب ومن أقوال الشهرستاني المتخصص في علم الاجتماع الديني ما يكفي لنسبة ادريس الأول إلى مذهب الاعتزال .

وبما أن التشيع لا يختلف عن عدد من المبادئ الرئيسية التي يقول بها المعتزلة ، سيما الزيدية الذين ينسب إليهم إدريس الأول ، فنحن لا نستغرب ولا نستبعد إلى حين الوقوف على نص مخالف :

أن يكون إدريس الأول شيعياً معتزلياً ، على اعتبار دفاعه عن حق آل البيت في الخلافة ، ولكون الظروف قد اقتضت منه أن يساير أوربة في اعتزالها ولو ظاهريا .

وعلى اعتبار أن ادريس الأول زيدي ، فإن الزيدية من أكثر الفرق الاسلامية اعتدالا . قالوا[37] :

(37) محسن أمين : «أعيان الشيعة» نقلا عن محمد جواد مغنية : الشيعة والتشيع ، ص 35

«إن الامامة تكون بالاختيار ، فمن اختير صار إماماً واجب الطاعة ، ولا يشترط أن يكون معصوما ، ولا أفضل أهل زمانه ، وإنما يشترط أن يكون من ولد فاطمة ، وأن يكون شجاعاً عالما يخرج بالسيف» .

وهذا ما أدَّى بعالم شيعي معاصر[38] إلى أن يعتبر الزيدية طائفة مستقلة بين الشيعة والسنة :

«ليسوا من السنة ولا من الخوارج ، لأنهم حصروا الإمامة في ولد فاطمة ، وليسوا من الشيعة ، لأنهم لا يوجبون النص على الخليفة ... هذا إلى أنهم يأخذون بفقه أبي حنيفة ، أو أن فقههم أقرب إلى الفقه الحنفي منه إلى الفقه الشيعي .

وقالت السنة : إن الزيدية أقرب إليهم من جميع الفرق الامامية لأنهم يوجبون الامامة بالانتخاب لا بالنص ، ولا يقولون بعصمة الامامة ، ويجيزون تقديم الفاضل على الأفضل ، ويأخذ أكثرهم بالفقه الحنفي .

وقالت الشيعة : إن الزيدية أقرب إليهم من المغالين ، لأنهم لا يؤلهون أحداً من الأئمة ، وأيضاً أقرب إليهم من السنة ، لأنهم يوجبون الإمامة في ولد فاطمة ...» .

2 – الحالة الاقتصادية

كانت الأحوال الاقتصادية تختلف باختلاف الظروف الطبيعية والسياسية . أما في بداية عهد الدولة ، فقد كانت الحالة الاقتصادية حسنة بفضل الغنائم التي حصل عليها الأمراء في حرب المشركين ، بالاضافة إلى انتهاج سياسة ضرائبية تتفق ومبادئ الاسلام الصحيحة . غير أنه من الصعب أن نأخذ نظرة مفصلة عن الحالة الاقتصادية لهذا العهد . ونظراً لعدم عناية الدولة بالميدان الصحي فقد كانت الأوبئة تفتك بالسكان فتكا إلى جانب الجراد الذي كان يأتي على المزروعات فتتفاحش أثمان البضائع والمواد الغذائية . ففي سنة 260 وسنة 285 وسنة 344 انتشر الوباء بشكل فظيع في الأندلس والمغرب . وفي سنة 260 حدثت مجاعة عظيمة مات من أجلها عدد كبير من السكان . كما أن الطبيعة قست على المغرب فحطم البرد في سنتي 339 و342هـ الأشجار والثمار وقتل المواشي والطيور . وفي سنة 379 استمرت الريح الشرقية ستة أشهر وتسببت عنها أوبئة فتاكة . ولكن كانت تأتي ظروف يعم

(38) محمد جواد مغنية ، ص 35 – 36 . ننقل كلامه بنصه

فيها الرخاء والكساد إلى حد كبير حتّى كان الفلاحون يضطرون أحيانا إلى ترك الزرع في سنابله لعدم وجود من يشتريه.

وقد كان المغرب في هذا العصر صلة وصل في الميدان التجاري بين أقطار السودان والمشرق. فقد كان من صادرات المغرب والسودان إلى هذه المنطقة اللّبود المغربية والمرجان والعنبر والذهب والعسل والزيت والسفن (بفتح الفاء) والحرير والسمور (ميم مشددة)[39]. وقد امتد نفوذ الادارسة إلى وادي شلف شرقاً وإلى السودان جنوبا. وحسب الزياني وقع اتفاق بين ادريس الثاني وابراهيم بن الأغلب على تخطيط الحدود بينهما[40] ومن المعلومات التي أوردها الهمذاني في كتابه البلدان الذي ألفه في القرن الثالث الهجري أن المغرب لم يكن به «نخل ولا كرم ولا زيتون. ولهم القمح والشعير والأغنام والبغال والبقر والعسل، وليس لهم قطن ولا كتان ولباسهم الصوف وزرعهم على ماء السماء».

ولا مراء في أن معلومات الهمذاني عن الفلاحة المغربية ناقصة.

3 - البناء والعمـران

أنشأ الأدارسة بالمغرب مدناً عديدة، من أهمها المدن التالية:

1) فــاس :

تقع قرب وادي فاس في موقع يجعلها قريبة من الريف والمغرب الشرقي والمحيط الأطلسي. وقد سبق اختطاط فاس الحالية مشروعان حاول إدريس الثاني انجازهما على التوالي أولها بناء المدينة عند سفح زلغ حيث حطم السيل المباني والمزارع، تم بناؤها عند وادي سبو حيث خشي إدريس نفس المصير. وهكذا تم بناء المدينة للمرة الثالثة وبصفة نهائية، بعد أن وقع اختيار عمير الأزدي على مكانها الذي لم يكن سوَى غيضة تكتنفها الأشجار والمزروعات ويقطن بها مجوس من البربر، وحصل الاتفاق على تنازلهم عن هذه الغيضة مقابل ستة آلاف درهم. وقد شك

(39) الاصطخري، المسالك والممالك، ص 37

(40) ترجمان، ص 262. راجع أيضا، ابن خرداذبه، المسالك، ص 89، والهمذاني، البلدان، ص 32 وتعاليق الصادوق في نفس الكتاب، ص 97

طراس ومستشرقون آخرون فيما إذا كان بناء عدوتي فاس كلتيهما في عهد ادريس الثاني[41] ، ويرجعان بناء إحداهما إلى ادريس الأول . وهي عدوة القرويين وعلى أي فقد تمت عمارة المدينة في النصف الأول من القرن الثالث بواسطة الأسر الوافدة من الأندلس في عهد الحكم الربضي وقد ظلت العدوتان مدة طويلة منفصلتين بأسوار ضخمة حتَّى حدث عدة مرات أن تنازلت احدَى العدوتين لمختلف الفاتحين بينما يتحصن سكان العدوة الأخرى لمدة شهور عديدة كما حدث في عهد الأدارسة المتأخرين وأيام الزناتيين. وفي عهد إدريس الثاني وهو باني فاس على أكثر الروايات (سنة 193) تم بناء أول جامع للخطبة هو جامع الأشياخ كما بنى مسجد الشرفاء، وقد أنشئت فنادق للتجار وحمامات ومرافق مختلفة خلال حكم الأدارسة، وأدخلت اصلاحات كثيرة على فاس في أيام الدول المتعاقبة.

2) البـصـرة :

بنيت في أواسط القرن الثالث الهجري ، وأول من تولاها من الأدارسة إبراهيم ابن القاسم بن ادريس. وتقع بين أصيلا والعرائش بعيدة عن البحر . وكانت تعرف في أول الأمر ببصرة الكتان . وكان لها عشرة أبواب بناء على رواية البكري .

3) جـراوة :

في الشمال الشرقي من المغرب ، بناها إدريس بن محمد بن سليمان أو ولده عيسَى الملقب بأبي العيش ، وقد حدد ابن عذارى بناءها في عهد الأخير سنة 257 ، وكانت تحتوي على جامع من خمس بلاطات وخمسة حمامات وكان لها أربعة أبواب ، ويسكن حولها بنو يزناسن وزواغة وزناتة ، كما كان يقع بقربها قرَى مدغرة على البحر المتوسط .

---

(41) في البيان المغرب ص 337 ان عدوة الأندلسيين أسست سنة 192 وعدوة القرويين سنة 193 . ولأبي بكر الرازي نظرية اعتمدها بروفنصال وهي أن ادريس الأول هو باني فاس سنة 172 ، ومن ثم يكون ادريس الأول باني احدى العدوتين ، وابنه بنَى العدوة الأخرى . انظر ابن الأبار ، حلة ، 1 ، 54 ، 55 . وروض القرطاس ، 1 ، 38–40 و50 ، وزهرة الآس للجزنائي .

4) قلعة حجر النسر :

بنيت في الجنوب الشرقي من البصرة سنة 317 على يد إبراهيم بن حمد بن القاسم بن إدريس وفيها حوصر أدارسة الريف في عهد موسى بن أبي العافية وقد دافعوا عنها دفاعا مستمراً. ومن المرجح أن هذه القلعة تقع قريباً من مضارب قبيلة سوماتة بدليل أنقاضها التي لاتزال موجودة.

5) أصـيـــلا :

عرفها القرطاجنيون قبل الاسلام ، ثم أتى عليها البحر فجددها البربر والأدارسة في الاسلام ، وكانت حينئذ مركزاً تجارياً هاماً ، وكان أول من ملكها من الأدارسة ، القاسم بن إدريس ، وكان يقطن بها بربر من لواتة . وقد استمر الأدارسة بها مدة طويلة .

6) تاميدلت (ميدلت) :

أسسها عبيد الله بن إدريس ، ذكر الحميري أنها كانت زاهرة كثيرة العمارة وأنه كان بها معدن عظيم للفضة ، وعليها أرحاء كثيرة وقد أكد الحميري كلام البكري الذي أعطَى هذه المعلومات قبله وذكر (أي البكري) أنها كانت مسورة وبها حمامان ولها أربعة أبواب وقال ان أرضها أكرم أرض وأكثرها ريعاً .

وهناك عدة مدن أخرى من العهد الإدريسي ذكرناها في موضوع نظام الحكم والإدارة .

جامعة القرويين[42]

نسب تأسيسها إلى فاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهري أحد العرب المهاجرين من القيروان ، وقد بنت القرويين من المال الذي ورثته عن والدها . وكان الشروع في البناء سنة 245هـ . أما مواد البناء نفسها فقد استخرجت من عين المكان . وحتَّى الماء استنبط من بئر كانت قائمة هناك ، وكان المسجد يتألف من 4 أساكيب

(42) عن جامعة القرويين ألف الدكتور عبد الهادي التازي كتابا قيماً بعنوان جامع القرويين. وفيه عرض مسهب لنشاط هذه المؤسسة عبر العصور يتناول مختلف الجوانب الفكرية والأثرية وغيرها، وقد أعد هذه الدراسة كأطروحة جامعية.

و12 بلاطة ، وبلغت مساحة المسجد 1248م . ثم زيد فيه لأول مرة في عهد عبد الرحمن الناصر بواسطة الأمير أحمد الزياني عامله على فاس فصار يحتوي على 13 اسكوبا و18 بلاطة بينما بلغت مساحته 4 الاف م مربع . وفي عهد يوسف بن تاشفين أصبح يشتمل على 16 أسكوبا و21 بلاطة بينما بلغت مساحته 5846م مربع .

وفي أيام عبد الرحمن الناصر بنيت الصومعة الحالية وتم الفراغ من بنائها سنة 345 على يد أحمد بن أبي بكر الزياني ، وكان بناؤها من الحجر المنحوت حتَّى شرع في تبييضها منذ سنة 688 وفي أيام يوسف بن عبد الحق بنيت حجرة المؤذنين .

وتعتبر القرويين من أقدم الجامعات الأفريقية. وكان المسؤول عن تسييرها قديما قاضي المدينة . وكانت المواد الدراسية في البداية ترتبط بالدين واللغة العربية من فقه وتفسير وأدب الخ . وعرفت هذه الجامعة نشاطا عظيما في مختلف فروع المعرفة أيام الموحدين والمرينيين ثم الأشراف . وعاشت القرويين منذ البداية على نظام الوقف الذي اتسعت موارده بعد المرابطين خاصة ، أي بعد أن سادت الروح الدينية والعلمية في أوساط أهل فاس خاصة ؛ وعلى العموم فقد كان العلماء متطوعين يلقون دروسهم بينما يشتغلون خارج القرويين بوظائف معينة كالعدالة والكتابة والقضاء . وفي عهد المرينيين بنيت مدارس كثيرة لايواء الطلاب وجهزت بخزائن تعين الطلاب على تحصيل العلم ، كما أسست خزانة عظيمة في مسجد القرويين في عهد بني مرين .

وفي أيام العلويين بدأ ادخال النظام على القرويين بتقرير الكتب والمواد الدراسية أيام السلطان محمد بن عبد الله ، كما أنشئت المطبعة الحجرية التي ساعدت كثيراً على نشر الكتب في مختلف العلوم والفنون ، وذلك في عهد السلطان محمد بن عبد الرحمن ، أما في العصر الحاضر فقد أدخل في سنة 1931م اصلاح جديد على القرويين بتقسيم مراحل الدراسة فيها إلى ابتدائي وثانوي ونهائي في مقابل تجريدها من كل صبغة علمية حديثة ، فلم يعد يدرس بها سوَى مواد الفقه واللغة حتَّى إذا كانت سنة 1942م عين أول مدير للقرويين درس على الطريقة العصرية إلى جانب الطريقة التقليدية ، وهو الأستاذ محمد الفاسي فوضع نظاما دقيقا للامتحانات والمواد والكتب المقررة ، وان ظل الاصلاح شكليا لا جوهريا . وفي سنة 1957م وضعت

اللجنة الملكية لاصلاح التعليم برنامجا ينبني على توحيد مواد الدراسة ومناهجها في مختلف معاهد المغرب. ولكن لم يدخل هذا التوحيد في مرحلة التطبيق الا بعد انشاء المجلس الأعلى للتربية الوطنية الذي خلف اللجنة الملكية السابق ذكرها، حيث أصبح التخصص يبدأ في السنوات الثلاث الأخيرة من المرحلة الثانوية. ومنذ سنة 1931 والصراع قائم بين المحافظين من علماء الدين والمسؤولين عن شؤون التعليم من متطرفين ومعتدلين، ونقطة الخلاف هي اعطاء أهمية أكثر للعلوم الدينية، أو مسايرة القرويين لكل مناهج التعليم العصري إلى أن أصبحت القرويين مجرد جامعة إسلامية حديثة.

وقد تركت جميع الدول التي تعاقبت على عرش المغرب منذ الأدارسة آثاراً متعددة، من بينها في عهد المرابطين المنبر الرائع الذي صنع عوض المنبر الأموي وباب الخلفاء الذي صنع سنة 531هـ ويبلغ طوله ثلاثة أمتار و82سم. ومن آثار الموحدين الثريا العظيمة التي ابدع الصناع في زخرفتها. أما في عهد بني مرين فقد صنعت ساعة مائية عظيمة كما بنيت الخلوة العليا أيام السلطان أبي فارس. وفي عهد السعديين بنيت القبة الغربية ذات السواري الثمان. وفي أيام العلويين وقع ترميم شامل لمباني القرويين وبنيت مكاتب الادارة وقاعة كبيرة للمطالعة، ثم نقلت الأقسام الدراسية من المسجد نفسه إلى بنايات خاصة.

4 - الحركة الفكرية:

إذا كانت المصادر تتوفر نسبيا لمن يدرس تاريخ الادارسة السياسي، فهي لا تكاد توجد بالنسبة لدارس الحركة الفكرية ولا يدل هذا مطلقا على أنه لم يكن هنالك علماء أو أدباء، إنما الشيء الذي يلاحظه الباحث في هذا الميدان أن الأدارسة لم يكونوا ذوي ثروة تساعدهم على تشجيع الحركة العلمية والأدبية إلى حد يكثر معه الانتاج وتنتشر حركة التأليف[43]؛ حتَّى أن تاريخ الادارسة كتبه مؤرخون معظمهم متأخر جداً عن عصر الأدارسة. أما المعاصرون فليس فيهم إلا قليل من المغرب الأقصَى على ما يظهر. ونظرة قصيرة على تاريخ الأمويين بالأندلس،

(43) بالرغم من الفتوحات التي تمت على يد ادريس الثاني فهو لم يأخذ من السكان غير زكاة الأموال والأعشار عن المواد الغذائية والجزية الشرعية (انظر، كتاني، أزهار، ص 162).

والعبيديين بالقيروان ، تدلنا على مدَى حركة الانتاج الواسعة نسبياً في كل من إفريقية والأندلس في نفس الوقت الذي كانت الحركة الفكرية فيه بالمغرب مسايرة بدون شك للحركة الفكرية بالقطرين الشقيقين . وقد حاولت عبثا أن أجد مؤلفاً مغربياً مما بقي من عهد الأدارسة ، فهل كانت الحركة الفكرية بالمغرب عقيمة إلى هذا الحد ؟ . بكل تأكيد ، لا ! غير أنه كان من عادة الدول الاسلامية أن تغدق الأموال الطائلة على العلماء والأدباء حتَّى ليتفرغ كثير منهم للانتاج ، مكتفيا في معيشته بما يدره عليه أمراء الدولة وكبار المسؤولين فيها . أما فقر الأدارسة ، واشتغالهم بنشر الاسلام وبساطة حياتهم فلم يسمح لهم حتَّى بانشاء جيش قوي لمواجهة منافسيهم ، فضلاً عن القيام بعمل واسع في ميدان الحضارة العلمية .

ومن أهم من كتبوا في تاريخ الأدارسة صالح بن عبد الحليم ، وهو ينقل كثيراً عن البرنوسي المعاصر لهم . غير أن كتاب البرنوسي يعتبر لحد الآن مفقودا ؛ كما كتب محمد بن يوسف الوراق عن المدن التي عرفت ازدهاراً كبيراً في عهد الأدارسة خصوصاً سجلماسة ونكور وفاس . وقد توفي هذا المؤرخ في عهد الحكم المستنصر (350 ــ 366) أو بعده بقليل . وذكر ابن الأبار[44] أنه وضع كتابا ضخما في مسالك افريقية وممالكها للمستنصر المذكور . ووصفه ابن حزم بالحافظ لأخبار المغرب ، لأنه ألف في أخبار تاهرت ، ووهران ، وسجلماسة ، ونكور ، والبصرة ، وكل هذه الكتب في حكم المفقودة حتَّى الآن ، وقد توفي هذا الجغرافي المؤرخ بقرطبة . وكثيرا ما اعتمد عليه ابن عذارى في «البيان المغرب» والبكري في المسالك والممالك .

وكانت حركة العلوم الدينية مزدهرة في عهد الأدارسة ، وحتَّى البرغواطيون كان من بينهم من فقهوا في الدين[45] وعاصروا الأدارسة وتلقوا دراستهم بالشرق ومنهم يونس الشذوني الأندلسي الأصل وكانت رحلته مع يزيد بن سنان الزناتي الواصلي وبرغوث بن سعيد الصفري . ومن عجيب المفارقات أن يجتمع أصحاب هذه المذاهب المختلفة في رحلة للدراسة معاً . أو على الأصح ، أن يجتمعوا للدراسة ثم يرجعوا إلى المغرب وقد تفرقت بهم المذاهب !

---

(44) ابن الأبار ، تكملة الصلة ، ص 366 و671

(45) ابن عذاري ، المغرب ، 1 ، 321

أما الحركة الأدبية ، فقد عرفت نشاطاً عظيما حفظت لنا منه المراجع نبذاً قليلة متفرقة ، ولكنها تنبئ بحق عن الروح المذهبية والدينية التي كانت تسود الأدب في ذلك العصر.

وقد عرف عهد الأدارسة معظم أبواب الأدب التقليدية ؛ غير أن الشعر السياسي كان طاغياً على أبواب الأخرى ، نظراً للصراع القائم بين مختلف النزعات آنئذ ، وكان بين أمراء الأدارسة عدد كبير من الأدباء والشعراء ، ومنهم ادريس الثاني . ومن شعره الأبيات التالية التي يعاتب فيها بهلولاً الخارجي الذي خرج عن بيعته ودعا لابراهيم بن الأغلب :

أبهلول قد شممت نفسك خطة تبدلت منها عولة برشاد
أضلك إبراهيم من بعد داره فأصبحت منقاداً بغير قياد
كأنك لم تسمع بكيد ابن أغلب غدا آخذاً بالسيف كل بلاد
ومن دون ما منتك نفسك خالياً ومناك ابراهيم شوك قتاد

وقد حضر داود الجعفري المتوفي سنة 261 إلى جانب إدريس الثاني في إحدى غزواته مع الصفرية فلاحظ تقلبه على السرج وقلة استقراره ، فأجابه ادريس بقوله : «ذاك مني زمع إلى القتال وصرامة فيه ، فلا تظنه رعباً» ثم تمثل بيتين نسباً إلى الامام علي ، وهما :

أليس أبونا هاشم شد أزره وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
فلسنا نمل الحرب حتى تملنا ولا نشتكي مما يؤول من النصب

وينم أدب المولى إدريس الثاني عن حماسته الفياضة وعزة نفسه وثباته في الحرب . ولدينا أبيات أخرى لابراهيم بن القاسم بن إدريس يعاتب أمويي الأندلس على استكانتهم لاستبداد المنصور بن أبي عامر ، وان كان الأدارسة يكرهون كلا من الفريقين ، بيد أن تدخل المنصور كان أشد عليهم من تدخل ملوك بني أمية :

فيما أرَى عجباً لمن يتعجب جلت مصيبتنا وضاق المذهب
أيكون حيا من أمية واحد ويسوس هذا الملك هذا الأحدب ؟
تمشي عساكرهم حوالي هودج أعواده فيهن قِرْدٌ أشهب

وقد اشترك البربر بطبيعة الحال، في الحركة الأدبية. وهكذا نرى سعيد بن

هشام المصمودي يخاطب البرغواطيين في وقعة بهت التي قتل فيها عدد كبير من البربر ، ونلاحظ في هذه القصيدة الطويلة التي قدم لنا منها ابن عذارى بضعة أبيات تقليداً واضحا لمعلقة عمرو بن كلثوم وزنا وقافية . بالاضافة إلى تقارب المناسبتين . بل نلاحظ أكثر من ذلك وأهم تأثير القرآن في أسلوب الشاعر الذي يقول :

قفي قبل التفرق فاخبرينا وقولي واخبري خبراً مبينا
هموم برابر خسروا وضلوا وخابوا، لا سقوا ماء معينا
يقولون النبي أبو عفير فأخزَى الله أم الكاذبينا
ألم تسمع ولم تر يوم بهت على آثار خيلهم رنينا
رنين الباكيات بهم ثكالى وعاوية ومسبقطة جنينا
هنالك يونس وبنو أبيه يوالون البوار معظمينا
فليس اليوم ردتكم ولكن ليالي كنتم مستيسرينا[46]

الشكوَى :

ظهر الألم في شعر الأدارسة الذين أحس الأولون منهم بحنين إلى مواطنهم الأصلية . وفي الأبيات التالية يعبّر إدريس الثاني عن شوقه إلى آل البيت :

لو مد صبري بصبر الناس كلهم لكل في روعتي أو ضل في جزعي
بان الأحبة فاستبدلت بعدهم هماً مقيماً وشملاً غير مجتمع
كأنني حين يجري الهم ذكرهم على ضميري مجبول على الفزع
تأوي همومي إذا حركت ذكرهم إلى جوانح جسم دائم الهلع

ويقول شاعر آخر سكن بين البربر في ورغة وسماهم أعاجم (!) :

ألا هل أتَى أهل المدينة انني بورغة بين الأعجمين غريب
إذا قلت شيئاً قيل : ماذا تريده ؟ لهم بين أحرار الوجوه قطوب ![47]

المـدح :

يجري على الطريقة التقليدية من وصف بالكرم والشجاعة ، وما إلى ذلك بل

(46) أي من أصحاب ميسرة
(47) انظر أبياتا أخرى لادريس الثاني في الحلة السيراء ، لابن الأبار ، 1 ، 55

يتجلى فيه التكسب أحيانا بشكل يزري بقيمة الشاعر من ذلك قول بكر بن حماد في أحمد بن القاسم بن إدريس أحد ولاة البصرة :

ان السماحة والمروءة والندى جمعوا لأحمد من بني القاسم
وإذا تفاخرت القبائل وانتمت فافخر بفضل محمد وبفاطم
وبجعفر الطيار في درج العلى وعلي العضب الحسام الصارم
إني لمشتاق إليك وانما يسمو العقاب إذا سما بقوادم
فابعث الي بمركب أسمو به علي أكون عليه أول قادم(!)
واعلم بأنك لن تنال محبة إلا ببعض ملابس ودراهم(!)

ويلاحظ خلل واضح في الشطر الثاني من البيت الأول .

الوصف :

لا يمكن أن تؤخذ عنه نظرة كافية لقلة ما دون منه في مصادر متفرقة . وفي البيتين التاليين يصف أحمد بن فتح التاهرتي جمال نساء البصرة . وقد بلغت الرقة بهذا الشاعر أن برع في جمع أربعة أوصاف لجمال المرأة البصرية مع الدقة في الوصف ، وذلك كله في بيت واحد (أي البيت الثاني) :

ما حاز كل الحسن إلا قينة بصرية في حمرة وبياض
الخمر في لحظاتها، والورد في وجناتها، هيفاء غير مفاض[48]

ومن أمراء الأدارسة المثقفين ، أحمد بن ابراهيم بن محمد الذي ذكر البكري أنه كان عالمهم ، يحفظ السير والتواريخ ، وكان نسابة عاقلا حليما ، وكان مبجلا لعلمه معظما لدى عبد الرحمن الناصر لأنه كان يميل إلى بني أمية ، حتى قيل إنه قدم عليه فبنى له قصراً في كل مرحلة ينزل بها . ومن نافسه شهرة ، أحمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالكرتي و«كان له علم وقدر بالمغرب» ، ويحيى بن إدريس الذي كان «يشهد مجلسه العلماء والشعراء» كما كان له عدة وراقين ينسخون له الكتب «وينتجعه الناس من الأندلس وغيرها فيحسن إلى جميعهم» ، وعبيد الله بن يحيى ابن ادريس الذي رُوِيَ له شعر في مدح الناصر بعد افتتاحه سبتة[49].

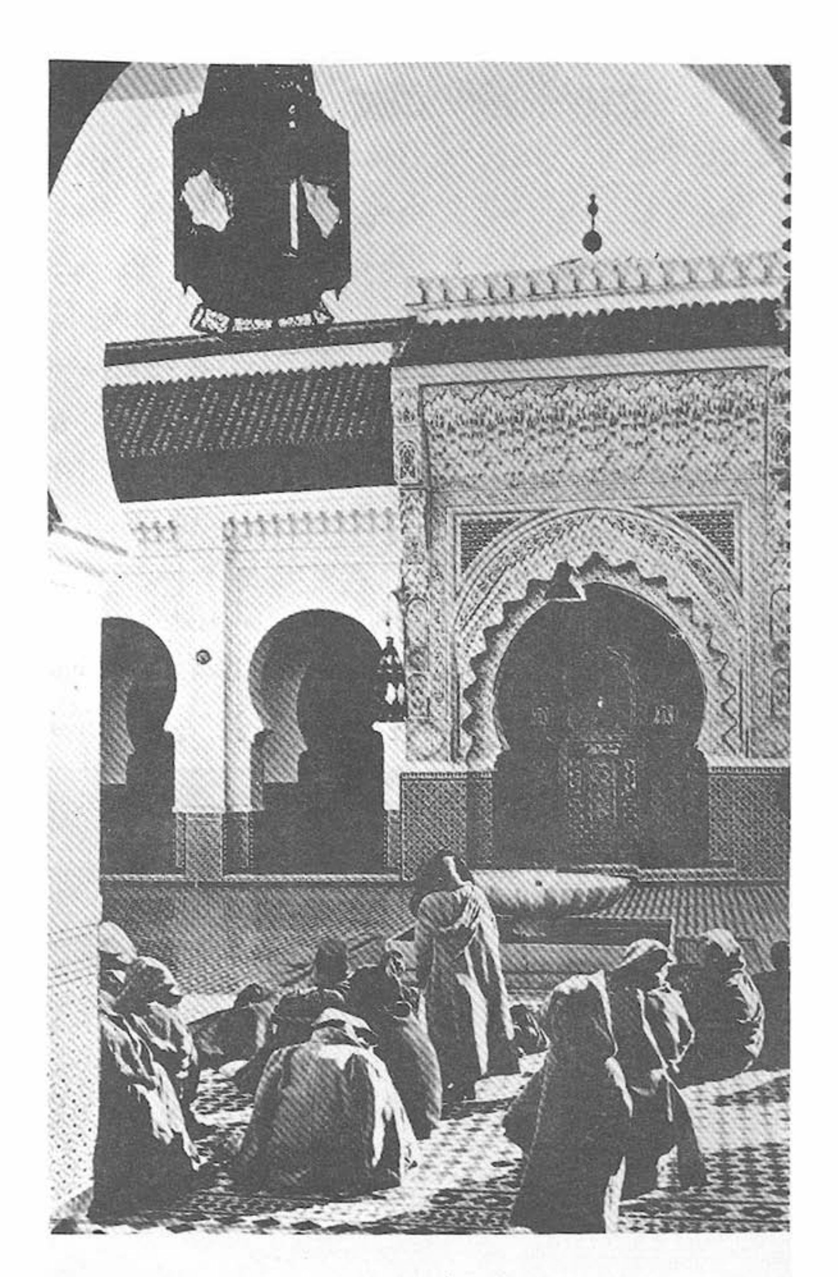
(48) انظر بعض ما قيل في الهجاء هذا العصر في المسالك والممالك ، للبكري ، 129
(49) ابن عذاري ، المغرب ، I ، 284

مراجع عن الأدارسة

1 ـ الاستقصا للناصري
2 ـ تاريخ الطبري .
3 ـ تاريخ ابن خلدون .
4 ـ البيان المغرب لابن عذاري
5 ـ المغرب ومدنه الأثرية لشامبيون
6 ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس لصالح بن عبد الحليم
7 ـ النبوغ المغربي في الأدب العربي ، لعبد الله كنون
8 ـ المسالك والممالك للبكري
9 ـ جامع القرويين للدكتور عبد الهادي التازي .
10 ـ اتحاف أعلام الناس لابن زيدان .
11 ـ الدر النفيس للحلبي ، مخطوط بالخزانة العامة/ الرباط
12 ـ زهرة الآس للجزنائي .



مدينة فاس



جامع القرويين بفاس

المغـرب
بين عهد الادارسة والمرابطين

321 ـ 463 هـ / 932 ـ 1070 م

من دخول فاس في طاعة الأمويين
إلى احتلالها من لدن المرابطين



نظرة عامة عن هذه الفترة

1 – العالم الاسلامي في القرن الخامس الهجري

كان القرن الرابع الذي استمرت خلاله دولة الأدارسة بالريف ، يمثل عصر النفوذ التركي في الخلافة العباسية وظهور الامارات المستقلة كالحمدانيين في الشام وبني بويه في فارس والفاطميين في تونس والأمويين في الأندلس . وبالتالي فقد كان هناك إمارات متعددة ، إلى جانب ثلاث خلافات قائمة في وقت واحد : الخلافة العباسية في بغداد ، والفاطمية في افريقية والأموية في الأندلس . فهذا القرن إذاً ، عصر الأطماع السياسية والطموح الشخصي ، ولكنه إلى جانب ذلك قرن النهضة العلمية الجبارة التي بلغ العالم الاسلامي فيها أوج ازدهاره ، فهو عصر الحلاج وإخوان الصفا وأبي بكر الرازي والفارابي وابن سينا وأبي الطيب المتنبي وعشرات بل مئات من فطاحل رجال العلم والأدب . ولم يشذ المغرب عن العالم الاسلامي في انقسامه خلال هذا القرن وقبله إلى دويلات كانت أعظمها من غير شك ، الدولة الادريسية التي تمكنت من مدّ نفوذها إلى تلمسان وتاهرت .

أما القرن الخامس فقد شهد نصفه الأول ظهور الزناتيين بالمغرب كحاكمين باسمهم الخاص بعد تضعضع بني أمية . وفي هذه المدة كان الفرس قد أصبحوا سادة في البلاط العباسي بالعراق ، بينما كان الغزنويون في الأفغان والبنجاب والفاطميون في مصر ، وملوك الطوائف بالأندلس ، والصنهاجيون بافريقية .

على أننا إذا عدنا إلى الوراء قليلا ، فسنجد أن الأندلس عند نهاية دولة الأدارسة بالمغرب كانت تشهد فترة زاهرة على يد العامريين بالاضافة إلى أن الوضع السياسي بالنسبة إلى المسلمين كان أحسن بكثير مما سيؤول إليه في عصر ملوك الطوائف الذين برزوا على مسرح السياسة في مطلع القرن الخامس .

وإذاً ، فالزناتيون الذين خلفوا الأدارسة في فاس قد عاصروا العامريين ثم ملوك الطوائف . أما إفريقية ، فقد انتقل الفاطميون منها إلى مصر بعد افتتاح القاهرة سنة

358هـ وكان أول من انتقل منهم ، المعز لدين الله الذي ترك بافريقية والياً صنهاجيا هو بلكين بن زيري بن مناد ، وقد سماه المعز بيوسف بدل بلكين ولقبه بأبي الفتوح . ومنذ ولاية هذا القائد الصنهاجي على إفريقية ، أصبحت أسرته تتعاقب على الحكم بها حتَّى آل الأمر إلى المعز بن باديس الذي كان سنياً واضطهد الشيعة بافريقية مما أدَّى إلى قطع الخطبة باسم الفاطميين وتحويلها إلى خليفة بغداد سنة 440 . وقد تدخل بعض ملوك صنهاجة الافريقيين في شؤون المغرب السياسية ، وأولهم بلكين بن زيري . وإذاً فقد شهد المغرب بعد سقوط الأدارسة ، استمرار تدخل المروانيين إلى نهاية القرن الرابع تقريباً ، ثم تدخل الصنهاجيين في مطلع القرن الخامس ، وخلال هذه الفترة تعاقب على حكم المغرب مباشرة ، أمراء زناتيون من مغراوة وبني يفرن . على أن الصنهاجيين لم يستقر لهم أمر بالمغرب بسبب عداء الزناتيين لهم ومساعدة المروانيين . ولذلك يرَى «جوتيي» في كتابه عن «ماضي افريقيا الشمالية» أن فتوح الصنهاجيين كانت مجرد حدث عابر دون أبعاد مستمرة .

2 – مغراوة وبنو يفرن

الزناتيـــون :

كانت مضاربهم تشغل صحراء تونس ومناطق عظيمة من الجزائر تمتد إلى تلمسان . ولما استقر الفاطميون بافريقية بتأييد صنهاجة وكتامة كان الزناتيون يتحينون الفرص للتخلص من نفوذ منافسيهم البرانس فلما بدأ الفاطميون يتوغلون في إفريقيا الشمالية ، صار الزناتيون يؤيدون الأمويين بزعامة القائد موسَى بن أبي العافية الذي انهزم بعد سنين طويلة من النضال أمام جيوش الفاطميين . ثم طارد جوهر الصقلي الزناتيين واستولَى على تاهرت وقتل كثيرا من زعمائهم ، واحتل سجلماسة وأمعن في التنكيل بهم بفاس كما شردهم من المغرب الأوسط [1] فدخلت جموع عظيمة منهم إلى المغرب الأوسط منذ انهزام ابن أبي العافية أمام ميسور .

ولما كانت أهم بطون زناتة التي لعبت دوراً هاماً في سياسة المغرب خلال الفترة التي تمتد من سقوط دولة الأدارسة إلى ظهور المرابطين ، هي مكناسة وبنو يفرن ومغراوة ، فينبغي أن يفرد كل منها بنبذة لأن لكل منها دوراً متميزاً .

(1). عومل كل من أمير سجلماسة الشاكر لله ، وعامل فاس معاملة مهينة من لدن جوهر الذي أرسله المعز ، حيث جعل كل منهما في قفص ، وطيف بهما في المنصورية (ابن أبي دينار ، ص 61) .

مكناســة :

لا يعرف بالضبط متى دخلت هذه القبيلة إلى المغرب الأقصى ، بيد أن مواطنها الأصلية كانت في المغرب الأوسط . وقد وجد قادة الفتح الاسلامي عناصر كثيرة منها في سهول ملوية حيث كانت تتجمع في ناحية تسول وتازة ثم تدفقت هذه الجموع متجهة نحو مكناس الحالية ، وبعضها قصد سجلماسة ، بينما اتجه فريق نحو المحيط الأطلسي وآخر نحو ساحل البحر المتوسط حول مليلية ، وبنو مدرار مؤسسو سجلماسة هم من بربر مكناسة الذين تنسب إليهم مدينة مكناس وتازا أيضا . وفي أيام الأدارسة وقبل استيلاء المرابطين مباشرة على الحكم ، كان القسم الأكبر من مكناسة يستقر بالمغرب الشرقي ، وقد اشتهر من بين زعمائهم في عهد الأدارسة ، موسى بن أبي العافية الذي والى الفاطميين بعد قدوم ابن عمه القائد مصالة بن حبوس سنة 307 ، ثم استولى على فاس وطرد منها الأدارسة الذين التجأوا إلى حجر النسر ، مما أدى به إلى الطمع في تأسيس مملكة بالمغرب ولكنه فضل العمل تحت سلطة المروانيين حتى يجابه بذلك نفوذ الفاطميين ومنافسة الصنهاجيين ، وإذ انهزم ابن أبي العافية أمام جيش الفاطميين مرتين متواليتين ، فقد مات في ظروف غامضة ، ويرجح أنه مات قتيلا سنة 341 حسب رواية روض القرطاس . إلا أن عبد الرحمن الناصر لم ينس تضحيات هذا القائد ، فعين بعد موته ولده مدين أو إبراهيم. وعلى كل فقد أصبحت مناطق نفوذ مكناسة موزعة بين أسرة موسى بن أبي العافية بينما استولى المغراويون على فاس وانسحبت مكناسة عندئذ إلى النواحي الشرقية ، ثم قاومت المرابطين في فاس بعد أن انهزم المغراويون أمامهم ، إلا أن المرابطين لم يلبثوا أن أخضعوا الزناتيين عموماً وتلاهم الموحدون الذين تسلم الزناتيون منهم السلطة من جديد ، ولكن كدولة ذات كيان ونفوذ واسع .

بنو يفـرن :

كانت مواطنهم الأصلية بافريقية وما بين تلمسان وتاهرت . ومن كبار زعمائهم أبو يزيد الذي ثار ضد الفاطميين وهددهم في القيروان . وكان رئيس بني يفرن حينئذ محمد بن صالح وكان مغراو ويفرن أخوين شقيقين ؛ وقد تكون من نسلهما مع الزمن فخذتان عظيمتان . ومن زعماء بني يفرن أيضا يعلى بن عبد الله بن بكار باني افكان . وكان على رأس المؤيدين للدولة الأموية ، فدعا لعبد الرحمن الناصر واستولى على وهران سنة 343 ثم بسط نفوذه غرباً فاستولى على فاس التي عين عليها

ابن عمه أحمد بن عثمان . وكان نفوذ بني أبي العافية قد ضعف بعد موت والدهم سنة 341 بينما كان الأدارسة ملتجئين إلى حجر النسر . ولما كانت 347 قدم جوهر الصقلي ، فقطع يعلى دعوة المروانيين ولقي جوهر أحسن لقاء ، غير أن جوهر لم يكن يثق بالزناتيين وخصوصاً بني يفرن ، فقتله على يد رجاله من كتامة وصنهاجة في ناحية شلف ، فالتحق قسم كبير من بني يفرن بالأندلس بينما اختفَى يدو بن يعلى ثم جمع فلول قومه بعد أن سكنت الهيعة . وفي سنة 373 قدم الحسن بن كنون الادريسي الذي صحبه جيش من افريقية ، فانضم إليه يدو الذي كان يكره منافسه زيري بن عطية ، بل ان زيري نفسه انضم إلى ابن كنون ثم صار بفضل تدخل وزير العامريين حسن السلمى يوالي المنصور بن أبي عامر وبعد موت ابن كنون سنة 375 استمر يدو وزيري في نزاعهما على فاس يتولاها كل منهما مدة ثم يستولي عليها الآخر إلى أن استراح زيري من منافسه بقتله في فاس سنة 383 أو بتشريده في الصحراء على رواية ابن خلدون .

وإذا كانت رياسة بني يفرن لأسرة محمد بن صالح في هذه الظروف ، فقد كانت في مغراوة لأسرة بني خزر . وقد اتحد الفريقان سنة 369 عند قدوم بلكين بن زيري الصنهاجي إلى المغرب ، وهو قائد افريقية وواليها من لدن الفاطميين وكان تجمع بني يفرن ومغراوة عظيما بناحية سبتة ، فخشي بلكين لقائهم ، وتنكبهم متخذا طريقه إلى البصرة التي خربها ، ثم إلى برغواطة الذين قتل أميرهم عيسَى بن أبي الأنصار .

غير أن اتحاد بني يفرن ومغراوة كان مؤقتا بسبب النزاع الشخصي بين يدو وزيري كما تقدم ، ومع ذلك فقد استطاع بلكين أن يمحو دعوة بني أمية من أكثر أنحاء المغرب ، إلى أن كانت سنة 375 فوضع القائد عسكلاجة الأموي حدا لتدخل الفاطميين ولدولة الأدارسة أيضاً .

وبعد موت يدو بن يعلى انسحب بنو يفرن إلى ناحية شالة وتادلا حيث استمر صراعهم ضد المغراويين كما سيأتي .

مغراوة

كان من جدودهم صولات بن وزمار الذي أسره الصحابة خلال الفتح ثم أرسلوه إلى الخليفة عثمان ، فأسلم على يده ، وهو جد محمد بن خزر رئيس مغراوة

في عهد ادريس الأول ، وكان إذ ذاك يستقر بتلمسان ، فانقاد لدعوته ، وعلى العموم فقد احتفظ المغراويون بولائهم للأمويين وعند قدوم بلكين الصنهاجي سنة 369 انحازوا مع بني صالح اليفرنيين إلى سبتة ، وأصبحت أكثرية الزناتيين بالمغرب وصحرائه منذ ذلك الوقت لأن بلكين فتك بهم أشد فتك في المغرب الأوسط فالتجأوا إلى المغرب الأقصى . وكانت رئاسة المغراويين حينئذ قد آلت إلى زيري بن عطية (سنة 368) فدعا لبني أمية وتملك فاساً سنة 377 بعد القائد عسكلاجة وأبي بياش الموالي للأمويين .

زيري بن عطية (368 – 391 / 978 – 1000م) :

هو زيري بن عطية بن عبد الله بن خزر المغراوي ، أصبح حليفا للمنصور بن أبي عامر منذ سنة 376 وقد استقبله المنصور بالأندلس ورحب بمقدمه ، ثم أرسل معه الوزير حسن السلمي لقتال يدو بن يعلى . إلا أن الهزيمة كانت على زيري وتوفي الوزير العامري خلال هذا الصراع سنة 381 . وفي هذه المدة كان أبو البهار بن زيري الصنهاجي قد خرج عن بيعة ابن أخيه منصور بن بلكين أمير إفريقية ، كما خرج عن طاعة العبيديين ، ودعا للمروانيين ، فبعث إليه المنصور بن أبي عامر ، بهدية وعهد يقره على ما بيده ، غير أنه نكث العهد ورجع إلى طاعة العبيديين ، فأمر ابن أبي عامر ، زيري بن عطية بقتاله ، ففر أبو البهار أمامه ، وتمكن زيري بذلك من ضم منطقة عظيمة من المغرب الأوسط إلى نفوذه ، وتمتد من الزاب إلى تلمسان . وفي سنة 382 استدعاه المنصور للمرة الثانية إلى الأندلس واحتفل بقدومه احتفالاً عظيماً . ثم أنعم عليه بلقب وزير ، فلما رجع إلى المغرب ونزل بطنجة أظهر استياءه واحتقاره لهذا اللقب وقال عن المنصور : «والله لو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله وإن له منا ليوما» .

ولما كانت سنة 383 قضى زيري على منافسيه بني يفرن بقتل أميرهم يدو بن يعلى كما تقدم ، وقبل ذلك بنحو سنتين ، أقصى زيري بني يفرن عن فاس وناحيتها فالتحقوا بالأراضي الواقعة بين شالة وتادلا . ولم يرغب زيري في البقاء بفاس التي سببت له مصاعب جمة ، بالاضافة إلى بعدها النسبي عن الأطراف الشرقية من مملكته ، فاختط وجدة سنة 384 واتخذها عاصمة لدولته حيث يظل بها قريباً من موطنه الأصلي كما يتوسط مملكته الواسعة .

واستمر زيري يتنقص المنصور وينتقد عليه استبداده بالحكم على حساب هشام المؤيد ، فهيأ المنصور جيشاً عظيماً لحربه ونزل بالجزيرة الخضراء يشرف على تسيير الجيش بنفسه بينما عهد بقيادته في المغرب لواضح الفتى الذي استمال قبائل صنهاجة وغمارة وكان اللقاء بطريق فاس قرب وادي ردات واستمرت المعارك مدة ثلاثة أشهر وكانت الهزيمة فيها على واضح الذي احتمَى بطنجة فأمده المنصور بجيش يقوده ابنه عبد الملك المظفر ، فتجمع الزناتيون بزعامة زيري حول وادي منى قرب طنجة واستمر القتال يوما وليلة ثم تسلل غلام كان زيري قد قتل أخاه ، فطعنه ، غير أنه لم يصب منه مقتلا . واضطربُ الزناتيون لهذا الحادث ، مما سهل على جيش المظفر الانقضاض عليهم ، وفر زيري إلى فاس ، ثم التحق بالصحراء يجمع فلول جيشه ويغتنم فرصة اضطراب الأحوال في صنهاجة الذين ثاروا ضد ملكهم باديس ، فاسترجع زيري تلمسان وقسماً من الزاب ودعا من جديد لهشام المؤيد[2] ، وفيما هو يحاصر أشير توفي متأثراً بجروحه سنة 391 .

المعز بن زيري (391 – 416 / 1000 – 1025م) :

ولاه المغراويون عليهم بعد وفاة والده ، ثم كاتب المنصور يجدد له البيعة سنة 393 وبعده لابنه المظفر الذي قدم إليه ابنه معنصر كرهينة ، فكتب اليه بولاية المغرب باستثناء سجلماسة التي أصبحت في يد وال من بني يفرن تابع لواضح الفتَى . وعنَّ للمعز أن يتخلَّى عن محاربة صنهاجة ليتصدَّى لحرب بني وانودين أصحاب سجلماسة فهزموه سنة 407 . وفي هذه الأثناء كانت الأحوال قد اضطربت في الأندلس بالقضاء على بني عامر ثم المروانيين . والظاهر أن الأحوال لم تصف بعد ذلك في المغرب أيام المعز بن زيري الذي لم يلبث أن قضَى نحبه سنة 416 بعد أن رجع ابنه معنصر من الأندلس عند قيام الفتنة .

حمامة بن المعز (416 ـــ 431/ 1025 ـــ 1039م)

تولى بعد وفاة ابن عمه المعز بن زيري ؛ وهو حمامة بن المعز بن عطية . ولم تمض بضع سنوات على توليته حتَّى دهي بزحف أبي الكمال تميم بن زيري بن يعلى على فاس سنة 424 ، فدخلتها جموع بني يفرن وفتكوا بالمغراويين واعتدوا على

(2) مر الحديث عن تداول الفاطميين والمروانيين النفوذ بالمغرب . وانظر روض القرطاس I ، 128 ، 132 ، 139 ، 159 .

الأعراض ، بينما التحق حمامة بوجدة ثم بتونس على البحر المتوسط ، وظل هناك نحو خمس سنوات يتحين الفرص للزحف على فاس ، حتّى واتته سنة 429 ، فأعد لذلك جيشا ضخماً من زناتة فلم ير أبو الكمال اليفرني بداً من الانسحاب إلى شالة ، بينما دخل حمامة إلى فاس يستعيد ملكه ويستقبل الأدباء والشعراء في قصره ، وكان له من الأدب حظ غير قليل . على أنه لم ينعم بالسلم طويلا ، فقد هاجمه حماد الصنهاجي صاحب القلعة سنة 430 ، فهادنه حمامة حتّى توفي سنة 431 .

دوناس بن حمامة (431 – 451 / 1039 – 1049م)

تولى بعد وفاة والده فلم يمهله حماد حتّى اضطره إلى إقامة خندق حول فاس التي استمر حماد محاصراً لها إلى أن هلك سنة 435 وبذلك استقام الأمر لدوناس فاشتغل بالبناء وتعمير فاس حتّى توفي سنة 451 .

الفتوح بن دوناس (451 – 455 / 1049 – 1063م)

ولي بعد وفاة أبيه ، فنازعه الأمر أخوه عجيسة ، فنشبت بينهما حرب انتهت بقتل عجيسة الذي ينسب إليه باب عجيسة بفاس ، كما ينسب إلى الأول بناء باب الفتوح بفاس أيضاً . وفي سنة 454 أو 453 استأنف أصحاب القلعة زحفهم على فاس ، فدخلها بلكين بن محمد ، فهادنه أهلها بينما تخلّى عنها الفتوح . وكانت لمتونة في هذه الظروف قد نشطت لاقامة مملكة قوية ، وكان عليها ان تجابه منافسيها من مغراويين ويفرنيين وغيرهم ، فساءت الأحوال وعمت الاضطرابات ، وحاول المغراويون ، أن ينقذوا الموقف بتعيين معنصر بن حماد بن معنصر خلفا للفتوح المستقيل ، وذلك سنة 455 .

معنصر بن حماد بن معنصر (455 – 460 / 1063 – 1067م) :

شغل بحرب ابن تاشفين الذي طرده من فاس وقتل كثيرا من قومه ، حتّى إذا توجه ابن تاشفين لحصار قلعة فازاز زحف معنصر من جديد إلى فاس واستولى عليها ، ثم تعرض لنجدة من مكناسة بقيادة المهدي بن يوسف الكزنائي ، فهزمهم وقتل قائدهم ، فرجع ابن تاشفين إلى فاس وضيق عليها الحصار ، وكان معنصر يشارك بنفسه في القتال ، فهلك سنة 460 ، فبايع فاس أهل ابنه تميماً .

تميم بن معنصر (460 – 462 / 1067 – 1069م)

عاش طيلة أيام ملكه محاصراً بفاس التي افتتحها يوسف بن تاشفين سنة 462هـ وأعمل السيف في رقاب من بها من مغراوة ومكناسة وبني يفرن حتَّى أهلك بضعة آلاف منهم وفي ضمنهم تميم بن معنصر، فلم تقم للمغراويين بعده قائمة.

بنو خزرون بسجلماسة (366 – 463 / 976 – 1070م) :

ظلت سجلماسة تحت حكم بني مدرار منذ منتصف القرن الثاني إلى سنة 366هـ. غير أن جوهر الشيعي كان قد استولَى عليها سنة 347 ولم يكد جوهر يعود من المغرب حتَّى ثار بها المنتصر بالله المدراري ، ثم خلعه أخوه أبو محمد المعتز بالله وقتله سنة 352 واستعاد بذلك ملك بني مدرار حتَّى كانت سنة 366 فزحف إليهم خزرون بن فلفول المغراوي واستولى على سجلماسة وقضَى نهائياً على دولة بني مدرار فانتهَى بذلك أمر الخوارج بها ودعا خزرون للمروانيين وهو من أعيان مغراوة المهاجرين من المغرب الأوسط بعد أن طردهم بلكين بن زيري الصنهاجي. وخلف خزرون ابنه وانودين فبقي على ولائه للمروانيين (المنصور بن أبي عامر). ولما انتقض زيري بن عطية على المنصور الذي بعث ابنه المظفر سنة 388 يطارد المغراويين ، كان بنو خزرون ممن شملهم انتقام المنصور فعين على سجلماسة حميد بن يصل المكناسي ؛ غير أن وانودين سرعان ما رجع إليها بعد أن تعهد بطاعة المروانيين. ولم تكد تنشب فتنة ملوك الطوائف بالأندلس حتَّى وسع وانودين مملكته غربا إلى درعة، وهزم المعز بن زيري سنة 407 وكان هذا يحاول استرجاع ما اغتصبه وانودين. وبذلك واتت الفرصة وانودين فزحف إلى صفرو فاستولَى عليها وضم إليه حصون ملوية. وتولى الأمر بعده ولده مسعود فاصطدم بالمرابطين الذين قضوا على بني وانودين سنة 463 وأصبحت سجلماسة منذئذ تابعة للدولة المركزية.

3 – أسباب فشل الزناتيين

فشل الزناتيون في إقامة مملكة قوية خارجة عن كل نفوذ أجنبي. وهذا الفشل يرجع إلى الأسباب التالية :

1) الاعتماد على العنصر القبلي الضيق ، كعامل أساسي في الوصول إلى الحكم ، فالزناتيون على الأقل ، لم يلموا شتاتهم وينضموا كعنصر موحد تحت راية

أمير واحد أو ملك واحد ، فقد كان كل من بني يفرن ومغراوة ومكناسة يعمل لحسابه الخاص ، وأصبح أمرهم شبيها بحال ملوك الطوائف يستبد كل منهم على جاره متَى واتته الفرصة منه . وبالتالي فإن الزناتيين لم يستطيعوا أن يندمجوا في مختلف العناصر المتساكنة بالمغرب حتَّى يؤلفوا بذلك دولة سياسية لا قبلية ؛ وهكذا عاشوا أبعد ما يكونون عن صنهاجة المغرب ومصامدته وسائر بطونه .

2) تهديد صنهاجة إفريقية والمغرب الأوسط ، فقد قدم بلكين سنة 369 من إفريقية وتمكن من قهر الزناتيين ومحو دعوة بني أمية من أكثر المغرب والبطش بأمير البرغواطيين . ثم كان هجوم بني حماد سنة 430 وسنة 454 على المغرب وأحدث هذا الهجوم صعوبات خطيرة للمغراويين بفاس .

3) تدخل المروانيين الذي ابتدأ خلال الربع الأول من القرن الرابع وانتهَى في مطلع القرن الخامس ، وكان هذا التدخل لصالح المغراويين دون بني يفرن ومكناسة . وقد كان المغراويون أكثر الزناتيين إخلاصا لبني مروان . على أن الأحوال لم تصف في عهد المغراويين نسبياً إلا أيام زيري بن عطية[3] .

4) تدخل المرابطين الذي يسره عدم اتحاد الزناتيين ، واعتماد المرابطين على أساس ديني دفع بهم إلى إقامة وحدة سياسية وإقرار شعائر الاسلام الحقة مهما كلفهم ذلك من ثمن . ولم تطل مقاومة الزناتيين للمرابطين في آخر معقل لهم وهو سجلماسة أكثر من بضع سنوات ، وانتهت بذلك آخر دويلة زناتية سنة 463 ، ولم يسترجع الزناتيون أمرهم كدولة حقيقية إلا بعد تعاقب دولتي المرابطين والموحدين على الحكم .

5) كان الزناتيون في هذه الفترة التي استغرقت قرابة قرن ونصف عناصر مهاجرة من المغرب الأوسط ، فاستقرت بالمغرب الأقصَى حيث لم تلق مقاومة تذكر ، فقد كان موقف سكان المغرب الأقصَى سلبياً في هذه الفترة ، يهمهم أن يعيشوا عيشة السلم بأي ثمن . ومن الطبيعي أن ينظروا إلى الزناتيين كاخوان لهم في الدين والجنس وإن ظل العنصر الزناتي هو المحرك السياسي الوحيد تقريبا بين نهاية الأدارسة وظهور المرابطين ، وذلك بقطع النظر عن التدخل الخارجي .

(3) انظر حول تدخل المروانيين . صالح بن عبد الحليم ، أنيس 1 ، تنسي ، نظم الدرر ، ص 83 ، ابن زكور ، المغرب المبين ، ورقة 25 — 28 . ابن عذاري ، 1 ، 288 و362

ولا أرَى داعيا لتحديد مراحل لفشل الزناتيين ، لأن هذا الفشل صحبهم منذ البداية ، ولأنهم لم يكونوا على الأقل عنصراً سياسياً موحداً ؛ وإذا فمراحل الفشل يجب أن تعتبر بالنسبة إلى كل من البطون الزناتية الثلاثة التي شكلت وحدات متميزة تقريباً في تاريخ المغرب الأقصَى ؛ وإذا حق أن نعطي لاحدَى هذه الوحدات اسم دولة ، فسيكون لمغراوة الحق فيه أكثر من غيرهم ، لأن نفوذهم كان أشمل وأقوَى من نفوذ منافسيهم ولاستقرارهم في أغلب أيام دولتهم بفاس وهي يومئذ أعظم مدن المغرب بالاضافة إلى اعتمادهم على تأييد خارجي من العامريين .

4 – أهمية أعمال الزناتيين

الواقع أن النتائج التي حصلت من تدخل الزناتيين بالمغرب لا تتناسب والمدة الطويلة التي استغرقها هذا التدخل . وإذا كان الزناتيون قد عجزوا عن إقامة حكومة مركزية تشمل بنفوذها كل المغرب من غير مساعدة أو تبعية خارجية ، فقد عرف المغراويون منهم على الخصوص ، كيف يستفيدون من هذه التبعية التي كانت لفائدة الأمويين . وهكذا فقد ضيق المغراويون الخناق على خصومهم المكناسيين فقضوا على طموحهم ، واليفرنيين فألجأوهم إلى ناحية شالة .

على أن أهمية العمل الزناتي تتجلى في الوقوف في وجه الدعوة الشيعية والزحف الصنهاجي ، وبذلك تلاشت أحلام الشيعيين في الاعتماد على أحلافهم الصنهاجيين من أجل ضم المغرب إلى مناطق ملكهم ، واستفاد الأمويون من مسالمة المغراويين لهم وجعلوا منهم درعا حصينا يقيهم شر هجمات المغيرين على المغرب والطامعين في تجاوزه إلى العدوة .

وباستثناء النزاع الداخلي بين الزناتيين أنفسهم ، فإننا لا نلاحظ نشوب فتن سجلها التاريخ ، أو على الأقل فإن هذه الفتن لم تعد مهدها الذي نشأت فيه .

ولم يخل عهد الزناتيين من تطور في ميدان الحضارة والعمران ، فقد نشأت في أيامهم مدن جديدة كتازا ووجدة الا أن الأولى أعيد بناؤها على يد الموحدين فأصبحت تنسب إليهم .

هذا وقد ازدهرت الفلاحة والحياة الاقتصادية على العموم ، بينما بدأ المذهب المالكي يأخذ طريقه نحو الاستقرار ، واستمر التبادل العلمي قوياً بين المغرب وتونس

والأندلس رغم النزاع السياسي : وظهر كبار الفقهاء في أواخر عهد الزناتيين كأبي عمران الفاسي ووجاج بن زلو.

وقد زودنا البكري معاصر الزناتيين بمعلومات قيمة عن الوضع الاقتصادي في عدد من المراكز المغربية(4) ، ومن هذه المعلومات :

1) تربية الغنم بحصن يرارة (؟) قريبا من أرفود . وربما كانت هذه الغنم من أصل فارسي .

2) كثرة أشجار الأرز والبلوط والصنوبر بجبال الأطلس كما هو الحال حتَّى الآن .

3) وجود مركز قروي خصب يدعَى سوق لميس قريباً من نهر ملوية .

4) ازدهار سجلماسة التي فقدت مدينتا ترغة وزيز أهميتهما بسببها ، وصفها البكري بأنها «مدينة سهلية أرضها سبخة، حولها أرباض كثيرة ، وفيها دور رفيعة ومبان سرية ، ولها بساتين كثيرة» . وذكر من فواكهها المعرّش وهو نوع من الزبيب الذي لا يتزبب إلا في الظل ، والمدينة ممر للقوافل الذاهبة إلى السودان وغانا . وهي سوق للذهب الذي يباع عداً لا وزناً .

5) وفرة الانتاج الفلاحي ورخاء الأسعار بأغمات إيلانة (هيلانة) وهي منطقة نخيل وتفاح طيب . أما أغمات وريكة فهي ذات سوق عظيم يذبح به أكثر من مائة ثور وألف شاة ، وأغمات وريكة ميناء تتقاطر إليه السفن من كل جهة . واسم الميناء أو موقعه على الأصح هو رباط قوز (بضم القاف) .

6) فيما بين أغمات وفاس توجد عدة مراكز اقتصادية وفلاحية منها حصن داي حيث توجد سوق كبيرة يجتمع فيها تجار فاس والبصرة وسجلماسة ، وهي قريبة من نهر درنة ، وبني ملال الحالية هي مكان داي .

7) ازدهار العمران والتجارة بدرعة .

8) خصوبة منطقة نفيس حيث توجد مدينة بهذا الاسم قرب أغمات وريكة وقد بقي بها إلى هذا العهد مسجد بناه عقبة بن نافع .

(4) توجد هذه المعلومات وغيرها في عدة صفحات. انظر مثلا، صفحات : 141 و167.

9) وجود معادن كبرَى للملح في مواطن المرابطين الذين لم يتم استقرارهم بمراكش حتَّى تصنيف كتاب البكري.

10) دخول السفن الصغرَى من وادي راس (مارتيل) لترسو عند تطوان حيث توجد قصبة عتيقة ومنار (بحري) كما تمتد الأرحاء (النواعير) على الوادي.

11) قلة سكان مدينة فاس، من الأصل العربي مع كثرة اليهود؛ حتَّى كان الناس يتداولون بهذا الشأن مثلا هو: «فاس بلد بلا ناس»[5].

أما في الميدان الفكري فقد كان للعلوم الدينية رواج فاق بكثير ما كانت عليه في العصر الادريسي، ولكننا نجد الكثير من الفقهاء والمثقفين يغادرون المغرب إلى افريقية أو الأندلس لما كانت عليه حالة المغرب من اضطرابات سياسية لا تسمح لرجال الفكر بالعمل في ظروف ملائمة، ومن بين المثقفين:

1) علي بن سعيد بن أحمد الهواري الفاسي الذي قدم الى طليطلة سنة 399هـ ودرس عليه بالأندلس جماعة[6].

2) سليمان بن أحمد الطنجي رحل إلى المشرق وتخصص في القراءات وعلومها. زاول التدريس بالمرية «وانتفع به دهرا»[7]. وتوفي قبل 440هـ.

3) ابن العجوز عبد الرحيم الكتامي السبتي، وكان كما يقول ابن بشكوال: «عالما بمذهب المالكيين، ذا رواية واسعة بإفريقية والأندلس»[8].

4) أبو عمران موسَى الفاسي المتوفي سنة 430هـ والذي تلقّى دراسته بفاس وقام فيها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم رحل إلى القيروان فاستكمل دراسته

---

(5) انظر ص 115
(6) الصلة لابن بشكوال، 2، 406
(7) نفس المصدر، 1، 202
(8) نفس المصدر، 1، 371، وانظر أسماء عدد كبير من فقهاء هذا العصر في ترتيب المدارك، 1، 71، 79، 85، 91 ثم تراجم عدد منهم في باقي الأجزاء

كما تلقى عن علماء قرطبة وبغداد، وكان له الصدارة في الفقه المالكي بالقيروان، وتتردد أقواله وآراؤه في كتب النوازل والفتاوي[9].

وأورد ابن الزبير في «الصلة» ترجمة عدة شخصيات مغربية في عالم الفكر لهذا العصر.

مراجع عن الزناتيين

1 — كتاب العبر لابن خلدون، ج 7.
2 — أعمال الأعلام ج 3 لابن الخطيب.
3 — المغرب لابن عذاري.
4 — المسالك والممالك للبكري.
5 — الأنيس المطرب بروض القرطاس لابن عبد الحليم.
6 — صبح الأعشى، ج 5.
7 — التنسي، نظم الدرر.
8 — ابن الزبير، الصلة.

---

(9) انظر ترجمته في التشوف للتادلي. و H. R. Idris, La Berbérie orientale
وانظر كذلك : ع. القادر زمامة، مجلة البينة، سنة أولى، عدد 3/ 1962. وابن الخطيب، أعمال، 3.



قافلة صحراوية

المرابطــون

430 ــ 541 هـ / 1038 ــ 1156 م

من ظهور ابن ياسين إلى نهاية الدولة

نظرة عامة عن الدولة :

1 ــ العالم الإسلامي في هذا العصر :

دول إسلامية كبرى : السلاجقة، الفاطميون، صنهاجة افريقية ــ الحروب الصليبية ــ سياسة المسلمين.

2 ــ نشأة الدولة :

صنهاجة ــ الملثمون ــ لمتونة ــ أسباب تأسيس الدولة ــ عبد الله بن ياسين، أبو بكرِ بن عمر.

3 ــ دور العظمة :

يوسف بن تاشفين : أسباب الجهاد بالأندلس ــ الزلاقة ــ حصار حصن لبيط ــ اخضاع الأندلس لحكم مباشر ــ وفاة يوسف.

علي بن يوسف : متابعة الجهاد بالأندلس ــ تغريب النصارى إلى مراكش ــ ظهور المهدي ــ وفاة علي.

4 ــ دور الضعف :

تاشفين بن علي : اندحاره أمام الموحدين ــ مقتله ــ إبراهيم بن تاشفين واسحق بن علي : نهاية الدولة.

5 ــ أسباب سقوط الدولة :

اتساع نفوذ المالكية ــ ظهور الموحدين ــ اختلال الأوضاع بالمغرب والأندلس.

6 ــ أهمية أعمال الدولة.

7 ــ علاقات المغرب الخارجية.

8 ــ الحياة الدينية :

انتشار الربط ــ انتشار المذهب المالكي ــ ظهور أقطاب التصوف الأولين.

الحضارة في عهد المرابطين :

1 ــ نظام الحكم والإدارة :

رئيس الدولة ــ ولي العهد ــ الوزراء ــ الولاة ــ القضاة ــ الجيش ــ الأسطول ــ السكة.

2 ــ الحياة الاجتماعية :

حياة السكان ــ المرأة ــ اللباس.

3 ــ الحياة الاقتصادية :

التجارة ــ الزراعة ــ الصناعة ــ الضرائب.

4 ــ العمارة والفن :

المؤثرات في الفن المرابطي ــ مراكش ــ المساجد ــ المدارس ــ الحصون ــ القناطر.

5 ــ الحركة الفكرية :

الفقه ــ الحديث ــ التفسير والقراءات ــ التاريخ ــ الجغرافيا ــ الأدب.

نظرة عامة عن الدولة

1 – العالم الاسلامي في هذا العصر :

إذا كانت أغلبية بلاد أوروبا تعيش في عهد المرابطين تحت رحمة الاقطاعيين في حالة أقرب إلى الهمجية منها إلى المدنية ، فإن العالم الاسلامي في هذا العهد نفسه ، كان مجزأ إلى دول كثير منها قد اتسع نفوذه فشمل مناطق واسعة فقد استولى السلاجقة على العراق من يدي بني بويه ، بينما استقر الفاطميون بمصر وصنهاجة حلفاؤهم السابقون بافريقية . وفي هذه الظروف كان العالم الاسلامي يستعد للاصطدام بالعالم المسيحي المتعصب ، من أجل الدفاع عن الأراضي المقدسة خاصة ، والمملكة الاسلامية عموماً . وقد كتب لجميع هذه الدول بالاضافة إلى المرابطين ، ان تصطدم بالمسيحيين في وقت متقارب ، فقد استولى النرمانديون على المهدية وزويلة من يدي الصنهاجيين سنة 476/ 1083م ثم عادوا إليها سنة 517/ 1123م ثم احتلوها سنة 544/ 1149م بعد حروب فظيعة حتَّى طردهم عبد المومن ابن علي سنة 555/ 1160م ، بينما أخذ الصليبيون أنطاكية من يد بني خوارزم شاه سنة 491 بعد أن احتلوا بيت المقدس سنة 489 وقتلوا آلافا عديدة من سكانها في المسجد[1] . أما في الأندلس ، فقد كان المرابطون يصارعون قوات قشتالة وأراغون التي تمكنت قبل ذلك بقليل من تغليب المسلمين بعضهم على بعض واغتصاب عدة مدن أهمها طليطلة .

ولم يسلك المسلمون سياسة التعاون والحكمة في هذه الظروف الحرجة فإن السلاجقة قد طردوا خليفة بغداد بينما استنجد وزير فاطمي بالأفرنج . وفي افريقية كان العرب الذين سلطهم الفاطميون على الصنهاجيين يقومون باعمال التخريب ويعتدون على الأعراض . وفي لجة هذه الاضطرابات كان المرابطون يعملون على رفع لواء الاسلام بالمغرب إلى الأبد وفي الأندلس لمدة أربعة قرون أخرى ، كما قيض

(1) ابن خلدون . ج 5 ص 44

لمصر وللاسلام بالشرق بعد ذلك بقليل أن يرفع رأسه عالياً ، صلاح الدين الأيوبي الذي عاصر زميله الكبير في المغرب ، المنصور الموحدي .

2 - نشأة الدولة 430 - 453 / 1038 - 1061م

صنهاجة

يتكون البربر كما هو معلوم من قسمين عظيمين ، هما البتر والبرانس ولا يعرف مصدر هذا التقسيم . وعلى العموم فالبرانس أكثر تحضُّرا من البتر ، ولكل منهما مميزاته في التاريخ على الأقل ، فالبتر مذ كانوا وهم أحلاف الفاتحين ، والبرانس كانوا أميل إلى الشيعة والعلويين ، سواء في افريقية أو المغرب ، وأهم قبائل البتر زناتة ولواتة ومطغرة ومديونة . ومن أهم قبائل البرانس صنهاجة وأوربة ومصمودة وكتامة ، وأكثر هذه القبائل أهمية في تاريخ المغرب هي زناتة من البتر ، وصنهاجة ومصمودة من البرانس .

وقد شغلت صنهاجة أجزاء شاسعة من شمالي افريقيا ، فاستقرت بالقطر التونسي وبالجزائر فيما بين مسيلة وميلة شمالاً ، وبالمغرب في منطقة الريف إلى جانب مصمودة ، كما استوطن قسم منها بالأطلس المتوسط وساحل المحيط الأطلسي وقد ضربت في الصحراء الكبرى حتَّى نهر النيجير ونهر السينغال حيث أقام الملثمون رباطهم[2] .

الملثمون

يكون الملثمون قسماً عظيماً من صنهاجة الصحراء ، ويؤلفون مجموعة متعددة من القبائل التي تكونت منها دولة المرابطين . ومن أهم قبائل الملثمين جزولة ولمطة وجدالة ومسوفة ودكالة وهسكورة ولمتونة[3] . وانتهت زعامة الملثمين إلى لمتونة التي كانت الرياسة فيها لبني ورتنطق .

---

(2) ابن خلدون 6 ص 201.
وانظر عن قيام المرابطين دراسة لصاحب هذا الكتاب : النظام السّياسي والحربي في عهد المرابطين.

(3) قيام دولة المرابطين ص 40، لحسن أحمد محمود.

ويؤكد طيراس[4] أن صنهاجة كانت تضرب في سهول الشمال الإفريقي قبل القرن الثالث للميلاد ، ثم بدأت قبائل عديدة منها تتجه نحو الصحراء الكبرَى بعد أن شاع استخدام الابل على يد الرومان الذين جلبوها من بلاد العرب . وساعد الجمل هذه القبائل التي أصبحت صحراوية بحكم البيئة ، على تحمل صعوبات الطبيعة والتنقل حيث توجد الواحات . والواقع أن اندفاع الملثمين نحو الشمال في القرن الخامس . لم يكن إلا رجوعاً إلى مساقط رؤوس أجدادهم بالاضافة إلى القيام بمهمتهم الدينية السامية . وعلى كل حال في هذا القرن . كانت قبائل الملثمين تمتد في جنوب المغرب إلى ناحية سجلماسة ، ثم تنحدر إلى نهري النيجير والسينغال .

وقد ألح الأستاذ البحاثة صاحب «قيام دولة المرابطين» حول الصلة الموجودة بين قبائل الطوارق الحالية ، والملثمين القدماء ، ولاحظ بالاعتماد على مراجع قديمة ومعاصرة ، أن اسم الطوارق مشتق من «ترغة» التي هي احدَى قبائل الملثمين ، كما لاحظ أن الطوارق مازالوا يحتلون نفس البقاع التي كان يحتلها الملثمون ، مع العلم بأن السلطة في قبائل الملثمين قد انتقلت إلى ترغة بعد سقوط دولة المرابطين .

والصلة جلية كذلك بين الطوارق والملثمين القدماء ، فيما يرجع إلى طريقة المعيشة والاعتماد على الابل في التنقل ، والصفات الجسمية واستعمال اللثام .

وقد ذهب المؤرخون في تفسير أسباب استعمال الملثمين اللثام ، مذاهب شتَّى ، فروَى ابن الأثير أن جماعة من لمتونة أغاروا على أعداء لهم فخالفهم العدو إلى بيوتهم التي لم يبق بها إلا المشايخ والنساء والأطفال ، فأمر المشايخ النساء أن يلبسن ثياب الرجال ويتلثمن حتَّى لا يعرفن فلما أقبل العدو ظهر له أن عدد الرجال كثير ، وبينما هم يفكرون في سوق الأغنام إذ هجم عليهم قادمون من رجال الحي ففتكوا بهم وشاع فيهم استعمال اللثام منذئذ ، أما ابن خلكان فقد أرجع السبب في ذلك إلى أن الملثمين كانوا يهاجمون من لدن أعدائهم ، فقعد الرجال ذات يوم ملثمين بزي النساء ، وأبعد هؤلاء عن الحي حتَّى قدم الأعداء فنهض إليهم الملثمون فبطشوا بهم .

ومن الملاحظ أن الطوارق لا ينزعون اللثام مطلقا ، وإذا أرادوا نزعه اختفوا عن عيون الناس ، وأشرافهم يرتدون اللثام الأسود بينما يتلثم العبيد بالبياض .

(4) Terrasse, Histoire du Maroc, 1, 2, 3

لمتونة

تقدم أن الرياسة في الملثمين كانت للمتونة. وهذه القبيلة كانت تستقر بناحية طرفاية الحالية وقسم من ساحل الذهب وهم من البدو المستقرين. وقربهم من مناطق الحضارة في المغرب جعلهم يحتلون مقاماً مرموقاً بين الملثمين فيمدون أقرباءهم من قبائل الملثمين بانتاج واحاتهم الغنية نسبياً ويسيطرون على تجارة الابل والماشية في هذا الجزء من الصحراء الجنوبية.

وقد وطئ عقبة بن نافع أراضي الملثمين على ما يظهر من بعض روايات المؤرخين القدماء كابن خلدون وبعض المعاصرين كـ Chapelle في مجلة هسبريس عدد 11 سنة 1930 وقد أكد أن عقبة وصل في فتوحه إلى غانة.

وعلى كل حال، فإن الاسلام لم ينتشر بين الملثمين إلا منذ القرن الثالث، ومن المعلوم أن قبيلة ترغة كانت ضمن منطقة نفوذ عمر بن إدريس الثاني. ويرجع الفضل في إسلام السودان إلى لمتونة[5] منذ القرن الثالث نفسه. وقد أصبحت رياسته الملثمين فيهم منذ أيام عبد الرحمن الداخل.

وورتنطق هو جد أبي بكر بن عمر. أما يحيى بن إبراهيم الكدالي. فهو صهر عبد الله بن تيفاوت اللمتوني أمير لمتونة قبله. وإذا كان يحيى بن ابراهيم من قبيلة كدالة ثم أصبحت له السلطة على لمتونة وسائر الملثمين. فذلك لصهره في لمتونة. ولأن كدالة ولمتونة قبيلتان تجتمعان في أب واحد.

أسباب تأسيس الدولة

1) العامل السياسي

كانت مملكة غانة قوية في بداية القرن الخامس. ولما كان الملثمون قد أصبحوا يسيطرون على تجارة السودان في مطلع هذا القرن. فقد رغبوا في الاستيلاء على أودغشت سنة 432هـ بيد أنهم انهزموا أمام الغانيين، ولم يتمكنوا من اقتحام أودغشت التي كانت قبل ذلك بأيديهم وهي يومئذ مركز تجاري هام بقرب نهر النيجير في الصحراء. وقد دعا الخطر الغاني الملثمين إلى لم صفوفهم والتراجع إلى

(5) ابن خلدون 6 ص 371

الشمال حيث ضايقوا الزناتيين في سجلماسة وناحيتها ، وكان اضطراب الأحوال السياسية في الشمال من أهم العوامل التي يسرت قيام دولة المرابطين.

2) العامل الاقتصادي

الواقع أن حرب الغانيين والملثمين كانت صراعاً اقتصادياً تجارياً ، فقد كان أهم طريق تجاري بين شمال الصحراء وجنوبها يمر من سجلماسة إلى أودغشت . فكان السودان يدفع التبر والصوف والابل ، بينما كان الشمال يدفع القمح والقطاني . وكان على القوافل أن تمر بديار الملثمين[6] الذين سيطروا على تجارة الملح أيضاً . حتَّى إذا طردهم الغانيون من أودغشت فقدوا السيطرة على تجارة السودان والحصول على مورد هام من المكوس التي كانت تدفعها القوافل . وكان الملثمون يكونون جموعا ضخمة من سكان الصحراء ، فكان زحفهم إلى الشمال عاملا على كل حال في تكوين دولة كان تأثيرها عظيما في توجيه الحياة الاقتصادية بالمغرب ، في إطار القانون الاسلامي .

3) العامل الديني

كان الأشراف يشكلون طبقة الأغنياء الأرستقراطية ، ويتحكمون بقسوة في رقاب الطبقة الضعيفة[7] وكانت الحالة في سجلماسة قد بلغت منتهَى الخطورة بسبب المكوس الجائرة التي فرضها الزناتيون على التجارة ، والانحلال الخلقي الذي يتمثل في شرب الخمر وتفشي السرقة والزنا . ولم تكن الحالة في عامة المغرب بأحسن منها في سجلماسة ، فقد استمر البرغواطيون يفسدون عقائد السكان المجاورين في سواحل المحيط الأطلسي . أما في فاس فقد بلغ الخطر درجة عظيمة بسبب النزاع بين المغراويين واليفرنيين وتضعضعت الأحوال الاقتصادية فكان على الملثمين أن يجابهوا كل هذه الأخطار والمصاعب ليقيموا حدود الدين وينشروا الاسلام في كل ربوعه ، ثم ليؤسسوا أول دولة استطاعت أن تخضع المغرب لنفوذ موحد ، ابتداء من طنجة شمالاً إلى نهر النيجير جنوبا ومن ناحية وادي شلف شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً . بالاضافة إلى بلاد الأندلس .

---

(6) André Julien, l'Afrique (Collection Que sais-je)

(7) استقصاء ج 2 ص 15

عبد الله بن ياسين 430 – 451 / 1038 – 1049م

لما انتهت رياسة الملثمين إلى يحيَى بن ابراهيم الكدالي أناب عنه ابنه ابراهيم ثم رحل إلى الشرق حاجا سنة 427هـ وعند رجوعه اتصل في افريقية بأبي عمران الفاسي الذي استوطن القيروان قبل ذلك بمدة طويلة . فراراً بنفسه من غمرة الأحداث الخطيرة التي عرفتها فاس بعد سقوط دولة بني أمية . واستفاد يحيَى من علمه الغزير ، ورجاه أن يبعث معه طالباً من طلابه ليفقه الملثمين ، في شؤون دينهم ، فلم يجد من بين طلبته بالقيروان من يقبل هذه التضحية على شرفها . وحينئذ كتب له كتاباً إلى أحد تلاميذه وجاج بن زلو وكان قد تلقَّى عنه العلم بالقيروان ثم أسس بعد رجوعه أول مدرسة معروفة خصصت لدراسة العلم بالمغرب بسوس وكانت تدعَى بمدرسة أجلو[8] .

وقد اختار الفقيه وجاج لهذه المهمة تلميذه عبد الله بن ياسين الذي قبل العمل من أجل صالح الاسلام عن طواعية .

وأغلب المؤرخين ينسبون عبد الله بن ياسين إلى جزولة ، وهو على أي حال صنهاجي غير مشكوك فيه . وفي الحلل الموشية انه درس بقرطبة[9] مدة غير قصيرة تكون قد بلغت سبع سنوات ، ثم أتم دراسته على وجاج بن زلو .

وقد بدأ عبد الله مهمته في قبيلة لمتونة حوالي سنة 430 فنع عليهم الزواج بأكثر من أربع نسوة وأخذهم بالصلاة في وقتها واشتد في عقاب المجرمين من سراق وزناة ونحوهم ، وضرب لهم مثلا في التقشف والقناعة . فلبس خشن الثياب واكتفَى من الطعام بالقليل المتواضع . فاستثقل اللمتونيون أن تحرم عليهم أشياء كانت شهواتهم لا ترضَى بدونها ، وتزعم حركة العصيان ضده سيدان وفقيه منهم يدعَى الجوهر بن سكن . كما روَى ذلك البكري ، فأشار عليه يحيَى الكدالي عندئذ باعتزالهم في رباط يقيمون به للتعبد والتنسك ما بقي من حياتهما إلى جانب سبعة آخرين من كدالة[10] . وقد اختلف المؤرخون في تحديد مكان هذا الرباط . والغالب أنه كان

(8) محمد المختار السوسي، سوس العالمة، ص 17.

(9) مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 10.

(10) استقصا ج 2 ص 8 وجاء في Fagnan, Extraits inédits, p 335 أن الجوهر بن سكن من رجالات كدالة هو الذي جاء بعبد الله بن ياسين مباشرة من القيروان بعد

على مصب نهر السينغال حيث توجد بعرضه جزر صغرَى أقاموا رباطهم باحداها. وتسامع الملثمون بانقطاع هؤلاء النساك إلى العبادة، فصاروا يتواردون عليهم حتَّى بلغ عددهم المئات، وتقبلوا دعوة ابن ياسين عن طواعية واقتناع. وفي هذه الأثناء توفي يحيَى بن ابراهيم حوالي سنة 440، على أن الخروج إلى الجهاد[11] بدأ قبل وفاة يحيَى بعدة سنوات. ففي سنة 434 وجه عبد الله انذاراً إلى الملثمين وأشرافهم بعد أن وعظهم وحاول اقناعهم باللين حتَّى يغيروا منكراتهم. وانتهَى أجل الانذار بعد سبعة أيام، فلم يلتفتوا إليه. فأخضعهم بالقوة وبدأ بلمتونة وكدالة ثم مسوفة. وبعث بنصيب من أموال الغنائم إلى طلاب العلم ببلاد المصامدة. وبعد وفاة يحيَى ابن ابراهيم ولى على لمتونة يحيى بن عمر الذي اختص بشؤون الحرب والسياسة، بينما احتفظ عبد الله بالتوجيه الديني والاشراف على الزكوات. وإذْ كانت أودغشت قريبة من رباط الملثمين، فقد استعادوا فتحها سنة 447. وفي هذه الأثناء توصل عبد الله بكتاب من فقهاء سجلماسة يرغبونه في الدخول إليها لوضع حد لمظالم بني وانودين فزحف عبد الله بصحبة يحيَى بن عمر إلى سجلماسة فافتتحها وقتل أميرها مسعود بن وانودين كما استولى على درعة ثم جدد المرابطون زحفهم على السودان فلم يلبث أن مات يحيَى بن عمر سنة 447. فتقلد الرئاسة الدنيوية فيهم أخوه أبو بكر الذي رشح لقيادة الجيش ابن عمه يوسف بن تاشفين. ثم زحف إلى السوس فاستولَى على تارودانت التي كانت على المذهب الشيعي منذ أيام عبيد الله الشيعي وكان قد استقر بها أحد الرافضة واسمه علي بن عبد الله البجلي[12]، فأقر بها المرابطون مذهب مالك سنة 448. وتعتبر هذه السنة بداية دخول المرابطين إلى المغرب حسب بعض الروايات[13] ثم استسلمت أغمات بعد حصار شديد وفر أميرها لقوط المغراوي عند بني يفرن بتادلا سنة 449 فاقتحموا تادلا وقتلوه. وكانت له زوجة تدعَى بزينب بنت اسحق النفزاوية، فتزوج بها أبو بكر بن عمر، ثم انتقلت بعده إلى يوسف بن تاشفين.

= عودته من الحج، وتعد هذه الرواية فريدة حتَّى الآن. وقد تحدث البكري عن نشاط ابن ياسين بتفصيل

(11) انظر البكري، مسالك، ص 165

(12) الاستقصا ج 2 ص 13 وقد تقدمت الدكتورة وداد القاضي ببحث عن البجلية بالمغرب بمناسبة مؤتمر تاريخ المغرب العربي (دجنبر 1974) بتونس

(13) ابن زاكور: المغرب المبين. ص ورقة 30

وبعد استيلاء المرابطين على تادلا ، شرعوا في جهاد البرغواطيين ، وكانت الحرب عنيفة بين الفريقين هلك فيها خلق كثير ، ومن بينهم عبد الله بن ياسين الذي انتهت حياته خلال الجهاد سنة 451 ودفن بكريفلة (فيما بين الرماني وابن سليمان). وبذلك يكون عبد الله بن ياسين قد عاش بين المرابطين حوالي عشرين سنة. على أن أبا بكر بن عمر لم يلبث أن اثخن في البرغواطيين قتلا وتشريداً حتّى اعادهم إلى الاسلام.

أبو بكر بن عمر 447 – 453 / 1055 – 1061م

بعد وفاة ابن ياسين عين مكانه سليمان بن حدو للقيام بالدعوة الدينية ، بينما استمر أبو بكر بن عمر منذ سنة 447 يدبر دفة الشؤون السياسية والحربية. على أن سليمان بن حدو لم يلبث أن توفي سنة 451 ، فلم يعين له خلف في الشؤون الدينية التي أضيفت إلى مهام أبي بكر بن عمر وخلفه. وبعد أن استقر أبو بكر مدة بأغمات بلغه أن فتنة نشبت بين لمتونة وجدالة ، أو مسوفة[14] ، وتضطرب رواية ابن خلدون وصاحب الحلل الموشية في تحديد تاريخ ذهابه إلى الصحراء بقصد فض هذا النزاع. وعلى كل حال ، فقد شعر أبو بكر أن غيبته ستطول ، فاستخلف بالشمال ابن عمه يوسف بن تاشفين حوالي سنة 452 على ما ذكره ابن خلدون ، وطلق زوجته زينب النفزاوية بموافقتها ولكونه لم يرغب في أن تتجشم إلى جانبه مشاق الصحراء وهي ربيبة المدن ، ونصحها بأن تتزوج من يوسف ابن عمه ، ففعلت.

وقد استطاع أبو بكر أن يتوغل في فتح السودان بعيدا بعد أن سوَى النزاع بين لمتونة وخصومها ، وفي هذه الأثناء كان بلكين صاحب القلعة قد اقتحم فاساً وأخضع أهلها لطاعته. ثم رجع أبو بكر إلى الشمال سنة 453 (وصاحب الحلل الموشية يؤرخ هذا الرجوع بسنة 465) فتلقاه يوسف في جيش عظيم وقدم إليه هدايا ثمينة ، فعرف أبو بكر أن الأمور قد استقرت ليوسف ، فلم يطمع في ملك لنفسه ، وتنازل ليوسف عن ولاية المغرب ثم رجع إلى الصحراء يصحبه نصف الجيش الذي كان يؤلفه الملثمون. وعاش أبو بكر يجاهد في بلاد السودان ويعمل فيها على نشر الاسلام حتّى توفي هناك سنة 480 على الأكثر ، ومن الراجح أنه لم يكن ينوي

---

(14) ابن خلدون ، 6 ، 377 الحلل الموشية ص 13

الاستقرار نهائيا بالمغرب منذ أن طلق زوجته كنزة وأشار عليها أن تتزوج من ابن عمه يوسف .

3 - دور العظمة 453 - 537 / 1061 - 1142م

يوسف بن تاشفين 453 - 500 / 1061 - 1106م

أصبح يوسف بن تاشفين أميراً على المغرب بصفة رسمية منذ تنازل له أبو بكر عن الامارة سنة 453 ، فمن هو يوسف بن تاشفين ؟ ان المصادر لا تمدنا بشيء عن حياته الأولى ، ولا نرى هذه الشخصية تظهر في تاريخ المغرب الا فجأة عند زحفها نحو الشمال ضمن الجيوش المرابطية . على أن شخصية ابن تاشفين بدأت تتجلى أكثر فأكثر منذ أن تسلم زمام السلطة من يد أبي بكر بن عمر .

كان يوسف على ما وصفه به المؤرخون معتدل القامة أسمر اللون خفيف العارضين جعد الشعر ، وكان كثير التواضع والقناعة والحياء . وهو ممن تقبلوا دعوة ابن ياسين عن طواعية وإخلاص ، وكانت معارفه بسيطة ولكنه كان شديد الذكاء قوي العزيمة .

اختط ابن تاشفين مراكش سنة 454 ليتخذ منها عاصمة لمملكته ، ولكي يكون فيها أقرب إلى الصحراء وأقاليم الشمال المتحضرة وسأتعرض لبناء هذه المدينة ببعض التفصيل في موضوع البناء والعمران . وفي نفس السنة كون جيشا ضخماً يتكون من 100 ألف فارس بينهم صنهاجة وزناتة ومصامدة وغيرهم وبهذا الجيش فتح فاساً سنة 455 ونازل قلعة فازاز ، ثم زحف نحو طنجة ولكنه لم يهاجمها وكان بها سكوت البرغواطي الموالي لبني حمود . ثم انحاز إليه مهدي الكزنائي أمير مكناسة ، ولكنه ما كاد يتوجه إلى يوسف الذي رجع لحصار فازاز حتّى تلقاه تميم المغراوي وقتله فاشتغل المرابطون بحرب تميم ثم استولى على فاس أحد أعقاب ابن أبي العافية الذي هزم المرابطين بينما رحل يوسف عن قلعة فازاز وترك جيشاً يحاصرها مدة تسع سنوات حتّى فتحها سنة 465 . وبعد ارتحال يوسف عن قلعة فازاز اشتغل باخضاع جبال الريف ثم نازل فاساً سنة 462 ودخلها بالقوة وأعمل السيف في رقاب الزناتيين بها ، وقيل ان تميم بن معنصر كان من جملة القتلى ثم هدم ابن تاشفين الأسوار الفاصلة بين عدوتي القرويين والأندلس ، وتابع فتوحه في أقصى

الشمال، ووجه همه بالذات إلى طنجة، وكان بها يومئذ سكوت البرغواطي وكان من قبل في خدمة أحد موالي الحموديين الذين خلفوا الأمويين بالأندلس لبضع سنوات وكانت سبتة وطنجة في دائرة نفوذهم ، وتوالى عليهما الولاة حتّى تولاهما سكوت البرغواطي واستبد بأمرهما وأخضع لنفوذه القبائل المجاورة . غير أنه ما كادت تحل سنة 470 حتّى زحف إلى طنجة القائد اللمتوني صالح بن عمران ففتحها بعد عراك عنيف في احوازها ، وقتل خلال هذا العراك سكوت البرغواطي أما بسبتة فقد تحصن بها ضياء الدولة يحيَى بن سكوت . وفي هذه الأثناء ورد على يوسف كتاب من المعتمد بن عباد يستصرخه فيه على حرب النصارَى بالأندلس إلا أن يوسف أخبره بأنه لا يستطيع مساعدته مادام لم يفتح سبتة فعرض عليه المعتمد مساعدة بحرية ، فقبلها يوسف . وجاء أسطول المعتمد إلى ميناء سبتة سنة 477 بينما نازلها المعز بن يوسف براً ، وانتهَى الأمر بفتح هذه المدينة الحصينة ، وقتل يحيَى بن سكوت .

على أن ابن تاشفين ، أرسل قائده مزدلي سنة 472 إلى المغرب الأوسط فاستولى على أحواز تلمسان ، ثم زحف يوسف سنة 474 إلى وجدة . ففتحها بعد أن خرب مدينة نكور وتركها أطلالاً كما فتح تلمسان في نفس السنة ، وشملت فتوحه أعمال شلف .

الجهاد بالأندلس

ساءت الحال بالأندلس بعد أن توزعها ملوك الطوائف ، فقد اتحدت قشتالة وأراغون وتزعم هذا الاتحاد الفونس السادس ملك قشتالة وحليفه سانشو الثاني ملك أراغون . واستطاع الفونس أن يحتل طليطلة من يد يحيَى بن ذي النون سنة 478 ثم يهدد سرقسطة وبطليوس ويطالب المعتمد بتسليم بعض حصونه إليه . وحتّى احتلال طليطلة ، كان سببه تقاعس أمراء الطوائف عن مساعدة ابن ذي النون ، بل إن المعتمد بن عباد حالف الفونس ضد زميله ملك طليطلة ، ولم ينفع تدخل القاضي أبي الوليد الباجي من أجل الدعوة إلى توحيد الصفوف وكان على المعتمد بناء على معاهدة مع الفونس ، أن يؤدي إليه ضريبة سنوية فتأخر دفع هذه الضريبة ، وأرسل الفونس يطالب المعتمد بأدائها عاجلاً وتسليم بعض الحصون التي تحت يديه. وكان الرسول يهودياً فأغلظ في القول للمعتمد فأمر بقتله وقتل رفاقه،

وكان ذلك انذاراً بالحرب ضد الفونس الذي بدأ يحشد قواته . وخلال ذلك تواردت الرسل على يوسف . وكانت هذه الوفود شعبية ورسمية في آن واحد[15] . على أن أهم هذه الوفود تألف باقتراح من المعتمد واتفاق مع أميري غرناطة وبطليوس وبمشاركة ثلاثة من القضاة أنيطت بهم مهمة حث ابن تاشفين على الجهاد . على أن المعتمد قام بهذا العمل بعد أخذ ورد حتَّى إن أكثر من استشارهم في استنفار المرابطين نصحوه بأن لا يفعل وأن يقبل شروط النصارَى مهما كان الثمن[16] ، وشذ ابنه الرشيد عن هذا الرأي ، ونصحه بمكاتبة ابن تاشفين فكتب إليه رسالة بخط يده في جمادى الأولى 479 وتكررت المكاتبات مع ذلك من إنشاء كتابه . وكان في بلاط يوسف مستشار أندلسي يدعَى عبد الرحمان بن أسبط ، فاقترح عليه أن يطالب في مقابل مروره إلى الأندلس بتسليمه الجزيرة الخضراء «حتَّى يكون الجواز بيده متَى شاء»[17] .

الجواز الأول (الزلاقة)

اشترط ابن تاشفين تسليم الجزيرة بناء على رأي مستشاريه ، فقبل المعتمد شرطه ، ونزل يوسف بها مع جيشه ، أما جيوش النصارَى فقد اشتركت فيها قشتالة بملكها وفارسها الكمبيادور وملكي نافار وأراغون ، أما قيادة الجيش الاسلامي ، فقد كانت للمعتمد ومعه داود بن عائشة على البربر ، بينما احتفظ ابن تاشفين بالجيش الاحتياطي ، وكان اللقاء في سهل الزلاقة قريبا من بطليوس . حتَّى إذا اشتبك الفريقان سنة 479 هجم النافاريون على جيش داود بن عائشة فأحدثوا فيه اضطراباً وانقضت عندئذ عليهم قوة يوسف بن تاشفين ومعه القائد سير بن أبي بكر . وكان الرهبان في صفوف النصارَى والفقهاء في صفوف المسلمين يحثون الناس على الصمود والاستشهاد ، وكتب النصر للمسلمين الذين تقووا بالجيش الاحتياطي وفر ملك قشتالة في 500 فارس ، بينما جمع المسلمون رؤوس القتلى في كومة عالية حتَّى بلغ عدد الرؤوس أزيد من 20 ألفاً . ومع ذلك ، فقد كانت قوة النصارَى أضخم عدداً وإن لم يتفق المؤرخون في تحديد عدد الفريقين . وتردد روايات

---

(15) الاستقصا ج 2 ص 36
(16) الحلل الموشية 30
(17) الحلل 37

المؤرخين مراسلة جرت بين الفونس وابن تاشفين قبل لقائهما ، فقد عرض هذا على الأول الاسلام أو الجزية أو الحرب ، فأجابه الفونس مهدداً ساخراً ، وكان رد ابن تاشفين : «الجواب ما ترَى لا ما تسمع» !

ولم يكد يوسف بن تاشفين ينتهي من هذه المعركة الحاسمة حتَّى أتاه نعي ولده أبي بكر ، فأسرع بالعودة إلى المغرب .

ولم يتفق المؤرخون في مسألة رجوع ابن تاشفين إلى الأندلس بعد هذا الجواز الأول .

الجواز الثاني : حصار حصن لبيط

في سنة 481 بدأت سرايا النصارَى الموجهة من حصن لبيط بقرب لورقة تضايق سكان مرسية وبلنسية وغيرهما ، حتَّى خاف المعتمد خطر المسيحيين من جديد ، وهرع يشكو إلى ابن تاشفين ظلمهم ، فتلقاه عند مصب وادي سبو[18] ورحب بمقدمه ، فاستعد ابن تاشفين لحصار الحصن المذكور وساعده تميم بن بلكين صاحب غرناطة ، والمعتصم بن صمادح صاحب المرية بالاضافة إلى أمداد وافته من مدن مختلفة ، وحدث أثناء ذلك سوء تفاهم بين ابن عباد وصاحب مرسية فسعَى به المعتمد إلى يوسف الذي اعتقله ، ووصلت إلى ناحية الحصن إمدادات من العدو ، فأحرقته بعد أن وجدت حاميته عاجزة عن مقاومته من الداخل والتحقت الحامية بالأعداء .

الجواز الثالث : اخضاع الأندلس لحكم مباشر

كره الفقهاء عبث ملوك الطوائف وانشغالهم بالنزاع فيما بينهم عن خطر العدو ، وزينوا ليوسف خلعهم ، فجاز إلى الأندلس يراقب الحالة بنفسه سنة 483 . وخاف ملوك الطوائف على ملكهم ، فحالف عبد الله بن بلكين الفونس وطلب مساعدته ضد يوسف ، فحاصره في غرناطة ، ثم اعتقله وبعث به إلى مراكش مع أسرته حيث قضَى بقية أيامه . وكان يوسف قد اعتزم افتتاح طليطلة فلم يات من ملوك الطوائف أحد لمساعدته . وفي مقابل ذلك عرض ابن عباد ليوسف برغبته في ضم

---

(18) الحلل ص 54

غرناطة إلى ملكه ، فلم يحفل به يوسف ورجع إلى المغرب بعد أن ترك بالأندلس نائباً عنه هو القائد سير بن أبي بكر . على أن يوسف لم يخاطبه في شأن المعتمد . وساءت العلاقة بين هذا وسير الذي طلب إليه التنازل عن ملكه والانضمام إلى المرابطين فامتنع المعتمد ، واستنجد بدوره بالمسيحيين ، فحاصره سير باشبيلية سنة 484 ، ثم اعتقله وبعث به وبأسرته إلى أغمات . أما نجدة العدو فقد اصطدمت بالمرابطين قرب حصن المدور فهزمها القائد ابراهيم بن إسحق[19] . وقد أصبحت الأندلس منذئذ تحت الحكم المباشر للمرابطين منذ السنة المذكورة ، وانقضى أمر ملوك الطوائف باستثناء بني هود الذين احتفظوا بالثغر الأعلى بطلب منهم وموافقة ابن تاشفين[20] .

أما ما ذكره ابن خلدون وصاحب الحلل من كون ابن تاشفين قد جاز إلى الأندلس جوازاً رابعاً ، فانهما لم ياتيا لذلك بسبب وجيه أو تفصيل واف .

كما أن عامة المؤرخين لم يتعرضوا بشيء لهذا الجواز المشكوك فيه ، خصوصاً وقد استقرت الأحوال للمرابطين بعد وضع حد لمهزلة ملوك الطوائف .

وفي سنة 495 ولى عهده ابنه علياً وأوصاه بالاحسان إلى حماة الثغر الأعلى وعدم التعرض بأذًى للمصامدة. وانتهت حياة هذا الملك الحافلة بعظيم الأعمال بعد قرن قضى معظمه في الكفاح ونشر لواء الاسلام ، وكانت وفاته سنة 500 ودفن بمراكش . وقبره مزارة مقصودة .

علي بن يوسف (500 – 537 / 1106 – 1142م) :

كان سنه عند وفاة أبيه 23 عاماً ، وكان طويل القامة أسود العينين شديد الذكاء له اطلاع في الفقه والأدب ، مع احترامه وتقديره للعلماء والفقهاء . وقد جاز إلى الأندلس لأول مرة بعد توليته سنة 500 حيث بايعه الفقهاء وكبار رجال الدولة وذلك بعد أن قبض على ابن أخيه يحيَى بن أبي بكر الذي ثار بفاس وامتنع من مبايعة عمه ؛ غير أنه عفا عنه وبعث به إلى الأندلس حيث قضى بقية أيامه. وكان تميم أخو علي ينوب عنه في حكم المغرب إذا غاب، بيد أنه عزله لسبب ما سنة 501 ونقله إلى غرناطة وناحيتها كما أجرى حركة هامة في نقل الولاة وعزلهم.

---

(19) الاستقصاء ج 2 ص 49

(20) الحلل 60 ، وروض القرطاس

وكانت الممالك النصرانية في حالة ضعف باستثناء دويلات الشرق . وكان من أهم أسباب ضعف هذه الممالك ، نزاعها الداخلي بشأن ولاية العرش[21] . وانتهز تميم أخو علي فرصة اضطراب الأحوال في هذه الممالك فاقتحم حصن افليج بالقوة . بعد أن تعرض لجيش قوي من القشتاليين بقيادة ولد الفونس السادس ، وكانت الحرب شديدة بين الفريقين قتل خلالها ولد الفونس وجماعة من قادة المسلمين والنصارَى .

أما والي بلنسية محمد بن الحاج فقد اعترضته قوات من النصارَى في إحدَى غزواته وفاجأته في طريق وعر فاستشهد وولي مكانه والي مرسية أبو بكر بن ابراهيم ابن تافلويت ، فغزا ناحية برشلونة من غير أن يوفق إلى فتحها نظراً لامدادات هائلة وردت بقيادة ابن ردمير .

ولما كانت سنة 503 جاز علي بن يوسف إلى الأندلس للمرة الثانية[22] فأقام بقرطبة شهرا يعبئ جيشه ، ثم زحف نحو قشتالة ففتح منها 27 حصنا . كما استولى على طلايوت ومجريط ولم يتمكن من فتح طليطلة أما في الثغر الأعلى فقد هدد ابن ردمير سرقسطة وقتل أميرها المستعين .

وفي سنة 504 توسع سير بن أبي بكر في فتح البرتغال ، فاستولى على اشبونة ويابورة وشنترين وبطليوس . وقد توفي هذا القائد العظيم سنة 507 وكان على إشبيلية ، فخلفه محمد بن فاطمة . وبعد سنة من وفاة سير ، تلاه والي قرطبة مزدلي وابنه محمد الذي خلفه عليها حيث ماتا أثناء الجهاد ، على التوالي .

ولم تكد تحل سنة 512 حتَّى سقطت سرقسطة في يد النصارَى بعد دفاع شريف من لدن سكانها الذين وصلتهم نجدة متأخرة من المغرب بعد سقوط المدينة ، ولكن تميم بن يوسف صد الاسبانيين عن لوردة بعد أن كبدهم خسائر جسيمة . غير أن الأرغونيين توسعوا في فتوحاتهم نسبياً وظل المسلمون يعيشون تحت سلطتهم في

(21) طيراس ج 1 ص 243

(22) الحلل 70 — أما راوية ابن خلدون فلا تحدد تاريخا لجوازه ، وفي الاستقصا ج 2 ص 59 اعتبر الناصري دخول علي إلى الأندلس سنة 503 أول جواز له بعد توليته ، وهذا على ما يفهم من نسق روايته (انظر كذلك ص 61) .

المراكز التي استولوا عليها ولقبوهم بالمدجنين. وكانت فتوح الأرغون تشمل في هذه الفترة جنوب نهر ابرة ، واتحد أمير برشلونة مع الفونس المحارب بواسطة الصهر[23] . وفي هذه الأثناء تلقى علي بن يوسف من الخليفة العباسي المستظهر جواباً على رسالته حول مبايعة[24] الخليفة.

وفي سنة 513 استولى النصارَى على قلعة أيوب ، فجاز علي بن يوسف مرة أخرى إلى الأندلس وفتح شنتمرية وعين أخاه تميم والياً عاماً على الأندلس. ولم تمض سنتان بعد هذا التاريخ حتَّى ظهر بسوس المهدي بن تومرت[25] واتصل بعلي ابن يوسف في قصره وجرت بظهور المهدي أحداث خطيرة يحسن تركها إلى دولة الموحدين.

وفي غرناطة اتفق النصارَى المعاهدون على نقض عهودهم للمسلمين والاستنجاد بابن ردمير ، فاعد 4 آلاف فارس من أراغون ومر في طريقه ببلنسية فلم يفز منها بطائل وخلال ذلك التحقت به أفواج عديدة من المعاهدين ، ولم ينجح مع ذلك في الاستيلاء على بسطة ، ثم تقدم نحو غرناطة بعد أن ضرب زروع وقرَى الفلاحين الآمنين ، وبلغت جموعه 50 ألفاً ، غير أن فصل الشتاء أدركه وتكاثر الجليد ، فتحركت جيوشه نحو قرية يحصب. وجاءت إمدادات إلى الأمير تميم من المغرب سنة 519 ، ولكن جموع الأعداء الضخمة هزمتها ، ثم ارتحل بعد ذلك وقد قضَى أزيد من سنة في مناوشاته من غير أن يحتل مكاناً ، ثم توجه القاضي ابن رشد إلى علي بن يوسف يفتيه في تغريب المعاهدين ، فأمر بنقلهم إلى مكناسة وسلا وغيرهما[26] ، بعد أن اتضحت خيانتهم.

وتوفي تميم بن يوسف سنة 520 فخلفه على الأندلس تاشفين بن علي بينما أصبحت الجزائر الشرقية تحت ولاية محمد ابن غانية. وبينما كان تاشفين يقوم بغزوات موفقة في غرب الأندلس كان والده يقوم ببناء سور مراكش وجامعها ثم فتح تاشفين اشكونية سنة 532 وأصبح وليا للعهد في السنة الموالية وكان المهدي بن

(23) تاريخ اسبانيا 17
(24) الحلل 71
(25) المعجب 178
(26) الحلل 75

تومرت قد توفي قبل ذلك ببضع سنوات عام. 526 . أما علي بن يوسف فلم يكدر عليه صفو ملكه شيء ، أكثر من ظهور المهدي . وكانت وفاة علي سنة 537 باجماع المؤرخين ، وقد بلغ ملكه إلى السودان جنوبا وبجاية شرقاً ، فضلا عن الأندلس والجزر الشرقية[27] .

4 - دور الضعف 537 - 541 / 1142 - 1146

تاشفين بن علي 537 - 539 / 1142 - 1144م

نجح هذا الملك في غزواته باسبانيا ، فصد هجوما للأعداء حول بطليوس سنة 528 ثم حول جبل القصر في نفس السنة ، مما دعا الكاتب ابن العربي إلى تهنئته وتزويده بنصائح حربية في قصيدة طويلة . وعند توليته ، كانت جيوش الموحدين تزحف نحو الشمال والشرق حتّى بلغت أحواز تلمسان ، فتتبعهم تاشفين في ضواحي هذه المدينة ، وتلقى مساعدة من الرجال من ابن حماد الصنهاجي ، فهزمه الموحدون ثم تلقّى نجدة من سجلماسة وأخرى من الأندلس سنة 538 بقيادة ابنه ابراهيم ، وتم اللقاء قرب تلمسان فانهزم المرابطون ودعيت المعركة بيوم منداس . وكان لتاشفين حصن بناه على شاطئ وهران ، فأمر قائد أسطوله بالمرية أبا عبد الله بن ميمون أن يمده بقطع من الأسطول . وخلال ذلك ضيق به عبد المومن بعد أن دخل حصنه ينتظر الأسطول المذكور ، ثم أشعل النار حوله ، فهوَى تاشفين من أعلى الحصن بفرسه يحاول تخطي النار ولكنه اندق وفرسه ومات سنة 539هـ .

ابراهيم واسحق بن علي 539 - 541 / 1144 - 1146م

كان تاشفين قد ولى عهده ابنه ابراهيم ، غير أنه كان عاجزاً عن تدبير الملك ومواجهة خطر الموحدين ، فخلعه المرابطون وعينوا مكانه إسحق بن علي بن يوسف وكان دون البلوغ . وفي سنة 540 استولى عبد المومن على فاس ثم زحف لحصار مراكش التي تحصن بها المرابطون ومعهم اسحق بن علي واستمر الحصار تسعة أشهر فنيت بعدها أقواتهم فخرجوا يدافعون دفاع اليائس ، واستسلمت المدينة بالقوة إلى الموحدين سنة 541 ، وقبض على شيوخ المرابطين وأميرهم إسحق ، فقتلوا باشارة أبي حفص عمر الموحدي . وانتهت بذلك دولة المرابطين .

---

(27) Lévi Provençal, l'Islam d'Occident, p.245

5 – أسباب سقوط دولة المرابطين

تربع المرابطون على كرسي الحكم قرابة قرن ، وكان يمكن أن تستمر دولتهم لزمن أطول لولا العوامل التالية التي أدت إلى سقوط دولتهم :

1) اتساع نفوذ الفقهاء المالكيين

فمن المعلوم أن سياسة المرابطين قامت على تعاليم مذهب الامام مالك ومؤسسو الدولة الأولون هم تلاميذ لأبي عمران الفاسي وعبد الله بن ياسين ، والأول كان على رأس المالكية بالقيروان ، والثاني درس على المالكية بقرطبة وأتم دراسته على وجاج بن زلو ؛ فلا غرابة أن يتشبع ملوك المرابطين بتعاليم المذهب المالكي ، وأن يحترموا فقهاء هذا المذهب حتّى لا يصدروا إلا عن رأيهم فالفقهاء هم الذين استقدموا المرابطين للجهاد بالأندلس . وحينما فكر علي في تسوير مراكش استفتَى الفقهاء بالمغرب والأندلس ، وعندما قرر أن يغرب النصارَى المعاهدين بغرناطة إلى المغرب ، استصدر في ذلك فتوَى من القاضي ابن رشد . وفي الأندلس ، اتفق فقهاء قرطبة على إغراء علي بن يوسف باحراق كتاب إحياء علوم الدين للغزالي ، ولما كان صاحب هذا الكتاب يحاول التوفيق بين الفقه وعلم الكلام ، ويتخذ المنطق سبيلا إلى تحليل المعتقدات بينما يتعصب فقهاء المالكية بقرطبة لكل ما ينتسب إلى مذهب مالك من غير أي مناقشة ، فقد تزعم حركة الفقهاء المضادة ، القاضي ابن حمدين ، فكفر كل من قرأ الكتاب المذكور ، واستصدر علي فتوَى من الفقهاء باحراق الكتاب في الأندلس والمغرب ، وكان خلع يوسف بن تاشفين لملوك الطوائف بفتوَى من الفقهاء أيضا . ولم يرتفع صوت قوي يعارض هذا التحجر في التفكير والمعتقد أو يضع حدا للتضييق على حرية المذاهب ، حتّى ظهر المهدي بن تومرت . .

2) ظهور الموحدين

برزت حركة معارضة فقهاء المالكية والمذهب المالكي نفسه ، في شخص المهدي ابن تومرت الذي لقن رفاقه تعاليمه الجديدة ولم يهتم علي بن يوسف بأمر هذا الرجل

وحركته رغم نصائح مالك بن وهيب الذي كان يجالسه[28] وقد فشل المهذي في الاستيلاء على مراكش ، ولكن خلفه عبد المومن تمكن من قهر المرابطين واقتحام عاصمتهم بعد أن استولى على قسم كبير من المغرب .

3) اختلال الأوضاع في المغرب والأندلس

بدأ استبداد الأمراء المرابطين يتجلّى منذ عهد علي ، وتدخلت النساء في الشؤون السياسية ؛ وفسدت الأخلاق بسبب ميل المرابطين إلى الحضارة بعد احتكاكهم بالأندلسيين ، وإن ظل الملوك أنفسهم بعيدين عن هذا الفساد ، فإن علياً كان ليناً في سيرته يشتغل بالعبادة والصلاة في قصره . ولم تكن هناك حركة تكتل واسعة ولو في دائرة صنهاجة المغرب ، للحلول دون زحف الموحدين ومع ذلك فقد كانت هناك مقاومة عنيفة أبداها سكان بعض المدن على انفراد كسبتة برياسة القاضي عياض ، وفاس برياسة ابن أبي بكر الصحراوي . ولم يستنجد المرابطون بجيشهم في الأندلس في الوقت المناسب ، بالاضافة إلى أن النصارى قد استطاعوا أن يتوغلوا في أرض المسلمين ، وانتهز سكان الأندلس فرصة اضطراب الأحوال بالمغرب فطردوا ولاة المرابطين وتوزعوا مدن البلاد فيما بينهم .

وإذا كانت الحالة السيئة بالأندلس لا تشكل عاملا مباشرا في سقوط المرابطين ، فقد كان من الممكن أن ينجد الأندلسيون أولياء نعمتهم ولكنهم في الواقع كانوا أحوج إلى لم شتاتهم من المرابطين وهم في أرض العدو .

6 – أهمية أعمال الدولة

تمكن المرابطون في بضع سنوات من القضاء نهائياً على البرغواطيين وتوحيد المغرب تحت سلطة موحدة ، وعملوا على نشر الاسلام في ربوع السودان وامتدت سلطتهم من شمال اسبانيا إلى حدود نهر النيجير . وساروا في سياستهم الداخلية

(28) يقول الزركشي في تاريخ الدولتين ، ص 3 ، انه كان حزّاءً ينظر في النجوم ، وقد تولى قضاء مراكش ، وكان قد ورد على المغرب سنة 472 حيث اطلع يوسف بن تاشفين على أوضاع الأندلس وموقف ملوك الطوائف ، وعبد الرحمن هذا من رجالات المرية (انظر الزياني ترجمان ، ص 278) .

والخارجية بناء على تعاليم الاسلام كما مثلها فقهاء المالكية على الأقل وهم أول من كون دولة نفذ حكمها في كل أجزاء المغرب .

ولم يشهد المغرب طيلة أيامهم ثورات داخلية خطيرة باستثناء ثورة الموحدين التي أدت إلى قلب الدولة وحاول أصحابها أن يقضوا عبثا على المذهب المالكي الذي ساد في المغرب بفضل المرابطين. وكان المغرب قبلهم تتوزعه الأهواء والشيع فضربوا بشدة على أيدي أصحاب المذاهب المتنافرة.

وكان فضل المرابطين عظيماً على الأندلس ، فوضعوا حداً لفتنة ملوك الطوائف الذين أصبح كثير منهم يرضى بمساعدة الأعداء على إخوانه في العروبة والاسلام بعد أن انقضى عهد بني أمية. وقد استرجع المرابطون كثيرا من المدن والمعاقل التي سيطر عليها النصارى . وكانت حركتهم في الأندلس حركة جهاد مقدس بكل معنى الكلمة ، كما كانت الحرب صليبية بالنسبة إلى النصارى في محاولة استرجاعهم لما فقدوه أو على الأصح في محاولة زحفهم على المملكة الاسلامية .

ورغم أن المرابطين تأثروا بحضارة الأندلس وشاركوا بأوفر نصيب في حضارة المغرب في عهدهم ، فقد ضربوا المثل بتمسكهم بتعاليم الاسلام فلم يجوروا على الناس و لم يلزموهم بضرائب خارجة عن الزكوات والأعشار، معظم أيامهم.

على أن أعمالهم لم تنحصر في الميدان السياسي ، فقد ازدهرت العلوم بفضل تشجيعهم ، وبنوا المدارس الأولى بالمغرب كما عنوا باشادة الأساطيل التي بفضلها استرجعوا كثيرا من ثغور الأندلس ، وأشركوا في جيوشهم عناصر مختلفة من السكان من زناتة ومصمودة وصنهاجة وغيرها ؛ فعملوا بذلك على خلق وحدة سياسية وطنية ، وكانت ثورة الموحدين عليهم في أصلها ثورة دينية مذهبية . ولولا هذا الفرق في الاتجاه بين الدولتين لامتدت دولة المرابطين على ما يظهر زمنا أطول .

7 – علاقات المغرب الخارجية

لم يكن للأدارسة ولا للزناتيين سياسة خارجية مستقلة ، فقد كان كل من الفريقين تابعاً في ظروف متفاوتة للشعيين أو الأمويين ، ومع ذلك ، فقد ظل التبادل الفكري قوياً بين المغرب والأندلس والشرق وإفريقية .

وفي عهد المرابطين كانت سياسة الدولة تتمثل كما يلي :

1) مع العالم الاسلامي

اعترف المرابطون بسلطة الخليفة العباسي الروحية ، ولم يفكروا في انتحال لقب الخلافة رغم أنهم كانوا أحق به من أمويي الأندلس ، لاتساع رقعة نفوذهم . وقد كان عبد الرحمن الناصر في الأندلس أول من لقب نفسه بأمير المومنين في الأندلس وذلك كرد على الفاطميين الذين أسسوا خلافتهم بافريقية. وصفة الخلافة هي التي أوحت إلى كل من الفاطميين والأمويين بايجاد حلفاء داخل المغرب يخضعون في سياستهم لأحد من الفريقين .

وقد يظن أن المرابطين نزهوا أنفسهم عن لقب الخلافة لشعورهم في قرارة أنفسهم بأنهم بربر أو على الأصح بأنهم ليسوا قرشيين ، ولكن الواقع أن سياستهم كانت ترمي إلى المحافظة على الوحدة الاسلامية لا إلى تحطيم هذه الوحدة .

أما مع افريقية ، فقد كانت الظروف سانحة للمرابطين في عهد يوسف بن تاشفين للاستيلاء عليها ، ولكنهم فضلوا سلوك سياسة المهادنة مع إخوانهم الصنهاجيين ولم يتدخلوا في نزاعهم مع العرب الذين أصبحوا يشكلون خطراً عظيما على إفريقية . وكان المرابطون مع ذلك مشغولين بحرب الأندلس ، وفضلوا أن يوجهوا جهودهم نحو الشمال (في الأندلس) والجنوب (في الصحراء) على أن يوجهوها نحو الشرق ، وهذه السياسة الودية هي التي جعلت صنهاجة القلعة تمدهم بمساعدة عندما طاردهم عبد المومن في نواحي وهران وتلمسان ، وان لم تات هذه المساعدة بنتيجة ايجابية .

2) مع الأنـدلـس :

أصبح المغرب والأندلس في عهد المرابطين يشكلان مملكة واحدة ، ولكن الظروف الاجتماعية والسياسية كانت تختلف في الأندلس عنها في المغرب . فإذا كان الجزء الجنوبي من المملكة يعيش في أمن وهدوء والحالة السياسية في أحسن ما يكون من الاستقرار ، فإن الحالة في الأندلس كانت تقتضي اتخاذ سياسة تختلف باختلاف العناصر التي تضمها الأندلس . فقد كان على المرابطين ان يسلكوا سياسة الحذر نحو النصارىٰ المحاربين ، وسياسة حماية مصالح المعاهدين ، بالاضافة إلى الدفاع عن الأراضي الاسلامية . وإذاً فقد كان للمغرب سياسة خارجية خاصة بالأندلس التي لم

تكن في الواقع مجرد بلد تابع للدولة بل كانت تشكل نقطة الارتكاز التي تلتقي عندها سياستان عالميتان، إحداهما إسلامية مبنية على نشر الإسلام والحضارة والتسامح، والثانية صليبية تعمل على استعادة المسيحية إلى بلد كان يعتنقها قبل الإسلام.

شكلت سياسة المرابطين بالأندلس ثلاث مراحل :

1 — التدخل من أجل جهاد النصارى بعد أن أدَّى بهم الحال إلى أن يضربوا الجزية على ملوك الطوائف ويغتصبوا طليطلة ويهددوا سرقسطة ويحتلوا عدة حصون وقرى . ثم ان هذا التدخل وقع بعد مساع كثيرة من ملوك الطوائف وبضغط من الفقهاء وتدخلهم الشخصي . فلم تكن للمرابطين رغبة في احتلال الأندلس التي لم يطأوا أرضها الا بعد أن تولى يوسف بن تاشفين بربع قرن ، وبعد أن سيطر على المغرب كله تقريبا بنحو عشر سنوات ، حتَّى إذا كانت سنة 479هـ لم يشترط يوسف أي شرط مقابل تدخله ، باستثناء تسليم الجزيرة الخضراء إليه ليجعل منها خط الرجعة وينسحب إذا لم يوفق في جهاده ، كما يتخذ منها مركزا للتجمع . وقد انسحبت جيوش المرابطين بمجرد انتصارها على النصارى في معركة الزلاقة .

2 — محاولة ترك حكم الأندلس لأهلها

ظل وضع ملوك الطوائف كما وجده يوسف بن تاشفين . ولكن هؤلاء الملوك ، لم يحاولوا الاندماج في مملكة واحدة ، ولم تطب أنفسهم بهذه التضحية حتَّى أصبحوا يتقربون إلى الأعداء ويكيد بعضهم لبعض مما اضطر ابن تاشفين إلى الضرب على أيديهم جميعاً سنة 483 و484 بعد تحريض مستمر من الفقهاء أنفسهم .

3 — ضم الأندلس إلى المغرب

منذ سنة 484 أصبحت الأندلس تابعة مباشرة للمرابطين الذين كانوا يعينون عليها ولاة أكفاء ، وفي مقابل ذلك استوزر المرابطون شخصيات أندلسية وأشركوها في وظائف الحكومة وأرجح أن هذا العمل كان يهدف إلى القضاء على كل فكرة عنصرية حتَّى لا تقتصر الدولة على الاعتماد على المرابطين وحدهم في شؤون الحكم ، كما كان يهدف أيضا ، إلى الاسترشاد بآراء وخبرة هذه الشخصيات فيما يتعلق بسياسة الأندلس ، وإلا فإن المرابطين لم يكونوا عاجزين عن اتخاذ وزراء منهم فقط .

أما المبادئ التي قامت عليها سياسة المرابطين بالأندلس ، فهي فيما يخص علاقاتهم بالنصارَى :

1) العمل على إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأراضي المغتصبة ، وقد تمكنوا بالفعل من إنقاذ معظم الأندلس باستثناء طليطلة التي فشل علي في استردادها سنة 503 كما فشل في استرداد سرقسطة سنة 512 وهكذا فقد كانت سياسة المرابطين سياسة دفاعية إنقاذية لا تهدف إلى الاغتصاب بعكس السياسة النصرانية .

2) المحافظة على العهود سواء مع النصارَى المحاربين أو النصارَى المعاهَدين .

3) الاستفادة من خبرتهم الحربية بضم عناصر كثيرة منهم إلى الجيش الاسلامي كما سيأتي ذلك في الكلام على الجيش. أما بالنسبة إلى المسلمين ، فقد كانت سياسة المرابطين ترمي إلى :

1 — حماية مصالحهم والقضاء على الفتن الداخلية فيما بينهم .

2 — الاستفادة من حضارتهم التي كانت تتمثل في طريقة البناء والحياة الاجتماعية والحركة الفكرية . ومنذ عهد المرابطين بدأ تأثير الأندلس في المغرب يتجلّى في كل هذه الميادن .

3 — احترام سلطة الفقهاء الروحية التي كانت ذات أثر عظيم في توجيه سياسة المرابطين . والواقع أن فقهاء الأندلس تمتعوا لدَى المرابطين بنفوذ عظيم لم يتمتع به زملاؤهم في المغرب .

8 - الحياة الدينية

يمتاز عهد المرابطين في الميدان الديني بثلاثة أشياء : 1) انتشار الربط لأسباب علمية دينية سياسية . 2) اتخاذ مذهب مالك كمذهب رسمي للدولة . 3) ظهور أقطاب المتصوفة الأولين بالمغرب ، وأرَى أن أخَصِّصَ كِلاّ من هذه النقط ببعض التفصيل ، فهي تشكل في الواقع عوامل أساسية في توجيه سياسة المغرب منذ عهد المرابطين إلى عدة قرون أخرى بعدهم .

1) انتشار الربط

إن كلمة رباط تعني المكان الذي يرابط فيه المسلمون للدفاع عن بلادهم وكانت

هذه الربط تقام عادة حيث يتوقع شر هجوم الأعداء ، وقد تحول هذا المعنَى فيما بعد إلى كلمة ثغر التي حلت محل «الرباط» وعلى العموم فالربط أو الثغور بهذا المعنَى كانت تشكل الحدود الفاصلة بين أرض المسلمين وأرض الأعداء ، وقد تكون في الداخل أو على شاطئ البحر. على أن الربط أصبحت تكون معنَى آخر في شمالي افريقيا حيث إن فقهاء المالكية الذين كانوا يلقنون علومهم بمساجد القيروان من أجل الدفاع عن مذهب مالك ودعوة الناس إلى التزهد والتقشف ضاربين المثل في ذلك من أنفسهم ومن إمامهم مالك فضل كثير منهم أن يعتزل حياة المدن التي شملتها الفوضَى والاضطرابات السياسية وفساد العقيدة إلى رباطات ينقطعون فيها إلى العبادة وتلقين علوم الدين ؛ ولعل هذه الرباطات كانت في بدايتها على هذه الصفة ، كرد فعل سلبي ضد المذاهب الجديدة التي تختلف مع السنة من قريب أو بعيد ، كالمذهب الشيعي والخارجي والبرغواطي ، وإذا كانت قد ظلت كذلك في إفريقية والمغرب الأوسط ، لأمد ما، فإنها في المغرب الأقصَى تحولت من حالة التزهد ودراسة العلم إلى حالة التهيؤ لمحاربة أصحاب المذاهب الضالة. وكان من جملة الربط بافريقية رباط المنستر الذي رابط به كثير من العلماء كيوسف بن مسرور وابن حمدون الصدفي وبشير المنستيري. وظهرت الرباطات في إفريقية في وقت مبكر وانتشرت في عهد بني الأغلب وهي يومئذ تهدف إلى قيام المرابطين بالعبادة والدفاع عن أرض المسلمين.وفي المغرب الأقصَى انتشرت الرباطات في عهد الزناتيين بعد أن وضع الادارسة لبنتها. فمن المعلوم أن القاسم بن ادريس كان قد بنَى رباطاً قرب أصيلا[29] ، ثم نجد رباطا بأزمور ورباطات أخرى بالسوس ، وأشهرها في أواخر الزناتيين رباط «أكلو» قرب تزنيت وقد أسسه وجاج بن زلو الذي درس على أبي عمران الفاسي. وفي هذا الرباط درس عبد الله بن ياسين الذي أسس بدوره رباط السينغال. وهناك رباطات تعود إلى عهد الفتح الإسلامي والأجيال المباشرة بعده، كرباط شاكر، ورباط ماسة.

أما من حيث بناء الرباط ، فقد يكون مجرد مسجد للعبادة والتدريس كرباط «أكلو»[30] ولكن إذا كان الأمر يتعلق بالدفاع عن البلاد والمسلمين فإن الرباط كان عبارة عن حصن مربع يتكون من طابقين يرقى إلى الثاني منهما بسلم ويحتوي كل منهما

(29) البيان المغرب ج 1

(30) تعتبر مدرسة أكلو أول مدرسة داخلية بالمغرب ، انظر بحثا لعبد الحفيظ الفاسي ، مجلة المغرب ، ربيع – جمادي 1355هـ.

على غرف تطل على صحن تحيط به أقواس . وفي كل من زوايا الحصن برج لمراقبة العدو . ومن البديهي أن هذه الهندسة في البناء من التأثير البيزنطي . فإن البيزنطيين كانوا يهتمون باقامة هذه الحصون على طول السواحل التي كانوا يحتلونها من شمال إفريقيا . وأغلب الظن أن رباط السينغال كان على هذا الطراز ولم يكن مجرد مسجد لاننا نعرف أن هذا الرباط قد ضاق عن المومنين الذين بلغ عددهم ألفا . وكان على سكان الرباط أن يحصلوا على قوتهم عن طريق الزراعة والصيد والثمار البرية التي تحتوي عليها الجزيرة التي رابطوا بها عند مصب السينغال[31] .

إن رباط السينغال قد امتاز بأنه لعب دوراً ثلاثيا ، حيث كان المومنون يدرسون فيه العلم ويتعبدون ، ومنه انطلقوا إلى جهاد الشرك والمشركين والقضاء على عناصر الفتنة في المغرب ، وبالتالي فقد كان رباط السينغال مدرسة ومعبداً ومهداً لدولة لعبت فيما بعد دوراً جليلاً في تاريخ المغرب والأندلس .

2) انتشار المذهب المالكي

وجد المرابطون عند اقامة دولتهم بالمغرب مذاهب متناقضة من برغواطية وشيعية ومالكية . ولكن كيف تيسر دخول المذهب المالكي إلى المغرب ، ومتَى ؟ وعلى يد من ؟ ولماذا أقر المرابطون مذهب مالك كمذهب رسمي للدولة ؟

أما كيف تيسر دخول المذهب المالكي فقد كان عن طريق علماء من المغرب والأندلس . ذلك أن هذه البلاد كانت على مذهب الاوزاعي ولما كان هذا العالم شاميا فقد انتشر مذهبه بالشام . وكانت معظم الجيوش العربية التي جاءت لفتح الأندلس بعد البربر ، من بلاد الشام ، فحملت معها مذهب الأوزاعي إلى الأندلس . إلا أن كثيراً من طلبة العلم بالأندلس كانوا يهاجرون إلى المدينة لتلقي دروس الفقه عن مالك ، أو على الأصح ، كانوا يقصدون الحج فينزلون بالمدينة لدراسة مذهب مالك . وكان من أبرز هؤلاء الطلبة : 1) يحيَى بن يحيَى الليثي . 2) عبد الملك بن حبيب . 3) عيسَى بن دينار . 4) زياد بن عبد الرحمن .

أما يحيَى فقد درس على مالك الموطأ ، وهو من طنجة ، من بربر مصمودة كما تقدم في ذكر الادارسة . ويقول المقري : في دولة الحكم بن هشام ، انتقلت

(31) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة «رباط»

الفتوَى إلى رأي مالك بن أنس وأهل المدينة ، فانتشر علم مالك ورأيه بقرطبة والأندلس جميعا ، بل والمغرب[32] . وإذا عرفنا أن الحكم بن هشام توفي سنة 206 بينما توفي يحيَى سنة 234 سهل علينا أن نعرف أن انتشار مذهب مالك بالأندلس بدأ حقيقة على يد يحيَى منذ عهد الحكم ، وأصبح يحيَى يمثل في دولة بني أمية ما كان يمثله أبو يوسف قاضي القضاة في عهد الرشيد . فقد كان هذا لا يعين إلا القضاة الحنفيين ، وكان تعيينهم لا يتم إلا بواسطته ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى يحيى الذي كان لا يعين القضاة إلا من المالكيين، بيد أنه هو نفسه لم يتول منصبا قضائيا، وإنما كان بمثابة مستشار سام في شؤون القضاء.

وأما عبد الملك بن حبيب فيشك فيما إذا كان قد درس على مالك مباشرة ، ولكنه أخذ عن كبار فقهاء المالكية كابن الماجشون ، وهو صاحب كتاب الواضحة . وكان يجمع إلى علوم الدين علوم اللغة والأدب ، وقد شارك بدوره في نشر مذهب مالك ، بواسطة دروسه وكتبه ، وكانت وفاته سنة 238هـ وكان كثير التجوال والتطواف حتَّى لقد وصل إلى أطراف العالم المعروف آنئذ[33] .

وأما عيسَى بن دينار فهو صاحب كتاب «الهداية» في فقه مالك وكان قاضيا بطليطلة وتوفي سنة 212 .

هؤلاء هم أصحاب الفضل الأول في نشر مذهب مالك بالأندلس ، وانما ذكرتهم لكونهم شاركوا في اقرار مذهب مالك بالمغرب عن طريق تلاميذهم وكتبهم .

وكان بعض الخوارج ممن اعتنقوا المذهب المالكي في عهد الادارسة ، حتَّى إن العامل الصفري الذي عينه جوهر الصقلي بسجلماسة قد اعتنق هذا المذهب .

وقد كان اقرار هذا المذهب بالأندلس رداً على اتخاذ العباسيين لمذهب أبي حنيفة في مملكتهم . حتَّى إذا تدخل الأمويون في سياسة المغرب منذ القرن الرابع ، أخذوا أتباعهم بمذهب مالك . على أن الاضطرابات السياسية في عهد الزناتيين لم تمكن من ظهور علماء كثيرين بالمغرب في المذهب المالكي ، أو على الأصح ، لم

(32) النفح ج 4 ص 214.
(33) نفح ج 2 ص 215.

تسمح هذه الاضطرابات للعلماء بالاستقرار حتّى يكثروا من التأليف والانتاج . غير أننا نجد شخصيات بارزة حملت إلى المغرب مذهب مالك منذ أوائل القرن الثالث . وبعض الشخصيات حملت مذهب مالك مباشرة من علماء الشرق كالأصيلي راوية البخاري[34] ودراس بن إسمعيل (357) وهو من تلاميذ أبي مطر الاسكندري . أما افريقية فقد نقل اليها مذهب مالك في القرن الثالث الهجري علماء مشهورون تلقوا العلم عن تلاميذ مالك ، وخصوصا ابن القاسم ، ومن تلاميذه أسد بن الفرات وسحنون .

أما المرابطون فقد صادف عصرهم ظهور كبار الفقهاء كأبي عمران الفاسي ووجاج بن زلو وعبد الله بن ياسين والقاضي عياض وكلهم مغاربة ؛ والأرجح أنهم درسوا جميعا بالأندلس ، وخصوصاً القاضي عياض الذي جمع بين دراسة الشرق ودراسة الأندلس ، وكان من جملة أساتذته ابن رشد وأبو بكر بن العربي. وكان لعلماء الدين المغاربة تلاميذ كثيرون من الأندلس ، فالأمير ميمون بن ياسين مثلا روى عنه الحديث ابن خير وابن حبيش وابن فرقد ، وكان القاضي أبو عبد الله البستي مفتياً بالأندلس وابن علوش الطنجي من قضاتها[35] .

والمهم من هذا كله ، أن اقرار مذهب مالك ، لم يكن من الناحية العلمية على يد رجل واحد ، فقد اشترك فقهاء الأندلس في نشره بالمغرب ، واشترك في نشره بافريقية من المغاربة أبو عمران وسحنون وامثالها ؛ وشاركت افريقية في نشر المذهب بالأندلس والمغرب. ويحق للمغرب. أن يفخر بأن أول من أقر مذهب مالك رسمياً في الأندلس كان عالماً مغربياً هو يحيَى الطنجي.

ولماذا اتخذ المرابطون مذهب مالك ولم يتخذوا مذهباً آخر ؟ الجواب واضح . ذلك أن هجرة علماء الأندلس وشمالي إفريقيا إلى المشرق كانت في الغالب من أجل الحج ولم تكن العراق في طريقهم ؛ فإذا أرادوا أن يتزودوا من علوم الدين حلوا بالمدينة ليرووا عن فقهائها ومحدثيها أو نزلوا بالاسكندرية وهي أقرب ثغر اليهم وكان أهلها في الغالب على مذهب مالك ، فياخذون عن ابن القاسم وغيره من حملة لواء المذهب . وكان هؤلاء الطلبة العلماء يلقون بدورهم مذهب مالك حيثما حلوا حتّى

---

(34) النبوغ المغربي ج 1 لعبد الله كنون.

(35) النبوغ المغربي ج 1.

في الإسكندرية نفسها كما فعل أبو بكر الطرطوشي الأندلسي المتوفّى سنة 520 [36] ، والمغرب والأندلس بحكم بعدهما عن العراق والشام لم تغزهما المذاهب المتناقضة كما حدث في هذين البلدين وخصوصاً العراق التي عرفت مذاهب الفرس والاعتزال والشيعة وفلسفات اليونان والهند وغير ذلك من الاتجاهات الفكرية والدينية. وصحيح أن المغرب عرف بعض هذه المذاهب قبل المرابطين ، ولكن لم يكن يعززها منطق أو فلسفة كما حدث في العراق ، ولذلك كان اعتناقها عن بساطة في المغرب ؛ والمرابطون أقروا مذهب مالك مكانها لأن زعمائهم ومؤسسي دولتهم كانوا مالكيين كما أشرت اليه في غير هذا المكان ، ولم يحتاجوا إلى وقت طويل لمقاومة المذاهب التي وجدوها ؛ بل لم يذيقوا الناس عذاباً من أجل إقناعهم ، ولم تكن سياستهم تنبني على العنف بحال ما لم يكونوا مضطرين إلى ذلك اضطراراً. وسوف لا يوفق الموحدون في محو مذهب مالك بالمغرب ، بل سيكون لأحدهم الفضل في إعادة إقراره كما كانوا سبباً في محاولة تقليص دوره.

بقي أن تقال كلمة في الموضوع ، هي أن المذهب المالكي ، كان يتناسب وبساطة المرابطين الصحراوية ، والبيئة الصحراوية تستسلم بسهولة ، وليس من شأن المذهب المالكي استخدام الرأي. أما القياس ففي آخر درجة ، وأما الكتاب والسنة ، فانما يليهما في الرتبة عمل أهل المدينة ، وليس كذلك مذهب أبي حنيفة الذي يسلك طريقة الجدل والرأي واستخدام العقل ، ولا يسلم بشيء حتَّى يسلمه العقل. وكان مسلمو المغرب وطلبتهم على الأخص ينظرون إلى علم المدينة وعلمائها نظرة من يتمثل فيها وفيهم رمز الاسلام ، ونموذج الطهر والصفاء ، وإلا فماذا كان يعوقهم أن يأخذوا علم العراق عن أهله إذا وصلت بهم الرحلة إلى صحاري الحجاز؟ ثم إن أهم مذهب كان يمكن أن يأخذه المغاربة لو أرادوا هو مذهب الخلافة ، أي المذهب الحنفي ، ولكنهم لم يفعلوا ، ولم يهتموا بالأحرى بأي مذهب غير مذهب مالك.

وقد قويت سلطة فقهاء المذهب المالكي في عهد المرابطين خصوصاً في الأندلس. وكان كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي المتوفى سنة 555 قد وصل إلى الأندلس والمغرب. وكانت الصوفية قد شقت طريقها إلى هذين البلدين وهي تنبني

---

(36) دعوة الحق ص 48 عدد 1 سنة 4

على محاسبة النفس محاسبة عسيرة[37] واسترسال النفس مع الله على ما يريده حسب تعبير أحد الصوفية[38] . وإذا كانت علاقة الانسان بربه تعالى تحددها قوانين فقهية في نظر الفقهاء ، فإن الصوفية في هذه العلاقات يحملون أنفسهم على التجرد من أتفه الهفوات ويقسون في محاسبتها . وأصبحت الهوة تتسع بين الفقهاء والصوفية شيئاً فشيئاً وخشي الفقهاء على سطوتهم في الأندلس ، بدخول كتاب «الاحياء» الذي جمع بين أحكام الورع والاقتداء وآداب المتصوفة واصطلاحاتهم فأفتوا علي بن يوسف بمصادرته وإحراقه ، وكان زعيمهم في ذلك القاضي ابن حمدين[39] ، وتم إحراق الكتاب فيما بين سنة 500 و505 إذ لم يضبط تاريخ هذه المصادرة . وكان من المعارضين جملة من العلماء فيهم أبو الحسن البرجي وأبو القاسم بن ورد وهما من فقهاء المرية وأبو الفضل النحوي من فقهاء قلعة حماد . ولكن هذه المعارضة لم تغن شيئاً . وبذلك بلغ نفوذ الفقهاء في عهد علي ما لم يبلغوه حتَّى في أيام الفتح وكان لا يقطع أمراً الا بمحضر أربعة منهم . ولم ترق هذه السعة من السلطة التي بلغوها ، بعض أدباء الأندلس وكان ممن هجاهم ابن البني بقوله :

أهل الرياء لبستمو ناموسكم كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتموا الدنيا بمذهب مالك وقسمتموا الأموال بابن القاسم

3) ظهور أقطاب التصوف الأولين

منذ صدر الاسلام انقطع كثير من الناس إلى الزهد والعبادة وكان بين الفقهاء وعلماء الحديث زهاد معروفون كسعيد بن المسيب وخباب بن الأرث والحسن البصري . ولما جاء القرن الثاني وتسربت المذاهب والثقافات الأجنبية إلى الاسلام أثرت في الحياة الدينية تأثيرا كبيراً وأتت بأفكار جديدة على المسلمين كفكرة الفناء في الله التي أتى بها الفرس[40] ، وتكونت عندئذ طبقة المتصوفة ، ومن رجالها معروف الكرخي ثم أبو سليمان الداراني والجنيد والقشيري وتفلسفت المتصوفة في اصطلاحاتها ووضعت شروطاً لمذهبها وطقوسا خاصة بها كالسماع والخلوة ولبس الصوف الذي

(37) ابن خلدون، مقدمة، ص 409، المطبعة البهية، القاهرة.
(38) الطوسي، اللمع، ص 45.
(39) الحلل الموشية، ص 85.
(40) ظهر الإسلام 2 ص 58 لأحمد أمين.

نسبت إليه في الغالب ، وأصبح للمتصوفة كرامات ومريدون وتشكلت مع الزمن طرق خاصة ببعض الصوفية . وانتشر أهل التصوف في كل البلاد الاسلامية فسكن بعضهم في الكهوف وآخرون على قمم الجبال وبعضهم على شاطئ البحر . ومن الطبيعي أن يكون للشمال الافريقي نصيبه من هؤلاء المتصوفة وأن يكون لكتاب الاحياء فضل لا ينكر في تقريب الشقة بين التصوف والفقه في المغرب العربي وفي غيره ، رغم اضطهاد بعض فقهاء الأندلس له . وهكذا بدأت عملية احراق «الإحياء» بقرطبة ثم عمت سائر المملكة[41] .

على أنه يجب أن نفرق بين الصوفية أصحاب الطرق وبين غيرهم ، فالطرق ذات النفوذ الواسع لم تتكون بالمغرب في عهد المرابطين ، ولكن تكونت في عهد الموحدين مع العلم بأن أساتذة أصحاب الطرق كانوا موجودين في عهد المرابطين ، وعنهم تلقّى أبو مدين والشاذلي وغيرهما . أما الصلحاء فقد بدأ ظهورهم منذ عهد الأدارسة كالقاسم بن ادريس وأبي سلهامة المصري الأصل[42] والمتوفى سنة 345 (تقريباً). بل إن بداية عصر الصلحاء تمتد إلى زمن الفتح والمرشدين الذين رافقوا طلائعه.

ولكي تتم نظرة القارئ الكريم عن حياة المتصوفة في عهد المرابطين أرَى أن أخصص بعضهم بشيء من الحديث ، وسَنَلْمَسُ من خلال عرض هذه الشخصيات أثرها في حياة الشعب المغربي من الوجهة الدينية ، وفي حياة الدولة أيضا من الوجهة السياسية :

1 - أبو يعزَى يلنور[43]

بربري من مصمودة ولد سنة 488 بناحية دمنات وكان طويل القامة نحيفاً أسود اللون ، وكان طعامه من الحشائش والثمار ، واشتغل بالرعي في صباه وظهرت تقواه في هذا الطور . وقضَى عشرين سنة في جبال الأطلس ، كما ساح في مختلف أجزاء المغرب وقضَى جزءا من حياته في أزمور حيث اتصل بالشيخ أبي شعيب ، ثم في فاس حيث تلقّى العلم عن أبي بكر بن العربي الذي كان قد استوطن فاساً وهو تلميذ للغزالي ، ولم يكن أبو يعزَى شريف النسب ولكن العامة أصبحوا يضيفون إلى

(41) Provençal, l'Islam d'Occident, p.254

(42) الناصري ، استقصا ، ج 1

(43) التشوف وجذوة الاقتباس

اسمه «مولاي» فيما بعد . واستقر أخيراً بتاغية بالأطلس المتوسط حيث ظل يتعبد في زاويته ويستقبل زواره المتبركين به . ولم يكن أبو يعزى عالماً ولكنه كان متنوراً مطلعاً على مبادىء التصوف. وقد امتد به العمر حتَّى مات عن سن المائة والثلاثين حوالي 572هـ وهو أستاذ لأبي مدين ، ويعتبر من المتصوفة الأولين بالمغرب ، وضريحه بتاغية ، ولايزال مقصداً لكثير من الزوار وكان ملوك المغرب يعظمونه . وقد نسبت إليه كرامات عديدة ، من ذلك مثلا أن شخصين توجها إليه بتاغية ، وكان أحدهما فاسياً فلما حييا أبا يعزَى همس الفاسي في أذن صديقه قائلا : إن هذا الرجل ليس سوَى عبد أسود أحمق فعاتبه صديقه على ذلك . ثم قبل أبو يعزَى رأس الضيف (المومن) بولاية أبي يعزَى ولم يقبل رأس الفاسي ، فقال الفاسي : إني أتوب إلى الله ولن أعود إلى ما فعلته نحو الشيخ . ثم قدم اليهما أبو يعزَى طعاما متواضعا من الشعير والحشائش ، فعاد الفاسي ينتقد مرة أخرى هذه الضيافة ، ففاجأهما الشيخ عندئذ وهو يحمل صحناً يحتوي على خروف مشوي وخبزتين من القمح . وإذا كانت مثل هذه الكرامة عادية أو غير مستبعدة في حق الأولياء ، فإن العامة طالما نسبوا إليهم خوارق لا تتصور .

2 – ابن العريف[44] :

أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي، من طنجة أصْلاً، انتقلت أسرة والده إلى المرية . وقد درس على علماء بالمرية وقرطبة وغيرهما ، ومن أساتذته ، أبو علي الصدفي وأبو القاسم ابن النحاس ، وقد تعاطَى التدريس ثم تولى الحسبة ببلنسية . وبعد أن كان فقيهاً محدثاً أصبح يميل إلى الزهد والتصوف ، وكانت بينه وبين القاضي عياض مراسلات كثيرة . واشتهر زهده في الأندلس ، حتَّى حسده الفقهاء وعلى رأسهم ابن الأسود قاضي المرية ، فكتب إلى علي بن يوسف يطالب بإشخاصه إليه ، فحمل إلى السلطان الذي رحب بمقدمه ثم أطلق سراحه ولم يثبت عليه ما يستوجب عقابه ؛ وكانت شهرته قد سبقته إلى المغرب ، ولكنه لم يلبث أن توفي سنة 536هـ وندم علي بن يوسف على إزعاجه وحضر كثير من الناس جنازته ودفن بمراكش حيث يوجد ضريحه بسوق العطارين .

---

(44) ابن الابار : التكملة، والاعلام للمراكشي ج 1.

أما الذي لقي أسوأ مصير في عهد علي فهو أبو الحكم عبد السلام بن برجان[45] الذي كان من متصوفة قرطبة ، وحسده الفقهاء على ما كان يتمتع به من نفوذ روحي لدَى العامة ، فاستقدمه علي بن يوسف فقال وهو في طريقه اليه «والله لا عشت ولا عاش الذي أشخصني بعد موتي» ! حتَّى إذا توفي سنة 536 أمر علي بأن لا يصلى عليه ، وأن يطرح في مزبلة . وبلغ الخبر علي بن حرزهم وهو بمراكش ، فنادَى بلعن كل من لم يحضر جنازته ، فقال علي بن يوسف : «من عرف فضله ولم يحضر جنازته ، فعليه لعنة الله» .

3 – علي بن حرزهم[46]

من كبار الفقهاء الصوفية في عهد المرابطين ، ولد بفاس ودرس عليه كبار أصحاب الطرق كعبد السلام بن مشيش وأبي مدين الغوث وأبي عبد الله التاودي . وتأثر في ثقافته وتدريسه بنظريات الغزالي وكان ممن وافق على مصادرة الاحياء ثم عدل عن ذلك . وكان تأثيره عظيماً في علي بن يوسف الذي كان يتردد بين فتاوي الفقهاء وإغرائهم وبين وعظ الصوفية واعتبار موقف العامة منهم . وكانت وفاة علي سنة 559 ومدفنه مشهور بفاس .

ونلاحظ من هذا العرض الوجيز لحياة بعض المتصوفة في عهد المرابطين ، أن خطرهم قد تجلَّى في الميدان السياسي في عهد علي بن يوسف ولم يكن يستطيع أن يمسهم بأذَى رغم إزعاج بعضهم من الأندلس ورغم تدخلات الفقهاء من أجل إذايتهم ، وتمثل السنون الأخيرة من حياة علي تأثير هؤلاء الزهاد في سلوكه وقضاء أكثر وقته في العبادة .

وعلى كل حال ، فيمتاز عصر المرابطين من الناحية الدينية بظهور أقطاب التصوف الأولين بالمغرب وأساتذة الطرقيين كما أشرت إلى ذلك فيما سبق .

على أنه يمكن القول بأن ظهور التصوف في مبدئه وفي العالم الاسلامي عموماً ، لم يكن إلا رد فعل سلبي من جانب أصحابه ، لفساد الأوضاع السياسية والاجتماعية التي سادت العالم الاسلامي منذ القرن الثاني . غير أن رد الفعل في المغرب سيتخذ

(45) التادلي : التشوف

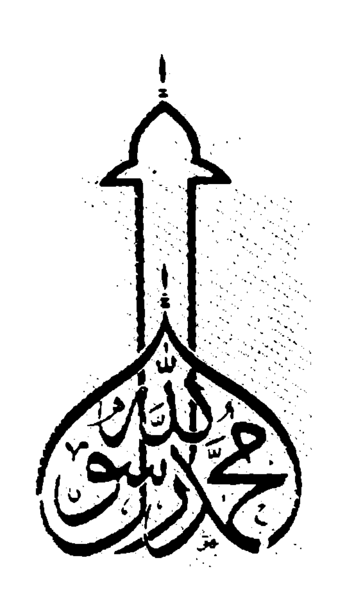
(46) مدن المغرب وقبائله ج 7. النبوغ المغربي ، ج 1

مظهراً إيجابياً من لدن الطرقيين والمتصوفة . بعد بضعة قرون ، حينما نجدهم يتدخلون في الشؤون السياسية إلى جانب خطرهم في الميدان الروحي .

مصادر ومراجع عن المرابطين

1 ـــ تاريخ ابن خلدون
2 ـــ قيام دولة المرابطين لحسن أحمد محمود
3 ـ افريقيا (لاندري جوليان) (بالفرنسية)
4 ـ تاريخ المغرب (لطيراس ج 1)
5 ـ مقدمة ابن خلدون
6 ـ الاستقصا للناصري
7 ـ الحلل الموشية لمؤلف مجهول
8 ـ روض القرطاس لصالح بن عبد الحليم
9 ـ تاريخ اسبانيا (من سلسلة ماذا أعرف) (فرنسية)
10 ـ المعجب للمراكشي
11 ـ البيان المعرب لابن عذارى ج 1
12 ـ مدارك القاضي عياض
13 ـ نفح الطيب للمقري
14 ـ النبوغ المغربي ج 1 لعبد الله كنون
15 ـ اللمع للطوسي
16 ـ ظهر الاسلام لأحمد أمين
17 ـ التشوف للتادلي
18 ـ جذوة الاقتباس
19 ـ الاعلام لعباس بن ابراهيم
20 ـ مدن المغرب وقبائله ج 7 . نشرته الاقامة العامة (بالفرنسية)
21 ـ مجلة دعوة الحق / عدة أبحاث ودراسات
22 ـ دائرة المعارف الاسلامية

23 ـــ تقديس الأولياء في الاسلام بالمغرب لدرمنجهام (فرنسية)
24 ـــ النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين لحركات
25 ـــ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لاشباخ
26 ـــ صبح الأعشى للقلقشندي
27 ـــ البيدق للصنهاجي
28 ـــ نظم الجمان لابن القطان



الحضارة في عهد المرابطين

1 - نظام الحكم والادارة

رئيس الدولـة :

من المعلوم أن ملوك المرابطين قد اتخذوا لقب «أمير المسلمين» وتحاشوا لقب أمير المومنين لأنهم كانوا يرون أن هذا اللقب الأخير من اختصاص الخليفة العباسي[47] وإذا كان يوسف بن تاشفين أول من تلقب بأمير المسلمين[48] ، فمن المرجح أن المرابطين قد اعترفوا بسلطة الخلافة العباسية في وقت مبكر من قيام دولتهم وذلك سنة 450 في أيام أبي بكر بن عمر حيث نقشوا اسم الخليفة العباسي إلى جانب اسم أبي بكر بن عمر سنة 450 غير أن اسم الخليفة كتب هكذا «عبد الله أمير المومنين» ولا يعرف بالضبط من هو المقصود بعبد الله ، هل هو عبد الله بن ياسين (وهذا الاحتمال مستبعد لكونه يخالف نظرية المرابطين في احترام الخلافة العباسية) أو عبد الله القائم أو المقتدى من الخلفاء العباسيين المعاصرين للمرابطين ، أو هل هو مجرد لقب يعطى لأي خليفة عباسي اكتفاء به عن الاسم وهذا في رأيي ارجح الاحتملات ، حتى لا تتغير السكة بتغير الخلفاء ، بدليل أن لقب «عبد الله»[49] ظل في سكة المرابطين إلى نهاية دولتهم . وقد أعطى صاحب «قيام دولة المرابطين» تفاصيل حول هذا الموضوع لابأس بها في كتابه هذا . كما أن المستظهر بالله لقب نفسه بعبد الله في رسالة بعثها إلى علي بن يوسف[50] .

---

(47) الحلل من 17 و18

(48) حسب ما جاء في **Extraits inédits relatifs au Maghreb,** لـ **Fagnan** فإن أبا بكر بن عمر أول من اتخذ لقب أمير المسلمين في حياة عبد الله بن ياسين ، لكن الوثيقة الاتي ذكرها لا تقبل هذا الاحتمال

(49) استعمل هذا اللقب في عدة دول إسلامية وابتداء من أبي بكر الصديق وهو يدل على التواضع تجاه الذات الالهية .

(50) الحلل 71 ، مع العلم بأن اسم المستظهر الحقيقي هو أحمد وقد ملك بين سنة 487 و512

أما لقب «أمير المسلمين» فقد اكتسبه يوسف بن تاشفين باقتراح من رجال دولته . ثم صار يطلق على من خلفه من عقبه . وقد ترك لنا صاحب الحلل وثيقة هامة يطالب فيها يوسف الولاة والأعيان بمخاطبته أمير المسلمين ونص هذه الوثيقة :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين إلى الأشياخ والأعيان والكافة من أهل «فلانة» أدام الله كرامتهم بتقواه . ووفقهم لما يرضاه . سلام عليكم ورحمة الله . تعالى وبركاته :

أما بعد حمد الله أهل الحمد والشكر ، وميسر اليسر وواهب النصر والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر ، وانا كتبناه اليكم من حضرتنا العلية ، بمراكش حرسها الله في منتصف محرم سنة 466 .

وانه لما من الله علينا بالفتح الجسيم ، وأصبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة برود النعيم ، وهدانا وهداكم إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم ، صلّى الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، رأينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم ، لنمتاز به على سائر أمراء القبائل ، وهو أمير المسلمين وناصر الدين ، فمن خطب الخطبة العلية السامية ، فليخطبها بهذا الاسم ان شاء الله[51] تعالى ، والله ولي العدل بمنه وكرمه والسلام» .

وكانت عادة المرابطين أن يجددوا البيعة للخليفة العباسي كلما ملك أحد منهم . وإذا كان التاريخ لم يضبط متى بايع يوسف الخليفة المستظهر فهو يحدثنا أن سفارة يوسف إلى الخليفة المذكور كانت تتكون من عبد الله بن محمد بن العربي المعافري ومن ولده أبي بكر وأن هاتين الشخصيتين طلبتا من الخليفة أن يعقد ليوسف عن المغرب والأندلس ففعل ووجه إليه عهدا بذلك[52] كما أن الغزالي والقاضي

(51) على ذكر الخطبة فقد ذكر ابن الخطيب (اعمال 3 ، 234) أنه خطب ليوسف على 2000 منبر في المغرب . وفي روض القرطاس 2 ، 61 أن يوسف بن تاشفين سُمِّيَ بأمير المسلمين مباشرة بعد انتصار الزلاقة سنة 479 وهو احتمال بعيد ، لأنه استصدر موافقة الخليفة العباسي وهذا يحتاج إلى وقت فضلا عن أن هذا التاريخ متأخر .

(52) أورد القلقشندي في صبح الأعشى ، ج 10 ، ص 31 ، 45 النص الكامل لعهد القائم

الطرطوشي أرسلا اليه خطاباً يحثانه فيه على خدمة الاسلام ويفتيانه في الحكم على ملوك الطوائف[53] وهذا يدل على أن هذه المراسلة كانت بين سنة 480 و484 أي قبل الايقاع بملوك الطوائف.

وقد وصل إلى علي بن يوسف سنة 512 رسالة من المستظهر كجواب على رسالة علي في تجديده للبيعة. ومما ورد في جواب المستظهر قوله[54] :

«...وأما ما انهيته من توفير الأجناد ومثابرتك على الجهاد، لدفع ادناس الكفرة مما يليك من البلاد، فانك وطائفتك من حزب الله وحزب الله هم الغالبون فاتخذ التقوَى عمادك، والحق منارك، وكتاب الله وسنة رسوله شعارك، وتجرد للدفاع عن الاسلام والمسلمين، وحط صعادك في نحول اعداء الله الكافرين، وأعلن بالدعاء لأمير المومنين على المنابر، تكن الظافر بالأعداء الظاهر، والسلام عليك وعلى من قبلك من أهل الطاعة، سلام يهديهم إلى المقام المحمود ويكُفُّهم بظل الرحمة المحدود، ورحمة الله وبركاته.

أما فيما يرجع إلى سلطة ملوك المرابطين، أو أمرائهم على الأصح فمن باب التكرار أن يقال بأنها كانت سلطة تنفيدية قبل كل شيء لأنها كانت تستمد قوتها من تشريع مالك، وبالتالي من فقهاء المذهب المالكي.

وكانت البيعة تتم بمحضر أعيان الدولة وفقهائها، فبيعة يوسف تمت بمشاركة أشياخ لمتونة وأمراء المصامدة ومجموعة من الكتاب والشهود[54] وكانت بسيطة في اجراءاتها حيث تمت في الطريق بين أغمات ومراكش أي في المكان الذي استقبل فيه يوسف أبا بكر بعد رجوع الأخير من الصحراء، وكان قد ذهب إليها بقصد قمع ثورة داخلية. أما بيعة علي، فقد تمت في حياة والده، وبذلك أصبح الملك وراثيا في دولة المرابطين بعد أن كان بطريق الشورَى بالنسبة إلى أبي بكر ويحَيى أخيه. وكانت هذه البيعة سنة 495 أو 496 أي في آخر سفر قام به يوسف إلى الأندلس

= بأمر الله العباسي 422— 467هـ ليوسف بن تاشفين بامارة المسلمين في المغرب والأندلس وهو نص في غاية الأهمية، وسمي هذا العهد ظهيرا، وقد تناول القلقشندي. ج 10. 299 لفظ الظهير

(53) ابن خلدون. 6. 386

(54) الحلل 16

وتمت البيعة لعلي كولي للعهد في قرطبة ثم في مراكش. ونص العهد كتبه الوزير محمد بن عبد الغفور، وهو :

«الحمد لله الذي رحم عباده بالاستخلاف وجعل الامامة سبب الائتلاف وصلّى الله على سيدنا محمد نبيه الكريم الذي ألف القلوب المتنافرة . وأذل لتواضعه عزة الملوك الجبابرة . أما بعد ؛ فإن أمير المسلمين وناصر الدين ، أبا يعقوب ، يوسف بن تاشفين ، لما استرعاه الله على كثير من عباده المومنين خاف أن يسأله الله غداً عما استرعاه ، كيف تركه هملا لم يستْنب فيه سواه وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة ، وجعلها من آكد الأشياء الكريمة ، كيف في هذه الأمور العائدة بمصلحة الخاصة والجمهور .

وإن أمير المسلمين ، بما لزمه من هذه الوظيفة ، وخصه الله بها من النظر في هذه الأمور الدينية الشريفة ، قد أعز الله رماحه ، وأحد سلاحه فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالي واهتزازاً ، وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازاً ، فاستنابه فيما استرعَى ودعاه لما كان اليه دعي ، بعد استشارة أهل الرأي على القرب والنأي فرضوه لما رضيه ، واصطفوه لما اصطفاه ، ورأوه أهلا لا يُسترعَى فيما استرعاه ، فأحضره مشترطا عليه الشروط الجامعة بينها وبين المشروط ، فقبل ورضي ، وأجاب حين دعي بعد استخارة الله الذي بيده الخيرة ، والاستعانة بحول الله الذي من آمن به شكره ...» .

وتستمر الوثيقة بعد ذلك ، مشتملة على وصايا من أهمها تخصيص سبعة عشر ألف فارس من جيش المرابطين ، لبلاد الأندلس توزع بين أهم مراكزها لحمايتها من عدوان النصارَى .

وبعد وفاة يوسف سنة 500 جددت البيعة لعلي في مراكش بوصفه أميرا للمسلمين بعد أن نصب في عهد والده ولياً للعهد ، أما تاشفين فقد بويع وليا للعهد سنة 533 [55] وتم تجديد بيعته كامير للمسلمين سنة 537 ثم ولي عهده ابراهيم ابنه بوهران سنة 538 إلا أن إبراهيم هذا خلعه اللمتونيون في ظروف غامضة وولوا مكانه إسحق بن علي وهو دون البلوغ .

---

(55) نص ولاية العهد من يوسف لولده في صبح الأعشَى . 10 ، 160

ومن المؤكد أن بيعة الملوك وأولياء العهد أيام المرابطين كانت تجري في منتهى البساطة[56] وتتم عادة بعد استشارة مجموعة هامة من الفقهاء والشيوخ ، حتّى ان يوسف بن تاشفين نفسه لم ير الفقهاء الأندلسيون صحة بيعته إلا بعد أن أخذ عهداً من الخليفة المستنصر. وعلى العموم فقد كان ولاة العهد ممن ترشحهم خدماتهم وكفاءتهم لأمرة المسلمين ، وكانت الأندلس ميدانا لتجربتهم حيث شارك في إدارتها على التوالي كل من علي وتاشفين وابراهيم.

ومن مميزات المرابطين أنه لم يحدث بينهم نزاع مسلح على عرش المغرب ، لأن خدمة الدين والوطن كانت تحدوهم أكثر مما كانت تحدوهم السطوة ومظاهر الملك. وسنرَى بعد هذا ما هو الدور الذي كان يلعبه الوزراء ، ونتعرف على بعض عناصر شخصيتهم من خلال سيرتهم.

الـوزراء

كان للمرابطين وزراء مركزيون ووزراء إقليميون. غير أنه من المبالغة أن يقال بأنه كان للوزراء المركزيين نفوذ يستحق الذكر. وسأرجع إلى هذه النقطة بعد قليل.

فالوزراء المركزيون كانوا يقيمون بمراكش ، بوصفها عاصمة البلاد التابعة لنفوذ المرابطين ، أما الاقليميون فكانوا تابعين للأمراء المحليين بالأندلس وسيأتي الحديث عنهم في محله. وإذا استعرضنا أسماء الوزراء الذين عملوا إلى جانب ملوك المرابطين ، نجد أغلبيتهم من الأندلس وبعضهم من المرابطين كوزراء تاشفين بن علي[57] ، وكبعض وزراء علي ، وهما بنتيان بن عمر ، وابنه اسحق.

فلماذا إذاً ، كان معظم وزراء المرابطين من الأندلس ؟ لقد ذكرت في موضوع علاقات المغرب الخارجية أن اختيار هذه الشخصيات كان يهدف إلى الاسترشاد بخبرتها في سياسة الأندلس ، وخاصة لأن أغلبهم إن لم نقل كلهم سبق لهم أن عملوا إلى جانب ملوك الطوائف ، وعرفوا من خفايا الأحوال بالأندلس ما كان

---

(56) شباخ (ص 477) يقول إن الاحتفال بتنصيب ولي العهد كان يجري حسب رسوم فخمة ، ولكنه لا يوضح كيف كانت هذه الرسوم الفخمة
أما عن محتوَى وثيقة البيعة في الدول الإسلامية عامة فلينظر كتاب القلقشندي : صبح ، ص 276 وما بعدها

(57) الحلل ، ص 99

يجهله المرابطون طبعاً ، وكان اختيار الوزراء يقوم كما في سائر العالم الاسلامي حينئذ ، على كفاءتهم في الميدان الأدبي وقدرتهم على انشاء المرسلات البليغة باسم أمير المسلمين ، فأشهر وزرائهم ، ابن عبدون وابن عطية وابن أبي الخصال هم من كبار الأدباء قبل كل شيء .

على أنه من باب التجوز أن نسمي هؤلاء الشخصيات وزراء . فلقب الوزير ، لم يثبت أن المرابطين قد اتخذوه في المغرب ، وهذا على الأقل ما يمكن أن يفهم من كلام ابن خلدون في مقدمته[58] فاستعمال كلمة «وزير» هو في نظري من إطلاق المؤرخين وقد يكون من إطلاق العامة أيضاً . ورسالة ابن عبدون في الحسبة والتي استند إليها صاحب قيام دولة المرابطين في التدليل على مركز الوزير في عهد هذه الدولة ، لا تدل على اتخاذ لقب وزير كوظيف محدد الاختصاصات في المغرب . وبالاضافة إلى ذلك ، فإن المرابطين كانوا أبعد الدول عن استعمال الألقاب الفخمة ، فلم يفكروا في أن يتحلوا بها هم أنفسهم فضلا عن أن يحلوا بها موظفيهم وقد كان اختيارهم للقب أمير المسلمين كافياً للدلالة على تواضعهم وفهمهم لحقيقة الاسلام وبساطته فلم يحلوا أنفسهم بألقاب الملك والسلطنة ونحوها ؛ فإذا لقبوا بذلك ، فعلى ألسنة العامة والمؤرخين .

وإذا فقد اتخذ المرابطون كتاباً اختصوا بهم وجعلوهم من بين مستشاريهم من غير أن يطلقوا يدهم في الأمور يتصرفون فيها حسب أهوائهم . ومن المعلوم أن العرب في أيام النبي عليه السلام كانوا يرون أبا بكر يحظَى بمنزلة الوزير لدَى الملك ، فلقبوه بالوزير ورأوا عمر ينال نفس الحظوة لدَى أبي بكر أيام خلافته ، فلقبوه بالوزير أيضاً ، وكانوا في ذلك يشبهونهم بوزراء الفرس جيرانهم . وقد لاحظ ذلك الأستاذ أحمد أمين في «ظهر الاسلام» .

قلت فيما سبق : إن من المبالغة أن يقال بأنه كان للوزراء المركزيين نفوذ يستحق الذكر ، لأن أهم مستشاري المرابطين ، كانوا من الفقهاء قبل كل شيء ، والمرابطون أشد ميلا اليهم منهم إلى الأدباء الذين كانوا يكونون كبار الكتاب في عهد المرابطين ولو أطلق عليهم لقب وزير تجوزاً . ومن أهم هؤلاء الكتاب (الوزراء) :

(58) المقدمة (المطبعة البهية) ، ص 209

1) ابن أبي الخصال

مولده غير معروف بالضبط ، وقد نشأ بشقورة ودرس بها وبقرطبة . واسمه أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال ، وهو من رواة الحديث بالاضافة إلى تضلعه في الأدب . وقد اتصل بالأمير اللمتوني محمد بن داود بن عمر أمير بلنسية وناحيتها في عهد يوسف بن تاشفين. وكان هذا الأمير يعرف بابن الحاج ، وقد توفي سنة 508 وكان في أول إمارة علي قد تأخر عن بيعته فاعتقله ثم عفا عنه . وبعد وفاته التحق ابن أبي الخصال بخدمة علي .

وفي سنة 512 ، احتل الفونس الأول ملك أراغون المعروف بابن ردمير ، مدينة سرقسطة واستولى على عدة قرًى وقلاع وهدد بلنسية ، ولم يقم جنودها بانجاد إخوانهم كما هو واجبهم[59] ، فأمر علي بن أبي الخصال أن يكتب عنه رسالة إليهم ، وأمر أبا مروان (أخا الكاتب) بأن يكتب رسالة أخرى بقصد معاتبة الجنود المذكورين على تهاونهم. وفيما يلي قسم من إحدى الرسالتين وقد نسبها المعجب إلى أبي مروان ولكن الأستاذ عبد الله بن كنون[60] يرجح نسبتها إلى أخيه محمد :

«من أمير المومنين وناصر الدين ... أما بعد ، يا فرقة خبثت سرائرها وانفطرت مرائرها ، وطائفة انتفخ سحرها وغاض على حين مده بحرها ، فقد آن للنعم أن تفارقكم ، وللأقدام أن تطأ مفارقكم حين ركبتموها جلواء عارية ، وأصبحتم في أدراع عارها أمثالا سواسية . واختلط المرعَى منكم بالهمل ، فما يتميز الأنقص من الأكمل .

ثم يضيف بعد كلام طويل :

ومن لرعاة الابل بالجد المقبل ؟ لقدماً ما أذهبتم الطارف والتالد ، وعجت عجيجاً يمز جذامى المطارف .

أي بني اللئيمة، وأعيار الهزيمة؛ إلام يزيفكم الناقد، ويردكم الفارس الواحد ؟ فليت لكم بارتباط الخيول ضأناً لها حالب قاعد، لقد آن أن نوسعكم

---

(59) المعجب 170

(60) دعوة الحق بيراير 1960

عقاباً وأن لا تلووا على وجه نقاباً ؛ وأن نعيدكم إلى صحرائكم ، ونطهر الجزيرة من رحضائكم ...» .

وهذه الرسالة الطويلة جعلت الوزير الكاتب يقال من منصبه ، أو يستقيل نظراً لخروجها عن حدود اللياقة .

وعلى كل حال فيظهر أن علي بن يوسف لم يعرف مضمن الرسالة حتَّى ذاع أمرها وأصبحت محفوظة لدَى سكان الأندلس كما ذكر صاحب المعجب وهذا يدُل على أنه كان من اختصاص الكتاب في بلاط المرابطين أن يمهروا الرسائل من غير اطلاع الملك عليها أحياناً ، إلا أن موضوع المراسلة . كان يقرره أمير المسلمين نفسه .

وانسحب ابن أبي الخصال بعد اقالته إلى الأندلس ، وأقام بقرطبة حتَّى توفي سنة 570 في أيام الفتنة التي أثارها ابن حمدين القاضي ضد المرابطين ، وكان مقتل الكاتب في داره .

2) أبو بكر بن القصيرة

من كبار الأدباء وأحد كتاب المعتمد ، استدعاه يوسف بعد ضم الأندلس إلى ملكه ، وقال عنه صاحب المعجب : كان على طريقة قدماء الكتاب من ايثار جزل الألفاظ وجزيل المعاني ، وبذلك شذ عن معظم الكتاب المعاصرين له ممن كانوا يعنون بالزخرف اللفظي .

3) أبو جعفر بن عطية[61]

ولد بمراكش سنة 527 . وكتب لعلي[62] وتاشفين واسحق ، ثم انضم إلى الموحدين خلال اشتغالهم بحرب المرابطين ، وأبلَى في مقاومة المرابطين بلاء حسنا ، ثم استوزره عبد المومن بعد أن اختبر طريقة كتابته . على أن ابن عطية إذا كان قد ازداد شهرة أيام الموحدين ، فقد كان أبرز كتاب المرابطين وعاش أكثر حياته في أيامهم . وعندما توجه لقضاء مهمة سياسية من قبل عبد المومن إلى الأندلس ، كاد له حساده هناك إذ قيل إنه احتفظ بعطفه على اللمتونيين حتَّى تزوج زينب بنت علي

(61) الاعلام ج 1 والنفح ج 7 ص 110.
(62) إذا كان قد كتب لعلي، فلا ريب أن مولده سبق التاريخ المذكور بما لا يقل عن عشر سنوات.

ابن يوسف وأحسن إلى كثير منهم وما كاد يرجع إلى مراكش حتّى أقيل من الوزارة وأصبح هدفاً لمتابعة خلفه الوزير عبد السلام الكومي ، ثم اعتقل هو وأخوه أبو عقيل عطية وحملا مقيدين إلى مراكش ، ولم تجد توسلات أبي جعفر شيئا فقتل هو وأخوه سنة 553 . أما اسم أبي جعفر فهو أحمد بن محمد بن عطية القضاعي .

4) ابن عبـدون

أبو محمد عبد المجيد بن عبدون من يابرة ، كان كاتبا للمتوكل على الله من بني المظفر ، ثم كتب لسير بن أبي بكر ولعلي بن يوسف . ومن رسائله السياسية وهو يومئذ في بلاط سير بن أبي بكر ، رسالة كتبها إلى علي بن يوسف يخبره فيها بفتح شنترين من بلاد البرتغال ، والرسالة طويلة ، وقد كتبت باسم سير المذكور . ومن جملة ما ورد فيها قوله :

«...وهذه القلعة التي انتهينا إلى قرارها واستولينا على اقطارها ، أرحب المدن أمداً للعيون ، وأخصبها بلداً في السنين ، ولا يريمها الخصب ولا يتخطاها ، ولا يرومها الجدب ولا يتعاطاها ، فروعها فوق الثريا شامخة ، وعروقها تحت الثرَى راسخة ، تباهي بأزهارها نجوم السما وتناجي بأسرارها أذن الجوزا ...

ثم يضيف بعد بضع جمل :

وكانت في الزمن الغابر أعيت على عظيم القياصر ، فنازلها بأكثر من القطر عددا ، وحاولها بأوفر من البحر مدداً ، فأبت على طاعته كل الإبا ، واستعصت على استطاعته أشد الاستعصا ، ومردت مرود مارد على الزبا ، فأمكننا الله تعالى من ذروتها وأنزل ركابها لنا عن صهوتها» .

واحسبني الآن قد أعطيت صورة مجملة عن حقيقة الشخصية الوزارية في عهد المرابطين ، فهي تمثل شخصية الكاتب الأديب الذي لا يحصل على نجاح حقيقي في مهمته إلا إذا صور موضوع الرسالة تصويراً وافياً مسهباً تزينه صناعة الكتابة وزخرفها .

أما شخصية الوزير من الوجهة السياسية ، فلم تكن بارزة بروزها في عهد الموحدين أو المرينيين مثلا ، ويمكن مع ذلك ، أن نستثني حدثاً هاماً جداً في تاريخ

وزراء المرابطين ، وهو تدخل عمر بن بنتيان[63] لدَى علي بن يوسف ، حيث حال بينه وبين المهدي بن تومرت حتَّى لا يعتقله وقد دخل عليه في قصره يهاجم سلوكه وسياسته ، بالرغم من تحريض الفقهاء لعلي بمعاقبته ، ونصح مالك بن وهيب اياه باعتقاله . وهذا الحدث في الواقع ، يسجل بداية تضعضع دولة المرابطين . وعلى كل فقد كانت مهمة (الوزير) استشارية إقليمية إذا صح هذا الوصف .

وقد يتساءل : لماذا لم يكن للوزير (أو الكاتب) نفوذ سياسي ؟ الجواب واضح ، فقد كانت الأمور تناقش عادة بمحضر مجموعة من الفقهاء وشيوخ المرابطين ، والكاتب أو الوزير لا يشكل سوَى طرف في المناقشة والبت في الشؤون .

أما من الناحية الادارية ، فإن اللامركزية التي عرفها نظام المرابطين لم تتح الفرصة لوجود وزراء يتمتعون بنفوذ اداري واسع ، وسيتضح لنا ذلك من خلال الموضوع التالي :



مراكش عاصمة المرابطين

(63) الحلل الموشية

الـــولاة

كان للمرابطين بطبيعة الحال ولاة إقليميون في الأندلس والمغرب . وكان هؤلاء الولاة يعينون من لمتونة خاصة ، ومن صنهاجة عامة . وكان ينوب عن أمير المسلمين في الأندلس أمير من الأسرة المالكة أو من لمتونة عامة . وهكذا تولى الأندلس بالنيابة كل من علي بن يوسف ، وتاشفين بن علي وابراهيم بن تاشفين قبل أن يتولوا الملك ، كما كان من هؤلاء النواب سير بن أبي بكر وأبو طاهر تميم . وكان بالمغرب أيضاً نواب عامون عن أمير المسلمين ، يقيمون بفاس وممن تولوا هذه النيابة تميم بن يوسف وأبو عبد الله بن الحاج[64] . وكانت سلطة النائب عسكرية سياسية فسير بن أبي بكر هو الذي نفى المعتمد بن عباد إلى المغرب ، مع أنه لم يتلق بشأنه أمراً صريحاً من يوسف بن تاشفين[65] وكان من مهامه النظر في المظالم والشكايات ، أما المغرب الأوسط ، فكان تابعاً لسلطة عامل تلمسان الذي يخضع لنفوذ نائب المغرب أو أمير المسلمين .

وكان تحت سلطة النائب عمال الأقاليم الذين يليهم في الرتبة ولاة محليون ويتمتع العمال بنفوذ عظيم في عمالاتهم ، وبينما تمدنا المراجع بمعلومات لابأس بها عن عمال الأندلس ومقاطعاتهم ، فإن معلوماتنا عن عمالات المغرب غير وافية ، إذ نجد أن عددها لم يكن يتجاوز خمساً أو ستاً رغم ضخامة المساحة، وهو تقريباً نفس العدد الذي كانت تتكون منه أقاليم الأندلس ، وهي إشبيلية وغرناطة ومرسية وقرطبة وبلنسية وسرقسطة أما أقاليم المغرب فنعرف منها فاساً وسجلماسة والسوس وتلمسان والصحراء ، بينما تولى الجزائر الشرقية بنو غانية ، وكانت سبتة وطنجة تكونان إقليما واحدا .

ومن أشهر عمال الأندلس ، أبو بكر بن ابراهيم وتميم بن يوسف وعبد الله بن فاطمة ببلنسية وسير بن الحاج وأبو بكر بن علي وعثمان بن بدر بغرناطة وعبد الله بن مزدلي والمنصور بن الحاج بقرطبة وأبو بكر بن مزدلي وسير بن أبي بكر وأبو بكر بن مزدلي باشبيلية[66] .

---

(64) الاستقصا ج 2 ص 57

(65) الاستقصا 2 ص 49

(66) انظر توزيع عمالات الأندلس في عهد علي بن يوسف ، قلقشندي ، 5 ، 258 .

ومن عمال المغرب أبو بكر بن ابراهيم بالصحراء وإبراهيم بن أبي بكر بسجلماسة ، وأبو بكر اللمتوني بالسوس ومحمد بن تينغمر وأخوه تاشفين بتلمسان التي تولاها أيضاً أبو بكر بن مزدلي في عهد تاشفين بن علي .

وكان من المعتاد حدوث تنقلات بين آن وآخر في سلك المرابطين حذراً من استبدادهم. ففي عهد علي بن يوسف مثلا، نجد محمد بن الحاج قد تنقل في أقل من سنتين بين قرطبة وولاية المغرب عموماً وإقليم بلنسية كما تنقل أبو بكر بن ابراهيم بين سرقسطة وبلنسية وغرناطة ، وعبد الله بن فاطمة بين بلنسية وإشبيلية ، وأبو عبد الله بن الحاج بين بلنسية وسرقسطة وقرطبة وهكذا .

وكانت العادة تجري بان يعين العامل بعهد مكتوب باسم أمير المسلمين ، ويقرأ أمام الجمهور في المسجد الجامع ، كالعهد الآتي ، الذي عين بمقتضاه على سبتة ، يحيَى بن أبي بكر : [67]

«...كتابنا أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه ويسركم لما يرضاه وأسبغ عليكم نعماه ، وقد رأيت الله فضله يقرن جميع آرائنا بالتسديد ولا يخلينا في كافة أعمالنا من النظر الجميد . أن نولي أبا زكريا يحيَى بن أبي بكر محل ابننا الناشئ في حجرنا ، أعانه الله وسدده فيما قلدناه إياه من مدينتي فاس وسبتة وجميع أعمالها حرسها الله على الرسم الذي تولاه غيره قبله ، فانفذنا ذلك له ، لما توسمناه من مخايل النجابة قبله ، ورضيناه بمن نرجو أن يحتذيه ويمثله ويجري عليه قوله وعمله ، ونحن من وراء اختباره، والفحص عن أخباره لأنَيْني بحول الله في امتحانه وتجريبه، والعناية بتخريجه وتدريبه ، والله عز وجل يحق مخيلتنا فيه ، ويوفقه في سداد القول والعمل إلى ما يرضيه .

فإذا وصل اليكم خطابنا فالتزموا له السمع والطاعة ، والنصح والمشايعة جهد الاستطاعة ، وعظموا بحسب مكانه منا قدره ، وامتثلوا في كل عمل من أعمال الحق نهيه وأمره» .

وكانت سلطة العمال واسعة تعطيهم حق التصرف في عزل وتعيين من دونهم من الولاة المحليين[68] والقيام بتحركات عسكرية داخل مناطق نفوذهم وكان العامل

(67) قلائد العقيان 112

(68) المرجع المذكور ص 112 . وانظر ظهير تعيين وال في صبح 10 . 300

يستعمل راية الدولة السوداء ويظهرها في وقت الحرب ، وقد احتفظ بنو غانية بنفس الشعار[69] . وبلغ من قوة شخصية أحد العمال أن ضمن عفو أمير المسلمين مقدماً لثائر خطير من الأسرة المالكة . ذلك أنه بعد وفاة يوسف بن تاشفين سنة 500 امتنع حفيده من مبايعة عمه علي واعتصم بفاس وطالب بالبيعة لنفسه ثم عزم على قتال أمير المسلمين ، لولا عدم موافقة أهل المدينة على ذلك . فلم يجد بدا من الفرار إلى مزدلي بن تيلكان حيث اتصل به في وادي ملوية ، وكان مزدلي عاملا على تلمسان ، فضمن له عفو علي بن يوسف إذا هو سلم بمبايعته ، وعمل أمير المسلمين برغبة هذا العامل الجريء[70] .

وكان العمال يحيطون أنفسهم بمجموعة من الكتاب الذين أتيح لبعضهم أن يلتحقوا بعد ذلك بخدمة أمراء المسلمين ، فعبد المجيد بن عبدون كان كاتباً لسير بن أبي بكر ثم كاتباً لعلي بن يوسف ، وكان ابن أبي الخصال كاتباً لأمير بلنسية محمد ابن الحاج ثم أصبح كاتبا لعلي بن يوسف وكان أبو بكر بن الصانع كاتباً لأبي بكر ابن ابراهيم أمير سبتة وفاس وبلنسية. وكثير من أمراء الأقاليم والأسرة المالكة كانوا على شيء كثير من العلم كالمنصور بن الحاج الذي جمع بين الأدب والفقه وتلقّى عن علماء أجلاء كأبي علي الصدفي وأبي بحر الأسدي ووصفه ابن الأبار بأنه «فخر صنهاجة»[71] وكأبي بكر بن تيفلويت الذي كان أديباً يجمع مجلسه كثيراً من الأدباء والشعراء ، وعمر بن إمام الصنهاجي الفقيه أمير المرية .

وقد حاول بعض عمال وولاة المرابطين أن يحتفظوا بما تحت أيديهم من أقاليم بعد تسلط الموحدين عليهم ، وكان ذلك منهم أملاً في إحياء مجد المرابطين وسطوتهم ، غير أن الظروف لم تواتهم وكان آخر ولاة الأندلس من المرابطين يحيَى بن غانية الذي ضايقه الزحف الاسباني على ما بيده ، فاضطر إلى التنازل وتسليم الأمر للموحدين سنة 543 . أما في المغرب فكان آخر من استسلم من أقاليمه ، مدينة مكناس التي كانت عبارة عن مجموعة من البساتين والحارات وقد أبدَى والي هذه المدينة وسكانها بسالة عجيبة أمام حصار الموحدين الذي استغرق سبع سنوات ، وهو

---

(69) حميري ، روض ، ورقة 92
(70) الاستقصاء 2 ص 56
(71) ابن الابار ، التكملة ج 1

وقت لم يقضوه في فتح بلد آخر غيره . ولما كانت قصة هذا الاستسلام فريدة في نوعها فإني أوردها فيما يلي مع شيء من الايجاز[72] .

لم تكن المدينة مسورة في بدايتها ، وكان واليها يدر بن ولجوط يسكن قصراً بربرياً تداعَى إلى الخراب . حتَّى إذا ظهر خطر الموحدين بالمغرب بَنَى الوالي حصناً بغرب وادي فلفل . وفيما هو في بنائه تلقَّى أنباء زحف الموحدين نحو مكناس حتَّى اضطر إلى إقامة جانب من سوره بالأهوية المتخذة من الدوم . وقاتل السكان دون هذا السور حتَّى أكملوه بالبناء ، وتم بناء أحد أبراجه في ليلة واحدة ، ثم نقل إلى الحصن وجوه السكان وبدأت المدينة تقيم سوقاً عامة أسبوعية بجانب الحصن سُمِّيَ سوق الغبار ، وفي أحد أيام السوق دهاهم الموحدون في زي المرابطين فظنوهم إخواناً لهم حتَّى انقضوا عليهم بسيوفهم ، وكادوا يفنونهم ، ثم أقام الموحدون خندقاً حول المدينة فهاجمهم المرابطون حتَّى تراجعوا وأقاموا خندقاً ثانياً ليحموا أنفسهم . ومازالوا يتراجعون حتَّى أكملوا سبعة خنادق . ولما طال الحصار بعث عبد المومن رسولاً يستفسر عن أسباب ذلك ، ولم يجد من صغر المدينة ما يستدعي هذا التماطل ، وفيما هو يتحدث مع قائد الجيش في كيفية الوصول إلى الحصن ، انفتح بابه وخرج منه عشرة فرسان ثم تلاهم عشرة آخرون وهكذا حتَّى اكتملوا خمسين فارساً ، فهجموا على الموحدين وبطشوا بكثير منهم ، فاستغرب الرسول هذه الجرأة . وخلال الحصار مات تاشفين بن علي أمير المسلمين في ناحية تلمسان ، وفنيت المؤن حتَّى أكل الناس خسيس الحيوان ولم يبق للموحدين غير مكناس في المغرب كبلد لم يفتح . واضطر يدر عندئذ إلى تسليم المدينة ونجا بخمسين فارساً معه سنة 545 وعندما دخل الموحدون المدينة وضعوا السيف في رقاب أهلها طيلة يوم كامل .

القضـــاة

كان لمنصب القضاء أهمية كبيرة في عهد المرابطين، حتَّى إنهم كانوا يعينونهم في أغلب الأحيان من كبار العلماء كابن رشد وابن حمدين في الأندلس، وعياض السبتي وعبد الملك المصمودي في المغرب، وكان من واجب القضاة أن يطلعوا مقدماً على الشؤون التي تهمهم في ميدان القضاء قبل أن يقدمها الوزير إلى أمير

(72) ابن غازي، الروض الهتون ص 5 وقد ناقش الفقيه ابن زيدان قضية حصار مكناس ورد على ابن غازي في عدة نقط تتعلق ببناء مكناس وذلك في اتحاف اعلام الناس ج 1.

المسلمين ، وهكذا «رد يوسف أحكام البلاد إلى القضاء ، وأسقط ما دون الأحكام الشرعية ، وكان يسير في أعماله فيتفقد أحوال رعيته كل سنة»[73] .

وكانت سياسة المرابطين في تعيين القضاة لا تستند على عصبية قبلية كما فعلوا في تعيين العمال ، حتّى إن أغلب القضاة كانوا من غير صنهاجة كعبد الرحمن الكتامي وعبد الملك المصمودي بمراكش ومحمد التميمي وعبد الله التادلي بفاس وعيسَى الأسدي بمكناس وأبي القاسم المعافري بالجزيرة الخضراء وعبد العظيم الكلبي بغرناطة وأحمد التميمي باشبيلية .

وكانت هذه السياسة في اختيار القضاة حكيمة ، حيث برهنوا بها على رغبتهم في تحقيق العدالة بين عموم السكان والاعتماد على تعاليم الكتاب والسنة في تطبيقها على الرعية من غير ميز عنصري أو طائفي . أما تعيين العمال من صنهاجة وحدهم تقريبا ، فيدل على ضمان مراقبة الدولة وتسييرها لشؤون السكان عن كثب ، حتّى لا تقع الدسائس وتحاك الانقلابات ضد الدولة من العناصر القبلية الأخرى فيما لو سلمت اليها ادارة الشؤون السياسية .

ومن الحق أن يقال إن المرابطين قد وجدوا أساساً قوياً يرتكزون عليه في تنظيم القضاء ، سواء بالأندلس أو بالمغرب ، فالأمويون قد نظموا القضاء بالأندلس تنظيما محكماً وفصلوا بين السلطة الادارية والقضائية ، حتّى كان من الميسور أن يحكم القاضي على الملك نفسه[74] ، كما أحدثوا ألقاباً إدارية في القضاء كالمسدد وقاضي الجماعة وقاضي الرد . ولما جاء المرابطون أخذوا كثيراً من النظم القضائية الأموية وطبقوها سواء بالمغرب أو الأندلس ، واتسمت الاجراءات القضائية في عهدهم بسرعة البت والبساطة ، ولكنهم منحوا القضاء رتبة عظيمة في الدولة حتّى كثرت أموالهم واتسعت مكاسبهم[75] وكان في وسعهم أن يتدخلوا في اختيار العمال وعزلهم كما فعل ابن رشد عندما طالب علياً بعزل تميم أخيه من نيابة الأندلس[76] .

وكان تعيين القضاة يتم بعهد من أمير المسلمين أو نائبه[77] . وكان كل من

(73) Lévi Provençal, Extraits des historiens p.31

(74) نفح ، I ، 203

(75) المعجب ، 171

(76) الحلل الموشية 80 وانظر ظهير تولية قاض في صبح الأعشَى ، 10 ، 303

(77) المعجب ، ص 171 ، مقري أزهار الرياض ، 156

قاضي مراكش وقاضي قرطبة يدعَى بقاضي الجماعة ، ولا يعرف مصدر هذا اللقب ، الذي كان يطلق أحياناً على قضاة المدن الرئيسية عموماً ولكن يبدو أن المقصود منه جماعة المسلمين أو جماعة القضاة بكل من العدوتين . وكانت سلطة قاضي الجماعة أو قاضي الحضرة كما كان يدعَى أحياناً ، قوية بحيث كان يتعين على أمير المسلمين أو نائبه أن يستشيره في تعيين غيره من القضاة وكان من اختصاصه رسمياً أن يعزل من استحق العزل من العمال[78] أو على الأقل كان له حق المطالبة بعزلهم .

وكان للقاضي فقهاء مستشارون وعددهم أربعة . واتخذ هذا النظام منذ عهد علي بن يوسف . وكان اثنان من هؤلاء الأربعة يلازمان القاضي ليستشيرهما في إصدار الأحكام ، واثنان يختصان باصدار المشورة للمتنازعين والمستشيرين وكان تحت نظر القاضي مجموعة من الوظائف والموظفين القائمين عليها .

ومن حق القاضي أن لا يعمل برأي مستشاريه الذين ينبغي أن يكون عملهم الاستشاري مناوبة ، أما مهمة الوكيل فقد نصح ابن عبدون بإلغائها ما لم تتوفر شروط الفضل والنزاهة فيه[79] .

الحسبة

وهي نظام عرفته الأندلس منذ أيام الأمويين . وكانت قبلهم في العالم الاسلامي تضاف إلى أعمال الوالي أو القاضي مباشرة . وقد حدد ابن خلدون في مقدمته وظيفة المحتسب الذي كان من اختصاصه مراقبة وسق البضائع في السفن ، والنظر في شؤون الأسواق وأسعارها ومراقبة الطرق التربوية في الكتاتيب ، وقد تناقصت هذه الاختصاصات مع الزمن حتّى أصبحت في الأخير مقصورة على مراقبة التموين والأسعار والموازين .

وكان على المحتسب بحكم وظيفته أن يؤدب الغشاشين والذين يزيدون في أسعار المواد كما كان يحدد ثمن المبيعات ويطالب الباعة بوضع ورقة تبين سعر كل بضاعة . وكان عليه أن يراقب وزن الأرغفة التي كان يحدد هو نفسه وزنها الرسمي كما تفعل

---

(78) النباهي ، المرقبة العليا ، ص 97

(79) Provençal, Séville musulmane, p.18

الحكومات اليوم[80] . وقد وضع ابن عبدون رسالة دقيقة تبين اختصاصات المحتسب في القرن الخامس أي في عهد المرابطين .

1) مراقبة الأحباس وبيت المال

2) تعيين خطباء وأئمة المساجد .

3) القيام بالتغييرات اللازمة في المساجد والمباني العامة باتفاق مع أمير المسلمين ، كما فعل قاضي فاس سنة 529 حيث زاد في مسجدها الجامع[81] . والقاضي عياض الذي زاد في جامع سبتة من جهته الغربية .

4) **القضاء المدني**

وكان صاحب هذه الخطة يدعَى بصاحب الأحكام ، وكان اختصاصه يهدف إلى الفصل في المنازعات التي لا علاقة لها باختصاصات العمال والتي يمكنه البت فيها بسرعة من غير أن تكلفه اجراءات شرعية .

هذه كانت اختصاصات القاضي الذي كان من حقه تعيين وعزل الموظفين القائمين بها ، وكان من حقه أن يتدخل فيها مباشرة إذا اقتضَى الحال كما فعل عبد الحق بن معيشة بفاس حيث أراق الخمر وكسر الدنان وشدد على أهل المدينة[82] .

وكان القاضي يتخذ محكمته في المسجد ، وله أعوان وحجاب على بابه[83] وكان من بين الموظفين العاملين تحت نفوذه كاتب خاص قد يؤهله منصب الكتابة للقضاء ، فعيسَى بن سهل الأسدي قاضي مكناس ثم طنجة ، كان كاتباً لبعض القضاة[84] ، والذين لم يتولوا خطة الكتابة قبل القضاء كان فيهم من يتولى قضاء الأحكام أو الشورَى كالقاضي عياض الذي تولى الشورَى في سبتة قبل منصب القضاء .

---

(80) نفح الطيب 1 ص 203

(81) البيان 1 ص 449

(82) البيان ، الصفحة المذكورة

(83) نفح الطيب 4 ـ 250

(84) انظر اسماء وتراجم عدد من قضاة المرابطين في ابن الأبار ، تكملة ، 1 ، 314 و2 ، 676 ، 698 ، 915

وكما كانت الأندلس منقسمة إلى ثلاثة أقاليم رئيسية منذ عهد علي بن يوسف على الأقل ، فإن كل إقليم كان له قاض أكبر قد يطلق عليه لقب قاضي القضاة أو قاضي الجماعة ، بقطع النظر عن قاضي الجماعة بكل من قرطبة ومراكش[85] ، ومركزهما أقوَى من نفوذ باقي القضاة كما مر .

أما المظالم فلم يكن يختص بها موظف معين ، وكانت مبدئيا من اختصاص أمير المسلمين بطبيعة الحال ، أو نائبه أو قاضي الجماعة الذي كان يتعين عليه أن ينصف الناس من ظلم الولاة . وهذا ما يستجيب لمطالب رجال العلم والنظم الإسلامية .

وتبقَى بعد ذلك مسألة استئناف الأحكام التي كان يصدرها القضاة . فمن المعلوم أن الأمويين كانوا قد أنشأوا خطة الرد في الأندلس لاستئناف أحكام القضاة . على أن هذا الوظيف ظل موجوداً في الأندلس أيام المرابطين ، وممن تولاه عبد الله اللخمي الاشبيلي[86] ، بيد أن علماء الافتاء أصبحوا مقصد كثير ممن يرغبون في حل مشاكلهم التي تستعصي على القضاة أو لا يتسع وقتهم للبت فيها . وممن تصدر للافتاء أيام المرابطين علي بن طويل الفاسي تلميذ الخشني وكذلك علي ابن الحسين اللواتي الذي جمع بين القضاء والفتوَى بفاس ، وعمر ما يقرب من مائة سنة وتوفي سنة 573 .

وكما كانت تحدث تنقلات في سلك العمال والولاة كانت تحدث تنقلات أخرى في سلك القضاة سواء بالمغرب أو بالأندلس . وقد يتبادل قضاة البلدين لأن التشريع موحد ، فعبد العظيم الخولاني الغرناطي تنقل بين قضاء دكالة وسجلماسة وغرناطة وجيان ، وعبد الرحمن الكتامي تنقل بين قضاء الجزيرة الخضراء وسلا ، وعياض السبتي تنقل بين قضاء غرناطة وسبتة وهكذا ...

على أن منصب القضاء لم يكن مجرد منصب ديني في عهد المرابطين ، خصوصاً بالنسبة لكبار القضاة ، ذلك لأن السياسة والدين ارتبطتا في عهد هذه الدولة أشد ارتباط ، وقد رأينا كيف تدخل بعض القضاة في الشؤون السياسية إلى جانب الفقهاء خاصة بالأندلس[88] . ومن غريب الاتفاق أن نجد قاضيين يعلنان

(85) قيام دولة المرابطين 367

(86) صلة الصلة 114

(87) صلة الصلة 147

(88) Voir, L.Provençal, Séville au XIIe siècle, p.29

في وقت واحد ثورة خطيرة يوجهها أحدهما ضد المرابطين في الأندلس ، والثاني ضد الموحدين في المغرب . وهذان القاضيان هما ابن حمدين وعياض .

أما ابن حمدين ، فكان قد تولى قضاء قرطبة أيام علي بن يوسف الذي عزله بعد مدة وولى مكانه ابن رشد ، غير أن هذا سرعان ما استعفى وتعطلت الأحكام بقرطبة سنة ثم عين ابن حمدين من جديد سنة 536 واستمر قاضياً إلى سنة 539 ، وكانت الأمور قد اضطربت على المرابطين في المغرب ، فانتهز أهل قرطبة هذه الفرصة وخلعوا دعوة المرابطين وولوا عليهم ابن حمدين سنة 539 وأصبح يسمى أمير المسلمين وناصر الدين ! وقام خلال حكمه بتدوين الدواوين وتنظيم الجيش واستمر في عمله هذا مدة 11 شهراً ، ثم تسلط عليه يحيى بن غانية سنة 540 فحاصره حتى استغاث بالقشتاليين الذين فضلوا مسالمة ابن غانية حتى يقف في وجه الموحدين ، ثم التجأ ابن حمدين إلى القشتاليين واتصل بعد ذلك بعبد المومن الذي رحب به حتى إذا توفي سنة 546 بمالقة ، نبش الموحدون قبره وصلبوه ميتاً عدة أشهر ! [89] .

وأما عياض ، فهو أشهر قضاة المغرب كما كان ابن رشد أشهر قضاة الأندلس ، وكلاهما تعتبر سيرته في القضاء المثل الأعلى لهذا المنصب الذي كان لا يتولاه أيام المرابطين في أغلب الأحوال، إلا من ثبتت كفاءته ونزاهته. ولأبرهن على ذلك، أسوق فيما يلي ترجمة موجزة لكل منهما ، بوصفهما أعظم قضاة المرابطين :

1) عياض السبتي[90] 476 – 544 / 1083 – 1149م

أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي من أهل سبتة ، تلقى دراسته الأولى بهذه المدينة على القاضي ابن عيسى والفقيه أبي إسحق الفاسي وغيرهما ، كما تابع دراسته بالأندلس والمشرق على القاضي أبي بكر بن العربي وأبي الوليد ابن رشد وأبي بحر الأسدي والمازري وابن الحاج وعشرات غيرهم ثم جلس للمناظرة بسبتة ،

---

(89) اعمال الاعلام لابن الخطيب ج 2 ص 291

(90) ازهار الرياض ج 3 مقدمة ترتيب المدارك ، نشر وزارة الأوقاف بالمغرب ، وهناك عدة كتب أوردت ترجمة عياض منها ترجمة خصصها له أحد أنجاله ، ونبذة وردت في كتاب ابن بشكوال ، صلة 2 ، 428 الخ . وانظر بحثا للأستاذ محمد الفاسي ، الثقافة المغربية ، أكتوبر 1941

وتولى بها خطة الشورَى ثم خطة القضاء سنة 515 وكان من أعماله بسبتة ، بناء رباطها بجبل المينا . وفي سنة 531 تولى قضاء غرناطة ، وكان شديدا في سبيل أخذ الحق لأهله ورد الظلم عن المظلومين ، ولم يكن يراعي في ذلك حتَّى وجوه المرابطين أنفسهم ، مما جعل علي بن يوسف يفصله عن قضاء غرناطة ، ثم عاد مرة ثانية إلى سبتة حيث ولاه قضاءها من جديد ابراهيم بن تاشفين . واحتفظ عياض بولائه للمرابطين إلى آخر لحظة من حياة دولتهم وهيأه منصبه للثورة ضد الموحدين وعدم الاعتراف ببيعتهم حتَّى إن عبد المومن لم ينل من سبتة شيئاً في بداية الأمر ، ثم اعترف أهلها ببيعته بعد مقتل تاشفين بن علي سنة 539 . غير أن ثورة خطيرة نشبت بسبب قيام سلوي يدعى محمد بن هود الماسي الذي استولى على معظم المغرب ، فانتقضت سبتة بدورها بزعامة عياض وقتل أهلها عامل الموحدين سنة 542 ثم توجه عياض إلى الأندلس فبايع يحيَى بن غانية وطلب منه والياً على سبتة[91] ، فبعث معه يحيَى بن أبي بكر الصحراوي . وانتهَى الأمر باستيلاء الموحدين على سبتة وكانت آخر مدينة استولَى عليها الموحدون بالمغرب ، كما كانت آخر مدينة افتتحها المرابطون بهذه البلاد . غير أن عبد المومن سلك سياسة العفو حيال يحيَى الصحراوي والقاضي عياض الذي نقله إلى تادلا ولكنه لم يلبث أن التحق بربه في مراكش سنة 544هـ .

وقد ترك عياض مؤلفات كثيرة ، وكانت ثقافته دينية في جملتها ولكنه كان يجيد الأدب أيضاً . ومن مؤلفاته : 1) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك . 2) الشفا بتعريف حقوق المصطفَى . 3) مشارق الأنوار في تفسير غريب الحديث .

2) أبو الوليد بن رشد 450 – 520 / 1058 – 1126م

محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد ، من كبار فقهاء الأندلس وقضاتها ولد سنة 450 ودرس على أجلة علماء الأندلس كأبي جعفر بن رزق ، وابن الطلاع وأبي العباس العذري وغيرهم ، ووجه عنايته نحو الفقه وأصوله على مذهب مالك . وتولى قضاء الجماعة بقرطبة في عهد علي بن يوسف سنة 511 ثم استقال من منصبه هذا سنة 515 وكان مع ذلك عزيز الجانب لدَى المرابطين وأهل الأندلس على السواء .

(91) ابن خلدون ، 6

وصفه القاضي عياض في كتابه الغنية بأنه «زعيم فقهاء وقته بأقطار الأندلس والمغرب ومقدمهم المعترف له بصحة النظر وجودة التأليف ودقة الفقه»[92].

وابن رشد هو الذي تدخل لدَى علي بن يوسف باسم سكان الأندلس حتَّى يغرب النصارَى المعاهدين القاطنين بغرناطة، إذ خانوا العهد باستقدامهم لابن ردمير ومساعدتهم له ضد المسلمين، فغربهم إلى سلا ومكناس وغيرهما[93] وهو الذي أفتاه بتسوير مدينة مراكش، وقال القاضي عياض عنه: «جالسته كثيراً. وسألته واستفدت منه»[94] ومن المعلوم أن ابن رشد أكبر سناً من عياض رحمهما الله معاً.

وألف ابن رشد مجموعة قيمة من الكتب، من أهمها «البيان والتحصيل» في 20 جزءاً و«المقدمات» و«بداية المجتهد» وهو من أجود كتب الخلاف العالي. وكانت وفاة ابن رشد سنة 520 ومن عقبه، الفيلسوف المشهور ابن رشد.

الجيــش

كان يتكون في بدايته من المرابطين، إلا أن الحروب المتوالية جعلت عدده يتناقص[95] بالاضافة إلى أن أساليب الحرب في الأندلس جعلت المرابطين يستعينون بعناصر أجنبية ومحلية. وفي عهد علي بن يوسف دخلت عناصر مسيحية من إسبانيا وكان من أشهر قادة المرابطين الذين صمدوا للدفاع ضد الموحدين الروبرتير

ولم يكن للمرابطين ديوان خاص بالجيش على ما يظهر، فكانت الجيوش تحشد بواسطة العمال والقواد عندما تدعو الضرورة إلى ذلك. غير أنه كان يوجد مع ذلك جيش نظامي قار لحماية الثغور والمدن والبوادي حتَّى إن قطاع الطرق واللصوص الذين كانوا منتشرين في بعض أنحاء المغرب أيام الفتن والاضطرابات في أواخر عهد الزناتيين، انقطع أثرهم أيام المرابطين[96].

وهكذا فقد كان جيش المرابطين يتكون في أيام الحروب من متطوعة ومرتزقة. وكان أمير المسلمين يستعرض جيشه أحياناً قبل القتال، كما فعل يوسف بن تاشفين

---

(92) الاعلام ج 2 ص 356.

(93) الحلل 75.

(94) الاعلام ج 2.

(95) طيراس 1 ص 248.

(96) الروض الهتون لابن غازي.

الذي استعرض 20 ألفاً من الجند المحاربين في الزلاقة وكان الاستعراض أمام حصن الرقة [97] .

شاركت كثير من العناصر في جيش المرابطين ، وكان بين هذه العناصر السودان أو العبيد كما كانوا يسمون أحياناً [98] ، وكان السودان يشكلون حرسهم الخاص ، ويشتركون في الحرب أيضاً .

ومن عناصر الجيش المرابطي ، الصقالبة الذين سبق أن استخدمهم الأمويون وملوك الطوائف قبل المرابطين . وقد اخلصوا في خدمة الدولة حتّى إن قائدهم المشهور الروبرتير قتل أثناء النضال ضد الموحدين . وكان ادخال هذه العناصر في الجيش يهدف إلى غرض تقني أكثر من أي شيء آخر . فقد اعتاد البربر القتال بواسطة الكر والفر [99] واعتاد الأفرنج الثبات في الزحف فاضطر المرابطون في قتالهم للاسبانيين إلى أن يحاربوهم بنفس طريقتهم وبالتالي فقد تعين على المرابطين أن ينظموا خططهم الحربية ، طبقاً للظروف المكانية ولجأوا إلى الاستعانة بالصقالبة المسيحيين في حماية الحصون التي أقاموها لحراسة المصامدة [100] .

وقد سمحت الدولة للنصارى مقابل هذه المهمة التي يقومون بها في ظلها ، أن يشيدوا الكنائس والأديرة لاقامة صلواتهم [101] .

ودخل في جيش المرابطين أيضا فرقة من الغز الأتراك بالاضافة إلى قبائل صنهاجة على اختلافها والمصامدة وجزولة وزناتة [102] .

وكان عدد الجيش يتراوح بحسب الظروف الزمانية والمكانية ففي سنة 453هـ كان عدد الجيش يبلغ 40 ألفاً ثم ارتفع إلى 100 ألف بعد سنة واحدة ، وبهذا الجيش تمكن المرابطون من تتميم فتح المغرب . وكان عدد الجيش الاسلامي الذي شارك في حرب الزلاقة يبلغ 20 ألفاً على رواية المعجب . وكان من الشروط التي رشح علي

---

(97) المعجب 132

(98) الحلل الموشية 48

(99) مقدمة ابن خلدون 238

(100) قيام دولة المرابطين 381

(101) طيراس 1 ، 248

(102) الاستقصا ج 2 ص 25

بموجبها لولاية العهد أن يترك لحماية الأندلس جيشاً قاراً يتألف من 17 ألف فارس منها 7 آلاف لاشبيلية ، وألف لقرطبة و4 آلاف لشرق الأندلس والباقي وهو 5 آلاف يوزع بين سائر الثغور والحصون[103] .

أما رواتب الجيش النظامي فكانت 5 دنانير شهرية لكل فارس مع نفقته وعلف فرسه ، وتركت الثغور في الأندلس لأهلها في الغالب إذ كانوا أعرف بمواطن الضعف لدَى الأعداء ، من غيرهم ، وكان المرابطون يزودونهم بالخيل كلما توفر لديهم منها شيء[104] .

أما أدوات الحرب وأسلحتها ، فقد كانوا يستعملون للركوب الابل والخيل ، وللقتال الدرق اللمطية وسيوف الهند ومزاريق الزان[105] ، وكذا السهام والمطارد والرعادات[106] . كما يضربون في الطبول وينفخون في البوقات . والغالب أن الضرب على الطبول أخذوه عن السودان جيرانهم الأصليين ، ومازلنا نشاهد القبائل البدائية في افريقيا تقرع على الطبول في أفراحها وولائمها .

وكان قتال المرابطين في البداية بالابل ، ثم أضافوا إليها الخيل وأستكثروا منها في الأندلس . وكان قتالهم في الغالب راجلين ، يقفون صفاً وراء صف ، ويتقدم الصفوف العبيد الذين كانوا يحملون القنا الطوال[107] والدرق اللمطية والسيوف الهندية[108] ، وكان هؤلاء العبيد وغيرهم من الجنود الذين ليسوا من المرابطين يدعون بالحشم ويترأسهم قائد منهم[109] ، وفي المقدمة حامل الراية الذي يشير إليهم بها ، فإذا نصبها وقفوا وإذا أمالها جلسوا . وكان يقف وراء الصف المذكور صف آخر من الرماة ، وبينما يجلس الصف الأول جاعلين ركبتهم اليسرَى على الأرض ، يظل صف الرماة واقفاً ، وهم يلبسون الدروع ، ووراء هذا الصف. الخيالة بسيوفهم ، فإذا بدأ القتال انطلقت مزاريق الصف الأول على الأعداء وتلتها سهام

(103) الحلل 65
(104) الحلل 67
(105) النفح 6 ص 101
(106) الحلل 48
(107) الحلل 11
(108) النفح 6 ص 101
(109) الحلل 59

الرماة . ثم يفتح الخيالة لأنفسهم مجالاً بين الصفين ويتسارعون للهجوم على الأعداء .

وعرف المرابطون كذلك نظام الكمين ، فقد استخدموه في حرب الاسبان لأن طبيعة البلاد ووعورتها تناسب هذا النوع من القتال. وكانت العادة أن يقدم القائد في القتال . العناصر الغير المرابطية . ويحتفظ بقوة احتياطية تتألف من المرابطين ، فإذا حصل ضعف في صفوف المسلمين المحاربين ، انقض القائد بقوته الاحتياطية على الأعداء بعد أن يكون الاعياء قد بلغ منهم مبلغه ، فيستعين المرابطون على التغلب عليهم بالمفاجأة والهجوم القوي . وإذا لم يحتفظ بقوة احتياطية ، فإن المرابطين يكونون عادة في القلب ، وأهل الثغور في الجناحين . أما الابالة فكانوا يحمون مؤخرة الجيش حتى يبقى خط الرجعة سالما فيما إذا اضطر الجيش إلى الانسحاب. وعلى العموم فقد كانت فرقة الحشم أكثر تعرضاً للخطر من باقي الفرق ، لأنهم كانوا يؤلفون الصفوف الامامية . وقد نقل صاحب الحلل الموشية قصيدة طويلة لأبي زكريا ابن العربي يحض فيها تاشفين بن علي ، على اتباع الأساليب الحربية التي كانت متبعة في تلك العهود ، والتي لا تعدو في الواقع أن تكون وصفاً حقيقياً للنظم الحربية التي عمل بها المرابطون وتقدم وصفها آنفاً . ولأهمية هذه القصيدة الطويلة ، أنقل منها الأبيات التي تهم الموضوع بشكل مباشر :

أهديك من أدب الوغَى حكماً بها ... كانت ملوك الحرب مثلك تولع
لا أنني أدرى بها، لكنها ... ذكرَى تخص المومنين وتنفع
خندق عليك إذا اضطربت محلة ... سيان تَتبع ظاهراً أو تُتبع
وتوق من كذب الطلائع إنه ... لا رأي للكذاب فيما يصنع
فإذا احترست بذاك لم يك للعدا ... في فرصة أو في انتهاز مطمع
حارب بمن يَخشَى عقابك لا الذي ... تخشَى، ومن في جود كفك يطمع
قبل التناوش عَبِّ جيشك مفصحاً ... حيث التمكن والمجال الأوسع
إياك تعبئة الجيوش مضيقاً ... والخيل تفحص بالرجال وتمرع
حصن حواشيها وكن في قلبها ... واجعل أمامك منهم من يشجع
والبس لبوساً لا يكون مشهراً ... فيكون نحوك للعدو تطلع
واحتل لتوقع في مضايقة الوغَى ... خدعاً ترويها وأنت موسع
واحذر كمين الروم عند لقائها ... واخفض كمينك خلفها إذ تدفع

لا تبقين النهر خلفك عندما تـلقَى العدو فأمره متوقع
اجعل مناجزة العدو عشية ووراءك الصدف الذي هو أمنع
واصدمه أول وهلة لا ترتدع بعد التقدم فالنكوس تضعضع
وإذا تكاثفت الرجال بمعرك ضنك فأطراف الرماح توسع

أما الرايات ، فقد كانت كثيرة العدد لدَى المرابطين ، وكانت متنوعة الألوان ، والظاهر أنه كانت توجد راية كبرَى تقدم أثناء الحرب وعلى هذا فقد كانت الرايات متعددة الالوان ، وكانت موشاة بالذهب ، وتصنع من الحرير الخالص الملون ، وكان لكل عامل رايته الخاصة ، ثم أصبحت الرايات سبعاً في عهد الموحدين وصارت رمزا للدولة الحاكمة ، ولها طقوسها أو تقاليدها الخاصة[110] .

وأتقن المرابطون في الحصار دفاعاً وهجوماً ، وكانوا في البداية يستثقلون الأسوار لأنهم ألفوا حياة الصحراء الطلقة . ومن المرجح أن رباط السينغال كان عبارة عن حصن لجأ إليه المرابطون الأولون ، ولكنه كان مركز انطلاق ولم يكن القصد منه الاحتماء ضد عدو معين ، وهكذا نرَى أن المرابطين هدموا السور الفاصل بين عدوتي فاس ، ولم يفكروا في تسوير مراكش إلا بعد أن مر على تأسيسها ما يقرب من 70 عاماً ، وبعد أن اشتد خطر الموحدين . وكذلك نجد مكناس المدينة الصغيرة لا سور لها ثم نجد هذا السور يبنَى أثناء استعداد الموحدين لحصارها ، ويتم أثناء هذا الحصار ! غير أن إهمال التحصين كان في المغرب ، وخلال أيام الاستقرار ، أما في الأندلس فقد كانت أهم المراكز مدنا وحصونا ، والكل مسور ومحصن ، فاضطر المرابطون هناك إلى إقامة التحصينات بدورهم ، كما فطنوا إليها في المغرب أيضا . وعندما كان المرابطون يحاصرون غرناطة أحاطوا بها من كل جهة حتَّى أصبحت كالنقطة في وسط الدائرة على حد تعبير بعض المؤرخين . وفي حصارهم لشنترين غرب الأندلس شنوا الغارات على ناحيتها وأقاموا سوقاً على مرأى من أهلها لبيع نسائهم وممتلكاتهم[111] . وكانت هذه الحرب الباردة أشد على سكان شنترين من الحرب الحديدية .

وأسس المرابطون مجموعة من الحصون بالمغرب ، كما أنشأوا مدناً أو قاموا

---

(110) مقدمة ابن خلدون 226

(111) المعجب 163

بتحصينها كمكناس وفاس البالي في وادي ورغة ، وفي عهد علي أقيمت حصون تحرس سفوح الجبال والأودية والممرات بالمغرب ، ومنها حصن أمركوا الذي يحرس وادي ورغة وقصبة النصراني في جنوب شرقي جبل زرهون[112] ، وحصن تاسغيموت في الأطلس الكبير ، ويحرس بلاد أوريكا .

أما قيادة الجيش ، فقد كانت في المستوَى الأعلى لأمير المسلمين أو نائبه ، ويتولى القيادة في الأقاليم العمال المحليون ، فكان الحكم بذلك عسكرياً ولكن إلى حد ما ، إذ كانت كلمة القضاء وأهل الشورَى محترمة ، أما القيادة الحربية ، فكانت في يد الولاة أنفسهم ، مع خضوعهم للقائد العام الذي هو أمير المسلمين أو نائبه كما مر .

وأغلبية قواد جيش المرابطين من رجال الدولة الحاكمة ، ومن أشهرهم سير بن أبي بكر وتميم بن يوسف وداود بن عائشة وعبد الله بن فاطمة وعمر بن سليمان المسوفي ومزدلي بن تلكان الذي قاد فتوح المغرب الأوسط . أما داود بن عائشة فقد شارك في معركة الزلاقة على رأس عشرة آلاف من المرابطين ، كما شارك في فتوح الأندلس . وكان سير بن أبي بكر قائدا عاماً لجيش المرابطين في الأندلس إثر معركة الزلاقة ، بالاضافة إلى مهمته المدنية . إذ كان نائباً عاما على الأندلس . وكان تميم ابن يوسف ممن تولى نيابة المغرب وقيادة جيوشه العامة وشارك إلى ذلك في معارك الأندلس وتولى أحد أقاليمها .

وكان من عادة أمير المسلمين أن يخبر عن انتصاراته في خطاب موجه إلى الرعية[113] .

وكان أمير المسلمين لا يشارك بنفسه في الحرب عادة ، بل يوجهها من بعيد ، فإن يوسف بن تاشفين لم يفتح سبتة بنفسه بل أرسل لحصارها ولده المعز ، كما أنه عندما عزم على خلع ملوك الطوائف أقام بسبتة ، ووجه فرقاً أربعاً من جيشه وزعها على المدن التي كان يريد خلع ملوكها ، فوجه سير بن أبي بكر لحصار اشبيلية وأبا عبد الله بن الحاج لمنازلة قرطبة وأبا زكريا بن واسينو لمحاصرة المرية وجرور الحشمي لمحاصرة الرندة . هذه رواية صاحب الحلل ، وقيل إن يوسف لم يأمر سير بن أبي بكر باتخاذ موقف معين ضد ابن عباد .

(112) طيراس 1 ص 249

(113) روض القرطاس 2 ، 62

الأسطـول :

استطاع الأمويون في الأندلس والعبيديون في إفريقية أن ينظموا أسطولاً ضخماً بلغ عدد قطعه لدَى كل من الدولتين نحو 200 ، وأصبحت جميع جزر البحر الأبيض المتوسط في ملك المسلمين ، كجزر البليار وسردانية وصقلية وقوصرة وقبرص، ثم بدأ الأفرنج يسترجعون عدداً من هذه الجزر بعد ضعف العُبَيْديين والأمويين وتقلص نفوذ الخلافة العباسية ، حتَّى تمكن الأفرنج من غزو الشام وفتح بيت المقدس ، والمهدية عاصمة العبيديين ، وضعف شأن الأساطيل لدَى الدول الاسلامية [114] عموماً ، حتَّى قيض الله لها ظهور المرابطين بالمغرب ، فاستعانوا بالأسطول على امتلاك عدة مدن من الأندلس بالاضافة إلى جزر البليار ، وهي ميورقة ومنورقة ويابسة .

وعرف المرابطون أهمية القتال البحري عندما عجزوا عن فتح سبتة ، وأمدهم المعتمد بن عباد بقطع من أسطوله ، فحاصر الأسطول المدينة من جهة البحر كما حاصرها المرابطون براً ، وذلك سنة 477هـ مع العلم بأن إنشاء عاصمة المرابطين كان سنة 454 . ومنذ ذلك العهد ، بدأ إهتمام المرابطين بالأسطول ، فعهدوا بقيادته إلى بني ميمون رؤساء قادس ، وكان عدد قطعه يبلغ نحو المائة .

ولم يفت المرابطين أن يختاروا الأندلس مقراً لأسطولهم بدل المغرب ، فخطر الأفرنج هناك أقوَى منه في المغرب ، والهجوم الأجنبي على المغرب بحراً لم يعرفه لا المرابطون ولا الموحدون ، وانما بدأ في وقت متأخر من بني مرين . وعلى كل حال ، فقد كانت المرية مركزا لقيادة الأسطول المرابطي وبها كانت ترسانتهم [115] ، وكانت من قبل مقراً لقيادة الأمويين البحرية ، وازدادت أهميتها بعدهم فأصبحت ميناء حربياً وتجارياً في آن واحد .

أما بنو ميمون فهم أندلسيون من أهل دانية ، وليسوا من لمتونة كما نقله صاحب قيام دولة المرابطين عن مرجع أجنبي ، والدليل على ذلك أن الأحوال عندما اضطربت على المرابطين بالأندلس ، قام أهل المرية ، وطردوا من كان ببلدتهم من المرابطين ، وطلبوا إلى القائد أبي عبد الله بن ميمون أن يتولى عليهم ، فرفض بحجة

(114) المقدمة 221
(115) المعجب 202 والنفح 4 ص 206

أن اختصاصه لا يعدو الشؤون البحرية[116] . وكانت قادس في الجنوب ميناء حربيا هاماً يقيم به قسم من أسطول المرابطين ، بل ربما كان القسم الأكبر من الأسطول يستقر بقادس حتَّى يكون قريباً من المغرب .

وبلغ من قوة أسطول المرابطين أن استمد عونه أمير إفريقية الحسن بن علي سنة 516 وذلك لجهاد النرمنديين بصقلية . فغزا أبو عبد الله ميمون هذه الجزيرة ، وافتتح منها مدينة سقوطرة[117] . وكان النصارَى في الأندلس ما يزالون ضعافاً عن تكوين أسطول قوي يردون به هجمات المرابطين أو يتمكنون به من طردهم من السواحل على الأقل . وعلى العكس من ذلك ، فقد قام أسطول المرابطين بغارات متكررة في سواحل فرنسا وايطاليا .

نظام الجباية

أبطل المرابطون جميع الضرائب والمكوس التي لم يقررها الشرع . وهكذا كانت الموارد المالية تجبَى من الزكوات والأعشار وأخماس الغنائم والجزية ومنذ عهد علي بن يوسف أقاموا على رأس المصالح الجبائية بعض النصارَى[118] ومع ذلك فقد كانت موارد الدولة من هذه الزكوات والأخماس عظيمة حتَّى بلغ ما وجد في بيت المال بعد موت يوسف بن تاشفين ثلاثة عشر ألف ربع من الورق ، وخمسة آلاف وأربعين ربعاً من مطبوع الذهب[119] وكانت هذه الأموال تصرف في بناء المباني العمومية من قناطر ومدن وأسوار وغيرها . وكان يوسف بن تاشفين قد رغب بعد تدخله في الأندلس ، أن يفرض ضريبة استثنائية على السكان بقصد الاستعانة بها في تقوية الجيش بالأسلحة والدخائر اللازمة ، ولكن الفقهاء طالبوه بأن يؤدي قسماً يقر فيه بأن بيت المال قد خلا من النقود اللازمة لهذا الشأن ، فعدل عن رغبته تلك .

وعمل المرابطون بنظام الاقطاع ، فكانوا يشجعون الجنود المخلصين

---

(116) المعجب 210

(117) البيان المغرب 444

(118) الحلل 69

(119) الاستقصا 2 ص 54

باقطاعهم[120] أرضاً يحرثونها وينتفعون بفوائدها بالاضافة إلى رواتبهم العادية في وقت الحرب ، وبذلك ازدهرت الفلاحة في هذه الأقطاعات وصارت تغل على أصحابها الذين يؤدون للدولة المبالغ المستحقة من جبايتها .

السكة

أقدم سكة عرفت في أيام المرابطين ، كان نقشها في أيام أبي بكر بن عمر سنة 450 ، وكانت تحمل اسمه إلى جانب اسم الخليفة العباسي أو لقبه على الأصح ، وقد كتب هكذا : «عبد الله أمير المؤمنين» ثم غيرت السكة في عهد يوسف سنة 477 وكتب عليها اسمه[121] .

وكانت الدنانير تضرب عادة من الذهب ، وما سواها من الفضة (دراهم ، قراريط ، دوانق) ؛ وقد سبق في موضوع (نظام الجباية) ذكر ما وجد في بيت المال بعد وفاة يوسف وهو 13 ألف ربع من الورق وخمسة آلاف وأربعون ربعاً من مطبوع الذهب . وكان المستعين بن هود قد أهدَى إلى يوسف سنة 496 أربعة عشر ربعاً من آنية الفضة فضربها قراريط مرابطية[122] .

وكان الدينار في عهد المرابطين يبلغ وزنه قريباً من أربعة غرامات أو مثقالا وعشرة دراهم[123] .

وفي شذور العقود للمقريزي أن الدينار في عهد يوسف كان يحمل من الكتابة ما يلي : لا إله إلا الله ، وتحت هذه العبارة : أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وفي الدائرة : «ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين ونقش في الوجه الثاني : «الأمير عبد الله أمير المومنين العباسي» وفي الدائرة ، تاريخ الضرب وموضعه .

ومن المعلوم أن علياً بن يوسف أصبح وليا للعهد بين سنتي 495 و496 ، لذلك غير يوسف السكة من جديد سنة 497 وأضاف اسمه إليه ، مع زيادات

---

(120) الحلل 67.

(121) الاستقصا ج 2 ص 29.

(122) أعمال الأعلام ج 2 ص 201.

(123) مظاهر الحضارة المغربية ج 1 ص 70 لعبد العزيز بنعبد الله.

أخرى هكذا : «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وتحت هذه العبارة : الأمير علي ابن الأمير يوسف بن تاشفين» وصارت عادة المرابطين منذ ذلك الوقت ، أن يضيفوا اسم ولي العهد إلى اسم أمير المسلمين في حياته.

وكانت دور الضرب كثيرة في عهد المرابطين ، بحسب تعدد العمال والولاة الذين كان بامكانهم أن يضربوا السكة باسم أمير المسلمين في أقاليمهم ، كفاس وتلمسان وسبتة وسجلماسة ومراكش وبلنسية وقرطبة وغرناطة وأغمات ومالقة وإشبيلية . وكانت القيمة النقدية لسكة المرابطين مرتفعة نظراً لرواج التجارة بين المغرب وغيره من دول البحر الأبيض المتوسط . ويقول **LAVOIX** : إن الدينار المرابطي كاد يصبح نقدا دولياً إذ وصل إلى القسطنطينية .

2 - الحياة الاجتماعية

حياة السكان

عرف السكان حقبة طويلة من الهدوء والرخاء في عهد المرابطين . وقد وصف الادريسي الذي لم يكن بعيداً عن عصرهم مدينة مكناس كما شاهدها بنفسه ، وكانت في أيام المرابطين تتكون من مجموعة من الأحياء المتقاربة الآهلة ، وتمتاز بخصوبتها وعيونها الدافقة ، وكانت تنتج القمح والعنب والزيتون والفواكه ، وغراساتها منتظمة يتصل بعضها ببعض . وكانت تسكنها قبائل من بربر زناتة ، وقال بن غازي عن أحياء مكناس : «كانت هذه المواضع كلها في غاية من الخصب وكثرة المياه والأشجار وكان أهلها آمنين مطمئنين في عيش رغد ونعمة تامة ، منذ ملك أمراء المسلمين بنو تاشفين» .

ووصف الادريسي بدوره فاساً ، فلاحظ أن العدوتين يفصلها نهر يدير عدداً كبيرا من الأرحية التي كان يطحن فيها الدقيق بثمن رخيص جدا . وكان الماء قليلا في عدوة الأندلس ، أما في عدوة القرويين فقد كان الماء يوجد بغزارة في الأزقة ، وكان السكان يستخدمونه لتنظيف المدينة طيلة الليل فتصبح الأزقة كلها نظيفة . وكانت العيون تجري في كل منزل ، وكان لكل من العدوتين مسجده الجامع بأمامه الخاص. وفي هذا الوقت كانت توجد بفاس دور وقصور عديدة ، وكانت الصناعات اليدوية والفنية قد ازدهرت بها كثيرا. وكان القمح رخيصاً ويوجد بكثرة

وكانت العيون العمومية منتشرة بقبيباتها المزخرفة بالزخارف الأندلسية ، أما السكان فكانت تسودهم روح الاستقلال والاعجاب بالنفس[124] .

ورغم أن المرابطين حافظوا كثيراً على طابعهم الصحراوي إلى نهاية دولتهم ، فقد أخذوا من الحضارة قسطاً لابأس به منذ عهد علي فبنوا بعض الأبنية من المرمر بحدائقها الغناء ونوافيرها البديعة كما يقول «اشباخ» .

وكانت أهم الوظائف السياسية تعطي للمتونيين مما سبب سخط أهل الأندلس واتهامهم للمرابطين بالخشونة والجهل . ثم هيأهم للثورة عليهم ، لذلك نجد طبقة كبيرة من المثقفين انقبعت في دورها تترقب فرصة الانعتاق من ضغط الفقهاء وجدية الحياة الاجتماعية في عهد المرابطين .

وقد أضيف إلى السكان في عهد ابن تاشفين عدد من النصارَى الذي نفوا إلى المغرب ، ولم يكن المرابطون من الغلظة بالقدر الذي اتهمهم به خصومهم ، إذ أشركوا هؤلاء النصارَى في جيشهم وعينوا منهم مستخلصين للجبايات كما مر في موضوع سابق وكان بامكانهم أن يفنوهم عن آخرهم عوض تمتيعهم بهذه الامتيازات .

أما اليهود ، فيظهر أنهم عاشوا شبه بعيدين عن العناصر الاسلامية بالمغرب أو على الأقل ، فلم تعطهم امتيازات بوصفهم مواطنين منذ عهود سحيقة ؛ وقد انطبع اليهود بروح الانزواء والتآلف فيما بينهم ، حتَّى نجد بساتين أغمات في عهد المرابطين يختص بها اليهود وحدهم تقريباً[125] .

وقد سمح للنصارَى واليهود باقامة شعائرهم بكل حرية ، ولم يسجل التاريخ في هذه الحقبة حربا دينية بين المسلمين وسائر السكان بالمغرب باستثناء حرب البرغواطيين الذين انتهَى أمرهم في عهد أبي بكر . على أن انزواء اليهود يمكن تبريره بالموقف الذي اتخذه المرابطون ضدهم ، فقد منع عليهم علي السكنَى بمراكش ، فكانوا لا يدخلونها إلا نهاراً[126] وينصرفون منها عشية ، ومن البديهي أن المرابطين كانوا في

(124) Champion, Le Maroc et ses villes d'art, 1, 27

(125) Op. Cit. p.80

(126) الادريسي نزهة المشتاق ص 69

ذلك متأثرين بفقهاء الأندلس المتعصبين ، ثم لا ننس أن بعض اليهود بالأندلس كانوا يحيكون الدسائس ضد المسلمين ، ومنهم من كان يعمل لصالح النصارى في علاقاتهم مع المسلمين .

المـــرأة

يظهر أن الحجاب كان قد أصبح عادة قبل قيام دولة المرابطين، وذلك في المدن على الأقل ، إلا أن المرابطين أنفسهم كان يتلثم منهم الرجال فقط ، أما النساء فقد كن سافرات ، وقد حدث أن المهدي بن تومرت عند بدء ظهوره ، وجد أخت علي بن يوسف في أحد أزقة مراكش وهي سافرة مع جماعة من الجواري ، فوبخها على سفورها وضرب هو وأصحابه دواب الموكب حتّى سقطت أخت علي عن دابتها .

وكان للمرأة دور عظيم في مجتمع المرابطين حتّى عد صاحب المعجب هذا الدور من أسباب سقوط دولتهم ، إذ أصبحن يسيرن الرجال ويتغلبن عليهم بدهائهن ، ومن أشهر الأمثلة في هذا الباب زينب بنت اسحق النفزاوية التي كانت ترشد زوجها يوسف بن تاشفين في كثير من شؤونه ، وفانو بنت الوزير عمر بن بنتيان التي قاتلت الموحدين بحد السيف قبل أن تسلم إليهم مدينة مراكش .

وشاركت كثير من نساء المرابطين بنصيب من العلم والأدب كحواء بنت تاشفين ابن علي وتميمة بنت يوسف بن تاشفين .

ويروي المقري[127] أن يوسف بن تاشفين كان قد أهدى إلى المعتمد جارية قد نشأت بالمغرب . وجاء بها إلى اشبيلية ، وقد كثر الارجاف بان سلطان الملثمين ينتزع بلاد ملوك الطوائف منهم ، واشتغل خاطر ابن عباد بالفكر في ذلك ، فخرج بها إلى قصر الزهراء على نهر إشبيلية وقعد على الراح . فخطر بفكرها ان غنت عندما انتشى هذه الأبيات :

حملوا قلوب الأسد بين ضلوعهم ... ولووا عمائمهم على الأقمار
وتقلدوا يوم الوغَى هندية ... أمضى، إذ انتضيت من الأقدار
ان خوفوك لقيت كل كريهة ... أو أمنوك حللت دار قرار

---

(127) المقري . نفح 6 : 12

وهكذا نجد أن المرابطين وعلى رأسهم رجال الدولة وأمراؤها ، لم يكونوا يرون عضاضة في تنشئة بناتهم على دراسة الأدب مع ما عرف عنهم من تشدد في الدين ، ويروي ابن القاضي أن كاتباً دخل على إحدَى بنات أمير المسلمين وكانت سافرة على عادة الملثمين ، فظل يلاحظها طويلاً مندهشاً من روعة جمالها فظنت أنه يرغب فيها فأنشدت :

هي الشمس مسكنها في السما   فعز الفؤاد عزاء جميلاً
فلن تستطيع إليها الصعود   ولن تستطيع إليك النزولا

على أن هذه الصورة الجميلة عن حياة بنات الوجهاء والأمراء لم تكن عامة بين النساء في المغرب ، وإلا لسجل التاريخ أسماء كثيرات منهن في هذا العصر ؛ بيد أن التاريخ في شكله التقليدي كان يوجه عنايته مع الأسف إلى حياة الدولة الحاكمة أكثر مما كان يعنى بتسجيل مظاهر الحياة لدَى الشعب المحكوم .

اللبـــاس

قلد المرابطون العباسيين في اتخاذ السواد في لباسهم[128] الذي كان يشمل اللثم والغفائر القرمزية والعمائم ذات الذؤابات . وكانوا يحملون إلى ذلك ، السيوف المحلاة ، ولازال الطوارق حتَّى الآن يستعملون اللون القرمزي في اللثم كما يستعملون «الريط» وهو لثام أخضر اللون ولازال ذوو الطبقة العليا يتخذون اللثم السوداء ، بينما الطبقة الدنيا تتلثم باللثم البيضاء ، أما عامة السكان غير المرابطين فلم يكن لباسهم يختلف كثيراً عن اللباس التقليدي الذي كان شائعاً ولا يزال بالمغرب ، مع العلم بأن هذا الزي قد أخذ شيئاً من أزياء أهل الأندلس ثم الأتراك في عهد السعديين ، وكانت الأزياء تمتاز بسعتها المفرطة أما أهل الأندلس أنفسهم فقد كان بعضهم يتشبه في زيه بالنصارَى المجاورين على ما رواه صاحب نفح الطيب (ج1) .

وكان استعمال الشواشي قد أصبح شائعاً في هذا العهد بالإضافة إلى البرانس والأكسية والجبب والعمائم[129] .

---

(128) المقدمة 199 وحسب ابن عذاري ، 1 ، 405 فإن صنهاجة القيروان استخدموا السواد سنة 443 ، فهل اقتبس عنهم المرابطون مباشرة ؟
(129) الحلل ، ص 16

3 – الحياة الاقتصادية

لم يسجل الجغرافيون القدماء حياة الترحل بالمغرب سوَى في الصحراء التي كان أهلها يعيشون على الرعي ويطعمون من لحوم الماشية ويكتسون بصوفها ويصنعون خيامهم من أوبارها . وكان المرابطون أغنَى القبائل الصحراوية . ولاحظ طيراس بأن الطريق التجاري الذي كان يربط غانا بمصر أهمل بسبب العواصف الرملية العنيفة التي كانت تجتاحه ، واضطرت القوافل التجارية إلى أن تأخذ طريقها عبر سجلماسة لتنزل بعد ذلك إلى أقصَى الجنوب المغربي ، وأصبح كثير من تجار أهل الكوفة والبصرة وبغداد يفدون على سجلماسة ليتجروا بها إلى جانب البربر[130] ثم يضيف طيراس بأن الناحية الفيلالية كانت في هذا العهد (قرن 5) من أكثر المراكز التجارية ازدهاراً في بلاد الاسلام . وبالاضافة إلى المعلومات التي أوردها البكري عن نشاط تجار سجلماسة يذكر الحميري أن تارقانا وتانجوت وهما ميناءان بشمال المغرب الأوسط كانا من المراكز التي يقصدها تجار سجلماسة .

أما علاقات الرُّحَّل بهؤلاء التجار فقد كان يسودها الهدوء وحسن الجوار في هذه الفترة على الأقل .

وكانت أغمات من المدن الخصبة التي تصدر منتجاتها الوافرة إلى السودان من نحاس وأكسية وصوف وزجاج وأحجار وتوابل ومصنوعات حديدية وغيرها ، وأغمات مدينتان بينهما ثلاثة أميال ، إحداهما أغمات وريكة وبها يسكن المياسير وينزل التجار . والأخرى أغمات هيلانة[131] .

وكانت أكرسيف قرية كبيرة قبل المرابطين فمدنوها وسوروها[132] .

وفي ناحية السوس كانت تزدهر زراعة قصب السكر الذي كان يباع في ايغلي بمثقالين للقنطار . وقد أصبحت الصلات التجارية واسعة بين المغرب والأندلس في عهد المرابطين ، كما كان التبادل جارياً بين المغرب والأصقاع السودانية . ولعبت أغمات في هذه الحقبة دوراً تجارياً هاماً ، حيث كان تجارها الهواريون يعدون الجمال

---

(130) طيراس ج 1 ص 204

(131) حميري ، روض معطار ، ورقة 41

(132) نفس المصدر ، ورقة 9

التي يتجهون بها نحو السودان حاملة لقناطر النحاس وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف الأصداف والأحجار الكريمة والعطور والأفاويه وآلات الحديد ، وكان التاجر الواحد يتوفر على ما بين سبعين ومائة جمل كلها موقرة بالبضائع[133] .

ولنعرف أنواع البضائع الرئيسية التي كانت تروج بالمغرب في هذا العصر ، أرى أن أسوق جملة من الهدايا التي كان يوسف بن تاشفين قد قدمها إلى أبي بكر بن عمر قبل أن يلتحق هذا بالصحراء نهائياً[134] . وكانت هذه الهدايا تحتوي على : 70 فرساً بينها خمسة وعشرون مجهزة بجهاز مُحَلًّى بالذهب، وسبعين سيفاً بعضها محلى وعشرين زوجا من المهامز المحلاة بالذهب ، و150 بغلا ومائة عمامة مقصورة وألف شقة من الكتان ومائة شقة من اشكرى وسبعمائة كساء بيض ومصبوغة ومائتي شال مختلفة الألوان والأنواع ومائتي جبة واثنتين وخمسين جبة اشكرلاط ملف رفيع ، وسبعين كبة ملف ، وسبعة بنود كبار وعشرة أرطال من العود وخمسة قوالج من المسك الطيب ورطلين من العنبر الطيب وخمسة عشر رطلا من الند ، وعدد من البقر والغنم وكمية من القمح والشعير ، وأشياء أخرى كثيرة لم يفصلها صاحب الحلل الذي نقلت عنه هذه التفاصيل .

ومن هذه الهدايا نفهم أن بعض البضائع كالند والعود كانت تجلب من الشرق وبعضها الآخر كان يجلب من الأندلس كالأشكرلاط ، والبعض الآخر كان ينتج محلياً كالأشياء المصوغة والآلات الحديدية والقمح والشعير .

وكانت الضيع تنتشر متباعدة ومتقاربة في مختلف بوادي المغرب مما يدل على أن الأمن كان يسود البلاد .

وإذا كانت كل من سجلماسة وأغمات مركزاً تجارياً ، فقد كانت فاس ومراكش ونول لمطة من أهم المدن الصناعية بالمغرب ، كما كانت إشبيلية والمرية وقرطبة من أهم المراكز الصناعية بالأندلس . وكانت مراكش تنتج الصابون والمغازل ، أما نول لمطة فكانت تصنع الجلد والمنسوجات الصوفية ، وكانت فاس تجمع بين عدة صناعات لأن أكثر المهاجرين الأندلسيين كانوا يتجمعون بها . وهكذا كانت تنتج

(133) مراكشي ، اعلام 1 ، 13
(134) الحلل 16

الأواني الزجاجية والنحاسة والكاغد ، وكان بها مصانع للدباغة ومصاغات للذهب .

وساعد التخفيف من الضرائب والاقتصار على الزكوات والأعشار الاسلامية على رواج التجارة والمنتجات الزراعية ، مع التشدد على الجباة حتَّى لا يظلموا الناس ويستغلوا عملهم لصالحهم الخاص . وكانوا يعرضون لأشد العقاب وتصادر أموالهم إذا أثروا على حساب الدولة ، وقد شملت سياسة الاقتصار على الزكوات والاعشار والضرائب الشرعية كلا من الأندلس والمغرب، ولكن أُحدثت ضرائب جديدة خلال حكم علي بن يوسف.

4 – العمـارة والفـن

إذا كان التاريخ يسمح للباحث أن يسجل بعض القصور في الميدان الفكري أيام المرابطين . فإن ما تبقى من آثارهم في الميدان المعماري ، يشهد بأن فن العمارة قد لقي لديهم قبولاً وتشجيعاً على حد تعبير أشباخ الذي لاحظ أن ملوك المرابطين قد عنوا خصوصاً بانشاء المساجد العديدة الأسوار المنيعة حول المدن ، والقلاع الحصينة ، والقصور العظيمة .

وقد اتفق الباحثون على أن المرابطين عنوا بعنصر القوة والمناعة في مبانيهم قبل عنصر الفن والزخرفة ، وإن كان هذا لا يمنع من كونهم عنوا بانشاء بعض الحدائق الجميلة بقصورها المرمرية التي اندثرت بسبب تحطيم الموحدين لها. ومن الحق أن يقال إن المرابطين عنوا قبل كل شيء بالمباني ذات الصبغة العامة أو ذات الطابع الديني كترميم وبناء المراسي والحصون والمساجد .

ويعتبر عصر المرابطين ، عصر الفن الأندلسي المغربي ، ويبدو الطابع المغربي في بناء الحصون والأسوار والقلاع ، بينما يبدو الطابع الأندلسي في بناء القصور والدور وزخرفة المساجد وخاصة محاريبها .

وكان علي أكثر اهتماماً بالمباني من والده يوسف . إلا أن منشآت علي قد اندثرت باستثناء مسجد تلمسان، وقبة بمراكش، وزيادة كبيرة في القرويين. ولاحظ طيراس أن الفن الأندلسي قد نقل إلى هذه المآثر من غير أي تبديل ، ثم يقول : «إن هذه المباني العظيمة التي تركها المرابطون ، والتي تمثل الروح الأندلسية بافريقيا في شكلها التام ، لتدل على أن صرامة عبد الله بن ياسين وزهده قد نسيا كل النسيان» .

وإذا كان الفن المعماري قبل المرابطين بالمغرب قد اتخذ طابعاً بربرياً متأثراً بالفن البيزنطي ، فإن امتزاج هذا الفن أيامهم بالفن الأندلسي بدأ يتخذ طريقه نحو تكوين فن أندلسي بالمغرب في كامل صوره وفي معظم المباني الأثرية بهذه البلاد . وأول من بدأ عملية المزج ، يوسف بن تاشفين الذي أحضر أمهر الصناع من قرطبة إلى فاس ، فأضافوا إليها فنادق وحمامات وسقايات كما استعان علي بن يوسف بمهندسين من الأندلس في بناء قنطرة وادي تاسيفت .

مـراكـــش

تضطرب أقوال المؤرخين في تحديد تاريخ بنائها . والغالب أنها أسست سنة 454 وكان أول ما بني منها قصر أمير المسلمين . أما سورها فقد بناه علي سنة 515 ، وتقع في سفح جبل كليز . وكان المقصود من اختيار موضعها وبنائها حراسة المصامدة ، بالاضافة إلى أنها كانت قريبة من المناطق الصحراوية التي هي موطن المرابطين الأول . وكان موضعها على طريق القوافل التجارية المقبلة من الصحراء والذاهبة إليها ، وكان اللصوص يعترضون هناك القوافل ، فيخاطب الناس بعضهم بعضا : مراكش ، أي امش مسرعاً ، فدعيت بهذا الاسم . ولم يكن بها عيون أو أنهار مباشرة ، فحفرت بها خطاطير هي عبارة عن آبار متقاربة يتصل ماء بعضها ببعض ، وظل سكان مراكش يشربون منها زمناً ثم استعانوا بمياه أغمات التي جلبوها بواسطة السواقي . وكانت أرض مراكش ملكاً لبعض أهل أغمات فاشتراها يوسف منهم ، وبَنَى مرافقها ودورها بحجر اقتطعه من جبل جيليز ، ولازال حجر هذا الجبل يستعمل حتَّى الآن في البناء بمراكش . وكان حفر الخطاطير على يد المهندس عبيد الله بن يونس .

ويروي الادريسي في نزهة المشتاق أن المدينة لم يكن بها سوَى بستان واحد في البداية ، ثم تكاثرت بها البساتين والعمارات . وكان بها قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدام الدولة وأزقتها واسعة ورحابها فسيحة .

وقد ازدادت بها المباني مع الزمن حتَّى أصبحت من أجمل المدن المغربية وأكبرها لكثرة بساتينها ومبانيها . غير أن ملوك الدول المتعاقبة هدموا على التوالي معظم هذه المباني .

وكان تسوير المدينة بفتوَى خاصة من أبي الوليد بن رشد الذي رأى الضرورة

تدعو إلى بناء هذا السور بعد أن تفاقم خطر الموحدين واستغرق البناء أقل من سنة وكلف في مرحلة التأسيس سبعين ألف دينار . وكان يوسف يشارك في البناء بنفسه .

وما سجله الادريسي من مظاهر العمران في مراكش يخالف ما جاء في كتاب «المغرب ومدنه الأثرية» والذي يصف بأن كل ما تركه المرابطون بمراكش هو خيام من الوبر ، ومعسكر وقلعة ومسجد وسور ، ومن العلوم أن الادريسي كان معاصراً للمرابطين أكثر حياته . أما أن آثار المرابطين بمراكش لم يبق منها قائماً سوَى السور ومسجد علي الذي أدخل عليه تغيير شامل في عهد العلويين أيام المولى سليمان ، فذلك لأن الموحدين على الخصوص بذلوا جهدهم للقضاء على آثار المرابطين ، ولم يحترموا حتَّى بعض المساجد التي بناها هؤلاء فأهملوها أو حطموها ليعيدوها من جديد .

المساجـــد

بنَى المرابطون مساجد كثيرة في أجزاء مختلفة من المغرب ، وزادوا إلى ذلك زيادات هامة في القرويين وجامع سبتة وغيرهما . ومن أهم مساجدهم :

1) **مسجد علي بن يوسف** بمراكش ، وقد كلف بناؤه ستين ألف دينار مرابطية ، غير أن المولى سليمان جدده وأعاد بناء منارته لذلك كان الكلام على هذا الجامع من الناحية الأثرية عديم الجدوَى أو يكاد ، إذ لم يبق من أصله القديم سوَى مكان المنار القديم .

2) **مسجد تلمسان** هو المسجد الوحيد الذي بقي على شكله الأصلي بوجه عام من آثار المرابطين وهو مسجد جامع بناه علي بن يوسف سنة 536 ومساحته حوالي ثلاثة آلاف متر مربع ، ويتألف من ستة أساكيب تخترقها 13 بلاطة تتجه عقودها المتجاوزة إلى جدار القبلة . والعقود مفصصة في مختلف جهات المسجد ويتوسط بيت الصلاة قبة تقابلها أخرى أمام المحراب . ويستمد المحراب عناصره الزخرفية من جامع قرطبة ، وتغلب الزخارف النباتية في زخرفة المسجد . وتكثر المسطحات بالمحراب وزخارفه جصية .

وقبة المحراب من أجمل القباب في المساجد الاسلامية ، وهي تعتمد على 12 عقدا متقاطعاً ، وتزينها زخارف من الجص . وفي أواسط القرن 19م عثر الراهب

بارجيس على نقش في المحراب كتب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلّى الله على محمد وآله وسلم تسليماً . هذا مما أمر بعمله الأمير الأجل ... أيد الله أمره وأعز وأدام دولته . وكان إتمامه على يد الفقيه الأجل القاضي الأوصل ، ابن الحسن بن علي بن عبد الرحمن بن علي ، أدام الله عزه ، ثم انتهَى في جمادي الأخرى عام 530 (1136)

وهذا يدل على أن علي بن يوسف هو باني المسجد .

ويظهر أن عبد المومن فيما بعد حاول أن يمحو اسم الباني بعد أربع سنوات ويضع اسمه مكانه . ومهما يكن ، فعبد المومن إنما رمم المسجد أو جدده[135] .

وتمثل المقرنصات في زخارف الجامع أول نموذج للمقرنص بالمغرب ، ومنه شاعت المقرنصات في الأبواب والجدران والقباب بالمغرب . والفاطميون أول من استعمل المقرنصات في الزخرفة سنة 519 بالجامع الأقمر في القاهرة ، لكن الأصول الأولى موجودة في بعض زخارف جامع القيروان .

3) **جامع الشعبة** بناه يوسف بن تاشفين بسلا ، وقد جلبت عمده الرخامية الصفراء من شالة التي كان بها أقدم مسجد بناحية سلا . وقد اندثر هذا المسجد .

أما أهم زيادة قاموا بها في مسجد ما فهي توسيع مساحة جامع القرويين ، وكانت هذه الزيادة حوالي 531هـ على يد قاضي فاس عبد الحق بن معيشة وتبلغ 1850 متر مربع . وتحتوي على ثلاثة أساكيب وثلاث بلاطات . وهي آخر زيادة في مباني المسجد الداخلية .

وبالاضافة إلى هذه التوسيعات ، فقد صنع المرابطون منبرا جديدا للقرويين خلف منبر الزناتيين . وتكسو الزخارف الهندسية جوانبه كما رصعت بالصدف الذي زخرفت به آيات من كتاب الله بالخط الكوفي والأندلسي وخصصوا للمنبر غشائين أحدهما من الكتان والثاني من الجلد وكانا يغلفان المنبر طيلة أيام الأسبوع باستثناء يوم الجمعة .

المــدارس

المرابطون أول من أسس المدارس بالمغرب ، وأشهرها مدرسة أجلو التي بناها

(135) L. Abbé J.J.L. Bargès, Tlemcen, pp.435-437

وكاك بن زلو قرب تزنيت ، ولكن لم يبق لها أثر منذ عدة قرون . وكانت دراسة العلوم فيما سبق ، بالمساجد والدور الخاصة .

الحصـــون

اهتم المرابطون ببناء الحصون قصد اتخاذها مراكز للحراسة والدفاع واستكثروا منها في مختلف أجزاء المغرب والأندلس . وقد بنوا حصن تاكرارت بمكناس وتاكرارت تلمسان . وتاكرارت تقابل لفظ معسكر كما بنوا سلسلة أخرى من الحصون الجبلية التي كانوا يتخذونها للاشراف على تنقلات ونشاط المصامدة. وهكذا بنوا حصن امركو على وادي ورغة وقصبة النصراني عند جبل زرهون وحصن تاسغيموت عند الأطلس الكبير . واشترك في هذا البناء أسارى النصارَى وتقنيوهم أحياناً . وكان البناء من الحجر أو الطوب أو بهما معاً . وهدم الموحدون كثيراً من هذه الحصون بما فيها حصن بني تودة المدعو بفاس البالي .

وكانت جدران الحصون سميكة شاهقة تحتوي على أبراج نصف دائرية للمراقبة . ولم يقتصر المرابطون على بناء الحصون حول النواحي الجبلية بل شيدوا بعضاً منها في الصحراء ، وأسسوا حصناً قرب أودغشت التي تمكنوا من اخضاعها. وكانت الحصون تتوفر على حامية قوية تتراوح بين مائة وخمسمائة فارس ، ويخندق حولها أحياناً ، كما كانت تشحن بالأسلحة والذخائر . وقد يسكن فيها قائد المنطقة كما كان الشأن في تاكرارت مكناس عندما ظهر الموحدون وكثير من هذه الحصون ماتزال آثاره باقية .

وبالاضافة إلى ذلك سور المرابطون عددا من المدن كوهران وتلمسان ولكن الموحدين هدموها .

القناطـــر

بنَى المرابطون مجموعة من القناطر بالمغرب والأندلس ، أشهرها قنطرة تانسيفت التي يبلغ طولها 400 متر . وكان بناؤها في عهد علي وتعتمد على واحد وعشرين قوساً مبنية بالآجر والجير ، غير أن سيلاً هدمها فجددها يعقوب المنصور سنة 566 ، ثم رممها السلطان سليمان العلوي ، ولاتزال هذه القنطرة صلة وصل بين مراكش والطرق النافذة منها إلى الشمال .

5 – الحركــة الفكريــة

انصرف المرابطون في معظم أيام دولتهم إلى تشجيع الفقهاء حملة لواء المذهب المالكي . وكانت طبيعتهم الصحراوية وعقيدتهم الدينية تبعدهم عن التشبث برجال الأدب والفلسفة ، لذلك كان عصر المرابطين عصر فقهاء أكثر منه عصر أدباء وفلاسفة . على أن ميولهم الدينية لم تبلغ بهم إلى حد اضطهاد الفلاسفة والتنكيل بهم وقتلهم كما وقع ذلك بعدهم ، وكما حدث في بعض دول الشرق .

ومع هذا كله ، فقد بدأت الحركة العلمية والأدبية تزدهر منذ عهد علي بعد أن أخذ المرابطون بنصيب من الحضارة لابأس به وحتَّى في الفلسفة نجد اسمين يلمعان في الأندلس دون المغرب، وهما ابن باجة وابن وهيب. ولْنَتَتَبَّعْ فيما يلي تطور الحركة الفكرية بايجاز أيام المرابطين :

1) الفــقـــه :

تحدثت عن ابن رشد وعياض كقاضيين في عهد المرابطين . على أنني لست أرَى أن أندفعَ في سرد أسماء الفقهاء الذين ينتمون إلى الأندلس فهؤلاء قد حظوا من مؤرخي التراجم بنصيب وافر . غير أنه لم يبرز في هذا العصر سوَى فقهاء المذهب المالكي الذي أصبحت الأصول تغذيه بمادة خصبة بالاضافة إلى الحديث الشريف . على أن الفقه أصبح في هذه الفترة فقه فروع لا سبيل إلى الاجتهاد فيه بسبب موقف المرابطين أنفسهم والذي يميل إلى التسليم بأقوال أئمة المذهب المالكي خصوصاً فقهاء قرطبة التي أصبح عملها حجة بالمغرب على حد تعبير المقري .

وقد لاحظ أبو عبد الله المقري قاضي قضاة فاس شدةَ تمسك أهل المغرب بعمل قرطبة حتَّى علق على ذلك بقوله : ذهبت قرطبة وأهلها ولم يبرح من الناس جهلها ! بل يضيف إلى ذلك أن خصال الجاهلية «كالنياحة والتفاخر والتكاثر والكهانة والنجوم والتنابز بالألقاب» لم تزل من أهلها وانتقلت إلى غيرهم مع تيسر أمرها «حتَّى كأنهم لا يرفعون بالدين رأساً ، بل يجعلون العادات القديمة أساً ... والشرع فينا منذ سبعمائة سنة وسبع وستين سنة لا نحفظه إلا قولا ولا نحمله إلا كلا» [136] .

(136) النفح 2 ص 94

ومن فقهاء المغرب في هذا العهد : 1) عبد المنعم بن عبد الله بن علوش المخزومي وقد روَى عن مروان بن سمجون والحصري المقرئ وتوفي سنة 524. 2) عبد المنعم بن مروان الطنجي الذي كان قاضياً بغرناطة وكان عادلاً لا تأخذه في الله لومة لائم ، 3) علي بن طويل الفاسي الذي تلقّى دراسته عن الخشني ومحمد الأزدي وتقلد خطتي الشورَى والافتاء وتوفي في عهد الموحدين ، 4) علي بن الحسين اللواتي قاضي فاس الذي درس على عدة علماء أجلاء كمالك بن وهيب وابن شبرين وأبي عبد الله الخولاني وكان مفتيا في شؤون الفرائض والعقود ، 5) ابراهيم بن جعفر اللواتي مؤلف كتاب مختصر الفقه وقد توفي سنة 513 .

أما أهم كتب وضعت في الفقه فهي كتب القاضي عياض خصوصاً كتاب أجوبة القرطبيين والنوازل القضائية .

2) الحـديـث

اشتهر فيه : 1) عياض القاضي ووضع فيه عدداً من الكتب كشرح صحيح مسلم والشفا ، والالماع في ضبط الرواية وتنبيه الأنام في مشكل الحديث الخ ، 2) ميمون بن ياسين أحد أمراء المرابطين ، سمع بالمشرق عن أبي عبد الله الطبري صحيح مسلم كما سمع صحيح البخاري على أبي إسحق المستملي وكان ميمون هذا يحدث باشبيلية ، 3) بكار بن الغرديس الفاسي والمدرس بسجلماسة .

3) التفسير والقراءات

من رجال هذا العلم : 1) أحمد التميمي الفاسي ، 2) أبو بكر بن الجوزي السبتي وضع كتابين أحدهما في التوحيد وآخر في التفسير لم يتم .

4) التـاريـخ :

أهم كتاب بقي من هذه الفترة كتاب البيدق لأبي بكر الصنهاجي وهو يفصل نشأة الدولة الموحدية وحياة المهدي ابن تومرت الذي توفي في عهد المرابطين ، ويعتبر هذا الكتاب اليوم حجة في تاريخ هذه الفترة . كما وضع عياض كتاب ترتيب المدارك الذي فصل فيه حياة أئمة مذهب مالك إلى عصره ، وكتاب المستفاد في مناقب العباد والزهاد بفاس وما والاها . وممن كتب عن تاريخ المغرب في هذه الفترة بصفة جزئية ، ابن بسام وابن بشكوال وهما من أدباء الأندلس ومؤرخيها .

وقد وضعت كتب أخرى تعتبر لحد الآن مفقودة ، ومنها : 1) الديباجة في أخبار صنهاجة لمحمد بن علي بن حماد القلعي 629هـ نقل عنه صاحب مفاخر البربر ، 2) الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية لأبي بكر بن الصيرفي الغرناطي 557 ، 3) النبذة المحتاجة في أخبار ملوك صنهاجة لعلي بن حمادة الصنهاجي 616 أخذ عنه صاحب نبذ تاريخية ، 4) المغرب في تاريخ المغرب ليسع بن عيسَى بن حزم 575هـ .

5) الجغرافيـا :

كتب عن جغرافية المغرب في هذه الفترة البكري صاحب معجم ما استعجم ؛ أما الجغرافي الأصيل من المغرب ، فهو أبو عبد الله محمد الادريسي الذي ولد بسبتة سنة 494 ووضع كتابه المشهوز بنزهة المشتاق إثر سقوط المرابطين الذين قضَى أكثر من ثلثي حياته معاصراً لهم وهو من السلالة الادريسية التي حكمت بالمغرب . وكان يجمع بين عدة علوم أهمها الجغرافية والأدب ولا يعرف شيء كثير عن نشأته الأولى سوَى أنه درس بقرطبة ، ثم أخذ يجوب الأندلس ومصر وافريقية وبقاع المغرب المختلفة بالاضافة إلى انكلترا وآسيا الصغرَى وفرنسا وصقلية التي استقر بها . وكان بها يومئذ روجر ملكها الذي كان عطوفاً على علوم العرب وحضارتهم ، فدعاه إلى أن يؤلف له كتاباً في الجغرافيا ، فوضع له نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، الذي كلفه 15 سنة من البحث والتأليف كما عمل على صنع كرة أرضية من الفضة ، واستعان بالفنانين على نقش بحارها ومدنها وأنهارها وما إلى ذلك بل إن صنع هذه الكرة سبق الكتاب المذكور الذي وضعه كشرح مبسط لما فيها . وكان فراغه من تأليفه سنة 548 . ويعتبر الادريسي أول من اكتشف منابغ النيل التي لم يصل إليها جغزافيو أوروبا إلا منذ سنة 1858م وقد رسم هذه المنابع على شكل بحيرات في موقع يقارب موقع بحيرتي فكتوريا نيانزا وألبرت نيانزا وبدأ طبع ملخص لكتاب «نزهة المشتاق» في روما سنة 1592م وتوالت طبعاته مترجمة إلى عدة لغات .

وكان الادريسي قد وضع خريطة حائطية للعالم قبل وضع الخريطة الفضية التي نقشت على مائدة ، ضاعت سنة 555هـ خلال ثورة ضد وليم ابن روجر ، بينما ضاعت النسخة الأصلية من الخريطة الحائطية ، ولكن كتاب «نزهة المشتاق» يتضمن خرائط جزئية جمعها المستشرق الألماني مولير من مكاتب مختلفة ، وألف منها

خريطة كاملة أخرجها ملونة باللاتينية سنة 1931 ثم أخرجها المجتمع العلمي العراقي بالعربية سنة 1951م .

أما كتاب «نزهة المشتاق» فقد ترجم إلى اللغات اللاتينية ولكنه لم ينشر نصه العربي بأتمه ، مع العلم بأنه توجد منه نسخ بأكسفورد والقسطنطينية وباريز والقاهرة وجزء منه بالقرويين[137] .

ويقسم الادريسي العالم المعروف في عهده إلى سبعة أقاليم ، أولها يبدأ من خط الاستواء إلى درجة 23 عرضاً ، والسابع بين درجتي 54 و64 وفيه تقع منابع النيل . هذا من حيث العرض ، أما في حيث الطول ، فقد قسم كل إقليم إلى عشرة أقسام متعادلة من الغرب إلى الشرق ووضع سبعين خريطة يمثل كل منها قسماً من هذه الأقسام .

ويستفاد مما كتبه الادريسي في «نزهة المشتاق» اعتقاده بأن الأرض كرة ، ولكن على شكل اهليليجي ، وأتى بمعلومات قيمة عززها في كثير من الأحيان بالمشاهدة واطلع كذلك على ما ألفه الجغرافيون الذين سبقوه وعرف كيف يستفيد منه في كتابه المذكور .

وللادريسي كتابان آخران هما : 1) روضة الأنس ونزهة النفس ، وهو شبيه بنزهة المشتاق مع تعديلات ، 2) أنس المهج وروض الفرج وهو موجز لروضة الأنس . وتوجد منه نسخة بالقسطنطينية ، أما روضة الأنس فقد فُقِد .

6) الأدب :

لم يبرز أدباء كثيرون في هذه الفترة بالمغرب ، أما في الأندلس فقد كان يوجد منهم عدد كبير ، بيد أن الحركة الأدبية لم يكتب لها من التشجيع ما كتب للحركة الدينية ، فعاش أكثر الأدباء والحالة هذه ، قابعين يترقبون الفرصة للظهور في عهد الموحدين الذين امتاز عهدهم بنهضة أدبية شاملة . غير أن احتكاك أمراء المرابطين بشعراء الأندلس لم يكن يخلو من تشجيع للحركة الأدبية هناك ، وعلى العكس من ذلك شعراء المغرب الذين كانوا تحت مراقبة أمراء المسلمين ، فأهملوهم وأدبهم . وصحيح أن المغرب استمد في هذه الفترة وقبلها شيئاً كثيراً من فقه الأندلس ، أما

(137) قيل إنه تحت الطبع بالعراق ساعة كتابة هذه الملاحظة

في ميدان الأدب ، فينبغي أن نفرق بين النثر والشعر لنعرف مدى تأثير الأندلس في أدب المغرب إذا كان هناك من تأثير. أما النثر ، فسنستغرب أن الأدب المغربي يخلو فيه أو يكاد من التصنع الممل الذي دخل على النثر الفني في الأندلس ، على أنه يحسن أن ندع أسلوب الرسائل الرسمية جانباً ، إذ فيما كان الكتاب الرسميون من أهل الأندلس يتصنعون في أسلوب هذه الرسائل كابن القصيرة وابن عبدون ، كان الكتاب المغاربة يضطرون إلى مجاراتهم حتّى لا يثبتوا أنهم عاجزون عن تنميق أسلوبهم على الطراز الأندلسي ، كأبي جعفر بن عطية مثلا . وهناك ظاهرة أخرى يتفق فيها أدباء المغرب والأندلس لهذا العهد ، وهي أن الأديب يجمع غالباً بين الشعر والنثر يجيدهما لضرورة اجتماعية معينة ، فالنثر يستعمله في الوظائف الكتابية التي يشغلها في ديوان الانشاء أو غيره ، والشعر يتخذه فناً يميل إليه أو يتكسب به عند الاقتضاء . ولاشك أن هذا أثر من آثار كتاب المشرق خصوصاً منهم من عاصروا سلاطين الفرس بعد ضعف العباسيين ، كابن العميد والصاحب وأبي إسحق الصابي .

أما في غير أسلوب الرسائل الرسمية ، فلا نجد الزخرف اللفظي يسود كما يسود في أسلوب ابن خافان وابن بسام ونحوهما . ومن نماذج الأسلوب المغربي في هذا العهد ، الحكاية التالية التي يرويها ابن حبوس ، ويقول فيها :

دخلت مدينة شلب من بلاد الأندلس ، ولي يوم دخلتها ثلاثة أيام ، لم أطعم فيها شيئاً ، فسألت عمن يقصد إليه فيها فدلني بعض أهلها على رجل يعرف بابن الملح ، فعمدت إلى بعض الوراقين ، فسألته سحاءة ودواة ، فأعطانيهما . فكتبت أبياتاً امتدحه بها ، وقصدت داره ، فإذا هو في الدهليز ، فسلمت عليه ، فرحب بي ورد علي أحسن رد ، وتلقاني أحسن لقاء وقال : أحسبك غريباً ! قلت : نعم ! فقال لي : من أي طبقات الناس أنت ؟ فأخبرته أني من أهل الأدب ، من الشعراء ثم أنشدته الأبيات التي قلت ، فوقعت منه أحسن موقع الخ .

أما في ميدان الشعر فقد برز فيه كل من ابن الكتاني المتوفى سنة 515 والفقيه ابن زنباع الطنجي وأبو جعفر بن عطية وابن حبوس وابن الزيتوني وسعيد بن حنين وابن القابلة السبتي وأبو علي بن طريف السبتي وعبد العزيز السوسي وغيرهم .

على أن الشعر في عهد المرابطين قد التزم جانب الحشمة ، فلا نشهد فيه هجوا

مقذعاً أو غزلاً فاحشاً أو تهكماً لاذعاً وبالتالي فإن الأدب في هذا الطور صورة من حياة المرابطين المحتشمة . وتلك على الأقل صبغته العامة . وظاهرة أخرى نلاحظها في هذا العهد ، هي أن جماعة من القضاة والفقهاء قد تأثروا بالأدب وقرضوا الشعر كالقاضي عياض وابن زنباع ومروان بن سمجون ، وهذه بعض الأبواب التي شاع فيها نظم الشعر أيام المرابطين .

1 - **الوصف** : يقول ابن حبوس المتوفى سنة 570 (وهو شاعر كان في مقدمة أدباء دولة لمتونة كما يقول المراكشي صاحب المعجب) :

إن رنت الريح الخفوق إزاءها ترك القضيب قوامه وتميلا
شرب النشاط سلافة حتّى انثنَى ولو أنها حرمت عليه تأولا

2 - **الغزل** : يتجلى فيه الابتكار أحيانا كما في قول ابن الكتاني :

وما أبقَى الهوَى والشوق مني سوَى نفس تردد في خيال
خفيت عن المنية أن تراني كأن الروح مني في محال

3 - **المدح** : جرَى على الطريقة التقليدية من استهلال بالنّسيب ووصف بمكارم الأخلاق وختم بالدعاء والسلام . ولابن زنباع في الفتح بن خاقان ، مع ملاحظة أن الشاعر هنا لم يصل في المدح حد المبالغة المعتادة لدَى بعض الشعراء :

ولولا أبو نصر ولذات أنسه تقضت حياتي كلها وهي علقم
أتوا بالمعاني وهي در منظم وجاء بها في أفقها وهي أنجم
إليك أبا نصر بديهة خاطر توالى عليه الثقل وهو مقسم

4 - **الشكوَى** : تأثر الشعر أحياناً بحياة الزهد التي عرفها المرابطون ، فأصبح بعض الشعراء يذكرون الموت ويذمون حياة الدنيا كما فعل الوراس بن إسمعيل. على أن الشكوَى قد تكون ثورة على الحرمان والزمان كما نجد في الأبيات التالية لابن حبوس :

يعز على النبل أني غدوت أكنى أديباً وأسمَى فقيرا
وأني ثبت لكف الزمان يعرق عظمي عرقاً مبيرا
ومـا ذاك أني هيـابـة أخاف الرحيل وأشنا المسيرا
ولكن بحكم زمان غدا يحط الجياد ويُسمي الحميرا[138]

مصادر ومراجع عن الحضارة في عصر المرابطين

1 ـ نفح الطيب
2 ـ صلة الصلة . طبع الرباط ، لابن الزبير
3 ـ الاعلام بمن حل بمراكش من الاعلام
4 ـ الروض الهتون لابن غازي
5 ـ مظاهر الحضارة المغربية لعبد العزيز بنعبد الله
6 ـ ظهر الاسلام لاحمد أمين ج 3
7 ـ الاستقصا مجلد 1 ط دار الكتاب
8 ـ العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين للمنوني
9 ـ الحلل الموشية طبع الرباط
10 ـ قيام دولة المرابطين
11 ـ اعمال الاعلام لابن الخطيب
12 ـ زهرة الآس للجزنائي
13 ـ محاضرة عن القرويين ـ عبد الهادي التازي
14 ـ المعجب لعبد الواحد المراكشي
15 ـ قلائد العقيان للفتح بن خاقان
16 ـ التكملة لابن الابار
17 ـ البيان المغرب لابن عذاري
18 ـ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لشباح
19 ـ تاريخ افريقيا الشمالية (بالفرنسية) لجوليان
20 ـ تاريخ المغرب (بالفرنسية) لطيراس
21 ـ المغرب ومدنه الأثرية (بالفرنسية)
22 ـ المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا للنباهي
23 ـ ترتيب المدارك لعياض
24 ـ صبح الأعشى للقلقشندي
25 ـ الروض المعطار للحميري

الموحـــدون

541 ــ 668 هـ / 1156 ــ 1269 م

من استيلائهم على مراكش
إلى دخول بني مرين إليها

نظرة عامة عن الدولة :

1 ــ العالم الإسلامي في هذا العصر :

تعدد الإمارات الإسلامية ــ التتار ــ سوء الحالة بافريقية.

2 ــ نشأة الدولة :

المصامدة ــ المهدي بن تومرت، حياته ومذهبه ــ أسباب تأسيس الدولة ــ عبد المومن بن علي : فتح المغرب، فتح افريقية، فتح المغرب الأوسط، إحراق كتب الفروع، قبيلة كومية بالمغرب، وفاة عبد المومن.

3 ــ دور العظمة :

أبو يعقوب يوسف : أعماله في المغرب والأندلس وافريقية ــ يعقوب المنصور : أعماله في افريقية استنجاد صلاح الدين به، غزوة الأرك، مآثر المنصور، وفاته ــ الناصر، أعماله في افريقية وميورقة، غزوة العقاب، مآثر الناصر، وفاته.

4 ــ دور الضعف :

المستنصر : إحداث الدولة في عهده ــ وفاته ــ عبد الواحد المخلوع : قتله خنقا ــ عبد الله العادل : ثورة الخلط وأبي العلاء ــ إدريس المامون :

إلغاء المهدوية، ثورات الأندلس، سياسة المامون، وفاته ـــ عبد الواحد الرشيد : ثورات العرب والأندلس ـــ علي بن المامون : اشتداد خطر بني مرين، مقتله ـــ المرتضي : الحرب أمام مراكش مع بني مرين ـــ ادريس أبو دبوس : نهاية الدولة.

5 ـــ أسباب سقوط الدولة :

بنو غانية ـــ العرب ـــ هزيمة العقاب ـــ مشكلة العرش ـــ انفصال افريقية وتلمسان، الشيوخ، نصارى الأندلس، زحف بني مرين.

6 ـــ أهمية أعمال الدولة.

7 ـــ علاقات المغرب الخارجية :

مع العالم الإسلامي ـــ مع الأندلس ـــ مع العالم المسيحي.

8 ـــ الحياة الدينية :

المذهب الظاهري ـــ المتصوفة.

الحضارة في عهد الموحدين :

1 ـــ نظام الحكم والإدارة :

رئيس الدولة ـــ الوزراء ـــ الكتاب ـــ الحجاب ـــ التقاليد المخزنية، الولاة، القضاة، الجيش، الأسطول، نظام الجباية، السكة.

2 ـــ الحياة الاجتماعية :

حياة السكان ـــ الرخاء بالمدن والبوادي ـــ الملاهي ـــ اللهجات.

3 ـــ الحياة الاقتصادية :

الصناعة ـــ الزراعة ـــ التجارة مع الخارج.

4 ـــ العمارة والفن :

المدن ـــ المساجد ـــ المدارس ـــ المقصورة والمارستان بمراكش ـــ الحصون والقناطر ـــ القصور ـــ نقل المياه.

5 ـــ الحركة الفكرية :

تشجيعها ـــ الفقه ـــ التفسير والقراءات ـــ الجغرافية والرحلات ـــ التاريخ، الرياضيات، الطب، الفلسفة والمنطق، علوم اللغة، الأدب.

نظرة عامة عن الدولة

1 - العالم المسيحي

عاصر الموحدون كسابقيهم المرابطين، الحملات الصليبية التي شنها المسيحيون قصد استخلاص الأماكن المقدسة المسيحية من يد المسلمين والتي امتدت خلال قرنين تقريبا: 1096 - 1291م. واعتبر المسيحيون أن مجموع أراضي الشام لا سيما القدس، وكذا مصر داخل في الأراضي المقدسة، وبدأ الصراع لأسباب دينية واستند لنفس الأسباب ظاهريا طيلة الحروب الصليبية. غير أنه ارتكز أيضا على عوامل سياسية واقتصادية لم ينكرها المؤرخون الأوروبيون ومن أهم العوامل السياسية كثرة النزاعات الحربية بين الأمراء وعدم تأطير المجتمعات الأوروبية في بوتقة وطنية أو قومية. ولم تتمكن المسيحية مع قوة شوكتها من تحقيق هذا التأطير على الصعيد السياسي. وحيث إن أوروبا تعيش أوضاعا اقتصادية متدهورة بسبب تأخرها الكبير عن العالم الاسلامي، فقد وجدت في الحملات الصليبية متنفسا: 1) بسبب ما كان يعيشه العالم الاسلامي من انقسامات سياسية على الرغم من أنها تختلف عن أوضاع أوروبا السياسية. 2) لأن العالم الاسلامي لا يزال يسيطر على القدرات الاقتصادية وحركة الملاحة التجارية عبر البحر المتوسط، وذلك بالرغم من وجود قوات محلية أوروبية منافسة كالأسطول النرمندي وحتّى البيزنطي.

2 - أوضاع العالم الاسلامي

وصلت الخلافة العباسية إلى مرحلة كبيرة من الضعف. وانشطرت المجموعة الاسلامية إلى عديد من الأنظمة والدويلات كالبويهيين بالعراق وفارس، والسلاجقة بالشام وآسيا الصغرَى، والفاطميين بمصر ثم الأيوبيين بعدهم، كما أن هناك مذاهب دينية عديدة تتجاذب المجتمع الاسلامي وبعضها يزيد من تفتيت وحدته، وبينها المذهب الباطني أو الاسماعيلي الذي انتشر بالشام حتّى الهند، والنصيري بالشام، والدرزي بها أيضا.

وكان أخطر ما واجهه العالم الاسلامي بعد هذا التفتت أو بموازاته، هو

الحملات الصليبية التي قادها رهبان وأمراء وملوك من أوروبا واسهمت فيها جحافل من مختلف الشعوب الأوروبية كالفرنسيين والألمان والايطاليين والنورمنديين ، وفي 1099 سقطت القدس في أيديهم فوضعوا السيف في رقاب المسلمين بها وذبحوا كل من وقع من المسلمين بأيديهم ، وفيهم مثقفون وشيوخ ونساء وأطفال . ثم بدأ أفول نجم الصليبيين بعد استيلائهم على أجزاء كثيرة من آسيا الصغرى وسواحل الشام وفلسطين ، وذلك بظهور الأسرة الزنكية في القرن 12م لاسيما نور الدين زنكي وابن أخيه صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية ومنقذ القدس في أعقاب القرن الثاني عشر. على أن الصليبيين استرجعوا القدس لفترة قصيرة فيما بين 1229 و1244 بزعامة ملكهم الألماني فريدريك الثاني وواصل المماليك بعد الأيوبيين الصراع ضد الصليبيين إلى أن أجلوهم نهائيا سنة 1291 . وقد شملت الحملات الصليبية أيضا افريقية التي غزاها الملك الفرنسي لويس التاسع بأسطول أوروبي ، لكن الأوبئة أهلكت جيشه وكان منها مهلكه هو أيضا .

ما هي انعكاسات الأوضاع الأوروبية والأوضاع الاسلامية بالمشرق على الحالة بالشمال الافريقي ؟ :

1) كان الشمال الافريقي أيضا يعاني من ردود الفعل الصليبية ، سواء عن طريق النرمنديين حكام صقلية ، أو عن طريق حركة الاسترداد التي نشطت بصورة متزايدة منذ القرن الحادي عشر م . وكانت الأندلس مسرحا لها ، وهناك كان الاسبان يتحركون شيئا فشيئا تحت تأثير الرهبان الذين استأثروا كلياً بالتوجيه الفكري والعقائدي ثم بتأثير البابوات الذين شجعوا الشعوب المسيحية على التعاون مع إخوانهم الاسبان في حركة الاسترداد .

2) حيث إن الشمال الافريقي هو جزء من العالم الاسلامي فهو يتجاوب معه فكراً وعقيدة ويتأثر بسيره أو يؤثر فيه بحكم موقعه الحساس في غربي البحر المتوسط وجواره لمناطق الضغط السياسي في أوروبا ، ثم لدوره الريادي في حماية الاطار الاسلامي باقطاره والأندلس . فحيث ضعف العطاء الحضاري في المشرق منذ القرن 11م كان هناك بديل جيد ورائع بالمغرب الاسلامي خلال هذا القرن وحتّى القرن 14 على يد المرابطين والموحدين والحفصيين . وهذا البديل لابد أن يحسب له حسابه خلال هذه الحقبة المظلمة من تاريخ الشرق الاسلامي ، وانها لكذلك حتّى بالنسبة

للعالم الأوروبي الذي كان يعيش في ظل الاقطاع ولم يبدأ يستفيق من سباته وببطء إلا بعد احتكاكه بالمسلمين خلال الحروب الصليبية.

3 - الشمال الافريقي والأندلس

كان الشمال الافريقي من الوجهة السياسية موزعاً بين عدة دوائر نفوذ:

1) المرابطون بالمغرب الاقصى وغرب الجزائر: 430 ـ 541 (1038 ـ 1156)

2) بنو حماد شرقي الجزائر: 386 ـ 546 (996 ـ 1151)

3) النرمنديون بسواحل افريقية 517 ـ 555 (1122 ـ 1160) والزيريون بداخلها مع وجود امارات محلية مستقلة، وقد امتد الحكم الزيري من 362 ـ 555 (973 ـ 1160)، وأخيرا قبائل بني هلال بجنوبي افريقية التي زحفوا إليها باغراء الفاطميين منذ 440 (1048).

وفي الأندلس تمكن المرابطون من ارساء دعائم حكمهم إلى ما قبل قليل من سقوط دولتهم بمراكش، لكن ما ان امتدت الدعاية الموحدية إلى المنطقة حتّى تحركت مجموعات من الطبقة البورجوازية بمدن الأندلس تستأثر بالسلطة وتطرد الولاة المرابطين الذين ضاقت بهم ذرعا، ومن المراكز الثائرة:

1) غرب الأندلس (البرتغال) بزعامة أحمد بن قسي الذي تصوف حتّى يسبق الأحداث الجارية بالمغرب والتي أصبح صناعها الجدد يتشبهون في التقشف بسلفهم المهدي، وحاول الوالي المرابطي يحيَى بن غانية عبثاً، أن يقضي على هذه الحركة التي عصفت بالنفوذ المرابطي في منطقة غرب الأندلس بأسرها.

2) قرطبة التي ثارت بزعامة ابن حمدين بن محمد، ثم ما لبث أن شهدت هجوما من أمير آخر من أسرة ابن هود القديمة، تعززه كتائب من الجيش المسيحي، لكن ابن حمدين استرجع ولايته بسبب نفور السكان من الجيش الأجنبي، ثم ضم ابن حمدين إليه مراكز أخرى كالمرية التي عادت بعد ذلك إلى المرابطين.

3) بلنسية التي نادت بولاية مروان بن عبد العزيز ثم تحولت إلى سيف الدولة ابن هود الذي أضاف إليه مرسية بمعاونة الجيش المسيحي.

وهذه مجرد أمثلة قليلة من سوء المصير الذي آلت إليه أهم المراكز التي كانت في إطار الوحدة الأندلس تحت الادارة المرابطية .

وحققت امارة أرغون الباسكية تقدما كبيرا في حركة الاسترداد خلال القرن 12م . وذلك باستيلائها على سرقسطة 1118 وعدد من المراكز كقلعة أيوب وجنوب نهر الابري **Ebre** الذي استولت إمارة برشلونة على باقي حوضه حتّى منابعه .

وفي أعقاب القرن العاشر ، (حوالي سنة 1093) تكونت نواة مملكة برتغالية على يد أحد الأمراء القادمين من فرنسا وهو ريموند بن غيوم الذي استولى من يد المسلمين على شنترين ولشبونة وضواحيهما ، لكن السلطة البرتغالية تأرجحت بسبب حركة الاسترداد المضادة من الطرف الاسلامي ، ولم تبدأ في تثبيت أقدامها الا منذ أواخر العهد المرابطي مع وجود منافسة قوية من جانب حركة ابن قسي التي سبقت الاشارة إليها . ويعتبر الفونس هنريكيز أول ملك حقيقي للبرتغال (1139 ــ 1185) .

الوضع الاجتماعي بالشمال الافريقي

إن التركيب الاجتماعي خلال القرنين السادس والسابع الهجريين (12 ــ 13م) لحقته تغييرات أساسية ، وباجمال ، فتح هذا التركيب المتنوع مجالات جديدة في تاريخ المنطقة وترتبت عنه أيضاً انعكاسات اجتماعية وسياسية بعيدة المدَى.والعناصر التي كانت معروفة قبل هذه الفترة واستمرت خلالها وبعدها هي :

1) العنصر الأمازيغي الذي يتألف من كتل رئيسية أهمها زناتة ومصمودة وصنهاجة ، وأطلق الرومان على هذا العنصر اسم البربر كما أطلقوه على الشعوب الجرمانية التي اكتسحت الامبراطورية الرومانية .

2) العنصر العربي القادم من الشرق كالذي استقر بالقيروان أو من الأندلس كالذي استقر بفاس ومراكش وسلا ، وهو في مجموعه قليل العديد لأن التأثير العددي داخل هذه المدن وغيرها ، للمجموعة الأمازيغية ظل أقوَى وأشمل من غيره إلى حلول العنصر الموريسكي على الأقل أي إلى القرن 17/11م .

3) المجموعة اليهودية التي بالرغم من انتماءاتها إلى الشرق أو الأندلس أو إلى فلسطين (منذ القرن الأول للميلاد) فهي تكوّن بحكم تقاليدها ومحافظتها على ديانتها وبالأخص على تخصصاتها المهنية وطبيعتها الانعزالية مجموعة قائمة الذات .

4) عنصر الحراطين بالصحراء ، والذي هو مزيج من عناصر زنجية وأخرى امازيغية ثم عربية .

أما العناصر الرئيسية التي عززت التجمعات السكانية فهي :

1) عرب بني هلال وسليم الذين اكتسحوا افريقية بعشرات الألوف منذ 440 (1048) في عهد الأمير الزيري المعز بن باديس (406 – 454/ 1016 – 1062) الذي تخلى عن بيعة الفاطميين وقرر العمل بالمذهب المالكي فانتقم منه الفاطميون بأن أغروا بني هلال المقيمين بمصر ، باكتساح افريقية ثم نقل الموحدون بعد استيلائهم على المغربين الأدنَى والأوسط مجموعات كبيرة منهم إلى المغربين الأوسط والأقصَى وإلى الأندلس حسبما أثبت ذلك عبد الواحد المراكشي في «المعجب» .

2) العنصر الصنهاجي الصحراوي الذي قدم من الصحراء الكبرَى بإفريقيا الغربية والذي ألف دولة المرابطين . وهذا بالاضافة إلى صنهاجة الجبل والذين يطلق عليهم اسم صنهاجة الظل وهم عنصر قديم بالمنطقة .

كل هذه المجموعات موجودة بالشمال الافريقي بما فيه ليبيا . لكن زناتة تنتشر في هذا القطر وفي افريقية والمغرب الأوسط ، وبقدر أقل في المغرب الأقصَى . كما أن أكبر عدد من المصامدة في المغرب الاقصَى وأكبر عدد من العرب في افريقية ، وصنهاجة الصحراء موزعون في الصحراء الكبرى حتَّى حدود السودان . فهم موجوذون بكثرة في مجموع الشمال الافريقي ، وانتشرت مجموعات إضافية منهم داخل المغرب الأوسط والأقصَى في عهد المرابطين الذين يمثلون أهم قبائل صنهاجة في افريقيا الغربية .

وكل من القبائل العربية والزناتية والصنهاجية الصحراوية تتميز بسكنَى الخيام وبغلبة الترحل والحياة الرعوية في أوساطها ، بينما تسود حياة الاستقرار وخدمة الأرض والتعاون الجماعي كتلة المصامدة التي تمتد أهم مناطقها بالمغرب انطلاقاً من ناحية الصويرة إلى تخوم الصحراء الغربية . وكانت للموحدين أول محاولة على نطاق المغرب الكبير لتحويل القبائل الرعوية إلى مجتمعات مستقرة تتولى خدمة الأرض وحماية الأمن بالمناطق الموكولة إليها بالمقابل ، فضلا عن تعهدها بالعمل في الخدمة العسكرية ، ولم يطل مفعول هذه المحاولة بسبب التقلبات السياسية في الحكم المركزي ، ثم للضغط الاقتصادي الذي مارسته قبائل بني هلال .

قيام الدولة الموحدية

ظروفه ــ عوامله ــ مراحله

الظـــروف

أوجز مؤلف «الأنيس المطرب بروض القرطاس» أوضاع المغرب في سنة 519/ 1125 بقوله : «وفي سنة تسع عشرة ، ضعفت الدولة اللمتونية ، وظهر فيها الخلل ، واشتغلوا بحرب المهدي والموحدين القائمين عليهم بجبل درن ، وعجزوا عن نصرة بلاد الأندلس ، وضعفت أحوالهم ، واشتغلوا بأنفسهم عنها ، وقوي أمر الموحدين ، وملكوا بلاداً كثيرة من بلاد المغرب حتَّى ضاقت الأرض على المرابطين»[1] وإذا عرفنا أن المرابطين انتهَى حكمهم بعد اثنتين وعشرين سنة من هذا التاريخ تأكدنا من أن احتضار نظامهم كان قصير الأجل حتَّى ليوشك أن يكون مفاجئا بالقياس إلى المقاومة الطويلة التي أبدتها أنظمة حكم أخرى كالحكم الزيري بافريقية وكالموحدين أنفسهم والذين صارعوا بني مرين مدة تتجاوز نصف قرن .

ويقول مؤلف المصدر المذكور تارة بقلمه وطورا بالاسناد إلى غيره : «كانت لمتونة قوما غلبت عليهم البداوة . وكانوا مع ذلك أهل دين متين ، وقام لهم بالمغرب والأندلس ملك عظيم ، فعدلوا في أحكامهم ، وواظبوا على الجهاد ، وقال ابن جنون : كانت لمتونة أهل ديانة ونية صادقة خالصة وصحة مذهب ، ملكوابالأندلس من بلاد الافرنج إلى البحر الغربي في المحيط ، ومن مدينة بجاية من بلاد العدوة إلى جبل الذهب من بلاد السودان ، لم يجر في عملهم طول أيامهم رسم مكس ولا معونة ولا خراج لا في بادية ولا في حاضرة»[2] .

وصاحب المصدر عاش بعد الموحدين . وهناك احتمال قوي بأن يكون هو نفسه مصموديا ، فلا يمكن اتهامه بالتحيز .

---

(1) الأنيس المطرب ، طبعة الرباط (1355/ 1936) ج 2 ، 100

(2) ن.م. ص 94

وهناك مصدر آخر تحدث عن نشأة الدولة الموحدية وعاصر فترة قوتها وهو «المعجب» لعبد الواحد المراكشي الذي ألف كتابه بالعراق بعيداً عن كل ضغط أو تملق، وليس بين المعلومات التي قدمها ما يوحي بالتحيز السياسي أو المذهبي، وهو يقول عن فترة ضعف المرابطين:

«واختلت حال أمير المسلمين رحمه الله بعد الخمسمائة، اختلالا شديداً فظهرت في بلاده مناكر كثيرة، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد، ودعواهم الاستبداد، وانتهوا في ذلك إلى التصريح، فصار كل منهم يصرح بأنه خير من علي أمير المسلمين وأحق بالأمر منه.

واستولى النساء على الأحوال، وأسندت إليهن الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل، وصاحب خمر وماخور، وأمير المسلمين في ذلك كله يتزيد تغافله، ويقوَى ضعفه، وقنع باسم إمرة المسلمين، وبما يرفع إليه من الخراج، وعكف على العبادة والتبتل، فكان يقوم الليل ويصوم النهار، مشتهرا عنه ذلك، وأهمل أمور الرعية غاية الاهمال، فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس، وكادت تعود إلى حالها الأول، لاسيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسوس»[3].

كل من المصدرين لا يتعارض مع الآخر لأن كليهما يعترف باستقامة المسؤولين الرئيسيين في النظام المرابطين، لكن علي بن يوسف كان رجل زهد وعبادة أغفل الاهتمام بالأمور السياسية فترتب عن ذلك:

1) ميل ولاة الاقاليم أو بعضهم إلى الاستبداد بالسلطة في أقاليمهم.

2) تفشي الانحطاط الاجتماعي وعرقلة تطبيق الشريعة بسبب الاحتماء بنساء البلاط، لأن المرأة في الوسط الصنهاجي الصحراوي ذات نفوذ قوي، وهكذا كان أرباب المواخير والحانات يلجأون إلى حماية نساء البلاط من سلطة الادارة والقضاء، وهذا ما يتعارض مع طبيعة المجتمع المحافظ في أغلبيته الساحقة، ولهذا التهاون نفسه ترك الشعب المرابطين وجها لوجه مع الموحدين بالرغم من أنه كان يؤدي الضرائب الشرعية وحدها في أغلب أيام الحكم المرابطي.

(3) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 177 (القاهرة 1368/ 1949)

3) استغلال الموحدين للوضع المنهار عن طريق حملة دعائية واسعة النطاق لم يسبق لها نظير في أنظمة الحكم الاسلامي فيما عدا مرحلة التمهيد للدولة العباسية بالمشرق، وللدولة الفاطمية بالمغرب الكبير.

وبالرغم من أن هناك شيئا من الفتور في حركة الجهاد بالأندلس أيام علي بن يوسف وأن النشاط العسكري الرئيسي الذي قام به الموحدون ضد المرابطين وانصارهم لم يبدأ إلا منذ سنة 526/ 1131 فإن عمليات الجهاد بالأندلس توبعت في عهد تاشفين أيام والده علي وإلى أخريات حياة هذا العاهل.

ويتبين من خلال تحركات الموحدين في عهد عبد المومن:

1) أن منطقة تادلا وكذا الأطلس المتوسط وغياثة صمدت ما لا يقل عن ثماني سنوات في وجه الزحف الموحدي. وكان المرابطون قد أقاموا بها قلاعاً لمراقبتها وحمايتها.

2) أن سبتة وغمارة تمسكتا ببيعة المرابطين بسبب تشبثهما بالمذهب المالكي، كما أن فاس ومكناس لم تستسلما إلا بعد نضال مرابطي مستميت.

3) أن المناطق الزناتية التي تضعف فيها المراقبة المرابطية، وبالأخص في شرق المغرب وداخل المغرب الأوسط بادرت في أغلبها إلى التعاون مع الموحدين.

العوامل

ترتبط عوامل قيام النظام الموحدي بشخصية المهدي بن تومرت من جهة وأوضاع العالم الاسلامي وبالأخص الشمال الافريقي والأندلس. فمحمد المهدي بن تومرت المؤسس السياسي والمذهبي للدولة، هو قبل كل شيء رجل ذو طموحات فكرية وسياسية. وهو أيضا ذو مقدرة عالية في التنظيم الجماعي ومخاطبة الجماهير واقناعها بضرورة التغيير، فالنظام الموحدي مدين بالدرجة الأولى لشخصه ولمؤسساته التي أحدثها وتركها تمارس عملها بموازاة النفوذ الشخصي لملوك الدولة. وقليل جدا من أنظمة الحكم في العالم تلتزم بخطة مؤسسها، التزام الموحدين بخطة زعيمهم ابن تومرت. بل إن قليلا جدا من مؤسسي أنظمة الحكم لهم تخطيط مرسوم وقابل للاستمرار.

ويرتبط تأسيس النظام الموحدي بقضايا العالم الاسلامي نظراً لسوء التدبير في

الحكم ولتبذير أموال الأمة وانهيار الأوضاع الاجتماعية كما حدثنا عن ذلك غير واحد من الرحالة والجغرافيين المغاربة كابن رشيد وابن جبير الأندلسي ؛ وكذلك للأوضاع السياسية الخطيرة خصوصا بسبب الاستعمار الصليبي لاجزاء مهمة من الشام.

كذلك وجدنا أن الشمال الافريقي كان يعاني من الضغط النرمندي وحتَّى الجنوي في افريقية ، ومن انعكاسات زحفة بني هلال على الأوضاع الاقتصادية. والمغرب المرابطي حتَّى وإن لم يفتر عن الجهاد بالأندلس إلا لفترات قصيرة ، فإن حركة الاسترداد الاسبانية المعززة بالتحالف الصليبي تمكنت من اضعاف الصف الاسلامي داخل الأندلس ، لاسيما مع وجود أعداد كبيرة من الزعماء المحليين الذين يتخاطفون المدن والقرَى لينصب كل منهم نفسه أميرا على احداها ويتعاون مع المسيحيين إذا لزم الأمر لاقصاء منافسه وقبول تنازلات ترابية ومالية لصالح هؤلاء.

ثم إن بذور الانهيار الأخلاقي وضعف الوازع الديني في بعض جهات المغرب وسيطرة المالكيين على التشريع والتنفيذ مع رفضهم لكل اجتهاد أو تجديد زاد من مبررات التحرك الموحدي. ومن ثم نجد أن عوامل قيام الموحدين تتلخص فيما يلي :

1) العامل الاجتماعي والخلقي :

لم يكن المرابطون من الحزم بحيث يقضون على الانحلال الخلقي الذي تجلت آثاره في بيع الخمر وشربها جهارا. وكانت النساء يخرجن سافرات مما يدل على أن عادة التلثم قد سبقت ظهور المهدي الذي لم يستطب سفور النساء وخروجهن متبرجات في المواكب. وكان المهدي يرَى في اشتغال الناس بالطرب مدعاة إلى اهمال الواجبات الدينية. وكانت آلات الطرب قد انتشرت في أواخر عهد المرابطين مما يدل على أن الحضارة قد بدأت تتمكن من دولتهم القصيرة العمر ، هذا إلى ما أصبح للنساء من نفوذ على الأمراء حتَّى في الميدان السياسي.

2) العامل المذهبي :

من أقوَى عوامل تأسيس الدولة ، إذ الواقع أن استبداد الفقهاء على عهد المرابطين ، والجمود الفكري الذي سيطر عليهم حتَّى أهمل الاجتهاد بالمرة قد جعل مؤسسي الدولة لا يكتفون بالعمل على ارجاع الفقهاء إلى الاستمداد من الكتاب والسنة فحسب ، بل عملوا في أيام عبد المومن والمنصور (على ما رواه بعض

المؤرخين كصاحب المعجب) من أجل اقرار المذهب الظاهري، وفي الحق أن المنبع الذي استمد منه الموحدون وهو تعاليم الغزالي التي تدعو إلى المحافظة على أصول الاسلام الأساسية هو غير المنبع الذي استقى منه المرابطون وهو الفقه المالكي الذي أصبح لفقهائه مطلق السيادة على الدولة ، مع العلم بأنه مذهب محافظ بالنسبة للمذهب الحنفي مثلاً . فالثورة على المذهب المالكي والفروع في جملتها ، قد حمل لواءها المهدي ثم خلفاؤه الذين لم يوفقوا في حمل الناس على المذهب الظاهري أو على الأقل ، في حمل الفقهاء على الاجتهاد .

3) العامل السياسي

ضعف ملوك المرابطين منذ عهد علي عن تسيير شؤون الدولة . فاما علي نفسه فقد كان إلى النسك أقرب منه إلى رئاسة الدولة أما خلفاؤه فلم يجدوا من الامراء الطموحين مساعدة كافية على إقرار هيبة الدولة في نفوس السكان ، الشيء الذي أثار غيرة المهدي فحارب فيهم هذا الضعف بلسانه ، حتى إذا لم يجد من المرابطين انصياعاً إلى ارشاداته قاومهم بحد السيف وقرر مواصلة هذه المقاومة إلى اسقاط دولتهم وتم ذلك فعلا على يد عبد المومن الذي كان أشد من سلفه على خصومه فأثخن فيهم قتلا وتشريداً ، فالموحدون كانوا يحبون الصرامة وكانوا هم أنفسهم صارمين ، ويرون أن في سلوك سياسة الشدة وسيلة لتدعيم ملكهم ، ثم أن توقف حركة الجهاد التي تحولت إلى حركة دفاع غير منظم منذ أواخر عهد علي ، في الأندلس ، كان له أثره في الدعاية ضد المرابطين الذين يمكن أن يعذروا في موقفهم بالأندلس نظراً لأن أهل الأندلس أنفسهم بدأوا يعملون لقلب نظام الحكم بمجرد أن آنسوا من المرابطين انصرافهم إلى مدافعة الموحدين بالمغرب وهكذا تظافرت العوامل لصالح الموحدين ضد المرابطين .

المراحل

تتحدد مراحل قيام الدولة الموحدية في خطوطها الكبرى كما يلي :

1) النشاط الدعائي ضد المرابطين وإقامة أجهزة سياسية : 515 ــ 524 (1121 ــ 1129) ويمثله عهد محمد المهدي بن تومرت الذي يواصل نشاطه في نفس المضمار خلفه عبد المومن من 524 ــ 534/ 1129 ــ 1139 .

2) فتح المغرب على يد عبد المومن : 534 ـ 543/ 1139 ـ 1148 .

3) فتح الأندلس : 540 ـ 555/ 1145 ـ 1160 .

4) فتح المغرب الأوسط : 546/ 1151

5) فتح افريقية : 546 ـ 555/ 1151 ـ 1160 .

النشاط الدعائي ضد المرابطين
ودور محمد المهدي بن تومرت
515 – 524 / 1121 – 1129

المجتمع المصمودي

قطن المصامدة جبال الأطلس منذ عهود سحيقة ، وامتدت فروعهم من ساحل المحيط الأطلسي إلى برقة . وتدخل منطقة سوس ودرعة في مواطن المصامدة . ومن قبائلهم : دكالة (القديمة) وحاحا وهرغة وتينملّل ، ووريكة ، ورجراجة ، وأيلانة ، ووازكيت (كاف معقودة) ، وإصادن ، وغمارة ، ورهون . وربما عد الكتاميون من المصامدة في رأي بعض الباحثين .

أما دولة الموحدين فقد تشكلت في أساسها من مصامدة الأطلس الكبير ، وقد امتزجت عناصر من صنهاجة بمصامدة السوس حيث كانت القبيلتان تتجاوران . وكان هذا الامتزاج في وقت مبكر . غير أن المصامدة ظلوا مع ذلك يشكلون كتلة لها مميزاتها . وأهم مناطقهم تقع بالمغرب خاصة ، من ضواحي الصويرة إلى مشارف الصحراء الغربية . وبعض قبائلهم انصهرت في غيرها كدكالة التي تعربت على يد بني هلال وكانت بها أيضا عناصر كثيرة من صنهاجة ، وكهرغة التي انصهرت فيما حولها من القبائل .

ويتميز المجتمع المصمودي بقدرته الفائقة على ممارسة النشاط الزراعي والتعاون الجماعي والميل إلى احترام الاعراف والقوانين والتكيف مع الحضارة بوجه عام .

المهدي بن تومرت قبل اعلان نشاطه السياسي

من بين الذين كتبوا عن المهدي بن تومرت بعد ظهوره أو قريباً من عصره نسبياً :

1) محمد بن أبي بكر الصنهاجي الملقب بالبيدق والذي عاصر أحداث نشاط المهدي بالمغرب ومصرع المرابطين.

2) عبد الواحد المراكشي : «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» ، كتبه املاءً سنة 621 / 1224 .

3) علي بن الأثير المتوفَّى سنة 630/ 1232 : «الكامل» ج 8.

4) أحمد بن خلكان المتوفَّى سنة 681/ 1282 : «وفيات الأعيان».

5) محمد بن شاكر الكتبي المتوفَّى سنة 764/ 1362 : «عيون التواريخ» ج 12.

وهؤلاء بعض الذين كتبوا ترجمته وهم كثيرون جدا لاسيما من المشارقة .

ولد محمد المهدي بن تومرت الهرغي في إيجلي إن وارغن بسوس حسبما ذكره المراكشي ، ونسب نفسه إلى السلالة النبوية من طريق الحسن بن علي بن أبي طالب . وكتب بنفسه نسبه ، كما أن ابن خلكان ذكر شجرته نقلا عن أديب عاصره (أي عاصر ابن خلكان) . على أن هناك من ينكر انتماءه إلى البيت النبوي . ونقل ابن خلدون ومؤلف روض القرطاس بعض الأقوال في ذلك . وكانت ولادته حوالي سنة 485 في حياة يوسف بن تاشفين . ولا يعرف شيء يستحق الذكر عن نشأته ودراسته . وهو على أي حال ينتمي إلى أسرة فقيرة ، على أنه تلقَّى دراسته الأولى بالمغرب في وسطه القروي . وفي سنة 501/ 1107 انتقل إلى المشرق شابا يافعا بعد أن قضَى فترة قصيرة على الأرجح بقرطبة . وفي الاسكندرية التقَى بأبي بكر الطرطوشي من فقهاء مصر البارزين ، وقد تلقَّى عنه في ذهابه إلى المشرق وعند ايابه . ويظهر أن أهم مركز علمي اجتذب ابن تومرت لوقت طويل هو بغداد . وهنا يؤكد ابن شاكر في عيون التواريخ أن ابن تومرت قضَى ثلاث سنوات بالمدرسة النظامية، وأنه درس بها على الغزالي وغيره. ويقول ابن شاكر : «وكان يظهر التعبد والزهد والورع، وربما أنكر على الغزالي حسن ملابسه، ولاسيما حين

لبس خلعة التدريس بالنظامية» . وهذه الفقرة من كلام ابن شاكر تقدم معلومات واضحة ودقيقة تضع حدا لشكوك بعض المؤرخين في لقاء المهدي مع أبي حامد الغزالي . ومن المتشككين ابن الأثير وعبد الواحد المراكشي[4] ، إلا أن الأحداث التي رواها ابن شاكر في ترجمة الغزالي[5] نفسه تفيد أن الغزالي هاجر في 489 إلى دمشق ثم إلى القدس حيث همّ بركوب البحر إلى المغرب ليجتمع بيوسف بن تاشفين «لما بلغه عنه من محبة أهل العلم والإقبال عليهم» ، لكنه تلقى نعي العاهل المغربي فعدل عن ذلك ، ثم التحق بطوس ومنها إلى نيسابور ، وأخيرا عاد إلى النظامية بعد أخذٍ ورد. وفي هذه المرحلة بالذات كان المهدي بن تومرت يلازم المدرسة النظامية . ومن ثم فالأحداث من حيث سياقها لا تدع مجالا للريب . ثم إن تضعضع الأوضاع بالمغرب بعد يوسف بن تاشفين وطغيان المالكية في بلاطه ، وكذا بالأندلس حيث قوبل كتاب «الاحياء» منهم بالنقد والطعن ، جعل الغزالي يعيد النظر في موقفه من الحكم المرابطي ، فنراه يتوقع لتلميذه الشاب الطموح ذي الروح النقادة مستقبلا في ميدان الاصلاح السياسي والعقائدي بالمغرب الاسلامي . وذلك أن الفقهاء لم يكتفوا بانتقاد الاحياء فحسب ، بل حرضوا علي بن يوسف على منع دراسة علم الكلام أي الفلسفة الدينية جملة ، وحملوه على احراق كتب الغزالي حتّى لقد هدد من يتناول كتبه بمصادرة أمواله وسفك دمه[6] . فليس عجيباً إذاً ، أن يكبر ابن تومرت في عين الغزالي وأن يرَى في مستقبله رجل دولة وهو بعد فتىً يافع[7] .

وبالعراق أيضا ، درس ابن تومرت على الكيا الهراسي وأبي بكر الشاشي أصول الفقه وعلى المبارك بن عبد الجبار وغيره الحديث . وشيوخه على كثرتهم لا نعرف منهم إلا القليل . ومن المؤكد أن ابن تومرت تلقى دراسة واسعة وشاملة لعلوم

---

(4) ابن الأثير ، الكامل ، 8 ، 294 . عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص 178

(5) ابن شاكر ، عيون التواريخ ، 12 ، 4

(6) مراكشي . م . س . ص 172– 173

(7) روض القرطاس ، ج 2 ، ص 106 (تحقيق م. الهاشمي الفيلالي) . وممن أكدوا اجتماع ابن تومرت بالغزالي أيضا : ابن خلكان (ط : بولاق) ج 2 ، 48 . وابن الخطيب : رقم الحلل ، ومؤلف الحلل الموشية ، وابن أبي دينار في المؤنس ، وأبو الفداء في تاريخه ج 2 ، والزركشي في تاريخ الدولتين (تعليق الفيلالي في روض القرطاس 2 ، 2 ، 104) .

عصره ، وبخاصة الشريعة وعلم الكلام والمذاهب العقائدية الاسلامية أو التي تنتسب إلى الاسلام . ومن المؤكد أن ما اجتذب ابن تومرت أكثر من غيره هو الحديث وعلومه ، وعلم الكلام على طريقة الأشعري . وواضح أن الجمع بين الحديث النبوي أو بين النصوص والفلسفة الكلامية فيه ما يحمل على التناقض ، لكن المهدي اكتفى من علم الكلام في أقطار المغرب بعقيدة التوحيد حسب الأشعري ، بينما احتل الحديث مكانا عالياً في العصر الموحدي تبعا لتوجيهات المهدي سواء في الدراسات العلمية أو في التطبيقات الشرعية .

وكما يقول ابن خلدون ، فقد عاد المهدي من المشرق شهابا واريا من الدين وبحرا متفجرا من العلم ؛ وقضى بالمشرق على الأرجح حوالي عشر سنوات تعرف خلالها على مآت المثقفين والطلبة ، وبرز على الخصوص كآمر بالمعروف وكناه عن المنكر قبل أن يستعد لمغادرة المشرق وكان معروفا بنسكه وزهده . كما كان على قدر كبير من الشجاعة والفصاحة وقوة الاقناع . وهذه صفات لابد منها لمن تحمل مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي مسؤولية تمثل المعنى الصحيح للمعارضة في الاسلام ، وهي معارضة تقوم على هدم الفساد وتقويم الانحراف وكانت عودته ابتداء من فاتح ربيع الأول عام 510 حسب روض القرطاس وابن خلكان ؛ وسنة 505 حسب ابن الأثير وابن شاكر . وحسب سياق الأحداث ، فإن ابن تومرت اجتمع بيحيى بن تميم الزيري في افريقية . وقد توفي يحيى هذا في 509هـ . ولذلك يمكننا اعتبار هذه السنة بالذات هي سنة اجتماع المهدي بالأمير الزيري ، فيكون لذلك استكمل عشر سنوات أو قريبا منها بالمشرق . وبذلك نزداد تأكدا من أن المهدي حصل على علم غزير بالمشرق ، وإلا فإن مقامه لأربع سنوات أو خمس لا يكفيه لذلك مع سعة المعارف التي تلقاها فعلا ، ومع كونه ذهب إلى المشرق وهو ابن 16 سنة أي بعيدا عن أن يكون قد حصل على تكوين ثقافي يستحق الذكر .

على أن المهدي بن تومرت أظهر غيرته على الاسلام وشريعته قبل عودته إلى المغرب . والواقع أنه كان ملتزما في مظهره ومخبره . قال عنه ابن خلكان : «كان ورعا ناسكا متقشفا مخشوشنا ، مُخْلَوْلقا كثير الاطراق ، بساما في وجوه الناس ، مقبلا على العبادة ، لا يصحبه من متاع الدنيا إلا عصا وركوة ، وكان شجاعاً فصيحاً في لسان العرب والمغرب ، شديد الانكار على الناس فيما يخالف الشرع ، لا

يقنع في أمر الله بغير اظهاره . وكان مطبوعا على الالتذاذ بذلك ، متحملا للأذَى من الناس بسببه» . ويتحدث ابن خلكان بعد هذا عن كون ابن تومرت قد تعرض للأذَى بمكة ، بسبب دعوته ، وأنه خرج إلى مصر فنال بها أذَى كثيرا بعد أن بالغ في الانكار حتَّى نفاه والي الاسكندرية فلما ركب السفينة عائدا إلى المغرب تابع مهمته فألقَى به ربانها في البحر ، ثم أنقذه ركابها تعاطفاً إلى أن وصل إلى المهدية فنزل بها ، وكان من عادته أن يتخذ المساجد مأوَى له . وبالمهدية بدأ يكسر أواني الخمر وآلات الطرب ويقوم بالتدريس . وهناك اجتمع بيحيَى بن تميم فأكرمه وأجله وقضَى بعد ذلك مدة بالمنستير مع صلحائه . ثم انطلق إلى بجاية مدرسا واعظاً . وواصل عملية الأمر بالمعروف وتغيير المنكر ، فطرده واليها . ومن ثم انتقل إلى ملالة بقربها . وهناك اتصل بعبد المومن بن علي بطريق الصدفة . وقيل إنه راجع اسمه في كتاب يتضمن تنبؤات فلكية أو روحانية تركها بعض أهل البيت بالمشرق ، فتبين له أنه ضالته والقائم بدعوته . وكان عبد المومن بن علي الكومي الزناتي يهم بالرحلة إلى المشرق للدراسة ، فأغراه المهدي بملازمته وأنه سيثريه بمعارفه التي أخذها من المشرق . وفي نفس الوقت تقريباً تعرف ابن تومرت على شاب آخر بملالة هو عبد الواحد الونشريسي الذي عرف عند المصامدة بعبد الواحد الشرقي (نسبة إلى شرق المغرب الأوسط) . وهناك من يذكر أن لقاء ابن تومرت بعبد المومن كان بتاجرا من إقليم تلمسان .

النشاط السياسي لابن تومرت

وكانت الأحلام السياسية تراود المهدي بن تومرت وهو بعد بالمشرق ، غير أنه كان يرَى أن المغرب لابد أن يكون منطلقه لأنه لا يتوفر بالمشرق على أية عصبية سياسية أو قبلية ، ولذلك كان وهو يهم بالعودة إلى المغرب «عازما على إقامة شرائع الله تعالى وسنة نبيه عليه السلام»[8] . لكن ابن تومرت خطط للعمل السياسي في مراحله التمهيدية ، انطلاقا من المغرب الأوسط ، وبالتضامن مع عبد المومن والونشريسي وكلاهما لم يكن له أي مركز اجتماعي أو سياسي ولا حتَّى تكوين ثقافي واسع . وكان المهدي يميل كما قال ابن خلكان إلى الأغمار أي المجهولين الذين ليس لهم بعد اشعاع يذكر بل نفهم من هذا أنه كان يفضل أن يركن إلى العناصر الشعبية

(8) روض القرطاس 2 ، 106 . وقد حقق عدة باحثين أن هذا الكتاب لصالح بن عبد الحليم وليس لابن أبي زرع

لا إلى المستنيرين حتّى تبرز شخصيته ونفوذه ولا تفسد تخطيطاته . ولم يتحرك ابن تومرت إلى المغرب الأقصَى حتّى أصبح رفقاؤه السياسيون ستة بينهم عبد المومن وعبد الواحد .

وفي تلمسان أقام بمسجد العباد (خارجها) ، وجذب بقوة شخصيته وعلمه مختلفَ فآت المجتمع التلمساني بما فيه وجهاؤه وحتّى المسؤولون الاداريون ، ويقول عبد الواحد المراكشي عن هذه المرحلة : «... وكان قد وضع له في النفوس هيبة ، وفي الصدور عظمة ، فلا يراه أحد إلا هابه وعظم أمره ، وكان شديد الصمت كثير الانقباض ، إذا انفصل عن مجلس العلم لا يكاد يتكلم بكلمة» . وحاول ابن صاحب الصلاة ، قاضي تلمسان أن يصده عن مذهبه عبثاً .

وفي سنة 514 قصد محمد بن تومرت مدينة فاس لأنه لم يكن له بد من الاتجاه عن طريقها إلى مراكش ، ففي هذا الطريق يمكن أن يكسب مزيدا من الانصار بين الأوساط الطلابية والمثقفة التي لا غنَى عن اكتساب عطفها إلى جانب الفآت الاجتماعية الأخرى . وهو إلى ذلك أسهل عبورا من الطريق الصحراوي الشاق والطويل ، ولكن ابن تومرت لقي عند مروره بمكناسة عداء بعض الفآت الشعبية المتعاطفة مع المرابطين .

وهكذا مارس ابن تومرت دعايته عن طريق الفكر أولاً ، حتّى يعمل على تحطيم نفوذ الفقهاء ويشوه معارفهم المحدودة في مسائل العقيدة والايمان . وما لبثت دروسه بفاس أن أدهشت الطلاب والمثقفين والرأي العام ، وحملت الولاة بفاس على عقد مناظرة جدلية بين ابن تومرت وفقهاء فاس ، وكان النصر حليفه ، لأنه كما قال صاحب المعجب : «وجد جوا خاليا ، وألفَى قوما صياما عن جميع العلوم النظرية خلا علم الفروع» . ولم يسع الفقهاء إلا التدخل لطرده من فاس ، وهذا سلاح العاجز . وكان ينزل في فاس بمسجد طريانة الذي قيل إنه تحول بعد قرون إلى زاوية للطائفة التيجانية[9] . وحسب روض القرطاس فقد أقام ابن تومرت بفاس قبل سنة 514 ، وعلى كل ، فقد تم طرده من هذا البلد طرداً سياسياً ومذهبياً تساوى فيه اضطهاد الولاة المرابطين وتعصب الفقهاء المالكيين . ولكن كيفما كان الأمر ، فقد كان هؤلاء الفقهاء يخشون من حمل الفآت الشعبية على عقيدة كلامية

(9) روض القرطاس ، 2 ، 108 . تعليق الأستاذ الفيلالي

هم غير مؤهلين للخوض فيها ولا حتّى لفهمها من غير دراسة حقيقية.

ثم دخل ابن تومرت مراكش وبرفقته عبد المومن تلميذه فقام مرة أخرى بكسر أواني الخمر حيث وجدها، واعتراض النساء السافرات وتوبيخهن. وكانت نساء المرابطين يسرن سافرات وحدثت حادثة أدت إلى محاكمة ابن تومرت في بلاط علي ابن يوسف، وهي اعتراض أخت أمير المسلمين في موكبها من لدن ابن تومرت الذي وبخها على سفورها وأسقطها عن راحلتها، وعقد مجلس من الفقهاء لمناظرة ابن تومرت، وبضغط منهم، وذلك أن الأنباء تواردت على كبراء المرابطين بأن ابن تومرت وأصحابه بدأوا يتحدثون عن ضرورة تغيير النظام الحاكم وكان بين المناظرين لابن تومرت شخصيات من كبار فقهاء الأندلس، وبينهم قاضي المرية محمد بن أسود، والعالم مالك بن وهيب الذي كان على اطلاع واسع بعلم الهيئة والفلسفة كما حضر عمر بن بنتيان وهو شخصية سياسية كبيرة، وسماه ابن الأثير بيان بن عثمان وليس كذلك، وكان مجلس المناظرة غاصا، جمع الفقهاء والطلبة وكبار رجال الدولة وتمكن ابن تومرت من افحام الفقهاء الذين يجهلون الجدل والأصول والاستدلالات العقلية، ووعظ أمير المسلمين حتّى أبكاه. وكان أعرف القوم بدخيلة ابن تومرت مالك بن وهيب الذي أشار على أمير المسلمين بقتله، أو بمنعه من الوصول إلى مناطق المصامدة، لكن ابن بنتيان استهان بحركة ابن تومرت، وهون أمره على العاهل، فأمر بطرده من مراكش. غير أن ابن تومرت أوى إلى مقبرة بظاهرها وتسامع به المعجبون، والتفوا حوله حتّى اجتمع منهم عدة مآت، وعندئذ هددته السلطة بالقتل إن بقي حول مراكش، فلجأ إلى أغمات بعد أن أظهر أن المرابطين هم كفار مجسمون أي يقولون باستواء الذات الالهية على العرش بكيفية معلومة. وكانت هذه التهمة بالنسبة للرأي العام كافية لإثارة غضبه ضد النظام الحاكم. ولو وضعنا مكانها في عصرنا الحاضر تهمة انحراف جهاز حاكم في بلد لائكي يومن بالنظام الشيوعي عن خط هذا النظام لوجد هذا الجهاز نفسه منبوذاً وفي موقف بالغ الخطورة، وتكفير شخص في الماضي مع إثبات ذلك بحجة ما هو أسوأ بكثير من مجرد الانحراف عن نظام وضعي في الحاضر.

وفي أغمات قصد ابن تومرت ورفاقه فقيها من المصامدة اسمه عبد الحق بن ابراهيم، فكاشفه ابن تومرت بطموحاته أي برغبته في الإطاحة بالنظام المرابطي، لكن الفقيه لم يشجع ابن تومرت على المقام بأغمات وهي في منبسط من الأرض

وقريبة المنال من السلطة ، وأشار عليه أن يقصد تينمل حيث يمكن أن يجد الرعاية والنصرة من سكانه المصامدة الذين تسامعوا به قبل مقدمه . فلما حل بينهم استقبلوه بالترحاب وتوافدوا عليه من نواحي الجبل . وتينمل تقع في احدَى قننه ، وهي من أصعب المعاقل منالا . وهناك وجد ابن تومرت الحماية من طبيعة المكان ، والانصار من قومه الذين لا يربطهم بالسلطة إلا رباط الجباية التي ياتي لتقاضيها سنويا فرقة من حرس الروم الذين كانوا في خدمة البلاط المرابطي ، فيعتدون على أعراض نساء المنطقة ثم ينصرفون بما استخلصوه من جباية ، حتَّى إذا حلوا بعد قدوم ابن تومرت بالمنطقة ، تواعد معهم على اغتيالهم لما كان يصدر عنهم من تصرفات اجرامية . ونفذت المؤامرة ، ونجا بعضهم ، ولم يفد ارسال عسكر تأديبي لإعادة اخضاع المنطقة لوعورتها . على أن الجيش حاصرها مدة دون أن يستطيع اقتحام تينمل .

وكان حلول ابن تومرت بتينمل في شوال 514/ 1120 . وبها بدأ التنظيم الجماعي لأنصاره . وكان يسير بهم على مراحل :

1) وضع عقيدة التوحيد بالأمازيغية وقربها إلى أفهامهم .

2) دعا أنصاره إلى اعلان معارضتهم للوضع عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

3) هيأ هؤلاء لترقب ظهور المهدي المنتظر حتَّى يخلص البلاد من شرور المرابطين ويعيد الناس إلى حظيرة الايمان الصحيح ، حتَّى اقتنعوا بقرب ظهور هذا المخلص ، وجمع الأحاديث المروية بهذا الشأن وأشاعها بين القوم .

4) اعتمد على عشرة من المقربين هم صفوة أنصاره وطليعتهم وأسبق الناس إلى اعتناق دعوته[10] ، وتجمع مختلف الروايات على أنه اتفق مع أصحابه العشرة على القيام بأدوار من قبيل التمويه على المصامدة حتَّى يتقبلوا دعوة المهدي على أنه الامام المعصوم والمهدي المنتظر . وقد وردت هذه الادوار التي تدخل في نطاق التدجيل ، في المصادر المذكورة سابقا وفي غيرها . ومن طريق هذه الادوار تمكن من عزل معارضيه والذين لم يقتنعوا بمهدويته ، وأتى عليهم قتلا حتَّى صفاهم

(10) راجع بشأن أصحاب المهدي : ابن الخطيب ، أعمال 3 ، 268 . البيدق ، أخبار المهدي ص 28 و32 ـ 33 ، علام ، الدعوة الموحدية ، ص 167 . وعن دور الطلبة والحفاظ : ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص 148 و175 .

بالتمام(11) . وذكر ابن الأثير أن قتلاه بلغوا السبعين ألفا وهو عدد لا يمكن تصديقه حتّى مع ما عرف عن المهدي من سفك للدماء ، لأن الافراط في التصفية الجسدية إذا بلغ ما دون ذلك بكثير أدّى إلى معارضة أسوأ ، وبالتالي إلى لجوء المناهضين إلى حماية السلطة التي لازالت قائمة وقوية .

وقام ابن تومرت ببناء مسجد بتينمل وسور البلد وبنَى قلعة حصينة على قمة الجبل لحماية المنطقة . وكان من أوائل القبائل التي دخلت في بيعته التي أعلنها في رمضان 515/ 1121 كل من هرغة التي ينتمي إليها وهنتاتة التي ظلت من أكبر القبائل المصمودية لعدة قرون . ويحدد مؤلف روض القرطاس يوم البيعة الخاصة بخامس عشر رمضان من السنة المذكورة ، وهي بيعة العشرة . وكانت يوم جمعة ، أما البيعة العامة فكانت في اليوم التالي بمسجد تينمل ، وفيها أعلن ابن تومرت أنه الامام المهدي المنتظر . ولهذا السبب تعتبر سنة 515هـ هي سنة إعلان دعوة المهدي بصورة رسمية. وطفق ابن تومرت إثر هذه البيعة مباشرة يوجه الدعاة إلى مختلف القبائل والتجمعات السكانية ، بعد أن اشتد عضده بالقبائل المجاورة . وسمى أنصاره بالموحدين وبالمؤمنين . وقبل انطلاقته الدعائية هذه على الصعيد الوطني ، أسس نواة المجالس التنظيمية التي استمرت أزيد من قرن بعده . وكان على رأس هذه المجالس ، مجلس العشرة ، ثم مجلس الخمسين ، فمجلس السبعين :

1) مجلس العشرة بمثابة مجلس الحكومة الذي تصدر عنه القرارات التنفيذية وهو الموجه الرئيسي والمخطط الأول للعمل السياسي والعقائدي ، وأعضاؤه : عبد المومن ، وأبو محمد البشير الونشريسي ، وأبو حفص عمر بن علي أصناك ، وسليمان ابن مخلوف الحضرمي ، وابراهيم بن اسمعيل الهزرجي ، وأبو محمد عبد الواحد الحصري ، وأبو عمران موسى بن تماري الجدميوي ، وأبو عثمان بن يخلف ، وأبو يحيَى بن بخت ، وأبو حفص بن يحيَى بن ينتي .

2) مجلس الخمسين ويشمل مجموعة من رؤساء القبائل ، ومهمته قبل كل شيء سياسية واستشارية .

(11) يراجع هنا : ابن خلدون ، تاريخ ، 6 ، 470 (ط. لبنان 1959م) ، وروض القرطاس 2 ، 118 ، 119 . وفي أخبار المهدي للبيدق ، ص 35 — 49 تفاصيل مهمة عن قبائل الموحدين

3) مجلس السبعين وهو دون سابقه أهمية.

وأنشأ ابن تومرت مؤسسات أخرى لخدمته الخاصة ولتبليغ تعليماته وما إلى ذلك مما أوضحه «البيدق» وابن صاحب الصلاة، في «المن بالامامة».. وخلال مقامه بتينمل وضع مجموعة من المذكرات والتوجيهات والمؤلفات بالعربية والأمازيغية، وبلغت دعوته مختلف الأوساط بما فيها الأوساط الصنهاجية والزناتية.

ولم يكن مقام ابن تومرت باستمرار في تينمل، بل كان يتنقل بين قبائل المصامدة، كما أنه أقام مدة طويلة بين قبيلته هرغة، واستقر بتينمل نهائيا بعد ثلاث سنين من بيعته حسب رواية ابن خلدون.

وفيما بين اعلان بيعة المهدي سنة 515 ووفاته سنة 524، وهي فترة مهمة من بداية الحياة السياسية للموحدين يضطرب سياق الأحداث في روايات المؤرخين، ولكننا نفهم أن هذه الفترة لم تمر سليمة من المواجهات بين المرابطين والموحدين، وحتّى ضد القبائل المصمودية التي لم ترضخ بسهولة لدعوة ابن تومرت. وبينها هزرجة التي قاومت المهدي مدة طويلة قبل أن تعلن بيعتها. وكانت قد انضمت مع أغمات وقبائل أخرى إلى لمتونة في حرب ضد الموحدين الذين حشدوا ثلاثين ألفا بقيادة ابن تومرت لسحق هذه المواجهة، وكان النصر فيها حليفهم.

ثم بعد فترة تهيأ الموحدون لمهاجمة مراكش بقيادة عبد المومن الذي أعلن في هذه المرة أميرا للمؤمنين[12]، كأن المهدي كان يرَى أن إمامته هي بالدرجة الأولى روحية عقائدية، ومن ثم ترك القيادة العسكرية والتخطيط السياسي في غيبته لهذا الخلف المعين. بل كان من المرجح أنه تجنب الزج بنفسه في مواجهة كبرَى خوفاً من أن يكون لمصرعه المبكر انعكاسات سيئة على الموحدين، وفي جميع الأحوال فقد هيأ عبد المومن لخلافته بشكل علني ومبكر.

على أن الموحدين لقوا مقاومة عنيفة بأغمات على يد الأمير أبي بكر بن علي، وتوبعت الحرب مدة ثمانية أيام كان المرابطون ينسحبون فيها تدريجيا حتّى دخلوا مراكش. وأثناء حصار استغرق ثلاثة أيام حسب روض القرطاس، وعشرين يوما

(12) نقل عبد الواحد المراكشي في المعجب، ص 195 — 196 خطبة توجيهية لابن تومرت في الموضوع، وقد تكون في الأصل باللهجة الأمازيغية وهو الأصوب

حسب ابن الأثير ، وخمسة وأربعين حسب ابن الخطيب استنجد علي بوالي سجلماسة الذي جرد جيشا كبيرا ، فقوي الموحدون صفوفهم ، ووقعت معركة حامية الوطيس في البحيرة بعيدا عن مراكش شمالا ، وخرج علي بن يوسف يشتبك مع الفرق المحاصرة من الموحدين لمراكش حول باب أيلان . وكان عدد الموحدين لا يقل عن أربعين ألفاً منهم أربعمائة فارس والباقون مشاة . وتمكن المرابطون بفضل النجدات التي تلقوها والمقاومة التي أبداها سكان مراكش وحاميتها من سحق الهجوم الموحدي الذي أدَّى الموحدون ثمنه غالياً وكان من قتلاهم الونشريسي الملقب بالبشير والذي تسميه الروايات مرة بمحمد ومرة بعبد الله أو عبد الواحد ، والواقع أن محاولة اقتحام العاصمة المرابطية تكررت عدة مرات حتَّى معركة البحيرة التي نسبت إلى أحد البساتين حول مراكش ، وكانوا يطلقون على البستان البحيرة ، ولازال هذا المصطلح مستعملا في المغرب بمدلول مقارب . وانسحب الموحدون في جنح الليل بعد الهزيمة ، وذلك في رجب 524/ 1129 .

واستقبل ابن تومرت وكان قد ابتدأه المرض ، نبأ الهزيمة الموحدية برباطة جأش وطمأن الموحدين وبشرهم بالنصر في معاركهم القادمة . ثم توفي ابن تومرت في 25 رمضان من السنة المذكورة ، فبين بيعته بتينمل ووفاته بها تسع سنوات وبضعة أيام . وقبل وفاته أوصَى عبد المومن بما يكون عليه تجهيز جنازته ودفنه بجامع تينمل حسب رغبته . وهناك روايات أخرى في مدة ولايته ، وكلها تتقارب مع المدة المذكورة أما سنة وفاته فمعظم الروايات تحددها بعام 524هـ .

ووصف صالح بن عبد الحليم في روض القرطاس ، المهدي بن تومرت بأنه كان «حسن القد أسمر اللون ، رقيق البشرة ، أفلج ، أقنَى ، غائر العينين ، خفيف العارضين ، له شامة سوداء في خده الأيمن ، ذا سياسة ودهاء ومكر وناموس عظيم ... الخ» .

كما وصف المصامدة بغلبة الجهل عليهم فتحيل على جهالهم حتَّى بايعوه .

عقيدة المهدي مضمونا وتأثيرا

يمكن أن نضع لعقيدة المهدي بن تومرت ترتيبا زمنيا وموضوعيا على الشكل التالي :

المرحلة الأولى :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتبدأ قبل مغادرة ابن تومرت المشرق وتستمر بارزة المعالم حتَّى سنة 515هـ ، وهذا المبدأ مطابق لمذاهب أهل السنة .

المرحلة الثانية :

وتتخلل الأولى مبتدئة منذ دخوله إفريقية حوالي 509 ، وتشمل تحليل العقيدة الأشعرية والدعوة إليها وتستمر حتَّى وفاته 524 . وفي هذه المرحلة أيضا يدعو المالكية إلى الاجتهاد والطلاب إلى الأخذ بطريقة السلف الصالح ، ويأخذ عن المعتزلة بعض آرائهم ، ويطبق السنة عن طريق القرآن والأحاديث النبوية .

المرحلة الثالثة :

وتبدأ في 515 عند بيعته بوصفه المهدي المنتظر ، وسمى نفسه إماما على طريقة الشيعة . وتشغل هذه الفترة الشق الآخر من نشاط المهدي وهو النشاط السياسي والعسكري ، لأن ضمان نشر العقيدة يتطلب أيضا نفوذا سياسيا ومجابهة عسكرية ضد النظام القائم الذي لا يتفق في جوهر العقيدة أحيانا مع ابن تومرت .

وكل من المرحلتين الثانية والثالثة يمثل فترة نشاط كبير في الميدان الفكري وتحقيق الثورة الثقافية عن طريق المذكرات والمنشورات والمصنفات العقائدية. وأهم خطوط العقيدة التومرتية :

1) الدعوة إلى عدم الأخذ بالفروع والرجوع مباشرة إلى الكتاب والسنة ، وحول هذا المبدأ بالذات تأرجحت مواقف الدولة الموحدية ، لأن الاطارات المؤهلة للتدريس والقضاء وسائر المناصب الدينية ليست مؤهلة في أغلبها للاجتهاد واستنباط الأحكام والأسرار الفقهية مباشرة من مصادرها الأولى ، ولكن مدرسة الحديث ستنشط بشكل كبير في عهد يعقوب المنصور . ومن جهة أخرى يأخذ القرآن مكانا ساميا في المدرسة الموحدية والزاميا في المجتمع المغربي . وهذا هو العصر الذي تفرض فيه قراءة القرآن جماعيا في المساجد وتظل كذلك حتَّى يومنا هذا. وكيفما كان الأمر، فإن المذهب المالكي لم يختف أبدا من ساحة القضاء ولا من العبادات في العصر الموحدي . ومن أهم ما تركه ابن تومرت من آثار في ميدان تنشيط الدراسات الحديثية بوصفها مصدرا للاجتهاد ، كتاب الموطأ الذي يجمع فيه أحاديث موطأ

مالك من غير أسانيد ، مع أبواب وأحاديث إضافية . وفي ميدان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وضع رسالة عن مقابح الخمر وما يترتب عن شربها .

2) الأخذ بنظرية الشيعة في عصمة الإمام وفي تسمية الخليفة بالامام . وقد وضع بشأن الإمامة رسالة واعتبر أن من مسؤولية صاحبها تصحيح الدعوة الاسلامية والعودة إلى السنة وجهاد الذين يخالفون دعوة الامام .

3) الأخذ بنظرية المعتزلة فيما يخص الارادة البشرية التي هي عطاء الهي للعبد حيث تمكنه من فعل الحسن والقبيح باختياره ، ولم يكن لهذا المبدأ كبير أثر بالرغم من أنه يتفق في الظاهر مع فكرة الاجتهاد الفقهي أو يوازيها على الأقل .

4) الدعوة إلى التوحيد على طريق الاشعرية ، وهم ينسبون إلى أبي الحسن علي ابن اسمعيل الأشعري البصري المتوفى ببغداد في العشرينات أو الثلاثينات من القرن الرابع/ العاشر م . وكان في بدايته معتزلياً مرموقا ، ثم تحول إلى الرد عليهم وانتقادهم ووضع عقيدة التوحيد المعروفة باسمه ، والتي لخصها تلخيصا جيدا ، تقي الدين أحمد المقريزي في الخطط[13] ، ومما ورد فيها بعد الصفات الالهية كالعلم والارادة والحياة ، قوله : «وجميع أفعال العباد مخلوقة مبدعة من الله تعالى مكتسبة للعبد ، والكسب عبارة عن الفعل القائم بمحل قدرة العبد ، والخالق هو الله تعالى حقيقة لا يشاركه في الخلق غيره ، فأخص وصفه هو القدرة والاختراع ، وهذا تفسير اسمه البارئ ، وكل موجود يصح أن يُرَى والله تعالى موجود فيصح أن يرى . وقد صح السمع بأن المسلمين يرونه في الدار الأخرى (في الكتاب والسنة) ولا يجوز أن يُرَى في مكان ولا في صورة مقابلة واتصال شعاع»[14] .

ووضع ابن تومرت عدة رسائل في عقيدة التوحيد متأثرا بالاشعري لاسيما رسالته المشهورة (المرشدة) والتي لا تتجاوز مقدار صفحة صغيرة من كتاب . والذي يقابلها بما كتبه الأشعري ، يجد أثر كتاباته واضحا في (المرشدة) التي لقيت صدى واسعا داخل المغرب وخارجه .

على أن عقيدة الأشعري التي تحمس لها ابن تومرت ، وجدت قبله سوقا رائجة

---

(13) المقريزي ، الخطط ، 3 ، 314 – 316

(14) نشرها الاستاذ عبد الله كنون في البحث العلمي ، عدد 9 سنة 1387/ 1966 . ص 185

بأقطار المشرق . فلما درسها ابن تومرت وتذوقها نقلها أو على الأصح عمل على نشرها في أوسع نطاق حتَّى عمت بعده المغرب الكبير كله والقطر الأندلسي . وكان ابن تومرت يهدف من ورائها إلى ابراز عظمة الخالق وخواصه التي لا يشركها فيه غيره حتَّى يثبت بذلك وجود الله ووحدانيته بشكل أقرب ما يكون إلى الاستدلال العقلي ، وذلك في الوقت الذي لا يقدم فيه الفقه المالكي ولا السني عموماً ما يتناول هذا الموضوع الذي شغل الفلسفة الاسلامية عبر القرون .

وفي الواقع لم يكن المجتمع المغربي يواجه بصفة مباشرة أزمة تشكيك عقائدي ولكن مؤثرات الفلسفة الرائجة بالأندلس وعجز المالكية عن حل مشكل الصفات الالهية التي وردت في القرآن نفسه كالسمع والبصر ونسبة اليدين إليه (بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ...) وما إلى ذلك مما لا يشبع فضول الطلبة بل مما يخلق البلبلة في عقيدتهم، دعا ابن تومرت كسلفه القديم الأشعري إلى تأويل ما يسمى بالمتشابه ، فالسمع والبصر لله قوة ادراكية داخلة في مشمول القوة الالهية الكلية التي لا تتجزأ تجزأ الأبدان . ويداه مبسوطتان أي نعمته شاملة مطلقة ، وهكذا ...

كان هذا الموضوع العقائدي أهم شيء استأثر باهتمام الموحدين كدولة في الميدان العقائدي ، ولقد أجمع المؤرخون على أنهم سلكوا في نشره والأخذ به مسلك الغلظة والشدة حتَّى أزهقوا من أجله أرواحا لا تحصَى ، وبالأخص في عهد ابن تومرت نفسه .

والحق أن الثورة الثقافية التي قادها ابن تومرت ، تركت صدىً عميقا في مستقبل المجتمع المغربي ، لاسيما في الميدان العقائدي . فبعد القرآن والحديث تأتي عقيدة الاشعري التومرتية مباشرة في خط اهتمامات الطلاب والدارسين ، وهي تدرس حتَّى في أبسط مستويات التعليم وتظل كذلك حتَّى فجر الاستقلال ، بل إن المغاربة في الشمال الافريقي تعلموا كيف يشرفون القرآن والحديث النبوي بشكل عميق وفي سائر المستويات الاجتماعية منذ انطلقت ثورة ابن تومرت بالذات .

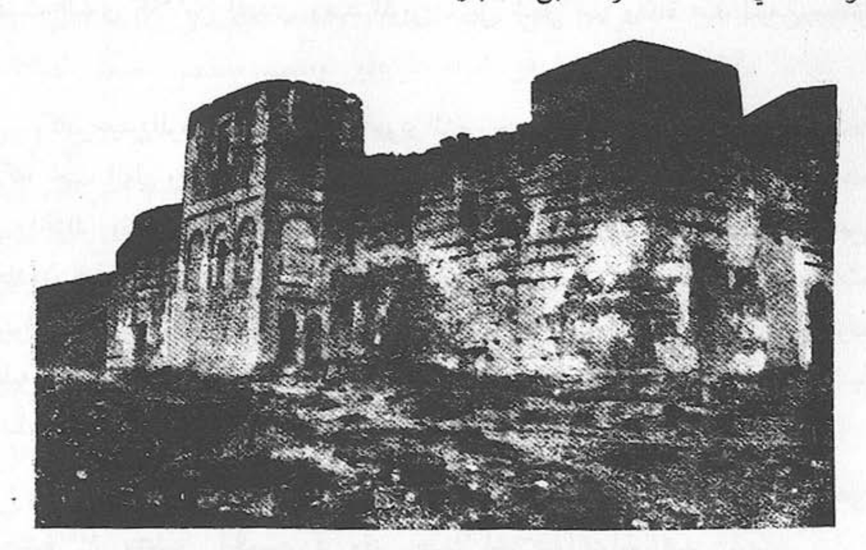
وكان المهدي ينكر كتب الرأي والتقليد . وله باع في علم الكلام مع نزعة خارصية كما يقول ابن الخطيب[15] . وممن أخذ عنه من العلماء محمد بن ابراهيم

(15) ابن زاكور ، المغرب المبين ، ورقة 35 م. خزانة عامة/ الرباط

المهدوي صاحب كتاب «الهداية»[16] المتوفي سنة 593 .

وينتمي قسم كبير من أصحاب المهدي إلى هرغة وهنتاتة وكدميوة وهسكورة ، وله عاطفون من وجوه مصر وصوفيتها وعدد من صوفية الشام[17] .

وإذا كان عبد المومن قد احتفظ بالمذهب المالكي فيما يظهر ، فإن يعقوب المنصور تخلّى عن هذا المذهب ليعتنق المذهب الظاهري ، وهكذا كان للظاهرية من الفقهاء نفوذ عظيم ، وكانوا كثيرين في عهده ، وكانوا يدعون بالحزمية أيضاً (نسبة إلى علي بن حزم) . غير أن هذا المذهب قد اختلط بالمذهب المالكي ، ثم تحول المنصور أخيرا إلى المذهب الشافعي حتّى كان يعين قضاة شافعيين في بعض الأماكن[18] . بل وجدنا أحد القضاة الآخذين بالمذهب الشافعي يعين بفاس سنة 536هـ وهو محمد بن علي القيسي من قلعة حماد ، والمتوفَى بفاس سنة 567 ، وله مؤلفات في الفقه ذكرها ابن الأبار[19] .



بقايا المسجد الموحدي بتنمل

---

(16) نفس المصدر ، ورقة 40

(17) بيدق ، صفحات : 29 ، 32 ، 33

(18) Fagnan, Annales, p.613

(19) ابن الأبار ، تكملة ، ص 676

عبد المومن بن علي

487 – 558 / 1094 – 1162م

شخصيته

عبد المومن بن علي الكومي. ولد في عهد يوسف بن تاشفين سنة 487 بقرية تاجرا من أعمال تلمسان. وكان عبد المومن ينفي نسبته إلى كومية وينتسب إلى معد ابن عدنان عن طريق قيس بن غيلان. وكان والده طياناً، وقد بشره زاجر بمستقبل ولده فتعهده بالتعليم والتثقيف. على أن البيدق لم يكتف بأن ينسب إلى البيت النبوي كلا من المهدي وعبد المومن، بل شمل بهما والدة عبد المومن وسائر قرابته.

وكان عبد المومن أبيض اللون أسود الشعر جميل الطلعة معتدل القامة فصيحاً ذكياً يحب العلم والعلماء كما كان مغرماً بمظاهر العظمة. اتصل بالمهدي بن تومرت في الجزائر وتلمذ عليه ثم رشحه المهدي لخلافته على رواية المعجب؛ أما ابن خلدون فيذكر في قصة طويلة أن بيعة عبد المومن تمت بعد وفاة المهدي بثلاث سنوات كان أصحاب المهدي خلالها يزعمون أنه مريض ويوهمون الناس بالدخول عليه وزيارته. ولا أرى هذه الرواية تحتمل الصدق لأن وفاة المهدي لا يمكن كتمانها مدة ثلاث سنوات مهما كانت الاحتياطات.

وقد تم ترشيح عبد المومن للخلافة بعد أن تشوف إليها شيوخ الموحدين من أهل العشرة[20] ومجلس الخمسين، وقد حسم الخلاف بتولية عبد المومن.

فتح المغرب 534 – 543 / 1139 – 1148م

انتظر عبد المومن مدة عشر سنوات بعد وفاة المهدي، وذلك قبل أن يشرع في فتح المغرب. وخلال هذه السنوات الطويلة كانت أعمال الموحدين تقتصر على

(20) تراجع أسماؤهم في روض القرطاس ج 2، ص 113 إلى 115

الدعاية والقيام بمناوشات طفيفة . وفي سنة 534 خرج عبد المومن بجيش من تينمل زاحفاً نحو الشمال حتّى وصل إلى جبال غمارة وتعرض لمقاومة سبتة على يد القاضي عياض ، ثم انضمت إليه مديونة وسار شرقاً يحارب بني عبد الواد الذين أمدهم تاشفين بن علي بجيش يقوده الروبرتير فقتله عبد المومن وأوقع بالزناتيين في سيرات .

ثم التحق تاشفين بن علي بوهران وترك ولي عهده ابراهيم بمراكش . على أن المغراويين وبني مرين بالشرق انضموا إلى عبد المومن ثم أحاطوا بالحصن الذي التجأ إليه تاشفين فهلك سنة 539 وهو يحاول النجاة بفرسه ، ثم استباح عبد المومن تاكرارت وفتح تلمسان سنة 540 وبقربها تلقّى بيعة أهل سجلماسة وهو مايزال محاصراً لها .

وفي سنة 541 فتح فاساً بعد أن فر واليها يحيَى بن أبي بكر الصحراوي إلى طنجة ثم إلى قرطبة ، فعين عبد المومن ابراهيم بن جامع عاملا عليها ، ثم مر بسلا فافتتحها ، وأخيراً حاصر مراكش تسعة أشهر ثم وضع السيف في رقاب أهلها بعد أن فتحها وقتل من وجد بها من أمراء المرابطين ومعهم ملكهم الصغير إسحق .

وفي سنة 542 ظهر ثائر بسلا يدعَى محمد بن هود بن عبد الله الماسي وكان قصاراً ثم التحق برباط ماسة في السوس وتلقب بالهادي وبايع لنفسه حتّى ضم إليه معظم المغرب وهزم جيشاً للموحدين بقيادة يحيَى بن إسحق أنكمار عامل المرابطين سابقا على تلمسان وأحد الذين بايعوا الموحدين من الأمراء اللمتونيين قبل سقوط دولتهم . وأخيراً قضِي على ثورة ابن هود بقيادة أبي حفص الهنتاني الذي كتب له أبو جعفر بن عطية رسالة إلى عبد المومن يبشره فيها بهذا الانتصار في معركة ماسة .

والظاهر أن البرغواطيين قد عادوا إلى الظهور من جديد بعد غلبة المرابطين على أمرهم فحاربهم عبد المومن فاستنصروا بيحيَى بن أبي بكر الصحراوي الذي كان في سبتة ، فهزم عبد المومن الذي عاد إلى حربهم فأخضعهم بينما عفا عن يحيَى الصحراوي ، واضطرت سبتة بدورها إلى الاستسلام بعد أن كانت قد رفضت دعوة الموحدين على يد عياض القاضي .

وانتهت الفتوح في المغرب بمكناس التي حاصرها الموحدون سبع سنوات إلى أن أتموا فتحها سنة 543 وبنوا تاكرارت التي تكون المدينة القديمة .

فتح المغرب الأوسط 546 / 1151م

كان عبد المومن يرغب في تخليص إفريقية من الوضعية النسيئة التي آلت إليها بسبب دخول العرب الوافدين عليها من مصر وتدخل النورمانديين الذين استولوا على بعض نواحيها وخصوصاً المهدية . وكان الصنهاجيون قد فقدوا السيطرة الحازمة على البلاد فرأى عبد المومن أن يتدخل لاصلاح الحالة بهذه البلاد ، غير أنه كان يرى أنه سيصطدم بمعارضة بني حماد في المغرب الأوسط ، فرأى أن يبدأ بفتح قلعتهم وباقي مناطق نفوذهم فاتخذ طريقه عبر ملوية وتلمسان ، ثم دخل مدينة الجزائر سنة 546 فالتجأ أميرها القائم إلى والده يحيى ببجاية التي تمكن عبد المومن من الاستيلاء عليها بعد أيام قليلة ، وفر يحيى آخر بني حماد بأهله ومتاعه قاصداً قسنطينة فطارده جيش الموحدين ثم اعتقلوه فدخل في طاعة عبد المومن وصحبه إلى مراكش وأنزله قصرا بديعا بها ، وكان يكرمه ويحترمه . على أن دخول الموحدين إلى القلعة كان عنوة حتَّى إنهم قتلوا بها ما يناهز عشرين ألف شخص . وقد أسس بنو حماد قلعتهم سنة 386 ودامت مملكتهم إلى سنة 546 وكانوا تابعين لأبناء عمومتهم صنهاجة إفريقية إلى أن انفصل المعز بن باديس بافريقية عن سلطة الخلافة الفاطمية سنة 435 ودعا لخليفة بغداد العباسي القائم بأمر الله ، فاستقلت مملكة بني حماد عن سلطة إفريقية إلى أن قضى عليها الموحدون كما تقدم .

فتح افريقية 546 – 555 / 1151 – 1160م

عندما أعلن المعز بن باديس الصنهاجي بالغاء دعوة الشيعة سنة 435 سلط عليه الفاطميون عرب بني هلال ، وهم بدو قطنوا مصر منذ عهد مبكر ، فاستقروا أولاً بناحية برقة ، ثم اتصل بالمعز أحد رؤسائهم ويدعَى مؤنس الرياحي ، فطلب اليه المعز استقدام إخوانه العرب ليتخذ منهم جنده ، وكان ينفر من قومه صنهاجة غير أن مؤنساً نصحه بعدم الاقدام على ذلك حتَّى ظن فيه المعز سوءاً . ثم قدم العرب بعد حين ، فنهبوا القيروان رغم المواثق التي أخذها عليهم المعز واتفق أن الملك نزل بأحد الأودية في عيد الأضحَى فهبوا إليه ونهبوا أمواله وأمتعته وأسروا عدداً كبيراً من صنهاجة ، ثم دخلوا القيروان من جديد وحطموا زروعها وسبوا نساءها وذريتها واقتلعوا خشب الدكاكين وخربوا المباني ، وكانوا إذا أسروا شخصاً لا يطلقون سراحه إلا بمال باهظ ، حتَّى أقفرت إفريقية من علمائها وأدبائها الذين تفرقوا في الأندلس والمغرب والشرق .

وازدادت الأحوال تحرجاً في إفريقية عندما أصبح النرمانديون يضايقون سواحلها، ثم استولوا على المهدية وزويلة سنة 476 وتكرر تدخلهم بافريقية والصنهاجيون يدافعونهم تارة ويستسلمون إليهم أخرى، وهم أثناء ذلك مشغولون بالفتن الداخلية التي أثارها عليهم بدو العرب، ففكر عبد المومن عندئذ في فتح هذا البلد حتّى يخلصه من الاضطرابات الداخلية واحتلال الأفرنج، وذلك على إثر تدخل آخر ملوك الزيريين.

وكان عبد المومن عندما انتهى من الاستيلاء على المغرب الأوسط سنة 546، عهد إلى ولده عبد الله الذي تركه هناك والياً، بشن حرب اقتصادية على إفريقية حتّى لا تدخل اليها المواد الأساسية عن طريق المغرب الأوسط، فيخضعها بهذه الوسيلة، وكان الحسن بن علي ملك افريقية الصنهاجي قد فر من المهدية منذ عاد إلى احتلالها النرمانديون سنة 544. ثم التجأ إلى ابن عمه يحيى بن عبد العزيز آخر ملوك بني حماد، وعندما قدم عبد المومن إلى المغرب الأوسط، اتصل به وأغراه بفتح افريقية، فأمر ولده عبد الله بقطع المرافق العامة عنها كما تقدم. ثم نازلها عبد الله سنة 553. وفي مراكش استقبل عبد المومن وفداً عن سكان زويلة الذين مثل بهم الأفرنج وطلبوا تدخله.

وفي سنة 554 توجه عبد المومن بنفسه إلى إفريقية في جيش قوامه 100 ألف مقاتل، وصحبه الحسن بن علي. ثم وصل إلى تونس فاستسلمت إليه على أن يقاسم سكانها أموالهم مناصفة بما في ذلك أجرة كراء المساكن. ثم رسا بأسطوله أمام المهدية، وحاصرها براً وبحراً. وأثناء الحصار استولى على صفاقس وقابس وجبال نفوسة وطرابلس وقفصة. ثم وصل أسطول من صقلية لنجدة المهدية، ويتركب من 150 قطعة. فاستولى أسطول الموحدين على سبع منها. واستمر حصار المهدية مدة ستة أشهر، ثم استسلمت سنة 555 وبها تم استيلاء الموحدين على إفريقية إلى طرابلس وبرقة. ثم عين عليها محمد بن فرج الكومي الذي كان يستشير في شؤونها الحسن بن علي الصنهاجي. وهو آخر أمراء صنهاجة بافريقية. أما المهدية فهي من بناء مؤسس الدولة العبيدية.

فتح الأندلس : 540 – 555/ 1145 – 1160م

اختلت الأحوال بالأندلس بعد وفاة علي بن يوسف، وظهر ثوار كثيرون استقل

كل منهم بناحية من الأندلس ، وطردوا عمال المرابطين ومن أشهر هؤلاء الثوار :

1) أحمد بن حمدين

ثار بقرطبة سنة 539 وكان قاضيا بها واستقل بملكها متخذاً لقب أمير المسلمين ، ولم تكد تنقضي سنة على قيامه حتّى ثار أهل قرطبة واستنجدوا بيحيَى ابن غانية آخر ولاة المرابطين ، فاستولى على قرطبة ، وهادنه المسيحيون بينما التجأ ابن حمدين إلى عبد المومن بالمغرب ، ثم رجع بعد ذلك إلى مالقة حيث توفي سنة 546 . وقد اتخذت قرطبة عاصمة للموحدين بالأندلس في عهد عبد المومن[21] .

2) ابن حسـون

الحسين الملقب بابن حسون ولي قضاء مالقة 538 فحاصره اللمتونيون عندما ثار بها بعد بضعة أشهر ، فاستنجد بالنصارَى وضيق على السكان بالضرائب حتّى هاجموا قصره فأحرق أثاثه بنفسه ثم انتحر .

3) محمد بن عبد الله الخشني

تولى قضاء مرسية في عهد علي ثم استبد بها سنة 539 ، وتحرك نحو غرناطة ينجد بها ثائراً ضد المرابطين ، فقتلوه سنة 540 .

4) أبو القاسم بن قسي

ثار بغرب الأندلس ، وكان صوفياً درس كتب إخوان الصفا وغيرها وبنَى رابطة قرب شلب . وفي سنة 538 ثار ضد اللمتونيين ، ولكنه عجز عن النيل منهم فراسل عبد المومن وكان ينتسب إلى المهدوية ثم اتصل به سنة 540 فأكرمه وأصحبه جيشاً من الموحدين . غير أن هؤلاء اشتغلوا بحرب الماسي ، فسار ابن قسي يخطب ود النصارَى بقلمرية ، وعندئذ ثار عليه أهل شلب وقتلوه سنة 546 على رواية ابن الخطيب في أعمال الأعلام . وقيل بل حمل إلى عبد المومن الذي عفا عنه ثم اغتاله بعض أصحابه وهي رواية المعجب .

5) ابن مردنيـش

محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش قيل إنه من أصل إسباني . كان والده والياً

(21) المن بالامامة ، ص 203

على الثغور الشرقية ثم وليها بعده عبد الرحمن بن عياض عند سقوط دولة المرابطين ، فصاهره محمد بن سعد الذي تمكن من شرق الأندلس منذ سنة 542 واستمر تملكه لهذه الناحية عدة سنوات . وكان صهره ابن همشك والياً على جيان . وقيل إن ابن مردنيش تحريف عن Martinez وفي سنة 540 ظهر ثائر آخر هو سيف الدولة أحمد بن هود الذي استعان بالنصارَى في استيلائه على مرسية ودخل تحت سلطته ابن مردنيش نفسه الذي كان والياً عليها من قبل القاضي ابن عياض ، وذلك قبل أن يتقوّى نفوذ ابن مردنيش . غير أن سيف الدولة سرعان ما خر صريعا في وقعة «البسيط» سنة 540 وهو يحارب النصارَى الذين عاثوا فساداً في نواحي مرسية وبلنسية .

وفي هذه الأثناء كان ابن غانية عامل المرابطين ، يبذل جهده في إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأراضي التي كانت خاضعة للمرابطين ، فاسترد المرية وإشبيلية وغيرهما وكاتب أحمد بن قسي عبد المومن يشجعه على فتح الأندلس ثم ذهب إليه سنة 540 فسير معه جيشاً بقيادة أبي عمران موسَى بن سعيد وكان الجيش يتألف من 20 ألفاً من المشاة وعشرة آلاف فارس. وتم استيلاء الجيش الموحدي بسرعة على حصن الجزيرة وشريش في مطلع سنة 541 ثم سقطت إشبيلية في يد الموحدين بعد بضعة أشهر وتلتها مالقة . إلا أن ثورة محمد بن هود الماسي بالمغرب أوقفت إلى حين ، نشاط الموحدين في الأندلس .

أما قشتالة فقد توحدت تحت سلطة الفونس السابع ، غير أنه ما كاد يموت ، حتَّى انفصلت ليون ونافار عن هذه المملكة ، بينما تشكلت قبل موته بعدة سنوات ، مملكة بالبرتغال على يد الفونس هنريكيز الذي استولى على لشبونة وشنترين سنة 541 وضم اليه على التوالي عدة أماكن من غرب الأندلس بمعاونة الصليبيين الذين أمدوه بالسفن والرجال .

وخلال سنة 541 تعاون أمراء النصارَى بالشمال مع البيزيين والجنويين بقيادة الفونس السابع على الاستيلاء على المرية التي سقطت بعد ثلاثة أشهر من حصارها ولم يستردها المسلمون إلا بعد بضع سنوات . ثم تقدم الكونت ريموند أمير برشلونة إلى طرطوشة سنة 542 فحاصرها براً وبحراً بمساعدة الجنويين كما ضم إليه لاردة وأفراغة .

وفيما كان عبد المومن مشغولا بحرب ابن هود الماسي . استقبل وفداً من الأندلس سنة 542 برياسة القاضي أبي بكر بن العربي . وقد توفي هذا العالم بفاس سنة 543 . وكان ابن غانية قد يئس من إنقاذ ما تبقّى من مدن الأندلس التي كان المرابطون يسيطرون عليها وكادت قرطبة تقع في قبضة النصارى فاستقر رأي علي بن غانية على الاستسلام إلى الموحدين حتّى يتحملوا مسؤولية الجهاد في الأندلس غير أنه توفي خلال السنة المذكورة ودفن بغرناطة وسرعان ما وصلت قوة من جيش الموحدين المرابطين باشبيلية مع نجدة من والي لبلة يوسف البطروجي . ولم تلبث قرطبة أن وقعت في يد الموحدين سنة 543 .

وتوافد على عبد المومن من الأندلس الثوار السابقون الذين سلموا اليه رسمياً سلطة المراكز التي كانوا يحتلونها، وتخلف عن الحضور ابن قَسيّ.

وفي سنة 546 توجه جيش من الموحدين بقيادة أبي حفص وأبي سعيد بن عبد المومن فحاصروا المرية التي أنجدها ألفونس السابع وحليفه ابن مردنيش . ثم استسلمت المدينة إلى الموحدين وتلتها بياسة وأبدة . حتّى إذا كانت سنة 549 حاصر يحيَى بن يغمور والي قرطبة واشبيلية مدينة لبلة وقتل من أهلها 8 آلاف شخص . مما أغضب عليه عبد المومن الذي استقدمه إلى مراكش حيث اعتقله مدة ثم أطلق سراحه ، كما استسلمت غرناطة برياسة ميمون بن بدر اللمتوني . وأثناء ذلك كان ابن مردنيش قد أخضع أكثر شرقي الأندلس حتّى دخل في طاعته محمد بن علي الكومي والي جيان سنة 555 . فعبر عبد المومن إلى جبل طارق . ولكنه لم يصطدم بابن مردنيش . بل استقر بجبل طارق وفضل غزو الناحية الغربية التي كانت مهددة بنشوء مملكة البرتغال ، فبعث بجيش يقوده أبو محمد الهنتاتي الذي استولى على باجة ويابرة وبطليوس كما استولى أبو يعقوب بن عبد المومن على قرمونة ، وتم بناء حصن جبل طارق خلال هذه الأحداث سنة 555 كما بنَى مسجد الكتبية قبل ذلك بسنتين .

ومن الملاحظ أن تدخل عبد المومن بالأندلس قد بدأ خلال اشتغاله بفتح إفريقية والمغرب ، مما أدَّى إلى تشتيت جهوده ، ولكنه مع ذلك توفق في اخضاع الشمال الافريقي وترك الصحراء وشأنها ، بينما كان عمله بالأندلس ينقصه التركيز . مع العلم بأنه كان يحارب عدة خصوم في آن واحد .

احراق كتب الفروع

بدأت عملية إحراق كتب الفروع في عهد عبد المومن سنة 555 حتّى يلزم الفقهاء والقضاة بأخذ الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة وقد توبعت هذه العملية بعده خصوصاً في عهد المنصور وشاهدت هذه السنة تكسير الشمال الافريقي وضرب الخراج على ثلثي الأراضي أما الثلث الآخر فقد ألغي ضرب الخراج عليه وعدت داخلة فيه ، الجبال والأنهار والبحيرات والطرق ونحو ذلك .

قبيلة كومية بالمغرب

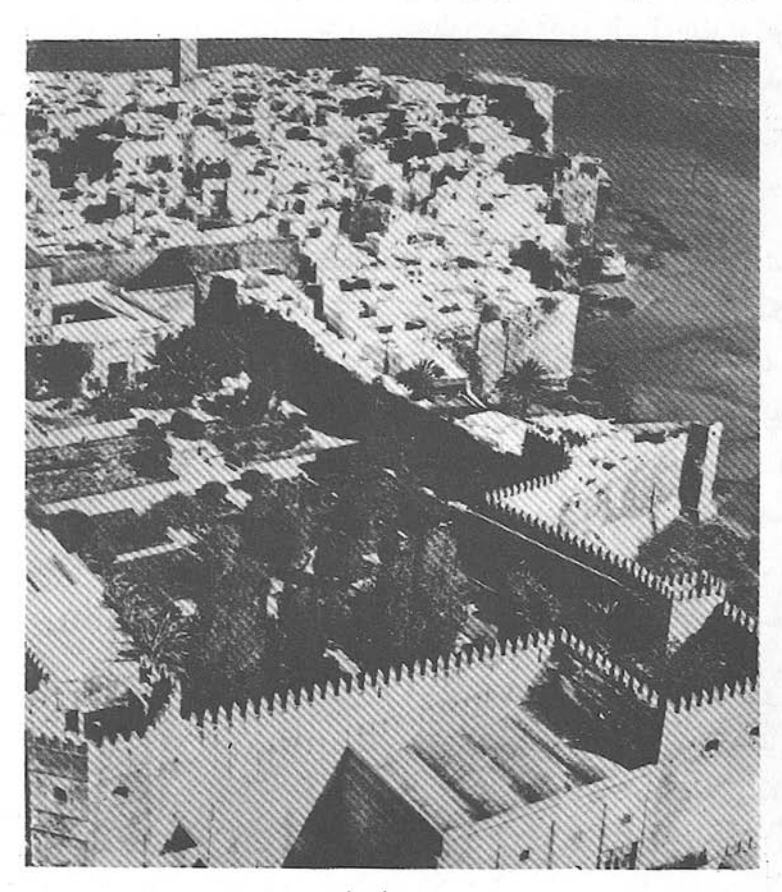
من المعلوم أن عبد المومن ينتسب إلى قبيلة كومية البترية التي كانت تستوطن المغرب الأوسط . وقد حدث أن بعض أقرباء ابن تومرت وهم آيت ومغار فكروا في اغتيال عبد المومن بحجة أنه لا ينتمي إلى المصامدة ، ولكنهم قتلوا مكانه شيخا يدعَى أبا ابراهيم وكان قد أشعر عبد المومن بخطتهم وبات في خيمة عبد المومن ، بينما اختفَى هذا عن خصومه ، ثم اعتقل المتآمرون وقتلوا بأمر عبد المومن . ومنذئذ قرر عبد المومن أن يحتمي بقومه من كومية فاستقدمهم سراً وكان عددهم يبلغ أربعين ألفا ، فاتخذ منهم بطانته وحراسه .

وفاة عبد المومن 558 / 1162م

تهيأ عبد المومن للجهاد بالأندلس ، فأضاف قطعاً كثيرة إلى اسطوله الذي وزعه على عدة مراكز وبلغ عدده 400 قطعة ثم جمع جيشاً قوامه مائة ألف مجاهد بناحية سلا غير أنه أصيب بمرض أشرف منه على الموت وكان قد رشح ولده محمد للملك ، بيد أنه كان نزقا طائشاً ، وتوفي عبد المومن سنة 558 ، فاتفق يوسف وعمر ابنا عبد المومن على خلع أخيهما محمد ، ثم سلم عمر الأمر إلى يوسف . أما محمد فلم يدم في ولاية العهد أكثر من شهر ونصف .

وكان عبد المومن يستعمل الصرامة في موضعها واللين حيث يلزم ذلك ، فقد ثار عليه أخوا المهدي عيسَى وعبد العزيز باشبيلية وكادا يفتكان بصاحب لبلة ثم التحقا بالمغرب وفتكا بعامل مراكش ، فقبض عليهما وصلبا ، كما قتل عبد المومن أبا جعفر ابن عطية بسبب ميله إلى لمتونة ، وعفا عن القاضي عياض نظراً لما كان يتمتع به من احترام لدَى أهل المغرب ، كما عفا عن أهل سبتة الذين ثاروا على سلطته ، وسجن يحيَى بن يغمور بسبب فتكه بأهل لبلة .

وقد قام عبد المومن بادخال تغيير ملموس على النظم الادارية والسياسية التي أنشأها سابقوه ، كما شاد عدة مبان ومنها مسجد الكتبية وقصبة الاوداية ، وسأعرض بشيء من التفصيل لهذه المآثر في باب الحضارة.



دور العظمة

أبو يعقوب يوسف

558 - 580 / 1162 - 1184م

شخصيته

يوسف بن عبد المومن من أم بربرية هي زينب بنت القاضي أبي عمران الذي كان يستخلفه عبد المومن علي مراكش إذا خرج عنها ، وصفه المراكشي بأنه كان «أبيض ، تعلوه حمرة ، شديد سواد الشعر مستدير الوجه ، أفوه ، أعين إلى الطول

ما هو ، في صوته جهارة ، رقيق حواشي اللسان ، حلو الألفاظ ، حسن الحديث ، طيب المجالسة ، أعرف الناس كيف تكلمت العرب ، وأحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها في الجاهلية والاسلام» .

وكان إلى ذلك يتقن علوم اللغة ويعنى بدراسة الفلسفة والطب ، حتَّى اجتمع له من كتب الفلسفة قريب مما اجتمع للحكم الأموي[22] ؛ وكان من جلسائه أبو الوليد بن رشد وأبو بكر بن طفيل ، وكان أبو يعقوب عاملا على اشبيلية في عهد أبيه .

بويع أبو يعقوب بعد موت والده بفضل أبي حفص الهنتاتي وتابع سياسة والده في داخل المغرب وخارجه ، وتلقب بالأمير في البداية ولم يتخذ لقلب الخلافة إلا بعد أربع سنوات من توليته ، وحافظ على خطة عبد المومن في اتخاذ كبار المسؤولين في الدولة من المصامدة والأسرة المالكة خاصة ، حتَّى إنه عين ولده يعقوب وزيراً له في أواخر أيامه .

أعماله في المغرب (ثورة غمارة)

لم تكد تمضي سنة على توليته حتَّى نهض بغمارة ثائر صنهاجي يدعَى مرزدغ ، فاستولى على تازا وضرب السكة باسمه ، وبايعته قبائل غمارة وأوربة وصنهاجة ، غير أن جيش الموحدين قضَى على حركة هذا الثائر الذي حمل رأسه إلى أبي يعقوب .

ثم ظهر ثائر آخر هو سبع بن منغفاد من غمارة وذلك سنة 561 فلم ينجح الموحدون في إخضاعه بقيادة أبي حفص الهنتاتي ، حتَّى اضطر أبو يعقوب إلى محاربته بنفسه ثم قتله وبعث برأسه إلى مراكش ، ولم يظهر بعد هذين ثائر بالمغرب أيام أبي يعقوب ، فانصرف إلى الجهاد بالأندلس وإخضاع ثورة قامت بافريقية . وتعد ثورة غمارة تعبيرا عن غضبها على زحزحة المذهب المالكي عن مكانته .

ومن أعماله المهمة بالمغرب في ميدان العمران ، بناء قنطرة تانسيفت أو إعادة بنائها على الأصح سنة 566 .

في الأندلس : «فكرة ضم المقاطعات المسيحية»

في سنة 560 تجمعت جيوش بلنسية ضد الموحدين ومعها 13 ألفاً من قشتالة

(22) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص 238

وأرغون ، وكانت قيادة الثوار لابن مردنيش ، فهاجمهم أبو سعيد أخو الخليفة بقرب مرسية ، وهزمهم في هذه المعركة التي دعيت بوقعة الجلاب التي على اثرها انضم كثير من الموالين سابقاً لابن مردنيش إلى الموحدين وبينهم عامل جيان ومرسية أحمد الوقشي الشاعر .

والحق أن الحالة لم تكن حسنة في الأوساط المسيحية بقشتالة وليون حيث كان الأمراء يتنافسون على الرياسة ، ولم يكن نشاط الامارتين يتجاوز إنجاد ابن مردنيش بالمؤن والجيوش ، أما هنريكيز فقد افتتح عدة معاقل في الجنوب الغربي .

حتَّى إذا كانت سنة 564 بعث أبو يعقوب بجيش إلى الأندلس يقوده الشيخ أبو حفص ، لانقاذ بطليوس التي استولى عليها من قبل فرديناند ملك ليون ، ونجح الموحدون في استرداد بطليوس ، بينما أخذ نفوذ ابن سعد أمير بلنسية يتقلص رغم مساعدة قشتالة وليون .

وفي سنة 565 توجهت قوة أخرى من الموحدين بقيادة أبي حفص أخي الخليفة ، وكانت القوَى تتألف من 20 ألف فارس فحاصروا مرسية بمساعدة ابراهيم ابن همشك حليف ابن مردنيش سابقاً ، إلا أن مرسية لم تسقط في أيدي الموحدين هذه المرة .

حتَّى إذا كانت سنة 566 جمع أبو يعقوب جيشاً قوامه مائة ألف من البربر والعرب ، ثم تقدم بنفسه للجهاد بالأندلس ، واستخلف أخاه أبا عمران ولم يحل بقرطبة إلا سنة 567 حيث كانت الصلات قد ضعفت بين ابن مردنيش وألفونس ملك أراغون .

وانضافت قوة من جيش الموحدين بغرناطة إلى يوسف، وكان أخوه عثمان عاملا عليها فقصد الجيش مرسية في مكان يدعَى الجلاب، وكان ابن سعد قد تكاثر خصومه من قواده، فقتل جماعة منهم؛ وتم اللقاء بينه وبين الموحدين في الجلاب كما ذكر، فانهزم محتميا بمرسية، ثم مات أثناء الحصار الذي ضربه الموحدون عليها. فأجمع رأي أولاده وأسرته على تسليم الأمر ليوسف، وذلك بتوجيه يوسف أخي ابن سعد ، وهكذا هدأت فتنة ابن مردنيش ، وتزوج يوسف إحدَى بناته حتَّى يتألف بهذا الصهر أسرته ، كما قلد أفرادها مناصب واقطعهم اقطاعات .

ثم تقدم يوسف من إشبيلية قاصداً وبذة ، فحاصرها مدة ثم هادن أهلها لمدة سبع سنين ، وعاثت جيوشه فسادا في أراضي قشتالة ، بينما كان الفونس ملك أراغون يهاجم ناحية بلنسية . ولم ينجح الموحدون في الاستيلاء على باجة ، فانهزموا أمام سانشو البرتغالي .

وأثناء مقام أبي يعقوب بالأندلس بنَى جامع إشبيلية وقصبتها وأدخل الماء إليها وأقام جسرا من القوارب بواديها .

وفي سنة 571 رجع الخليفة إلى المغرب ، ولكن الموحدين استمروا في صراعهم مع النصارَى الذين استولوا على قونقة ، إلا أن الحرب كانت في جملتها مناوشات سواء في البحر أو في البر ، وكان البرتغال أشد في حربهم على المسلمين من قشتالة وأراغون ، مما جعل يوسف يفكر في مهاجمة البرتغال ثم الزحف على ممالك النصارَى شمالا حتَّى يخضع الأندلس كلها .

وفي سنة 580 بدأ الخليفة بتنفيذ خطته ، فجمع جيشاً قوياً شاركت فيه عناصر مختلفة من البربر والعرب ، واحتشد هذا الجيش بسبتة ثم قصد اشبيلية وانضافت إليه قوات أندلسية ثم تقدم نحو شنترين فحاصرها واستولى عليها بعد أسبوعين من الحصار ، ثم أمر ولده أبا اسحق بالخروج بالجيش لمهاجمة لشبونة ولما كان قد تلقَى الأمر ليلا ، فقد ظن أن الزحف سيكون ليلا كذلك . فارتحل الجيش وأبو يعقوب يجهل ما حصل حتَّى بقي في جماعة يسيرة من حراسه وقواده ، وبلغ الأمر سكان شنترين البرتغال ، فهاجموا معسكر أبي يعقوب بعد أن أنجدهم سانشو بجيش قوامه 15 ألف مقاتل ، وكان الهجوم صباحا ، وشارك فيه عشرون ألفاً من النصارَى الذين وصلوا في هذا الصباح بقيادة أسقف شنت ياقب .

ولم ترض ليوسف شهامته الفرار ، فثبت في مكانه حتَّى دافع عن نفسه .ومات دونه عدد من العبيد والحراس وثلاث جوار ، ثم خر صريعاً من طعنات الأعداء وحمل فيما يقال إلى الجزيرة الخضراء حيث مات سنة 580 ونقل جثمانه إلى تينملل .

في افريقية «بنو الرند»

كان بنو الرند من أواخر صنهاجة الذين حكموا إفريقية ، وكان جدهم عبد الله عاملا على قفصة التي توارثها أبناؤه بعد ضعف الدولة وكان عبد المومن قد سيطر

عليها ولكنهم رجعوا إليها بعد موته واستعانوا بعرب رياح ، فتوجه يوسف بنفسه إلى افريقية حيث اخضع عرب رياح ونفاهم إلى مراكش كما قتل آخر بني الرند سنة 576 .

ويحدثنا صاحب المعجب أن أبا يعقوب قد استقبل خلال هذه الرحلة وفدا عن صقلية محملاً بهدايا ثمينة من ملكها ، الذي كان يخشاه كثيرا ، وأنه قد تعهد بدفع إتاوة سنوية إليه .

وإلى ذلك ، فقد قمع أبو يعقوب ثورة خطيرة بجنوب تونس ؛ ذلك أن مملوكاً تركياً يدعَى قراقوش قد اصطحب بعض الأتراك ودخل إلى طرابلس ثم هاجم جنوب تونس ، فرده أبو يعقوب على أعقابه .

وقد قام أبو يعقوب بأعمال سلمية من أهمها الشروع في بناء مدينة الرباط عاصمة المغرب اليوم ، كما بنَى جامع اشبيلية وأدخل على هذه المدينة إصلاحات تقدم ذكرها ، ومن وزرائه أخوه أبو حفص وأبو العلاء ادريس بن جامع ـ وولده يعقوب المنصور .



نموذج من حياة العرب

يعقوب المنصور

580 - 595 / 1184 - 1198م

شخصيتـه

لا يعرف ما إذا كان المنصور قد بويع ولياً للعهد أيام والده ، غير أن بيعته كملك تمت بعد وفاة والده مباشرة على يد ابن عمه أبي زيد عبد الرحمن بن عمر بن عبد المومن. باشبيلية، وكان له في أسرته منافسون. فأسكتهم بالأموال والاقطاعات كما أن أبا حفص الهنتاتي تولى تدبير بيعته بالمغرب[23] ، وأمه رومية ، وإسمها ساحر ، وكان جميل الطلعة أقنى الأنف شديد الذكاء أسمر اللون ، مفتول العضلات جهوري الصوت مهتما بأحوال رعاياه صادق الظن. وقد وزر لوالده في آخر أيامه فأحسن القيام بمهمته . وقام خلال ملكه بأعمال جبارة في ميدان العمران والاحسان كبناء المارستانات والقناطر والآبار العامة ، وكان يصلي بالناس ويجلس بنفسه للحكم والمظالم . وقد تابع إحراق كتب المذاهب والفروع ، وكان مجلسه يضم كبار الأدباء والعلماء كابن زهر الطبيب وابن رشد الفيلسوف وأبي بكر بن طفيل وأبي بكر بن الجد وعبد الملك بن عياش الكلتب وكان يختار وزراءه من أسرة الشيخ أبي حفص عمر ، أما حجابه فكانوا من الموالي ، بينما كان أكثر قضاته وكتابه أندلسيين .

أعماله في إفريقية بنو غانية وترحيل العرب .

شغلت أحداث إفريقية بال المنصور ، بسبب ظهور بني غانية بها وفتنة العرب الذين قدر لهم أن يلعبوا فيما بعد دورا خطيرا عند ضعف الدولة المصامدة .

أما بنو غانية ، فتتلخص قصتهم في أن جدهم يحيَى وأخاه محمداً كانا عاملين بالأندلس من قبل علي بن يوسف . وكان الأول ببلنسية ثم قرطبة والثاني ينوب عنه في نواحي قرطبة . حتَّى إذا مات يحيَى وظهر المصامدة على مسرح السياسة بالمغرب ، خرج محمد إلى الجزر الشرقية فملكها ودعا لبني العباس ثم تولى بعده

(23) ابن صاحب الصلاة المن بالامامة ، ص 232

إسحق الذي ضايق النصارى في البحر المتوسط ، وكان مع ذلك يتقرب إلى الموحدين بالهدايا . وكاتبوه في عهد أبي يعقوب سنة 578 من أجل الدخول في دعوتهم ، وتردد حيناً ثم هلك أثناء بعض غزواته ، فخلفه ولده علي الذي انتهز فرصة وفاة أبي يعقوب فاستولى على بجاية سنة 581 وأميرها يومئذ أبو الربيع حفيد عبد المومن ثم ضم إليه الجزائر ومليانة ومازونة وقلعة بني حماد ؛ وعجز عن فتح قسنطينة ، فوجه إليه المنصور أسطولا بقيادة محمد بن ابراهيم وجيشاً بقيادة أبي زيد ابن أبي حفص الذي انهزم أمام ابن غانية ومن تابعه من العرب والبربر والغز، ثم كر عليه الموحدون فقتلوه ، فاتفق إخوته ، على تولية أحدهم وهو يحيى بن اسحق الذي دخل إلى افريقية واستولى على قفصة سنة 582 فخرج المنصور إليه من مراكش ثم لقيه عند الحامة فهزمه وأفلت معه صديقه قراقوش الغزي أحد موالي صلاح الدين الذي تقدم أنه كان قد استولى على جنوب افريقية في عهد أبي يعقوب وبعد أن استرجع المنصور قفصة وباقي المدن الثائرة نفى العرب الذين كانوا من أكبر أسباب البلاء على الموحدين إلى المغرب.

وكان التحالف بين قراقوش والعرب وبني غانية سنة 580 دفعا لتوسع الموحدين شرقا (24) .

أما قصة دخول العرب إلى إفريقية ، فقد كان بنو هلال يقطنون في ناحية الطائف بشبه الجزيرة العربية ، كما كان بنو سليم باحواز المدينة المنورة ثم انتقل الفريقان إلى البحرين وعمان ودخل قسم منهما في دعوة الفاطميين فنقلهم هؤلاء إلى شرقي النيل . ولما ساءت العلاقة بين المعز بن باديس الصنهاجي والمستنصر الفاطمي ، وتنصل المعز من دعوة العبيديين سنة 443 أشار اليازوري الوزير على الخليفة الفاطمي أن يسرح العرب إلى افريقية حتى يقضوا على الصنهاجيين ويحلوا محلهم في الدعوة للعبيديين. وعمل المستنصر باشارة وزيره، ولما كان هؤلاء العرب قد أعجبوا بخصب افريقية وخيراتها، فقد تسلطوا على المدن والقرى يخربون الزرع والمباني ويسبون النساء والذرية، ونزل بنو سليم بليبيا، وقسم منهم بافريقية بينما نزل بنو هلال بإفريقية، وانضم إليهم بنو جشم، ولما دخل ابن غانية افريقية، ناصر هؤلاء العرب فتابعهم المنصور حتى انسحبوا إلى صحراء برقة وكان الذين حاربوا المنصور هم بنو جشم وبنو هلال. أما بنو سليم فقد لزموا الطاعة.

(24) Fagnan : Annales du Maghreb p.605

وفي سنة 584 نقل المنصور بني جشم وهلال إلى المغرب ، فكثر بهم العرب هناك ، واستقروا بسهول المغرب المحادية للمحيط الأطلسي : بنو جشم ببلاد تامسنا ، وبنو رياح من بني هلال بناحية إلغرب فيما بين القصر الكبير وساحل المتوسط ، كما نقل المقدم والعاصم والأثبج وقرة من بني هلال إلى تامسنا ، وكذا الخلط أقرباءهم ، ولكل من هذه القبائل فروع من أشهرها بنو سفيان الذين كانت لهم الرياسة على جشم وكان ضمن هذه القبائل المرحلة عدد قليل من بني معقل لا يتجاوز المائتين فنزلوا فيما بين ملوية وتافيلالت ثم السوس ، ومنهم ذوو حسان والشبانات .

وقد لعب هؤلاء العرب دورابالغ الأهمية في عزل وتولية عدد من ملوك الدول المتعاقبة منذ الموحدين ، بالاضافة إلى أن الملوك عجزوا عن وضع حد لتصرفاتهم السيئة نحو السكان ، على أن أكثرهم انصرفوا مع الزمن إلى الفلاحة ، حتّى إن أخصب أراضي البادية على المحيط الأطلسي هي الان بأيدي أعقابهم . ولا ينكر مع ذلك فضل هذه القبائل في تعريب قسم هام من السكان سواء من حيث اللغة أو التلاقح البشري .

ثورة بعض الأمراء

خلال مقام يعقوب المنصور بافريقية ثار بالأندلس سليمان بن عبد المومن عامل مرسية ، كما ثار بالمغرب عمر الرشيد أخو الخليفة ، في تادلا ، فخرج يعقوب إلى المغرب قاصدا فاس ، فتلقاه عمر قرب مكناس ، فاعتقله ، ثم توجه نحو سلا فلقيه عمه سليمان أبو الربيع فاعتقله ثم أمر بقتلهما .

استنجاد صلاح الدين بالمنصور

في سنة 583 افتتح صلاح الدين بيت المقدس وقرر متابعة الحرب ضد الصليبيين حتّى يطردهم من سواحل الشام، وكان أسطوله أضعف من أن يجابه قوات الصليبيين الذين كانوا يستعينون بأساطيل جنوة والبندقية، فأرسل مبعوثاً إلى المنصور الموحدي يستنجد بأسطوله، وكان المبعوث عبد الرحمن بن منقذ الذي كان من البيوتات الكبرى بالشام وأحد الذين أبلوا في حرب الصليبيين بلاء حسنا وقد

حمله صلاح الدين رسالة إلى المنصور من إنشاء القاضي الفاضل ، مع هدايا قيمة أهمها مصحفان كريمان .

وقد أورد المقدسي نص الرسالة في كتاب «الروضتين» كما ذكر تفاصيل وافية عن رحلة ابن منقذ إلى المنصور . غير أن بعض المؤرخين يروون أن المنصور رفض تلبية طلب صلاح الدين بحجة أن هذا لم يخاطبه بلقب أمير المومنين. ومع أن هذا في رأيي سبب وجيه في حد ذاته لأن اللياقة الديبلوماسية كانت ولاتزال ذات أثر بالغ في سير العلاقات بين الدول والرؤساء فإنه لم يكن مع ذلك سوَى عامل واحد من عوامل رفض المنصور لطلب زميله . هذا إذا ثبت أن صلاح الدين أهمل خطاب المنصور بأمير المومنين .

وهكذا نجد أن رفض المنصور يرجع إلى الأسباب التالية :

1) توسع صلاح الدين في فتوحه التي شملت الشام ومصر واليمن ، ثم رغب أن يمتد غرب مصر فبعث بأخيه تقي الدين ثم بمولاه قراقوش التقوي (مع العلم بأن هناك قراقوشاً آخر هو وزير صلاح الدين) فأغار على برقة وطرابلس .

2) اتحد قراقوش مع عرب بني هلال وابن غانية ضد الموحدين وأفلت كلاهما من بطش المنصور سنة 582 . على أن هناك قائداً آخر باسم قراقوش وفد على المنصور سنة 583 مع إخوانه الغز وهم طائفة من السلاجقة ، فأكرم المنصور مثواهم وأقطعهم «مواضع ليس لأحد من قرابته مثلها» كمَا يقول المعجب .

3) في نفس الوقت الذي وفد فيه ابن منقذ إلى المغرب كان المنصور مشغولا بحرب النصارَى الذين استولوا على قسم كبير من مملكة البرتغال الحالية ، ومن البديهي أن يكون أسطول المنصور موزعاً في هذه الظروف بين عدة ثغور دفعاً لكل هجوم منتظر وإن كان من الممكن أن يضحي بقسم من هذا الأسطول لانجاد المسلمين في الشرق .

على أن ابن خلدون يروي من غير اسناد أن المنصور ربما كان قد بعث فيما بعد بمائة وثمانين قطعة من أسطوله الذي منع النصارَى من سواحل الشام .

أعمال المنصور في الأندلس «غزوة الارك»

في سنة 585 توجه يعقوب المنصور إلى الأندلس قاصداً شنترين على رواية ابن أبي زرع أو شلب على رواية المراكشي ، والرواية الأولى تقول إن المنصور قد عاث في نواحي شنترين وأشبونة ورجع من غزوته هذه بغنائم وافرة ، والثانية تقول إن بيدرو بن هنريكيز ملك البرتغال كان قد استولى على شلب سنة 585 واستعان بالصليبيين فتجهز إليه المنصور فلم يطق النصارى دفاعه وخرجوا عنها وعما كانوا قد ملكوه من أعمالها . والرواية الأولى أكثر احتمالاً ، لأن المنصور كان يريد الانتقام لوالده بمهاجمة شنترين .

أما «أشباخ» فيستقي من الروايات المسيحية التي تذكر أن أسطولا قدم سنة 585 يتألف رجاله من عشرة آلاف مقاتل من الألمان ونواحي اللورين وفريزلاند ، وأن هذا الأسطول قد رسا قرب شانت ياقب من غير أن يتوقف في احتلال كومبستلا ، ثم تلاه أسطول آخر من انكلترا والفلاندر ، ورسا قرب لشبونة وبمساعدة هذا الأسطول تمكن سانشو من احتلال باجة ويابرة ثم شلب . غير أن أشباخ يؤكد أن معظم الروايات المسيحية لا تذكر بعد ذلك ما إذا كانت شلب قد رجعت إلى المسلمين ، ولكن المؤرخين العرب يثبتون ذلك مع شيء من الاختلاف في تاريخ الاسترداد ، إما سنة 586 أو 587 وكان ذلك حسب أكثر الروايات العربية على يد محمد والي قرطبة .

وهكذا يكون المنصور قد جاز مرتين إلى الأندلس ، احداهما سنة 585 هاجم فيها شنترين دون أن يحصل منها على طائل ، بينما تمكن قائده بقرطبة أن يستولي بعد سنة تقريباً على شلب . وخلال مقام المنصور بالأندلس انعقد بينه وبين النصارى صلح لمدة خمس سنوات ، ثم نقض النصارى العهد بمهاجمة المسلمين والتوغل في أراضيهم فكان جواز المنصور للمرة الثانية إلى الأندلس سنة 591 ، وفيها حدثت غزوة الأرك تاسع شعبان .

وكان الخلاف قد نشب بين النصارى في الشمال وجيرانهم بفرنسا ، فاشتغل الفونس الثالث ملك قشتالة بمناوشة المسلمين ، يساعده المطران مرتين الذي استغل فرصة مرض المنصور بالمغرب ، فتوغل في الأراضي الاسلامية عبر جبل الشارات والوادي الكبير ، وضعف الموحدون عن رد عدوان الجيوش النصرانية ، واتفق ان

العرب في شرقي المملكة بافريقية عادوا إلى نشاطهم الهدام . فانتهز الفونس هذه الفرصة وكتب إلى المنصور خطابا يطالبه فيه بأن يرسل إليه جملة من عبيده بالمراكب والسفن حتَّى يقاتله بها في بلاده ! فكان جواب المنصور : «ارجع اليهم فلناتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون» . ثم أضاف : «الجواب ما ترَى لا ما تسمع» وبدأ يعد جيشاً ضخماً شارك فيه المصامدة وزناتة والعرب وغمارة والعبيد والغز وغيرهم ثم نزل بالجزيرة الخضراء ، ومنها توجه إلى مكان قريب من قلعة الأرك بين قرطبة وقلعة رباح ، واحتشدت قوات النصارَى قريبة من قلعة الأرك أيضاً وبعد أن خطب المنصور في الجيش عبأه ليلا وأمر باعداد الأسلحة اللازمة وعهد بالقيادة العامة لأبي يحيَى بن أبي حفص الذي تقدم بمعظم الجيش نحو حصن الأرك بينما بقي المنصور في قوة احتياطية من الموحدين والعبيد ليكر على النصارَى فيما لو انهزم جيش أبي يحيَى ، وحط الجيش رحاله بحيث يشرف على الحصن . ثم التحم الفريقان ضحوة يوم تاسع شعبان 591 ولم يكن عدد فرسان قشتالة يتجاوز عشرة آلاف . وسقط أبو يحيَى في المعركة فهجم العرب والمتطوعة على الفريق الذي صرع القائد المسلم ، بينما هجم المصامدة وغمارة وزناتة على القوة التي تحيط بملك قشتالة وكان ضمنها عشرة آلاف من الرجالة ثم أطبق المنصور بدوره على الأعداء . فاندهش النصارَى لهذه النجدة المفاجئة وظهر الضعف في صفوفهم ثم انهزم كثير منهم لائذاً بالفرار وضمنهم الفونس نفسه ، والتجأ بعضهم إلى حصن الأرك حتَّى اقتحمه عليهم المسلمون فوجدوا به أسارى الجيش الاسلامي الذين وقعوا في قبضة النصارَى . أما الاسارَى الآخرون من النصارَى والذين لم يتمكنوا من الافلات فقد كان عددهم يفوق عشرين ألفاً أطلق المنصور سراحهم تسامحاً منه وخطأ كذلك .

وفكرت مملكتا ليون ونافار أمام هذا الانتصار الذي حصل عليه الموحدون في التحالف معهم ، بينما تابع المنصور غزوه في بلاد النصارَى حتَّى بلغ طليطلة التي حاصرها سنة 592 من غير نتيجة ولكنه فتح عدة قلاع كقلعة رباح ومجريط ووادي الحجارة وخرب عدة قرَى ومزارع حتَّى بلغ ضفاف دويرة واضطر ملك قشتالة إلى أن يطالب بعقد هدنة فأجابه المنصور إلى ذلك وانعقد الصلح لمدة خمس سنوات بعد أن تم عقد حلف آخر مع ملكي نافار وليون . وخلال ذلك تواردت الأنباء من

افريقية على المنصور تبلغه عودة علي بن إسحق إلى إفريقية . فعجل بالرجوع إلى المغرب .

وقد تلقّى المنصور خلال مقامه بالأندلس وانتصاره في معركة الأرك تهانئ العلماء والشعراء الذين تباروا في التنويه بهذا الانتصار ، والحق أن غزوة الأرك قريبة الشبه في أهميتها ونتائجها بغزوة الزلاقة . فلو أن المسلمين لم يكتب لهم فيها النصر ، لتمكن النصارَى من التوغل في الأراضي الاسلامية والاستيلاء على كبريات المدن كاشبيلية ومرسية وغرناطة . وقد تجلت أهمية هذه المعركة في أن النصارَى اضطروا إلى طلب الصلح بعدها . كما أنها كانت بدون شك آخر معركة عظمَى تم فيها للمسلمين انتصار ساحق بالأندلس مع نتائج ايجابية .

وقد كثر عدد أسارَى المسيحيين في عهد المنصور مما أهاب بالبابا اينوصان الثالث أن يوجه سنة 1189م رسالة شديدة اللهجة إلى المنصور حتَّى جمع فيها بين المسلمين والوثنيين . ومع ذلك فإن المنصور استجاب لرغبته في مفاداة الأسرَى(25) .

وأثناء مقام المنصور بالأندلس ، اطلع على أشياء أنكرها من أبي الوليد بن رشد الحفيد . فقد شرح هذا الفيلسوف كتاب الحيوان لأرسطو وعلق عليه ، وكان مما ورد في تعليقاته على الزرافة قوله : «وقد رأيتها عند ملك البربر» وهو يقصد بدون شك المنصور أو أباه مما أحنق الملك عليه زيادة على أن الفقهاء سعوا به إليه بتهمة الاشتغال بالفلسفة . فاضطر المنصور إلى مجاراتهم وطرده من بلاطه شر طردة وأمر بلعنه وإحراق كتب الفلسفة . ولكنه ما كاد يعود إلى المغرب حتَّى استقدمه ليستفيد من اطلاعه في الفلسفة . وقد توفي ابن رشد بمراكش سنة 594 وهي السنة التي رجع فيها المنصور من الأندلس .

مآثر المنصور

أتم المنصور بناء مدينة الرباط وبنَى مسجد سلا الكبير ومدرسته الجوفية ، كما بنَى جامع حسان ولم يتممه وصومعة الخيرالدة باشبيلية والجامع الأعظم بقصبة مراكش وصومعة الكتبيين بها بالاضافة إلى المقصورة التي أنشأها بجامعه والتي كانت

(25) Le Conte de Mas Latrie, Relations et commerce, p.131

تظهر بدخوله وتختفي بخروجه وشاهد المقري آثارها سنة 1016هـ . كما بنَى بيمارستان مراكش الذي تحدث عنه صاحب المعجب .

وفاتـــه

لم يكتب للمنصور أن يتوجه إلى افريقية ، فقد أصيب بمرض توفي على إثره في مطلع سنة 595 وكان قد عهد بالملك لابنه الناصر سنة 586 . ودفن بتينمل . وقد قيل عن المنصور إنه كان يريد التوجه إلى مصر حتَّى يغير مناكرها وكان يقول نحن إن شاء الله مطهروها . وكان يحسن إلى العلماء ويتقرب إلى الأولياء ويجلس للمظالم .

ويروي روض القرطاس أن المنصور لما أشرف على الموت قال : «ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت أني لم أفعلها : الأولى إدخال العرب من إفريقية إلى المغرب ، مع أني أعلم أنهم أهل فساد ، والثانية بناء رباط الفتح ، أنفقت فيه بيت المال وهو بعد لا يعمر ، والثالثة إطلاق أسارى الأرك ولابد لهم أن يطلبوا بثارهم» .

وقد صدق بعض حدس المنصور في الأولى والثالثة ، أما الثانية ، فقد كتب لرباط الفتح أن يعمر حقيقة ولكن بعد قرون من وفاته حيث أصبحت هذه المدينة ملجأً لمجاهدي الأندلس، وغصت بها الأسر المهاجرة من هذه البلاد.

وقد روَى ابن الأثير وابن خلكان روايات مختلفة عن مصير المنصور بعد رجوعه من الأندلس ، فقد قيل إنه عاد إليها وجاهد فيها متنكراً حتَّى مات ، كما قيل إنه ذهب إلى الشرق حاجاً ثم توفي بسوريا حيث يوجد مزار باسمه . وعلى كل ، فإن العامة قد نسجوا حول موته أساطير مختلفة ، مما يدل على التأثير الذي تركه في نفوسهم .

محمد الناصر

595 – 610هـ / 1198 – 1213م

شخصيته

أبو عبد الله الناصر محمد بن يعقوب المنصور ، ولد سنة 576 وبويع ولياً للعهد سنة 586 ، وهو من أم نصرانية تدعَى زهر وكان جميل القد أبيض أسيل الخدين في لسانه لثغة ، وكان شجاعاً عفيفاً عن الدماء كما يقول المراكشي ، وقد سلك خطة والده في تعيين حجابه من الصقالبة ، واستوزر بعض وزراء والده كما استوزر أخاه ابراهيم بن المنصور . ولا تمدنا المراجع بمعلومات وافية عن حياته الخاصة ، إلا أن تعيينه لابن جامع الاسباني الأصل كوزير له في أواخر حياته ، كان له أثره الخطير ليس فقط في ميدان السياسة الداخلية والخارجية للدولة ، بل حتَّى على وجود دولة الموحدين نفسها .

أعماله في إفريقية وميورقة

لم تكد تمضي بضعة أشهر على توليته حتَّى ظهر ثائر جديد بغمارة يدعَى علودان ، فقضَى عليه الناصر ، ثم توجه لقمع حركة ابن غانية بافريقية . وكان قد ظهر بها ثائر آخر يدعَى محمد الركراكي الذي حارب ابن غانية من غير أن يفوز منه بطائل . وتمكن ابن غانية من ضم بلاد الجريد والقيروان وصفاقص وقابس وتبسة وطرابلس واعتقل عامل الناصر الشيخ أبا زيد ثم دعا للعباسيين وولى على تونس أخاه الغازي ، فتحركت جيوش الموحدين بقيادة الناصر كما مر ودخلوا افريقية سنة 600 واستمر حصار المهدية أربعة أشهر ، حتَّى استسلم قائدها علي بن عبد الله بن غانية إلى الناصر ، وهو ابن عم يحيَى بن غانية ، ثم استسلم سير أخو يحيَى فأكرم الناصر مثواهما ثم عين عبد الواحد بن أبي حفص على افريقية ، ورجع إلى مراكش بعد أن أنفق في غزوته هذه ما يعادل مائة وعشرين حملاك من الذهب. وكان عبد الواحد الذي عينه على افريقية من كبار الشخصيات في بلاط الموحدين ، وقد اشترط على الناصر مقابل قبوله ولاية إفريقية أن لا يعارضه في عزل وال أو توليته

وأن تكون له السلطة المطلقة على جيشه وأن لا تطول إقامته بافريقية أكثر من ثلاث سنوات وقبل الناصر هذه الشروط ثقة منه في كفاءته[26] .

وعند نزول الناصر بالمغرب الأوسط في طريقه إلى عاصمة ملكه وجه أسطولا لفتح ميورقة التي عجز المنصور قبله عن فتحها . وقد توفق أسطول الناصر في إخضاع ميورقة وقتل أميرها عبد الله بن إسحق ، وكان قائد الموحدين في هذه الحملة أبا العلاء عم الناصر ولم تطل ميورقة بيد الموحدين إذ استرجعها النصارَى سنة 627 — أما منورقة ويابسة فقد تم فتحها سنة 597 .

في الأندلس (وقعة العقاب)

ظلت الأحوال مضطربة في الأندلس بعد موقعة الأرك ، وذلك فيما يرجع إلى وضعية النصارَى أنفسهم .مما أدى بالبابا سلستان الثاني إلى التدخل من أجل التوفيق بين مختلف الأمراء الاسبان ، بمساعدة ملك أراغون الفونس الثاني ، ولكن هذا التدخل لم يؤد إلى أية نتيجة ، فقد نشبت الحرب بين قشتالة من جهة ، ونافار وليون من جهة أخرى ، ذلك لأن ملك قشتالة لم يتلق مساعدة من حلفائه السابقين خلال وقعة الأرك . وعاثت جيوش قشتالة في أراضي ليون التي لم يجدها استعانتها بجيوش الموحدين وحاولت نافار من جهتها أن تتقرب إلى الموحدين فعقدت معهم حلفا في أيام المنصور على ما تذكره الروايات العربية وكان التوقيع على المعاهدة في حفل فخم باشبيلية حيث استقبل المنصور الملك سانشو مع حاشيته ، وكان جواب قشتالة وأراغون على هذا الحلف الجديد ، أن زحفت جيوشهما على نافار التي قاومت ببسالة ولم يتمكن خصومها من الاستيلاء على عاصمتها بنبلونة ، وإنما أخذوا بعض الحصون .

إلا أن أعداء الاسلام سرعان ما نسوا خصوماتهم الداخلية ، بعد أن أقنعهم ملك قشتالة بضرورة الاتحاد من أجل مهاجمة الأراضي الاسلامية والوقوف في وجه الموحدين . ولم ينس ملك قشتالة عار الهزيمة الذي لحقه منذ معركة الأرك ، فخرج بنفسه يغزو الأراضي الاسلامية بأحواز جيان ومرسية وبياسة .

وفي أواخر سنة 607 أعد الناصر جيشاً ضخماً لمحاربة النصارَى . وكان ذلك

---

(26) زركشي : تاريخ الدولتين ، ص 13

رداً على موقف قشتالة . ولعل جيش الناصر هذا كان أعظم جيش إسلامي أعد لحرب نصارَى الأندلس ، فقد كانت قواته تنيف على نصف مليون فيما يذكره بعض المؤرخين وقد يكون العدد مبالغاً في تقديره ، ولكنه كان عظيما من غير شك ، وكان الجيش يتألف من خمس فرق : 1) الموحدون . 2) المتطوعة . 3) جنود الأندلسيين . 4) العرب . 5) سائر قبائل البربر .

أما النصارَى فقد جمعوا قواتهم في طليطلة ، بعد أن أرسل ملكها يطلب حث أمراء النصارَى على التضامن ، وانضافت إليهم قوات هائلة من مختلف أصقاع أوروبا ، فقد كانت الحرب صليبية بمعنَى الكلمة ، ولكنها كانت في نطاق ضيق بالنسبة للجيوش الاسلامية وكان أكثر الامدادات من فرنسا. وأهل هذه البلاد مذ كانوا وهم أكثر الأوروبيين رغبة في حرب المسلمين ، بدليل الحروب الصليبية التي حدثت في الشرق . وكانت قوات الجيش النصراني تبلغ 70 ألف مقاتل التحقت بها قوات إضافية فيما بعد من البرتغال وليون وغيرهما واجتمع هذا الحشد الهائل بأحواز طليطلة وبعضهم داخل المدينة . ودعا البابا النصارَى إلى الصلاة والصوم ثلاثة أيام تقربا إلى الله واستمداداً لعونه على المسلمين ، ثم تحرك الجيش النصراني ، فحاصر في طريقه قلعة رباح التي سقطت في يده ، وسلم المسلمون سلاحهم ثم انسحبوا وكان هذا شرطاً في تسليم القلعة . ومل كثير من النصارَى الوافدين من أوروبا بقاءهم في اسبانيا ، فارتحلت آلاف منهم عبر جبال البرانس ، وحلت محلهم إمدادات أخرى أتَى بها ملك نافار ، ثم استرجع النصارَى حصن الأرك .

أما الناصر ، فقد نصحه ابن جامع بقتل ابن قادس قائد حامية قلعة رباح ، بحجة أنه لم يقم بواجبه في الدفاع عن القلعة . ونزل الناصر عند نصح وزيره الذي بغض في عينيه الأندلسيين وحتَّى قادة الموحدين . كما أن الناصر كان يريد التوجه من إشبيلية إلى قشتالة . فنزل في طريقه بحصن سلبطرة ولم يتمكن من اقتحامه رغم استخدام المجانيق ، فرغب عنه وحاول أن يتقدم بجيشه فمنعه ابن جامع ناصحاً إياه بالبقاء حتَّى يفتح الحصن . ولزم الجيش مكانه حتَّى دخل فصل الشتاء وتعرض المسلمون لآفات الجوع والبرد والأمراض ، ومرت ثمانية أشهر ، استولى النصارَى خلالها على قلعة رباح ورغماً من استنجاد قائدها ابن قادس بالناصر فقد كان ابن جامع يتلقف رسائله ويخفيها عن الناصر حتَّى لا يتحرك قبل فتح حصن سلبطرة .

وحيث لم يحصل ابن قادس على جواب وعجز عن مقاومة عشرات الألوف من جيوش النصارَى سلم إليهم القلعة على شروط شريفة ، ثم رجع إلى الناصر فأغراه ابن جامع بقتله ، مما جعل الأندلسيين يحقدون على الموحدين ويعتزلون الحرب حتَّى النهاية . بل إن ابن جامع هو الذي دعاهم إلى اعتزال سائر الجيش بغضاً لهم .

وتم فتح الحصن صلحاً سنة 608 ثم تحرك المسلمون وقد خارت قواهم ، فنزلوا في سهل تولوزا على مقربة من حصن العقاب . ووقف الناصر على ربوة يراقب اصطدام الجيشين ، وكان المتطوعة أسبق الناس إلى اختراق صفوف العدو ، فاستلحمتهم أسلحة العدو بعد أن فتكوا بكثير منهم ، ثم انطلق الموحدون والعرب وسائر البربر يشتبكون مع النصارَى بينما انسحب جند الأندلسيين من المعركة ، فتبعهم باقي الجيش بعد قليل ، وتبعهم النصارَى يقتلون ويأسرون ويجمعون الغنائم ، بينما ثبت الناصر في مكانه مع جماعة من حراسه . فتقدمت إليهم كوكبة من فرسان العدو بقيادة الكونت الفارو والملكين بيدرو وسانشو ثم أسرع إلى الناصر فارس عربي فألح عليه في الانسحاب ، وكان قد يئس من الحياة بعد وفاة ولده الأكبر أثناء المعركة ، وانسحب الناصر أخيراً مع جماعة من عبيده ، بينما تخلص النصارَى من أسراهم بقتلهم في عين المكان .

وكانت هذه الهزيمة التي حلت بالمسلمين في 15 صفر 609 . ويمكن القول حسب أقل التقديرات أن المسلمين قد فقدوا ثلث قواتهم في هذه المعركة ، واستعاض النصارَى عن الغنائم التي خسروها في موقعة الأرك بما حصلوا عليه من اسلاب وغنائم في وقعة العقاب ، وأمكنهم أن يفتتحوا بيسر بعض الحصون والمدن كبياسة وفرال وأبدة التي أعملوا السيف في رقاب أهلها وحطموا كثيرا من مبانيها بينما كان الرهبان والقساوسة يرتلون الصلوات فرحا بنكاية المسلمين . ولولا الأمراض التي فتكت بجيوش النصارَى لتابعوا بطشهم بالمسلمين ، ولكنهم اضطروا إلى الرجوع إلى طليطلة حاملين مئات الأسرَى وفيهم نساء وصبية .

إن هزيمة العقاب قد نشأت :

1) لأن الناصر كان ضعيف الشخصية أمام وزيره ابن جامع الأخرق .

2) لأن الأندلسيين قد انفصلوا عن الجيش الاسلامي بسبب موقف ابن جامع منهم ، فجروا بفرارهم انسحاب باقي الجيش .

3) لضعف الجيش الاسلامي بعد ملازمته لحصار سلبطرة مدة ثمانية أشهر وتعرضه لأقسَى عوامل الطبيعة ونقص المؤن .

4) لعدم ثبات البربر والعرب رغم فرار جند الأندلس ، مما يدل على ضعف في القيادة وسوء تنسيق .

5) لتماسك جيوش النصارَى واعتقاد رؤسائهم بأنهم جاءوا لنصرة دينهم على دين آخر .

6) لأن عطاء جيش الموحدين تأخر كثيراً ، وكانوا قد اعتادوا تسلمه في أوقات منتظمة .

على أن الجيوش النصرانية قد تابعت قتال المسلمين المنهزمين حتَّى ردهم أبو زكريا بن أبي حفص قرب اشبيلية .

في المغرب : مصرع بعض الثوار

في بداية دولة الناصر سنة 597 ظهر بسوس ثائر من جزولة يدعَى عبد الرحمان ابن جزارة فادعَى المهدوية ، وتبعه كثير من أهل سوس ، ويذكر ابن خلدون أن اسمه عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الفرس ، وهو من علماء الأندلس ، وكان قد اتصل بالمنصور ، ثم خشي عقابه حتَّى ظهر سنة 597 كما تقدم ، ولكن الناصر تمكن من القضاء عليه ، فقتله وأمر بصلبه في مراكش .

مآثر الناصر

قام الناصر بتجديد وترميم أسوار عدة مدن كوجدة ومليلية وبادس كما بنَى مصلى القرويين والباب الكبير بجامع الأندلس ولكنه لم يترك آثاراً عظيمة كالتي تركها والده المنصور .

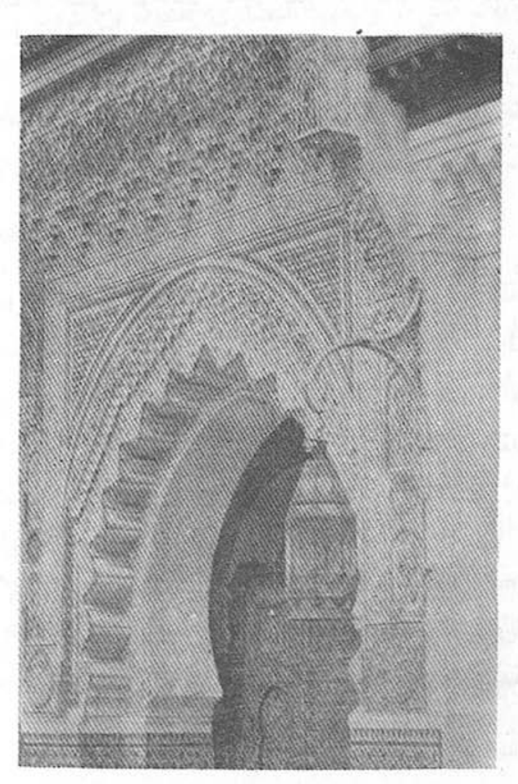
سياسته

حالف الناصر التوفيق في سياسته بافريقية والمغربين الأقصَى والأوسط وتمكن من

القضاء على المرابطين بالجزر الشرقية وكلفته حرب بني غانية ثمنا باهظاً، كما أحسن كثيرا بتعيين وال ذي شخصية قوية على إفريقية، ولكن الناصر فشل كلياً في سياسته بالأندلس، فقد أصبح ألعوبة في يد ابن جامع الذي لم يكن مسؤولا عن هزيمة العقاب فقط، بل عن مصير الموحدين بعد الناصر كذلك، فقد كتب لأسرة ابن جامع التي تولى كثير منها منصب الوزراة وعلى رأسها أبو سعيد بن جامع، أن تلعب أخطر دور في تحطيم دولة الموحدين بمشاركة العرب وأشياخ الموحدين.

وفاتـــه

أحدثت هزيمة العقاب صدمة نفسية لدى الناصر، فكان رد الفعل منه، أن تفرغ للملذات ثم أصيب بمرض توفي بعده سنة 610.



الباب الكبير بجامع الأندلس في فاس

دور الضعف
يوسف المستنصر

610 – 620 / 1213 – 1223م

شخصيته

يوسف بن محمد الناصر من أم نصرانية تدعَى قمر. بويع بعد وفاة والده الناصر وهو ابن ست عشرة سنة. أي أنه كان عند توليته أعجز ما يكون عن تدبير الملك، فكان آلة مسخَرة في يد أبي سعيد بن جامع. حتَّى إن عبد الواحد بن أبي حفص عامل إفريقية رفض مبايعته بسبب صغر سنه. ثم تدخل لديه ابن جامع وعبد العزيز بن أبي زيد فبايعه مضطرا حتَّى يحفظ بذلك وحدة المملكة.

وكان المستنصر أسمر اللون شبيها بجده أبي يوسف. ولكن شتان بين الشخصيتين نفوذا وحزما، غير أنه عزل ابن جامع عن الوزارة بعد خمس سنوات من توليته وولى بعده يحيَى بن زكريا الهزرجي. واستمرت الحجابة في عهده بيد الصقالبة كما فعل أسلافه، أما كتابه الخاصون فهم أحمد بن منيع وأحمد بن عياش ومحمد الفازازي. وفي عهده حدثت حركة تنقيل وعزل في سلك الولاة، وهي عادة سلكها ملوك الموحدين قبله كلما تولوا.

أحداث المغرب

لم تكد تمر أربعة أشهر على توليته حتَّى ظهر بناحية فاس رجل ادعَى أنه حفيد العاضد آخر الفاطميين وتسمَّى بالمهدي غير أنه لم يوفق في استمالة البربر، فقاتله الموحدون ثم أحرقوه بباب الشريعة بفاس، الذي صار يسمى بعد ذلك بباب المحروق.

وفي سنة 613 ظهر بنو مرين الذين نشطوا في إزعاج الموحدين، وكانوا بدوا رحلا يتنقلون فيما بين بسكرة وسجلماسة انتجاعاً للكلأ، حتَّى إذا هاجمهم أبو إبراهيم عامل فاس هزموه في ناحية الريف واعتقلوه ثم أطلقوا سراحه، وأصبحوا منذئذ يشكلون خطراً محققاً على الدولة.

أحداث الأندلس

عين المستنصر أربعة من أعمامه على ولاية الأندلس ، وكان أحدهم وهو أبو علي والي إشبيلية جماعاً للأموال فأخذ يبيع المناصب بما فيها مناصب القضاة ، وأسخط بذلك طبقة العلماء والفقهاء ، بينما كان النصارى جادين في مضايقة جيوش الموحدين في القلاع والحصون التي استولوا على كثير منها كحصن القصر والقنطرة . وكان المسيحيون لا يرحمون شيخاً ولا طفلا . يقتلون كل من صادفوه في طريقهم من المسلمين ، فبثوا بذلك الرعب في قلوب السكان وسقطت هيبة الموحدين مع الزمن ، وانهزم جيشهم انهزاماً مريعاً أمام قصر أبي دابس الذي اقتحمه النصارى عنوة وقتلوا كل من كان به من المسلمين . ولم يتحرك المستنصر قط من المغرب ليراقب بنفسه الحالة في الأندلس ويسير بها العمليات الحربية .

أحداث إفريقية

توفي أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص سنة 618 فخلفه ابنه عبد الرحمن بموافقة الموحدين بافريقية ، ولكن المستنصر أقصاه وولى مكانه إدريس بن يوسف ابن عبد المومن الذي تولى الأمر بعد بضعة أشهر في افريقية ، إلا أن يحيى بن غانية الذي كان ملتجئاً بالصحراء عاد إلى الظهور فعاث فسادا في بلاد زناتة حتى بلغ سجلماسة وعند رجوعه قتل أثناء معركة ضد الموحدين قرب مليانة ، ووالى بعده أبناؤه حركة التمرد في نطاق ضيق حتى أتى عليهم القتل والأسر جميعاً .

وتوفي أبو العلاء ادريس سنة 620 فخلفه ولده أبو زيد الذي استمر على افريقية عاملا إلى دولة العادل .

وفـاة المستنصـر

أهمل المستنصر شؤون الدولة شأن والده في آخر حياته وتعاطى هواية جمع الحيوانات وتربيتها ، حتى طعنته بقرة شرود في صدره فهلك سنة 620 وهو ما يزال في ريعان الشباب .

عبد الواحد المخلوع 620 / 1223م

بعد وفاة المستنصر ، بايع الموحدون بتدبير من ابن جامع أخاه المنصور المدعو

بعبد الواحد ، فأطلق سراح أبي زيد بن يوجان ولكن ابن جامع كان يكرهه فعمل على نفيه إلى ميورقة ، غير أنه اتصل بعبد الله بن المنصور وأغراه بالثورة ضد عبد الواحد والدعوة إلى نفسه ففعل وتلقب بالعادل . وكان ابن يوجان المذكور من دهاة الموحدين ، وقد أمكن للعادل أن يحصل على موافقة ولاة الأندلس على توليته ، وكان من المبايعين له أبو محمد البياسي أحد أحفاد عبد المومن ، وامتنع من البيعة أبو زيد أخوه .

وكتب العادل إلى أشياخ الموحدين وولاتهم بالمغرب ، فقام بعضهم ضد عبد الواحد وأرغموه على التنازل للعادل ، فتخلى له عن الملك ، ثم قتل خنقا سنة 621 وأصبح أشياخ الموحدين يقتلون ملوكهم بعده كلما امكنتهم الفرصة .

عبد الله العادل 621 – 624 / 1224 – 1226

بويع له بمرسية سنة 621 ، وهو من أولاد المنصور ، إلا أن الأحوال اضطربت عليه كما اضطربت من قبل على عمه المخلوع ، فسرعان ما انقلب ضده عدد من ولاة الأندلس حتّى ان محمدا والي بياسة تحالف مع قشتالة وقدم إلى ملكها فرديناند حصون مرتش وبياسة وأندوجار ، واضطر العادل بدوره إلى أن يتقرب إلى محمد البياسي ويعينه قائداً على جيش الأندلس ، كما اضطر إلى عقد حلف مع قشتالة ثم ترك الأندلس قاصداً المغرب ، وبقي أخوه أبو العلاء يراقب أحوال الأندلس عن كثب ، ثم عين عبد الله بن عبد الواحد عاملا على افريقية واستوزر أخاه أبا زيد .

وأثناء ذلك ثار عرب الخلط بناحية مراكش فعجز العادل عن اخضاعهم حتّى قتلوا أحد قواده ، وانتهز نائبه بالأندلس أبو العلاء هذه الفرصة فخلع دعوة العادل ودعا إلى نفسه سنة 624 فلبى دعوته ولاة الأندلس وأشياخ الموحدين بالمغرب ، وحاول هؤلاء ارغام العادل على التنازل فرفض فدفنوا رأسه في خصة حتّى فاظت روحه سنة 624 .

ادريس المامون 624 – 629 / 1226 – 1231م

هو أخو العادل ابن المنصور ، وكان نائباً عنه بالأندلس كما تقدم ، وكان يشبه في خزمه بصرامة الحجاج بن يوسف ، وقد بذل جهوداً جبارة لاقرار الهدوء بالبلاد

والقضاء على الثوار والطامعين في الملك ، ولم تواته الظروف ليستعيد مجد الدولة .

أحداث المغرب

تمت بيعة المامون بالأندلس بعد انتفاض الموحدين على العادل ، ثم وافقه بيعة أشياخهم من مراكش ، ولكنهم سرعان ما عدلوا عنه إذ كانوا يخشون بطشه فبايعوا يحيَى بن الناصر وسنه لا تتجاوز ستة عشر عاما ، بينما امتنعت هسكورة .وعرب الخلط عن الاعتراف به وذلك بايعاز من ابن يوجان ، ثم حاربهم جيش يحيَى وهزمهم ، أما ابن يوجان فقد قتله يحيَى بن الشهيد أحد شيوخ الموحدين وأثناء ذلك كان بنو مرين يكتسحون أطراف المغرب ويضربون الاتاوات على القبائل .

وفي سنة 625 ثار بجبال غمارة محمد بن أبي الطواجين الذي ادعَى النبوة وصناعة الكيمياء وكان سببا في مقتل عبد السلام بن مشيش ، إلا أن ابن أبي الطواجين سرعان ما اغتاله بعض البربر ، وثورة غمارة رفض متجدد للمذهب الموحدي .

ولما علم المامون بعدول الموحدين بالمغرب عن بيعته استنجد بملك قشتالة الذي أمده باثني عشر ألف مقاتل مقابل حصون يسلمها إليه بالأندلس وبناء كنيسة بمراكش للجيش القشتالي . وزحف المامون بهذا الجيش إلى مراكش ، وأثناء ذلك عاد الموحدون إلى مبايعة المامون بينما ظلت إفريقية وفية ليحيَى الذي انهزم بجيشه على أبواب مراكش أمام المامون ، وبينما فر يحيَى إلى جبال الأطلس دخل المامون إلى مراكش فأبطل الدعاء للمهدي وألغَى القول بعصمته ومحا اسمه من السكة كما أحدث سكة مستديرة مكان السكة المربعة ، وأخيراً اعتقل•أشياخ الموحدين وفضح خيانتهم لبيعته ثم قتلهم جميعا حتَّى بلغ عدد قتلاه منهم أربعة آلاف .

ثم كر المامون على أخيه فهزمه وقتل كثيرا من جنده . وفي هذه الأثناء أعلنت افريقية انفصالها عن الامبراطورية الموحدية سنة 627 وثار أبو موسَى أخو المامون بسبتة كما حاصرت قبائل فازاز مدينة مكناس فسار المامون لقتال الفريقين .

وكان أول ما بدا من بوادر انفصال افريقية أن المامون بعث عمالا لتونس فأنف من ذلك أبو زكرياء وصرفهم ، ثم خطب بتونس ليحيَى المعتصم بن الناصر الذي كان ينازع المامون الملك ، ثم اقتصر أبو زكرياء على الخطبة للمهدي والخلفاء

الراشدين سنة 627 وسمى نفسه بالأمير دون أن يتعرض لذلك في الخطبة جسا لنبض سكان افريقية[27] وحسب الزركشي ، فإن المستنصر الحفصي تسمى لأول مرة بأمير المومنين سنة 635 بعد أن بدأ ذكر العاهل الحفصي لأول مرة في الخطبة سنة 634هـ .

أحداث الأندلس

ثار بمرسية أبو عبد الله محمد بن هود الذي ينتمي إلى حكام سرقسطة السابقين . واستولى على المدينة ثم دعا لبني العباس ، وكانت الأندلس كعادتها قد ضاقت بحكم المغاربة . فتمكن ابن هود من ضم شرقي الأندلس بسهولة ، غير أنه اصطدم بجيوش ليون التي مكنت من افتتاح ماردة وبطليوس سنة 627 وانحازت إشبيلية بدورها إلى ابن هود ، بينما قتل العامة والي قرطبة أبا الربيع ولجأ والي بلنسية إلى ملك أراغون خايمي الأول .

سياسة المامون

حاول المامون أن يحد من نفوذ هيئتي الخمسين والسبعين اللتين أسسهما المهدي . بقتل أفرادهما ومتابعة كل شيوخ الموحدين ، كما أعلن الرجوع إلى مذهب مالك . وأنكر عصمة المهدي وأمر بلعنه على المنابر ، وخطأ أجداده الذين بالغوا في تقدير المهدي وأعلن بذلك على منبر جامع المنصور بالقصبة . وأدت قسوته على الشيوخ إلى كره الموحدين له حتى انفصلت افريقية عن مملكته وتلتها بعد ثلاث سنوات تلمسان التي قام بها يغمراسن بن زيان .

وكان الذي أشار على المامون بقتل عدد كبير من أفراد أسرته ومن شيوخ الموحدين هو القاضي المكيدي[28] .

وفـاة المامون :

عندما توجه المامون لحصار سبتة ، بدأ بالقضاء على ثورة فازار ، أما سبتة فلم ينل منها شيئاً ، وقد سلمها أميرها الثائر إلى ابن هود مقابل المرية ، وأثناء ذلك

---

(27) زركشي ، ص 17

(28) ابن زاكور ، المغرب المبين ، ورقة 37

استولى يحيَى بن الناصر على مراكش بمساعدة عرب سفيان وهدم كنيسة النصارَى ، وفيما كان المامون يهم بالرجوع إلى العاصمة ، انهارت معنويته أمام هذه الفجائع المتوالية ، فمات سنة 629 بواد العبيد

عبد الواحد الرشيد 630 – 640 / 1232 – 1242م

لما مات المامون كتم كبار دولته خبر موته وبايعوا ابنه الرشيد في أول سنة 630 بتدبير من حباب أمه ومساعدة جيش الفرنج وقد تمكن الرشيد من استرجاع مراكش التي فر عنها يحيى بن الناصر ، وبايعه اشياخ الموحدين بعد أن اشترطوا عليه اعادة مذهب المهدي وتبني الدولة لمبادئه ، وفي سنة 633 التقَى بجيوش يحيَى في وادي الربيع فهزمها ثم تعين على الرشيد أن يجابه خطر عرب الخلط الذين ثاروا على الرشيد بتدبير من رئيس هسكورة ، واتحدث القبيلتان ثم زحفوا إلى مراكش التي حاصروها تحت قيادة يحيَى بن الناصر ثم اقتحموها وارتكبوا فيها أشد الفظائع ، الا أن الرشيد تمكن من اعتقال مدبري الفتنة بعد ثلاث سنوات وقتلهم عن آخرهم . بينما استطاع أن يسترد مراكش منذ سنة 633 بمساعدة عرب سفيان وعادت الخلط إلى مصافاة الرشيد ، فالتجأ يحيَى عندئذ إلى بني معقل الذين اغتالوه قرب تازا بسبب عجزه عن ارضائهم بالأموال .

أما سبتة فقد حاصرتها سفن جنوة سنة 632 واستمر الحصار سنة كاملة ولم يتخل عنها الجنويون الا بعد أن حصلوا من أهلها على فدية تبلغ أربعمائة ألف دينار .

ولما كانت سنة 635 وردت بيعة أهل إشبيلية على الرشيد ثم تلتها بيعة محمد بن يوسف بن الأحمر سنة 636 ، وأثناء ذلك احتل النصارَى قرطبة وتفاقمت الأحوال خطورة بالمغرب بسبب الهزائم التي تكبدتها جيوش الرشيد أمام بني مرين . وانتهت حياة الرشيد غرقاً في أحد صهاريج بستانه بمراكش أي في جنان أكدال سنة 640

علي بن المامون السعيد
640 – 646 / 1242 – 1248م

بايع الموحدون بعد موت الرشيد أخاه علي السعيد الذي أيده كبار مستشاريه من

عرب جشم وتكاثرت الفتن على السعيد فانتقضت سجلماسة وسبتة وإشبيلية وبايع ولاتها أبا زكريا صاحب افريقية ، وسرعان ما استرد الرشيد سجلماسة وقتل الهزرجي عاملها كما هادن بني مرين الذين حاصروا مكناسة واضطروا أهلها إلى مبايعة أبي زكريا الحفصي الذي كان المرينيون يدعون له في بداية دولتهم ، ثم رجعت مكناسة إلى بيعة السعيد .

وكان السعيد يهدف الى القضاء على حركة المتمردين على الدولة ، فخرج من مراكش سنة 645 بقصد اخضاع مكناسة وبني مرين ثم تلمسان وصاحبها يغمراسن وأخيراً إفريقية بزعامة أميرها أبي زكريا . وبعد إخضاع مكناسة ومهادنة المرينيين تحركت جيوش السعيد نحو تلمسان تصحبها كوكبة من فرسان بني مرين سنة 646 واعتصم بنو عبد الواد بقلعة تامزردكت ، ثم نزل السعيد بجيشه حولها ، وبعد بضعة أيام خرج يطوف بنفسه مستكشفاً أحوال القلعة فشاهده بعض الحراس فقتلوه مع جماعة من حاشيته وبينهم صقلبيان وقائد جيش الاسبان . أما يغمراسن فقد استولى على ما تركه الموحدون من غنائم بعد أن علموا بمصرع السعيد في صفر 646 ، وفيما كانوا راجعين برفقة عبد الله بن السعيد اعترضهم المرينيون في ممر تازا وقتلوا الأمير الصغير كما استولوا على ما تبقَى من الغنائم .

عمر المرتضَى

646 – 665 / 1248 – 1266م

بعد وفاة السعيد بايع الموحدون بمراكش عمر المرتضى أحد ولاة المغرب وهو أحد أحفاد يوسف بن عبد المومن ، وفي السنة الموالية لبيعته استولَى بنو مرين على فاس وثارت سبتة بزعامة أبي القاسم العزفي الذي طرد واليها ابن الشهيد ، كما وقعت ثورة بالسوس سنة 651 بتدبير علي بن يدر وفشل المرتضَى في قمعها بينما صافاه عرب سفيان . أما فاس فقد انهزم أمام بني مرين في أحوازها سنة 653 وأمكنهم الاستيلاء على تامسنا . وتردد زعماء أسرة جرمون من سفيان بعد ذلك يتقربون مرة إلى السلطان ومرة إلى بني مرين . وازدادت ثقة الملك في جيش الفرنج وقواده حتَّى خانه أحدهم فقتله المرتضَى الذي استمر يبعث بجيوشه إلى السوس فيهزمها علي بن يدر حتَّى كانت سنة 662 فطوق بنو مرين مراكش واضطر المرتضَى إلى التعهد بجزية يدفعها لقائد الحملة يعقوب المنصور بعد مقتل ولده أثناء الحصار وانفكت

جيوش المرينيين عن مراكش . ثم خرج ادريس أبو دبوس (من سلالة عبد المومن) عن طاعة المرتضَى وهو قائده على الجيش . فوضع يده في يد يعقوب المنصور واستنصر به على حرب المرتضَى مقابل مشاطرته ما يحصل عليه من الغنائم والأموال ! فأمده بجيش قوامه خمسة آلاف مقاتل وانضمت اليه قوات أخرى من العرب والموحدين واقتحم مراكش سنة 666 بينما نجا المرتضَى بنفسه فلجأ إلى صهره بآزمور فاعتقله ثم أخبر به أبا دبوس الذي بعث إليه من اغتاله .

إدريس أبو دبوس
665 – 668 / 1266 – 1269م

تقدم أنه أحد أحفاد عبد المومن ، وهو ادريس بن محمد بن عمر بن عبد المومن . تلقب بالواثق بالله والمعتمد على الله وكنيته أبو دبوس . امتنع بعد بيعته من الايفاء بما تعهد به ليعقوب المنصور وهو مشاطرته غنائم الموحدين أنصار المرتضَى . ثم نزلت جيوش المنصور تطوق مراكش مرة أخرى ، فاستنجد أبو دبوس بيغمراسن طالباً منه مناوشة المرينيين في النواحي الشرقية حتَّى تتوزع جهودهم وجيوشهم ، فاضطر يعقوب إلى مجابهة خصمه الجديد ثم رجع لحصار مراكش ، وفي وادي ودغفوا التحم الجيشان فكانت الهزيمة على الموحدين وقتل أبو دبوس بينما كان يحاول النجاة بنفسه . وعبثاً حاول الموحدون تنصيب ملك جديد بمراكش وهو إسحق بن أبي ابراهيم ، فقد قتله المنصور كما قتل أولاده والتجأ الموحدون إلى تينملل بينما ظهرت دولة جديدة في تاريخ المغرب .

أسباب سقوط دولة الموحدين

تظافرت عوامل الفشل والاخفاق على سياسة دولة الموحدين منذ أن حلت بهم هزيمة العقاب وظهر عرب بني هلال في تاريخ المغرب ، ويمكن تلخيص أسباب سقوط هذه الدولة فيما يأتي :

1 ــ **فتنة بني غانية** الذين بدأ خطرهم على شمالي إفريقيا منذ تولى المنصور، فاستولوا على قسم كبير من المغرب الأوسط منذ سنة 581 واستمرت ثورتهم أزيد من أربعين سنة حتى أتى عليهم القتل جميعاً في أيام المستنصر.

وتشكل ثورة بني غانية مجهوداً ينم عن بسالة وتعلق بماضي المرابطين المجيد أملا في إعادة نفوذهم على المغرب العربي ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل واعتزل المرابطون منذئذ الحياة السياسية ملتحقين بمواطنهم الصحراوية التي قدموا منها إلى الشمال قبل ذلك .

2 – استقدام العرب إلى المغرب الأقصَى



قافلة بالصحراء . نموذج من حياة عرب الصحراء

منذ سنة 584 استقدم المنصور العرب من إفريقية فوزع قبائلهم على سهول المحيط الأطلسي وشمالي فاس . ومنذ وفاة المستنصر سنة 620 أصبحوا يتدخلون في شؤون الدولة ويرهقونها بطلباتهم ، ويعملون بدورهم على عزل وتولية بعض ملوك الموحدين . وكان بنو جابر والخلط من أكثرهم كيداً للملوك ، أما عرب معقل فقد اجتاحوا الصحراء والسوس وضايقوا السكان في موارد رزقهم ، وان كان ثمت من فضل لهؤلاء العرب على المغرب ، فهو مساعدتهم على تعريب قسم هام من سكانه

بسبب مصاهرتهم البربر والاحتكاك بهم ، فسواحل المحيط الأطلسي التي كانت تزدحم بالمصامدة شمالا وصنهاجة جنوبا تعربت بعض قبائلها كليا كدكالة ، إلا أن هجرات عظيمة من غير شك قد قام بها البربر الذين التحقوا بالجبال فرارا من بدو العرب الذين كانت تنقصهم المدنية والروح السلمية .

ولسوء الحظ ، فإن الفكرة القبلية في الاتجاه السياسي والتي كانت سائدة في القرون الوسطى لم يخل منها ملوك المغرب ؛ ذلك انه تم عزل العرب منذ البداية عن البربر ، وليس ذلك فحسب ، بل إن العرب وزعوا حسب قبائلهم ، كل منها في مكان معين ، ولم يفكر الموحدون في توزيع هؤلاء العرب حتى على النواحي الجبلية الداخلية ، بقطع النظر عن انتمائهم القبلي .

ولكن الدولة إذا كانت هي نفسها تعتمد على عصبية قبلية كالموحدين فهي معذورة ، مع أن الأمر كان يقتضي توزيع هؤلاء العرب في كل مكان من المغرب ، ومع ذلك فإن النواحي التي يقطنها أعقاب العرب اليوم من أكثر النواحي استقراراً لوجود مدن صناعية بها مع خصوبة أراضيها .

3 — **هزيمة العقاب**:ما من شك في أن هذه الهزيمة التي حلت بالموحدين سنة 609 كانت لها ذيولها على سياسة الدولة ومستقبلها ؛ فقد ضعفت معنوية الجيش بعدها، وأصبحت سياسة الموحدين الحربية، تكتسي إثرها صبغة دفاعية محْضة ومع ذلك فقد استولى النصارى على حصن القصر والقنطرة في عهد المستنصر ، وماردة وبطليوس سنة 627 ثم المرية في أواخر عهد المامون وقرطبة 636 .

وكان لهذه الهزيمة أثر معنوي على نفس الناصر ، فأهمل شؤون الدولة ثم مات وقد خلف صبياً صغيراً لا يدري كيف يواجه شؤون الملك ، ولم يستطع الموحدون بعد معركة العقاب أن يعدوا جيشاً كالذي أعدوه لها ، فقد كان يربو على نصف المليون كما جاء في الذخيرة السنية ، وكان ابن جامع المسؤول الرئيسي عن انهزام الموحدين الشنيع .

4 — **مشكلة العرش** : شغلت هذه المشكلة الموحدين منذ موت الناصر سنة 610 وامتنع عامل إفريقية من مبايعة نجله الصغير المستنصر ثم بايعه بتدخل من ابن جامع وعبد العزيز بن أبي زيد ، ثم عمل العادل لصالح توليته ضد عمه عبد

الواحد المخلوع 620 ، غير أن العادل انشق عنه أخوه ثم أرغمه على التنازل سنة 624 ، وأخوه هو أبو العلاء المأمون الذي ثار في عهده يحيى بن الناصر وانفصلت إفريقية عن الامبراطورية الموحدية . أما عمر المرتضى فقد ثار عليه أبو دبوس الذي انتهت بمقتله دولة الموحدين . وفيما كان الملوك منشغلين بالقضاء على أدعياء العرش الذين كانوا يستنصرون أحيانا بالعرب وأحيانا بالبربر ، كان عليهم أن يوجهوا جهودهم كذلك إلى تسيير الشؤون الداخلية والاهتمام بثورات أخطر شأنا .

ومشكلة العرش أحدثها عدم وجود نظام ثابت لولاية العهد منذ أن أقام عبد المومن دعائم الدولة .

5 — **ثورات الأندلس:** في كثير من فترات تاريخ المغرب والأندلس ، نجد الأندلسيين يمدون أيديهم إلى النصارى متعاونين معهم ضد الدول المغربية التي كانت تحسن إلى سكان الأندلس أكثر مما تحسن إلى سكان المغرب ، وفي عهد عبد المومن تغلب ابن مردنيش بمساعدة جيوش النصارى على شرقي الأندلس ، وسبب كثيراً من المصاعب للموحدين ، ولم يتم القضاء عليه إلا بعد ربع قرن من ثورته وذلك في عهد أبي يعقوب سنة 567 . وفي أيام المأمون ثار ابن هود واستولى على شرقي الأندلس وإشبيلية . بينما التجأ عامل بلنسية إلى ملك ليون .

ومن الطبيعي أن تزيد هذه الثورات في مشاكل الدولة وتذهب بقسم عظيم من جيوشها وأنصارها . ولسوء الحظ فقد تقاعس الأندلسيون عن نصرة الدولة لأول فرصة واتتهم عندما أهانهم ابن جامع خلال معركة العقاب ، ومنذئذ أصبح ثوارهم يعملون لصالحهم الخاص ، وفي أغلب الأحيان يستنصرون بالأعداء على إخوانهم في الدين والوطن وقد رأينا ذلك في أيام المرابطين ثم الموحدين أما في عهد المرينيين فقد أصبح تعاون بني الأحمر مع العدو أشد خطراً على الأندلس ومستقبل المغرب مما كان في الماضي .

6 — **انفصال إفريقية وتلمسان:** تسرع المامون في إلغاء مذهب الدولة الذي كان يستند على تعاليم المهدي بوصفه الامام المعصوم ، وأمر بلعنه على المنابر فأثار بذلك غضب شيوخ الموحدين وعمال الدولة . وكانت تلك أيسر فرصة مكنت الحفصيين من الاستبداد بافريقية وإقامة دولة مستقلة فيها ، كما أن بني عبد الواد

الزناتيين استبدوا بتلمسان. وعبثا حاول السعيد أن يسترجع هذه المدينة الحصينة التي قتل حول إحدى قلاعها ، وكانت خطة السعيد تقضي بالزحف على افريقية بعد استرداد تلمسان ، وهي آخر محاولة قام بها الموحدون لاعادة وحدة المملكة ، ولكنها كانت محاولة فاشلة.

وليس من شك في أن الموحدين قد فقدوا بانفصال إفريقية وتلمسان مورداً قوياً كان يمدهم بالنجدات والأسلحة.

7 — **سوء تصرف الشيوخ**: بدأ استبداد كبار رجال الدولة منذ أيام الناصر. وذلك في شخص ابن جامع الذي توالت الكوارث على الموحدين في الأندلس بسببه ولعب الأشياخ دوراً خطيراً شبيها بدور الأتراك في الدولة العباسية. ولم يكونوا يتفقون على ملك واحد فيناصر فريق منهم ملكاً بينما يناصر الفريق الثاني ملكاً آخر ، كما حدث بالنسبة للعادل والمأمون ويحيَى بن الناصر.

8 — **اشتداد خطر النصارَى في الأندلس**: بدأ هذا الخطر باتحاد مملكتي أراغون وقشتالة ونشأت مملكة البرتغال التي استعانت بالجيوش الصليبية في الاستيلاء على عدة مدن من غرب الأندلس وإذا كان التعاون بين المسيحيين قد فتر في عهد المنصور داخل إسبانيا ، فقد كانت النجدات تتوالى على أمراء الممالك المسيحية من جنوة وبيزة وانكلترا وفرنسا وفشل الموحدون في استرداد طليطلة وشنترين ولشبونة ، ثم اشتد الخطر المسيحي منذ أيام الناصر ، فاتحدت الممالك المسيحية في صراعها ضد الموحدين ، وشاركت كلها بآلاف عديدة من جيوشها في معركة العقاب التي استرد النصارَى إثرها مباشرة حصوناً ومدناً مهمة كبياسة وأبذة وفرال ، ثم استولوا في أيام المستنصر على قصر أبي دابس وحصن القنطرة ، كما اقتحمت جيوش ليون ماردة وبطليوس في عهد المامون واحتلت الأراغون في نفس الوقت الجزر الشرقية. ثم احتلت بلنسية وشاطبة. أما قادس وجيان وقرطبة وإشبيلية ومرسية وبياسة وأبذة فكانت كلها من نصيب قشتالة ، وقد استغرق افتتاح هذه المدن من لدن النصارَى حوالي ثلث قرن منذ حدثت معركة العقاب سنة 609 وكانت أكثر الممالك نشاطاً الأراغون وقشتالة بقيادة خايمي الأول وفرديناند الثالث.

9 — **زحف بني مرين**: كان ظهور بني مرين في الميدان السياسي نتيجة لهزيمة العقاب وخلو الدولة من ملك حازم بعد وفاة الناصر. وكان ظهورهم في عهد

المستنصر سنة 613 بنواحي الريف حيث عاثوا فيها فساداً واعتقلوا عامل فاس ، ثم شرعوا يضربون الاتاوات على القبائل ، وفشل الرشيد كليا في إخضاع بني مرين ، ثم حاصروا مكناسة أيام السعيد وأخضعوها لنفوذهم ودحروا جيوش المرتضى أمام فاس ، وحاصروه في مراكش حتّى حاول استرضاءهم بجزية سنوية . وأخيراً قضوا على أبي دبوس الذي غدر بهم وتم احتلالهم لمراكش سنة 668 .

أما مراحل سقوط الدولة فتتجلى بالتتابع :

1) في هزيمة العقاب سنة 609
2) ابتداء زحف بني مرين سنة 613
3) اشتداد نفوذ الأشياخ والعرب منذ سنة 620
4) انفصال إفريقية وتلمسان في عهد المامون
5) سقوط مراكش سنة 668

أما الخطر المسيحي فكان يمكن تلافيه لو ظلت الدولة والأحوال سليمة في الداخل .

أهمية أعمال الدولة

لم يفشل الموحدون كلياً في الميدان السياسي كما زعم ذلك طيراس ووافق عليه جليان ، فلنتصور الأندلس في منتصف القرن السادس الهجري بدون دولة قوية تحميها كالموحدين ، فقد كان الثوار المحليون منبثين في كل مكان من الأندلس بعد أن ضعفت دولة المرابطين وكان الثوار يحالفون النصارى ضد أمراء المرابطين ، ولولا ظهور الموحدين لسلمت الأندلس كلها طعمة سائغة للنصارى في وقت مبكر من تاريخ الأندلس ، فالموحدون إذاً واصلوا على الأقل في الأندلس حمايتهم للأراضي الاسلامية التي كانت تحت نفوذ المرابطين .

ونجح الموحدون في ضم افريقية إلى المغرب ، وبالتالي في توحيد المغرب العربي ، وكانت إفريقية قبلهم تجتاز مرحلة عويصة في تاريخها بسبب هجمات العرب والنورمانديين ، وكان من الميسور أن تسقط إفريقية في أيدي النورمانديين كما سقطت صقلية ، ولكن الموحدين أنقذوها في الوقت المناسب ، وتابع الحفصيون عمل إخوانهم بني عبد المومن فأنشأوا بافريقية حضارة رائعة .

وفيما كانت الدولة تصطدم بشتَّى المشاكل السياسية ، كان المغرب العربي يعيش في عهدها أروع حقبة في تاريخه الحضاري فعاش في كنفها مئات العلماء والأدباء من أمثال ابن رشد الفيلسوف وسعيد الغماري الطبيب وابن بقي الأديب .

ويحتفظ التاريخ بآثار عديدة تركها الموحدون في ميدان العمران من أهمها جامع الكتبية وصومعته وجنان أكدال وصومعة الخيرالدة بالأندلس وغير ذلك .

أما الفشل الحقيقي الذي مني به الموحدون فهو في إكراه الناس على العمل بمذهب المهدي ، إذ لم يبق لهذا المذهب أثر بعدهم بالمغرب ، إلا فيما يخص إقرار العقيدة الاشعرية .

ووضع الموحدون نظاماً خاصاً للحكم استند على هيئات استشارية تقوى نفوذها حتَّى عملت عن قصد أو غير قصد على إسقاط الدولة ، وإنما وقع ذلك بعد أن فقدت رجالها المخلصين كأبي حفص وأبي محمد الهنتاتي .

علاقات المغرب الخارجية

مع العالم الاسلامي

استمر التبادل الثقافي بين المغرب والمشرق كما كان في أيام المرابطين أو أشد ، إذ في عصر الموحدين بدأنا نرَى علماء أجلاء يأتون من الشرق إلى المغرب للتدريس أو للتضلع من ثقافة علمائه ، كما رأينا علماء وادباء شدوا الرحال من المغرب إلى الشرق للتدريس أو الاستزادة من العلم .

فإذا صرفنا النظر عن علماء وأدباء الأندلس التي كانت جزءا من مملكة الموحدين ، كابن جبير الذي سجل رحلة خالدة عن الشرق وبعض مناطق البحر المتوسط وعبد الملك بن زهر الذي طبب زمناً ببغداد ، فلدينا من المغرب الأقصَى كثيرون ممن شدوا الرحلة إلى الشرق ومن ضمنهم :

1) أبو الخطاب عمر السوسي المتوفى سنة 622 أخذ عن عبد الوهاب البغدادي ، وكان أول من ادخل مسائل الخلاف إلى المغرب .

2) يونس بن طريبة (641هـ) مغربي زاول التدريس بالقاهرة وكان قاضيا بطرابلس الغرب .

3) محمد بن قاسم التميمي المتوفى سنة 604 ، صاحب كتاب المستفاد في مناقب العباد ، وأصله من فاس ، ودرس طويلاً بالمشرق كما زاول التدريس هناك وفي المغرب .

ومن علماء الاسلام الذين دخلوا إلى المغرب .

1) محمد بن عبد الوهاب تلميذ ابن الجوزي (657) طاف بعدة أقطار اسلامية وألقى دروسا بسبتة ومراكش .

2) أبو البركات ابن مودود الفارسي ، استقبله الرشيد في مراكش وخلع عليه وأجرَى له مرتباً شهرياً وتوفي سنة 639 .

ولم تكن العلاقات السياسية تبلغ أهمية العلاقات الثقافية في هذا العصر الذي انحلت فيه عرَى الوحدة الاسلامية بسبب سقوط الخلافة العباسية ببغداد وكونها قد ضعفت قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون . ولكننا مع ذلك نجد الروابط السياسية تتخذ طابعا خاصاً في عهد المنصور الموحدي الذي استقبل جماعة من الغز الواردين من مصر ، وأسكنهم بالمغرب حيث أجرَى لهم رواتب شهرية هامة ومنحهم امتيازات لم يمتع بها حتّى أشياخ الموحدين .

أما استقبال المنصور لمبعوث صلاح الدين الأيوبي ، فكان يتسم بطابع التقدير لشخص المبعوث نفسه ، وهو عبد الرحمن بن منقذ أحد أدباء مصر والشام وآخر أمراء شيزر أحد حصون الشام ، وكان الغرض من إيفاد هذا المبعوث كما هو معروف استنجاد صلاح الدين بالمنصور من أجل إعانته على الصليبيين . وكان الذي كتب رسالة الاستنجاد القاضي الفاضل . وقبل أن يتصل ابن منقذ بالمنصور ، تلقّى من القاضي الفاضل رسالة يبين له فيها كيفية إقناع المنصور ، ومما جاء فيها قوله :

«... وإن كانت دون الأسطول موانع ، إما لقلة عدة أو شغل هناك بمهمة ، فالمعونة ما طريقها واحدة ، ولا سبيلها محدودة ، ولا أنواعها محصورة ، تكون تارة بالرجال ، وتارة بالمال ، فلا ترضَى همته أن يعين الكفر الكفر ، ولا يعين الاسلام الاسلام ، وما اختص بالاستعانة إلا لأن العدو جاره ، والجار أولى بالجار ، وأهل الجنة أولى بقتال أهل النار» .

وكان مبدأ كتاب صلاح الدين إلى المنصور قوله :

«من صلاح الدين إلى أمير المسلمين

الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنيفية من استعمر الأرض وأغنَى من أهلها من سأله القرض، وأجرى من أجرى على يده النافلة والفرض، وزين سماء الملة بدراري الذراري ...».

وقد حمل ابن منقذ إلى المنصور هدية تحتوي على مصحفين وقيمة مائة درهم من دهن البلسان وخمسين قوسا بأوتارها وعدداً من السروج المذهبة وعشرين رطلا من العود وعشرين نصلا هنديا وستمائة مثقال من المسك والعنبر ومدح المبعوث المنصور بقصيدة تبلغ أربعين بيتا أجازه على كل منها ألفاً وخاطبه قائلا: إنما أعطيناك لفضلك ولبيتك (أي لا من أجل كونك تمثل صلاح الدين). ومما جاء في القصيدة المذكورة:

سأشكر بحراً ذا عباب قطعته ... إلى بحر جود ما لأخراه ساحل

إلى معدن التقوى إلى كعبة الندَى ... إلى من سمت بالذكر منه الأوائل

اليك أمير المومنين ولم تزل ... إلى بابك المأمول ترجَى الرواحل

قطعت اليك البر والبحر موقناً ... بأن نداك الغمر بالنجح كافل

مفرج الكروب ص 295

وكانت هذه السفارة سنة 587، وقد رجع ابن منقذ إلى مصر سنة 588 بهدية من المنصور، أما الغرض الذي جاء من أجله. فقد ذكرت في موضوع سابق الأسباب التي حدت بالمنصور إلى عدم إرضاء صلاح الدين فيه بكيفية عاجلة وإن تأكد أنه أنجد زميله الشرقي بعد ذلك.

وكان الأديب أبو العباس الجراوي يجالس ابن منقذ كثيرا خلال مقامه بالمغرب

أما الاتصالات بين السودان وغانا من جهة والمغرب من جهة أخرى فكانت تجارية على الخصوص. وفي نفح الطيب قسم من رسالة بعث بها أبو الربيع سليمان الموحدي أمير سجلماسة إلى ملك غانا يقول فيها:

«وقد بلغنا احتباس مساكين التجار، ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده، وتردد الجلابة إلى البلد مفيد لسكانها ومعين على التمكن من استيطانها، ولو شئنا لاحتبسنا من في جهاتنا من أهل تلك الناحية، لكننا لا نستصوب فعله ولا ينبغي أن ننهى عن خلق نأتي مثله».

إذا كانت الأندلس تشكل في عهد الموحدين جزءا من أمبراطوريتهم الواسعة . فقد كان علماؤها وأدباؤها يحظون بعطف خاص لدَى الموحدين ، وكانت العلاقات الثقافية أوثق ما تكون في هذا العصر بين المغرب والأندلس، وهكذا نرى أبا بكر بن العربي يحظَى بتقدير عبد المومن ، بينما جالس ابن رشد المنصور مدة طويلة . واتخذ هذا الملك الحفيد ابن زهر طبيبا .

أما من المغرب فكثير من الشخصيات الثقافية خصوصاً الأدباء نراهم يقصدون الأندلس فيساجلون أدباءها كأبي العباس الجراوي وابن حبوس وابن خبازة وغيرهم .

ومدح كثير من أدباء الأندلس ملوك الموحدين كأبي جعفر الوقشي وابن مجبر الفهري وصفوان المرسي وغيرهم .

أما في الميدان السياسي فإن الأسباب التي جعلت المرابطين سابقا يتدخلون في الأندلس هي نفس الأسباب التي حدث الموحدين إلى هذا التدخل وهي تتلخص فيما يلي :

1) جهاد النصارَى وإضعاف قوتهم حتَّى يدفع اذاهم عن المسلمين
2) حماية المسلمين ورعاية مصالحهم
3) اكتساب نفوذ سياسي وروحي

وقد استقبل عبد المومن منذ سنة 542 وفدا عن الأندلس برئاسة أبي بكر الجد وطلب منه التدخل رسمياً لحل مشكلة الأندلس وقد تتابعت مراحل التدخل بالأندلس على الترتيب التالي :

1) سنة 543 الاستيلاء على قرطبة في عهد عبد المومن

2) سنة 555 محاولة الاستيلاء على الغرب بضم باجة ، يابرة ، بطليوس في أيام عبد المومن

3) سنة 567 ضم الشرق وانقضاء فتنة ابن مردنيش بمقتله

4) سنة 580 موقعة شنترين التي قتل أبو يعقوب إثرها

5) سنة 585 مواصلة مهاجمة الغرب أيام المنصور من غير نتيجة تستحق الذكر

6) سنة 591 وقعة الأرك في عهد المنصور أوقفت زحف النصارَى نحو عشرين سنة

7) سنة 609 وقعة العقاب التي توالت بعدها هزائم الموحدين وفقدوا السيطرة على الأندلس منذ عهد المأمون سنة 627.

وقد لاحظ بعض المؤرخين أن الموحدين كانوا أقل حماساً في حربهم بالأندلس من المرابطين، والحقيقة أن الموحدين كانوا يحاربون في واجهات مختلفة من المملكة ومن ضمنها إفريقية والجزر الشرقية، وبالاضافة إلى ذلك، فإن نصارَى الأندلس أصبحوا يستنجدون بقوات هائلة من الصليبيين، بينما كانت ممالكهم تتحد في أوقات الخطر ضد المسلمين، فالظروف والحالة هذه، تختلف في أيام الموحدين عنها في عهد المرابطين.

مع العالم المسيحي

كانت العلاقات مع البلاد المسيحية تدخل في النطاق السياسي والدبلوماسي والتجاري. وقد كانت هذه العلاقات تشمل الممالك الاسبانية والبندقية وجنوة وبيزة وصقلية وفلورنسة وأنكلترا وفرنسا

وقد عثر على رسالة وجهها أسقف بيزة إلى أبي يوسف سنة 1181 وتتضمن الاشارة إلى معاهدة أبرمت معه. وكانت المعاهدة تكتب في نص عربي وآخر بلغة الطرف الثاني، وذلك بمحضر شهود من كلا الفريقين.

على أن أقدم معاهدة كانت بين الموحدين والدول اللاتينية، عقدت مع بيزة سنة 1157 في عهد عبد المومن، وكانت تحتوي على ضمانات تحمي حقوق الرعايا البيزيين في إفريقية، وقد منحوا حق إقامة فندق تجاري. واتفق أن تاجرا منهم حجزت أملاكه فغادر إفريقية، فكتب إليه ترجمانه رسالة يقول له فيها: «لا تتردد في الرجوع فستجد في كل مكان استقبالا طيبا، وكذلك كل من صحبك، فالسلع هنا رخيصة ويمكنك أن تشتري كل ما تريده»[29].

(29) Cl. André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, p. 123

وكان الرأسماليون الجنويون والمرسيليون بافريقية يمارسون عملا من نوع خاص : يقرضون المال والسفن لبعض التجار ، وما حصلوا عليه من مكاسب يقسم سوياً بين الطرفين ، أما الخسارة فيتحملها صاحب السلف ، وكانت سفن جنوة ومرسيليا تتردد بين افريقية وبلدان البحر المتوسط حاملة على ظهرها بضائع هذه البلدان إلى افريقية وبالعكس .

وفي عهد المنصور عقدت كل من نافار وليون حلفا معه ، كما اضطرت قشتالة إلى أن تعقد معه هدنة سنة 592 ، ولكن التاريخ لم يحتفظ بنصوص هذه المعاهدات فيما يظهر .

وفي عهد هذا الخليفة أيضاً تم استقبال سانشو السابع ملك نافار مع زوجته وحاشيته . وجرَى هذا الاستقبال في موكب عظيم فقد اصطفت جنود الموحدين من قرمونة إلى إشبيلية في أبهَى حللها ، وعلى أبواب إشبيلية وقف المنصور لاستقبال سانشو وتولى الترجمة بينهما قائد أندلسي ، ثم قدم سانشو هدية إلى المنصور تتضمن مصحفاً قديماً كان قد وقع في يد النصارَى وكانوا يعتنون به ويحتفظون به في علبة من الذهب ، وكان ضمن الهدية كذلك أحجار كريمة وغيرها . وقد رد المنصور الهدية بما يناسب مقام زميله وغمره بالاكرام خلال مقامه .

أما المامون (624ـ 629) فقد عقد مع القشتاليين معاهدة يسمح لهم بموجبها ، باقامة كنيسة بمراكش وتسليم عشرة من الحصون الواقعة على حدود قشتالة ، في مقابل إمداده باثني عشر ألف جندي لمساعدته على إقرار سلطته . وبالفعل فقد لعب هذا الجيش دوراً فعالاً في حروب الموحدين مع المرينيين وحتَّى فيما بين الموحدين أنفسهم بسبب النزاع على العرش ، غير أن الكنيسة المذكورة تم هدمها قبل موت المامون .

الحياة الدينية

1 – المذهب الظاهري

في الكلام عن حياة المهدي بن تومرت تحدثت أيضاً عن عقيدته ، أما الآن فيحق أن يؤخذ بعين الاعتبار ما رواه بعض المؤرخين كصاحب المعجب وأبي زيد الفاسي وهو أن مذهب المهدي وملوك الموحدين على العموم فيما يرجع إلى الأحكام

الفقهية ، هو مذهب ابن حزم الظاهري نفسه ، وهو من مشاهير علماء الأندلس وقد توفي سنة 456 ، وكان عفيفاً في انتقاده للصوفية والأشعرية ، كما خطأ في كتابه «الفصل في الملل والنحل» مختلف المذاهب الاسلامية من شيعية ومعتزلية ، وكان شافعيا في البداية ثم أحدث مذهبه الخاص الذي نسب إليه والذي يتلخص في العمل بظاهر نصوص الكتاب والسنة . فهو لذلك يوجب غسل الاناء من ولوغ الكلب ولا يوجبه من ولوغ غيره ، ويبيح للجنب الجلوس بالمسجد وقراءة القرآن .

وقد نبغ ابن حزم في كثير من العلوم خصوصاً في الفقه والأصول ، فنال بذلك كما يقول المراكشي ، ما لم ينله أحد قبله بالأندلس . ولا يوجد في الواقع نص واضح يثبت أن أحدا من خلفاء الموحدين أمر باتباع المذهب الظاهري ، بيد أن الموقف الذي اتخذه يعقوب المنصور ووالده ، يفيد أن هذين الملكين كانا يفضلان العمل بظاهر الكتاب والسنة .

يقول المراكشي عن أبي يعقوب في حكاية يرويها أبو بكر الجد :

«لما دخلت على أمير المومنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس . فقال لي : يا أبا بكر (يقصد أبا بكر بن الجد) أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله ؛ أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا ؟ فأي هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟

قال أبو بكر : فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك فقال لي — وقطع كلامي — يا أبا بكر ، ليس الا هذا . وأشار إلى المصحف ، أو هذا ، وأشار إلى كتاب سنن أبي داود ، وكان عن يمينه ، أو السيف !» .

أما المنصور فيروي صاحب «المعجب» أنه أحرق عدة كتب في الفقه كمدونة سحنون وكتاب ابن يونس وكتاب التهذيب للبراذعي وواضحة ابن حبيب ؛ وأنه أمر بعدم الخوض في علم الرأي وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة ، كما جمع جملة من أحاديث النبي ﷺ في الصلاة على نحو ما جمعه ابن تومرت ؛ وأمر الناس بحفظها وكان يثيبهم على ذلك .

ويعلق المراكشي على موقف المنصور قائلا :

«وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده إلا أنهما لم يظهراه وأظهره يعقوب هذا» .

والواقع أن الفقهاء لم يتحمسوا في المغرب لهذا المذهب حتَّى إن أكثر من ألفوء فيه أو انتحلوه أندلسيو الأصل كابن خيار البلنسي وقليل منهم مغاربة كالمزدغي الفاسي وابن هرون الماردي . وبعض العلماء كعثمان السلالجي الفاسي المتوفى سنة 574 أخذوا عن الموحدين مذهب الأشاعرة في الاعتقاد ولم يقولوا بعصمة المهدي .

والسلالجي أول من أدخل براهين التوحيد على طريقة الأشاعرة وكتب في ذلك رسالة موجزة تناقلها الناس وسميت بالبرهانية ومن فصولها قوله : «فصل» والدليل على ثبوت الصانع أن العالم جائز وجوده وجائز عدمه ، فليس وجوده بأولى من عدمه ولا عدمه بأولى من وجوده ، فلما اختص بالوجود الجائز بدلا من العدم المجوز افتقر إلى مقتض وهو الفاعل المختار» .

وقريب من هذا الاستدلال في التوحيد ما جرى عليه بعد ذلك ابن عاشر والسنوسي وغيرهما .

أما عن عصمة الامام فقد أثارت استنكار الكثيرين ، ويروي المراكشي أن المنصور كان قد استقبل الغز في تينملل وكان جالساً تحت شجرة خروب مقابلة للمسجد ، وقد كان المهدي يقول لأصحابه : ليبصرن منكم من طالت حياته أمراء أهل مصر مستظلين بهذه الشجرة قاعدين تحتها ، فلما جلس الغز على الصفة المتقدمة تحتها جاء النساء يولولن ويضربن بالدفوف وهن يقلن : صدق مولانا المهدي ! نشهد أنه الامام الحق !

«وكان المنصور يبتسم استخفافاً لعقولهن ، لأنه لا يرَى شيئاً من هذا كله ...» .

وكان السلالجي يجاهر بعدم عصمة الامام ، بدليل ما جاء في رسالته المشار اليها آنفا والتي يقول فيها :

«...ومن الجائزات عقد الامامة ، ولها شرائط ، منها أن يكون قرشيا ، وأن يكون مجتهدا مفتيا ، وأن يكون ذا كفاية ونجدة في نزول الدواهي والملمات ، وليس من شرطها أن يكون معصوماً ، إذ لا معصوم إلا الأنبياء عليهم السلام ، وليس من

شرطها أن تثبت نصاً بل تثبت نصاً واجتهاداً ، وهذا ما اجتمعت عليه الصحابة رضي الله عنهم أجمعين» .

وحاول المامون إبطال مذهب المهدي بازالة اسمه من السكة وإصدار منشور يلغي فيه القول بعصمة الامام . ونص هذا المنشور الذي كتبه بأسلوبه كما نقله صاحب الحلل الموشية :

«من أمير المومنين إلى الطلبة والأشراف والأعيان والكافة ومن معهم من المومنين ومن المسلمين ، أوزعهم الله شكر نعمه الجسام ، ولاعدتهم طاقة أوجه الأيام الوسام : فانا كتبناه إليكم ، كتب الله لكم عملا منقاداً وسعدا وقادا وخاطرا سالما لا يزال على الطاعة مقيما — من حضرة مراكش كلأها الله — وليحق لسان قاطع ، وحكم ساطع ، وقضاء لا يرد ، وباب لا يسد ، وظلال على الآفاق ، تمحو النفاق .

وبعد ، فالذي أوصيكم به تقوَى الله العظيم والاستعانة به والتوكل عليه ، ولتعلموا أننا نبذنا الباطل ، وأظهرنا الحق ، وأن لا مهدي إلا عيسَى ، وإن جرَى ما حلت اللسان لا يسمى ، وما يسمى مهديا إلا أنه لكم في المهدي[30] .

فتلك بدعة قد أزلناها ، والله يعيننا على هذه العادة التي تقلدناها . وقد اسقطنا اسمه ولم تثبت له عصمة ، فلذلك أزلنا عنه رسمه فيمحى ويسقط ولا يثبت . وقد كان سيدنا المنصور هم أن يصدع بما به الآن صدعنا ، وأن يرفع عن الأمة الحزن الذي رفعنا ، فلم يساعده لذلك أمله ولا أجله لزواله الا أجله ، فقدم على ربه بنية صدق خالص الطوية .

وإذا كانت العصمة لم تثبت للصحابة ، فما الظن بمن لم يدر بأي يد يأخذ كتابه ، بل هم ضلوا وأضلوا ، وتلفوا في ذلك وزلوا ، ما تكون لهم الحجة على تلك الحاجة . اللهم اشهد أننا تبرأنا منهم براءة أهل الجنة من أهل النار ، ونعوذ بك من أمرهم الرتيب وفعلهم الخبيث لأنهم في المعتقد من أهل النار ، وإنا نقول فيهم ما قاله نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام : رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا» .

---

(30) يبدو هنا غموض منشؤه فساد النقل على ما يظن

2 – المتصوفـة

لم يأخذ التصوف بعد صبغة متميزة في هذا العصر، ولكن أقطاب التصوف الذين ظهروا في عهد المرابطين كلهم تقريباً عاشوا قسطاً قليلا أو كثيراً من حياتهم في عهد الموحدين، فعلي بن محمد بن حرزهم دفين فاس توفي سنة 559 وأبو شعيب الصنهاجي دفين أزمور توفي سنة 561 وأبو يعزَى بن ميمون دفين تاغية امتد به العمر إلى أن توفي سنة 572، كما ظهر في عهد الموحدين أبو عبد الله الغماد دفين سلا المتوفى سنة 590.

أما أشهر صوفية هذا العصر والذين كان لهم تأثير على اتجاه التصوف في المستقبل فهم ثلاثة: أبو مدين الغوث وعبد السلام بن مشيش وأبو العباس السبتي:

1) **أبو مدين الغوث** ولد سنة 520 بالأندلس قرب إشبيلية، وهو أبو مدين شعيب بن الأنصاري، توفي والده وهو حدث السن فكفله إخوته، ثم انتقل إلى طنجة وسبتة، وتوجه بعد ذلك إلى مراكش وفاس حيث درس على الشيخ أبي الحسن حرزهم والعلامة أبي الحسن بن غالب، وهكذا تلقى علوم الغزالي بواسطة ابن حرزهم، وكان يشتغل أحيانا بصناعة النسيج ليتعيش منها ويسكن خربة عند جبل زلغ. ثم اتصل بالشيخ أبي يعزى بتاغية، ودرس على أبي عبد الله الدقاق وأبي الحسن الشاري.

وتمكن أبو مدين من أن يجمع بالمغرب والأندلس والشرق تعاليم كبار الصوفية التي تلقاها مباشرة وأحيانا عن طريق غير مباشر. وقد اتصل أثناء الحج بالشيخ عبد القادر الجيلاني فقرأ عليه الحديث وألبسه خرقة من الصوف. وكان يفتخر بصحبته.

حتَّى إذا رجع من رحلته بالشرق استوطن بجاية وتكاثر بها طلابه وانتشرت كراماته، فوشي به بعض الفقهاء إلى يعقوب المنصور وقالوا له: إنا نخاف منه على دولتكم فإن له شبها بالمهدي واتباعه كثيرون في كل بلد. ورغب المنصور أن يختبره، فأمر بحمله إليه مع الاعتناء به، حتَّى إذا بلغوا به ناحية تلمسان أدركه المرض، فتوفي ودفن برابطة العباد سنة 594 وقبره شهير هناك.

ومن أروع كلام أبي مدين قوله: بفساد العامة تظهر ولاة الجور، وبفساد الخاصة تظهر دجاجلة الدين المفتاتون، وقوله: من عرف نفسه لم يغتر بثناء الناس

عليه ، ومن خدم الصالحين ارتفع ، ومن حرمه الله تعالى احترامهم ابتلاه الله بالمقت من خلقه . وانكسار العاصي خير من صولة المطيع .

ومما رواه صاحب نفح الطيب من شعره :

بكت السحاب فأضحكت لبكائها زهر الرياض وفاضت الأنهار
وقد أقبلت شمس النهار بحلة خضرا وفي أسرارهـا الأسرار
لا تحسبوا الزمر الحرام مرادنا مـزمـارنـا التسبيح والأذكار
وشرابنا من لطفه وغناؤنا نعم الحبيب الواحد القهار

وقيل إن رجلا قصد أن يعترض عليه فجاء إلى حلقته وجلس ، فسأله أبو مدين : لم جئت ؟ فقال : لأقتبس من نورك فقال له : ما الذي في كمك ؟ قال : مصحف ، فقال له : افتحه واقرأ في أول سطر يخرج لك . ففتحه وقرأ أول سطر . فإذا فيه : الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين . فقال له أبو مدين : أما يكفيك هذا ؟ (فاعترف الرجل وتاب ...)

ومن تعاليم أبي مدين استمد عبد السلام بن مشيش ومن هذا استقَى الشاذلي طريقته التي تفرعت إلى كنانية وكرزازية وعيساوية ودرقاوية وناصرية وشيخية . وأطلق عليه لقب الغوث تعظيما لمقامه .

2) **عبد السلام بن مشيش** : عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر بن علي من سلالة الامام إدريس ، درس على علي بن حرزهم وأبي مدين الغوث وتلقى عنه تعاليمه أبو الحسن الشاذلي .

وقد اعتكف طويلا في جبال غمارة حتَّى ذاع صيته هناك ، وظهر في عهد المامون الموحدي الثائر الكتامي ابن أبي الطواجين فنفس عليه مكانته ونفوذه الروحي وكان ابن أبي الطواجين قد تنبأ وأثار بلبلة في الأفكار بناحية الشمال ، فدس للشيخ عبد السلام من اغتاله سنة 625 وضريحه معروف في جبل العلم بناحية غمارة .

ومن نصائحه لبعض مريديه قوله :

احفظ نفسك من إرادة الدنيا وحب النساء وحب الجاه وإيثار الشهوات واقنع من ذلك بما قسم الله لك ، إذا خرج لك مخرج الرضي فكن لله شاكراً ، وإذا خرج لك مخرج السخط فكن عليه صابرا ، ورفض الدنيا قطب تدور عليه

الخيرات ، وأصل جامع لأنواع الكرامات ، وحصون ذلك كله أربعة ، الورع وحسن النية ، وإخلاص العمل ومحبة العلم ، ولا تتم له هذه الجملة إلا بصحبة أخ صالح أو شيخ ناصح .

3) **أحمد أبو العباس السبتي** : أحمد بن جعفر الخزرجي السبتي ، ولد سنة 524 بسبتة من عائلة فقيرة ، وكانت أمه ترغبه في تعلم البزازة فيفر منها إلى مجلس الولي أبي عبد الله الفخار الذي تكفل بتعليمه القرآن والأحكام ، ثم قصد مراكش ، وهناك أظهر مذهبه في الصدقة والاحسان وهو مذهب يشبه الاشتراكية التي تنبني على تنازل الانسان عن ثروته للصالح العام واكتفائه بما يقيم أوده .

وقد لخص مذهبه صاحب الذخيرة السنة حيث قال :

كان مذهبه رحمه الله ألا يترك لنفسه ناضاً من المال إلا قدر ما يقوته وعياله في يومه ، وباقيه يتصدق به ، وكان يرَى أن أهل الجمال من النساء الفقيرات تجب الصدقة عليهن مخافة فسادهن وأن القبيحات لا يتصدق عليهن بشيء حتَّى يستغني الملاح . وكان يرَى أن الرجل إذا اعتل في جسده عضو من أعضائه ، يتصدق بدية العضو ويبرأ . وكان حافظاً لكتاب الله تعالى يتلوه بالليل والنهار . .

وكان يرَى أن أصول الشرع بما فيها الأركان الخمسة ترجع إلى الصدقة ، ويحلل ذلك على الكيفية التالية :

1 — في الصلاة يشرع الانسان بالتلفظ بتكبيرة الاحرام ، فإذا قال الله أكبر ، فهو يقصد أن الله أكبر من أن نضن عليه بشيء ومتَى رفع يديه للتكبير . فإنه يقصد بذلك أنه قد تخلى عن كل شيء من الدنيا ولم يحتفظ منها بشيء . ويفسر الركوع بأنه مشاطرة للفقهاء في الأموال .

2 — الصوم يقصد به أن يتحمل الصائم ألم الجوع الذي يكابده الفقراء فيتصدق عليهم .

3 — الزكاة تؤدى سنوياً فيعتاد المرء بذلك إخراج المال باطراد .

4 — الحج يتجرد فيه المرء عن زينة الحياة الدنيا ويلبس نعلين ويحلق رأسه ويتخلى عن متاع الدنيا . فحاله تلك شبيهة بحال الفقير ولو كان غنياً .

وإنه لتحليل يدل على عبقرية فذة في طرق الاقناع وجلب الناس إلى هذا

المذهب، ويروى أن المنصور الموحدي تأثر كثيراً بما سمعه عن أبي العباس فاستدعاه واختبره بأن قدم اليه طعاما يحتوي على دجاجتين إحداهما مخنوقة والأخرى مذبوحة. فأكل من الثانية ورفض الأولى. ويروى أيضاً أن المنصور قد تنسك على إثر هذه الحادثة، وسلم الملك إلى ولده الناصر. على كل فإن أبا العباس قد أدرك شهرة واحتراما عظيما من لدن المنصور الذي كان يعجب بالصوفية.

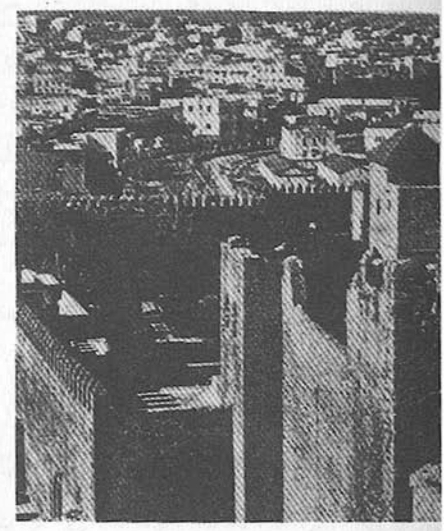
وكانت وفاة أبي العباس سنة 601 وضريحه مشهور بباب تاغزوت بمراكش.

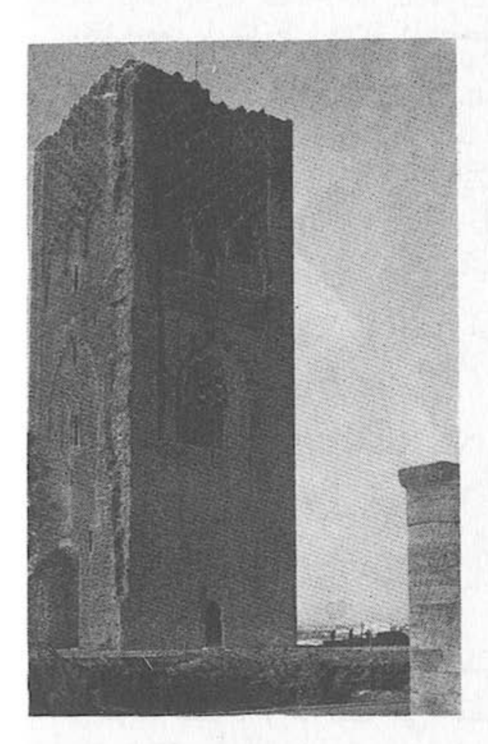
مراجع عن الموحدين

المعجب في تلخيص اخبار المغرب
الأنيس المطرب بروض القرطاس لصالح بن عبد الحليم
الحلل الموشية لمؤلف مجهول
الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون لابن غازي
الذخيرة السنية في اخبار الدولة المرينية
نفح الطيب للمقري
الاستقصا للناصري
الكامل لابن الأثير
تاريخ ابن خلدون
تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لشباخ
الأعلام بمن حل بمراكش من الاعلام لعباس المراكشي
أعمال الأعلام لابن الخطيب
تاريخ افريقيا الشمالية لجوليان
تاريخ المغرب لطيراس
تاريخ افريقيا الشمالية لميرسيي
تقديس الأولياء لدرمنجهام
أخبار المهدي بن تومرت للبيدق
البيان المغرب لابن عذارى
ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة
الزركشي : أخبار الدولتين.

الحضارة في عهد الموحدين

1 - نظام الحكم والادارة





رئيس الدولة

بعد أن ساءت الأحوال في الشرق بسبب ضعف الخلافة العباسية ببغداد ، وظهرت الخلافة الفاطمية بافريقية في أواخر القرن الثالث أصبح من الميسور أن تقوم في الأندلس خلافة أموية قدر لها أن تنهار في نهاية القرن الرابع ، وإذا كان المرابطون وهم أقوَى دولة إسلامية في أوائل القرن السادس الهجري قد تحاشوا ادعاء الخلافة وبايعوا طائعين خليفة بغداد ، فإن الموحدين قد انتهزوا فرصة تضعضع

خلافة الشرق والخلافة الفاطمية ليعلنوا أنفسهم خلفاء منذ عهد عبد المومن سنة 529 أي في أواخر حياة علي بن يوسف.

وكما فعل العباسيون في بداية دولتهم من تسمية رؤسائهم بالأئمة، وكذا الفاطميون في نشأتهم بافريقية، سلك الموحدون نفس الطريقة في أيام المهدي بن تومرت الذي تلقب بالامام وترك لقب أمير المومنين لخلفه عبد المومن، ثم استمر ملوك الموحدون يتخذون نفس اللقب إلى نهاية دولتهم.

وإذا رجعنا إلى شروط الخلافة كما اصطلح عليها السنيون نجد من بينها شرطاً قد أثار كثيراً من الجدل، وهو قرشية الخليفة. ولم يفت المهدي بن تومرت أن ينتسب إلى قريش فحسب، بل أرجع نسبه إلى علي بن أبي طالب على ما نقله ابن خلكان. أما عبد المومن خلفه فأكثر الروايات تنسبه إلى قبيلة كومية، ولكن نسب إليه أنه كان ينفي انتماءه إلى هذه القبيلة التي كانت مضاربها على ساحل البحر المتوسط، بجوار تلمسان، وأنه كان يقول: إنما نحن لقيس غيلان بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان، ولكومية علينا حق الولادة بينهم والمنشأ فيهم، وهم الأخوال[31].

وكومية ليست من المصامدة، بل هم أبناء عم الزناتيين يجتمعون معهم في جد بعيد، وجميع خلفاء الموحدين من سلالة عبد المومن، فإذا ثبت أن عبد المومن كومي وهو الأرجح، فإن دولة الموحدين كومية في أساسها مصمودية في أجهزتها السياسية.

ولم يكتب للموحدين أن يبسطوا سلطتهم على الحرمين وكان ذلك مظهراً من مظاهر نفوذ الخليفة، وإنما كتب لبني حفص في إفريقية أن يمارسوا هذا النفوذ.

ومن المؤكد أن اتخاذ المهدي للقب الإمام كان تمهيداً لاتخاذ عبد المومن للقب أمير المومنين سواء أكان ذلك بايعاز من الأول أم لم يكن، مع العلم بأن المهدي كان يسمي الموحدين بالمومنين، وقد لاحظ المراكشي أن لقب أمير المومنين جاء من هذه التسمية.

---

(31) المعجب 197، وقد أكد البيدق في أخبار المهدي ص 21 أن الانتماء إلى البيت النبوي لم يقتصر على المهدي، بل شمل أيضا عبد المومن وأمه وسائر قرابته كما سلف.

وكان الذي يتولى بيعة أمير المومنين أحد كبار الأسرة الحاكمة[32] وإلا فبعض مشايخ الموحدين. فبيعة عبد المومن مثلا، تمت على يد ثلاثة من أهل الجماعة وهم عمر إينتي وعمر بن عبد الله الصنهاجي وعبد الله بن سليمان المسكالي، وتولى بيعة أبي يعقوب أبو حفص عمر بن عبد المومن، بينما تولى بيعة المنصور عبد الرحمن بن عمر بن عبد المومن وأبو حفص عمر وهكذا.

وكانت البيعة تتم بمحضر أهل الجماعة والخمسين الذين لابد من مصادقتهم الاجماعية ليخلص الأمر للمرشح. وكانت هناك بيعة خاصة تتم من لدن المشايخ والأسرة وبيعة عامة من لدن الوفود التي تأتي من مختلف أطراف المملكة[33]، ويتولى إلقاء صيغة البيعة الكاتب الخاص للخليفة وصيغة البيعة هكذا:

«تبايعون أمير المومنين ابن أمراء المومنين على ما بايع عليه أصحاب رسول الله ﷺ، رسول الله من السمع والطاعة في المنشط والمكره واليسر والعسر والنصح له ولولاته ولعامة المسلمين، هذا ما له عليكم.ولكم عليه، ألا يجمر بعوثكم، وألا يدخر عنكم شيئاً مما تعمكم مصلحته وأن يعجل لكم عطاءكم، وألا يحتجب دونكم، أعانكم الله على الوفاء، وأعانه على ما قلد من أموركم».

أما الهيئة الاستشارية فكانت تتألف من أجهزة وضع أساسها المهدي بن تومرت الذي كان قد نظم الموحدين تنظيماً خاصاً، فمنهم أهل الدار وهم القائمون بخدمة رئيس الدولة وأهل الجماعة للمشورة وأهل الخمسين والسبعين والطلبة والحفاظ للدعاية وتلقين العلم وأهل الساقة للمواكب والحفلات ثم أهل القبائل وهم الجنود المدافعون عن تراب المملكة.

ثم حدث شيء من التغيير في هذا الجهاز الذي أصبحت الهيئة الاستشارية فيه تتكون من الخمسين والسبعين. ولما كان عهد المامون أتى قتلا على جميع من تبقى حياً من هاتين الهيئتين اللتين كان نفوذهما قد بلغ حد الخطورة، وكانت هيئة الخمسين أكثر نفوذاً من هيئة السبعين.

وقد تمسك الموحدون في وقت مبكر من تاريخ دولتهم بمظاهر الملك، فاختلفوا

(32) انظر بشأن البيعة: اشباخ، تاريخ الأندلس، ص 484

(33) زياني، ترجمان، ص 289، وتحدث صاحب الصلاة في المن بالإمامة، ص 147 عن بيعة الخليفة بالأندلس.

بذلك عن المرابطين الذين كانت البساطة تسود حكمهم. وثمت شيء آخر تختلف فيه الدولتان، فالمرابطون قاموا على أساس ديني، والموحدون قاموا على أساس مزدوج ديني وسياسي، وبينما فسح الأولون صدرهم لتحكم القُضاة والفقهاء، استعان الآخرون بهيئات سياسية استشارية ، وكما كان نفوذ الفقهاء من أسباب ضعف المرابطين ، كان نفوذ الهيئات المذكورة من عوامل سقوط دولة الموحدين .

وفي سنة 546 قدم على عبد المومن وفد من الأندلس يتركب من خمسمائة شخص فيهم قضاة وشيوخ وقواد وفقهاء ، وكان استقبالهم على مسافة ثلاثة كيلومترات من سلا التي كان ينزل بها الخليفة ، فتلقاهم أبو حفص الهنتاتي وأبو جعفر بن عطية ، والأول كان يقوم مقام رئيس الوزراء اليوم والثاني وزير عظيم ، وبعد أن نزل الوفد وقضى في الاستراحة ثلاثة أيام استقبلهم عبد المومن ، ثم أشار ابن عطية لرئيس وفد قرطبة حتَّى يتناول الكلام فعجز ، وناب عنه أبو بكر بن الجد الذي أعجب به عبد المومن ... وبعد أن أدَّى الوفد البيعة أجابهم عبد المومن بما يقتضيه المقام .

هذا مظهر بسيط من مظاهر البروتوكول الذي كان متبعاً في عهد خلفاء الموحدين

أما ولاية العهد فلم يكن لها نظام معين ، إنما كان المعتاد أن يعين الخليفة من شاء من ولده ليخلفه في الملك ، فقد رشح عبد المومن ولده محمداً في حياته ، وكان أكبر أولاده ، ولكنه كان سيء السيرة ، فلبث في الملك شهرا ونصفاً ، ثم تولى يوسف بن عبد المومن وكان مرشحاً إلى جانب أخيه عمر ، إلا أن هذا تنازل له عن الملك ، فحمد له الأشياخ هذا التنازل . أما يعقوب فلم يثبت أن والده يوسف قد ولاه عهده ، ولكن المشايخ رشحوه أيضاً . أما أول من ثبت تعيينه ولياً للعهد فهو محمد بن عبد المومن ثم محمد الناصر الذي رشح لولاية العهد سنة 586 ومات والده سنة 595 .

ومنذ وفاة الناصر أصبحت تولية الخلفاء بيد المشايخ الذين لم يكونوا يتفقون عادة على شخص معين ، فيميل فريق منهم إلى أحد أفراد الأسرة المالكة ويميل فريق آخر إلى مرشح غير هذا ومن ثم ينشأ الشقاق بين الأحزاب المتنازعة .

وبنفس الطريقة التي كان ينصب بها الخليفة ، كان يبايع كذلك ولي العهد ؛

وإذا تمت مبايعة الخليفة من لدن المشايخ والأعيان والوفود بالمغرب ، فإن الخليفة نفسه يخبر بذلك عماله في سائر أنحاء المملكة ، وكذلك يفعل بالنسبة لولي عهده .

ويحتفظ التاريخ بمنشور عبد المومن إلى عامله بسبتة وطنجة مخاطباً فيه المشايخ والطلبة بشأن تنصيب ولده محمد ولياً للعهد ، والمنشور طويل نسبيا ، وقد جاء فيه قوله :

«ولما كنتم أكرمكم الله ، ممن اعتصم في هذا الأمر العظيم بحبله وعروته ، واقتدَى بوجوب الاتباع بأسرته الهادية وقدوته رأينا أن نعلمكم بما عقده إخوانكم الموجدون على تقوَى من الله ورضوان» .

ثم يقــول :

«واعلموا أن محمداً ـ وفقه الله ـ هو الذي ارتضوه لحمل عبئهم وتخيروه ، ورغبوا في تقديمه على بلادهم وإنفاذه معهم على قصده في توليته ومرادهم . وكان استدعاؤنا لهم في هذه الوجهة المذكورة ، والحركة المبرورة ، لأمور قصدت فيها مذاكرتهم ونويت بها مباشرتهم» .

والمنشور المذكور من إنشاء أبي جعفر بن عطية ، وقد ورد في مجموع الرسائل التي نشرها ليفي بروفنصال .

وفيما يرجع إلى المراكز الادارية التابعة للقصر بالعاصمة ، فقد ذكر ابن سعيد المغربي عددا منها كدار وزير الجند ودار صاحب الشرطة برحبة القصر وغير ذلك [34] .

الــوزراء :

كان أهل الجماعة بمثابة وزراء وإن كانوا لا يحملون هذا اللقب ، فقد ظلوا منذ عهد عبد المومن أعلى هيئة استشارية ؛ بل كانوا كذلك منذ أحدث المهدي نظامه السياسي ، ولكن كان يوجد وزير يعين عادة من كبار الشخصيات ويتولى عمليا مسؤولية رئيس الوزراء ، وغالبا ما يكون من غير أفراد الأسرة المالكة ؛ بل يعين أحياناً من سلالة أبي حفص عمر الهنتاتي ، فالوزراء والحالة هذه كان أكثرهم

---

(34) محمد المنوني ، البحث العلمي 1/ 1383 ـ 1964 .

مصامدة . وأول من عين وزيراً أبو حفص المذكور في عهد عبد المومن[35] ، ثم تلاه أبو جعفر بن عطية وهو من أصل عربي ، وكان اتخاذه وزيراً سنة 545/ 1150 .

أما وزراء أبي يعقوب فهم على التوالي أخوه عمر ثم أبو العلاء إدريس بن إبراهيم بن جامع ثم يعقوب ولده .

ووزراء المنصور هم أبو حفص الهنتاتي[36] فحفيده أبو بكر فابن عمه محمد فأبو زيد عبد الرحمن الهنتاتي[37].

وكان من اختصاصات الوزير على حد تعبير ابن خلدون ، النظر في الحساب والأشغال المالية .

ولقد لعبت أسرة أبناء عمر الهنتاتي دوراً لا يستهان به في تثبيت أقدام الدولة ، وأشهرهم بدون شك جدهم عمر هذا ، وهو أحد العشرة من أهل الجماعة ، وأولهم عبد الواحد الشرقي ثم عبد المومن ثم عمر أزناج الصنهاجي ثم عمر أبو حفص ثم يوسف بن سليمان وأخوه عبد الله بن سليمان من أهل تينمل ثم أبو عمران صهر عبد المومن ثم اسماعيل الهزرجي فابن بيجيث فأيوب الجدميوي .

ومن سلالة أبي حفص ابنه عبد الواحد الذي تولى إفريقية وتوفي سنة 618 وقد تمكنت هذه الأسرة من تأسيس مملكة مستقلة انفصلت عن الموحدين إبان ضعفهم واعترف بسلطتها ابن الأحمر في الأندلس وبنو مرين في أول نشأتهم وأمير مكة المكرمة .

ونرَى من سلسلة أسماء بعض الوزراء الذين ذُكروا آنفاً ، أن مهمتهم كانت سياسية ولا تراعى فيهم كفاءة ثقافية معينة ، فقد تركت مهمة كتابة الرسائل والمراسيم

(35) حول وزراء عبد المومن ، انظر المن بالامامة ، ص 224 ، وروض القرطاس ، 2 ، 171

(36) حول مميزات هذه الشخصية ، انظر ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ص 232

(37) وزراء الناصر ، انظر الزركشي ، أخبار الدولتين ، ص 12 . ووزراء الموحدين إلى عهد هذا الخليفة ذكروا في المعجب . وفي أخبار الدولتين ص 19 أنه كان لولاة افريقية من بني أبي حفص وزراؤهم الخاصون

الملوكية لكتاب خصوصيين ، وإن كان يتعين على الوزراء أن يلموا بالشؤون المالية والسياسية طبقاً لاختصاصاتهم . على أن بعض الشخصيات كأبي جعفر بن عطية كانت تجمع بين الوزارة والكتابة[38] .

ولم يكن مقبولا من وزراء الخلفاء الأولين أن يستبدوا في تصرفاتهم ؛ فقد خلع الوزير عبد السلام الكومي لاستبداده[39] .

الكـتـــاب

اتخذ الخلفاء الموحدون كتابا خصوصيين يكتبون المراسيم السلطانية والرسائل الموجهة إلى الولاة والقضاة ، ومن أوائل الكتاب الأديب أبو القاسم القالمي من بجاية وأبو جعفر ابن عطية الذي جمع بين الوزارة والكتابة[40] وأبو محمد عياش وكلهم كتبوا لعبد المومن ثم ابن محشوة من كتاب أبي يعقوب وابنه المنصور . هؤلاء من جملة كتاب الرسائل ، وكان يوجد إلى جانبهم كتاب خاصون للشؤون الحربية يسمون بكتاب الجيش ، كأحمد بن منيع كاتب الناصر والكباشي كاتب المنصور .

ومعنى ذلك أنه كان للخليفة ديوانان كانا تحت مراقبته المباشرة وهما ديوان الانشاء وديوان الجيش وعلى رأس كل منهما كاتب أول يكون تحت إشرافه مجموعة من صغار الكتاب الذين كانوا نساخاً أو قائمين بمراسلات ثانوية .

وينوه المراكشي بشخصية ابن عياش الأندلسي الأصل ، إذ يرى أن كتبة الانشاء جروا «بعده على أسلوبه وسلكوا مسلكه» . وهو من يابرة ، وأصله من الأزد ، وكان مجيداً في النثر مع مشاركة في النظم ، وتوفي سنة 568هـ[41] .

ومن الكتاب الرئيسيين في ولاية افريقية محمد بن أحمد بن نجيل المشهود له بحسن التدبير والعلم والذكاء[42] .

---

(38) الاعلام 216

(39) المن بالامامة ، ص 76 ، 178

(40) كان أول وزير اتخذه الموحدون سنة 545/ 1150 . وكان أبو حفص قبله أكبر رتبة (المن بالامامة ، ص 222 و226 . وكذا Fagnan, Annales du Maghreb, p.540)

(41) بروفنصال ، رسائل موحدية ، ص 8

(42) زركشي ، ص 13 .

وقد طالت الكتب أحيانا كما تدل على ذلك مجموعة الرسائل التي نشرها بروفنصال . وقد يذكر مصدر المراسلة في طي الكتاب . وكان العمال هم الذين يتولون نسخ المراسيم الملكية التي توجه إلى الرعية[43] .

واستعمل الموحدون عبارة «الحمد لله وحده» في مفتتح خطاباتهم ، ولهذه العبارة أصل قبلهم كما ورد عند ابن حماد[44] حيث عرفها الزيريون أيضا .

الحجاب :

اتخذ الموحدون حجابا ينظمون الاتصالات بالخليفة ، فصانوا بذلك حرمة منصب الوزير الذي كان يمثل أهم شخصية بعد الخليفة ، أما الحجاب فكانوا عادة من الروم الخصيان ، ككافور حاجب أبي يعقوب وعنبر وريحان حاجبي المنصور ومبشر حاجب الناصر . أما عبد المومن فيظهر أنه لم يتخذ حاجباً لأن المراكشي لم يذكر عن حجابته شيئاً وهو ممن عاصر الموحدين في إبان نهضتهم .

القضاة الخاصون

كان ضمن الهيئة الحكومية التي يستعين بها الخلفاء الموحدون قضاة يلازمون بلاطهم وهم غير قضاة المدن العاديين الذين سيأتي الكلام عليهم في موضوع خاص . وفي كثير من الأحيان يكون هؤلاء القضاة من الأندلس . ويحتل قاضي الخليفة منصبا مرموقاً في الدولة ومهمته الادلاء بحكم الشريعة في المسائل التي تعرض على نظر الخليفة مباشرة ، بالاضافة إلى كونه قاضي الجماعة أي قاضي العاصمة .

وكان القاضي يختار من الشخصيات البارزة فهو بمنزلة المستشار القضائي في بلاط الملوك ورؤساء الدول اليوم أو هو بمثابة رئيس مجلس الدولة ومن بين هؤلاء القضاة عيسَى بن عمران التازي قاضي أبي يعقوب وكان عالما مشاركا وخطيبا مفوها ، وأبو القاسم بن بقي[45] .

---

(43) رسائل موحدية ، ص 163

(44) Ibn Hammad, Hist, des Oubaydides, p.47

(45) انظر أسماء قضاة اخرين من هذا الصنف ، في روض القرطاس ، 2 ، 172 ، 175 ، 181 .

التقاليد المخزنية

ما من شك في أن الموحدين قد أحدثوا تقاليد مخزنية تركت أثرا عميقا في نظام المخزن الذي استمر بعدهم قرونا عديدة مع تحوير جزئي يختلف من دولة إلى أخرى. ومن نافلة القول أن يلاحظ بأن نظام المخزن قد ورث المغرب كثيرا من مظاهره عن أمويي الأندلس، إلا أن تأثر الموحدين بهم كان أكثر من تأثر المرابطين.

وكان من جملة هذه التقاليد تخصيص بعض الأسر بوظائف بارزة في الدولة كأسرة أبي حفص عمر الهنتاتي التي تولى أفرادها مناصب الوزراة والولاية على العمالات، وأسرة عيسَى التادلي التي تولى كثير من أفرادها منصب القضاء.

وعلى كل فقد أسندت عدة مناصب رئيسية إلى عائلات معينة. بينما كان الجنود النظاميون ينتمون في أغلبهم إلى سبع قبائل وهي كومية وهنتاتة وجدميوة وهرغة وقسم من هسكورة وجنفيسة وأهل تينمل.

ولأول مرة نجد استعمال لفظ المخزن قد شاع في العصر الموحدي حيث يذكر البيدق بعض القبائل التي ينتمي إليها «عبيد المخزن»[46] ولقد استعمل لفظ «المخزن» لأول مرة في القرن الثاني الهجري بمعنَى صندوق الحديد الذي كان أمير افريقية يضع فيه المال المستخلص من الضرائب، ثم قصد به بيت المال، ثم توسع استعماله في القرن السادس عشر (العاشر الهجري) بل قبله حيث أطلق على الحكومة المغربية وما يتصل بها[47].

وكان الخليفة إذا تحرك للسفر، صحبه جيشه الذي ينقسم إلى أربعة أقسام. يتقدمه مائة فارس يحملون مصحف عثمان على هودج يقوده نجيب، ثم يتبعهم الخليفة، ووراءه ولي العهد وخلفه إخوته الباقون، ووراءهم حملة الأعلام وكوكبة من الطبالة، وخلفهم كبار رجال الدولة، ثم رجال القبائل صفوفاً منظمة.

ومن أهم مخلفات الموحدين المستمرة حتَّى اليوم، ارتداء الملابس البيضاء في الحفلات الرسمية خاصة. أما أثناء الجهاد فكانوا يرتدون معاطف خضراء، ومن المعلوم أن بعض الدول تتخذ اللون الأخضر في لباسها العسكري اليوم ومنها المغرب.

---

(46) البيدق : أخبار المهدي، ص 46

(47) ابن صاحب الصلاة. المن بالامامة. ص 204 و207 و

Reymér, l'ancien makhzen, p. 4

الــولاة :

اهتم الموحدون بمناصب العمال اهتماماً خاصاً ، وكان لهم نائب عام بافريقية منذ تم فتحها على يد عبد المومن سنة 555 وأول هؤلاء النواب بها محمد بن فرج الكومي . وفي عهد الناصر عين عبد الواحد بن أبي حفص الذي هو جد ملوك الحفصيين . أما في المغرب فلم يكن هناك نائب رسمي كما كان الأمر في عهد المرابطين ، ولكن الخليفة كان يعهد بالنيابة عنه إلى أحد كبار المشايخ أو إلى فرد من الأسرة المالكة . وكان ينوب عن عبد المومن عادة إذا غادر العاصمة أحد أفراد الجماعة ، وهو أبو عمران صهره ، أما يوسف فكان ينيب عنه أحد إخوته . وعلى العموم لم تكن هناك نيابة عامة بالأندلس ، بل قسمت إلى ولايات كبيرة دعيت عمالات أو أقاليم يتبع كل منها السلطة المركزية مباشرة ، وأحيانا كان يعين نائب عام على الأندلس كالمامون الذي كان نائباً بها من قبل أخيه العادل .

وكانت إمارة إفريقية عظيمة المساحة تمتد من أنطابلس في ليبيا إلى قسنطينة في المغرب الأوسط . وكل من إفريقية والأندلس والمغرب الأقصى قسم إلى عمالات كما تقدم ، وعين على رأسها أمراء يدعون بالسادة . وكانت العمالات بدورها كبيرة المساحة لقلة عددها ، فعمالات الأندلس مثلا ، كانت تشتمل على إشبيلية وغرناطة وقرطبة وبلنسية ومالقة . وكان يدخل تحت نفوذ كل منها عدة مدن وقرى ، فبلنسية كان يليها الجزائر الشرقية وشاطبة ومرسية ودانية وهكذا[48] . وقد وصل نفوذ الموحدين إلى برقة شرقا والأندلس شمالا .

أما عمالات المغرب فكانت تتكون من سجلماسة ومراكش وفاس وسبتة وطنجة مجمعتين وبجاية وتلمسان ، ويتبع كلا منها مجموعة من القرى والمدن ، وقد تكون ناحية الريف عمالة خاصة .

وممن ولي فاس إبراهيم بن جامع وأبو الحسن بن عبد المومن ومن ولاة سبتة يوسف بن مخلوف التينمللي وعثمان بن عبد المومن ومن ولاة العمالات بالأندلس أربعة من أعمام المستنصر ولاهم في عهده . ومن ولاة مراكش أبو حفص عمر بن

---

(48) انظر تقسيم عمالات الأندلس في عهد الموحدين في صبح الأعشى ، 5 ، 259 ، وبالنسبة لعبد المومن : روض القرطاس 2 ، 151 .

تافراكين وأغلب الولاة من الأسرة المالكة ، وفيهم أشخاص آخرون من الموحدين كما تبينه بعض الأسماء السابقة .

وكان لكل عامل وزير إقليمي وكاتب خاص يليه كتاب وموظفون أصغر رتبة منه . أي أن النظام الاقليمي كان تقريباً نسخة طبق الأصل من النظام المركزي الذي كان مع ذلك يختص بوجود هيئات استشارية قوية النفوذ ، وكان النظام الاقليمي شبيها إلى حد ما بنظام العمالات في عهد المرابطين .

ومن الوزراء الإقليميين عبد الحق بن واندين وزير عامل تلمسان عمر بن عبد المومن ،ويخلف بن الحسن وزير عامل بجاية،ويوسف بن سليمان وزير عامل فاس ؛ ومن الكتاب ابن مضا بفاس ، وأبو بكر بن حبيش بسبتة وعبد الملك بن عياش بتلمسان .

وكانت تحدث بين آن وآخر تنقلات في سلك العمال وخصوصاً إذا تولى خليفة جديد .

وكان الولاة والموظفون الكبار في عهد ازدهار الدولة يتلقون تكوينا ثقافيا وعمليا قبل أن يعهد إليهم بتدبير شؤون الادارة والأقاليم . وهكذا كانوا يختارون من طبقة الحفاظ الذين يبلغ عددهم ثلاثة آلاف بينهم أبناء الخليفة نفسه ؛ وكلهم في مستوَى من السن متقارب ، فيتلقون دروسا من الموطأ وسائر مؤلفات المهدي كما يتعلمون الرماية والفروسية والعوم والتجذيف في أيام معينة من الأسبوع ، وكان العوم في بحيرة أكدال الكبيرة بمراكش .

والواقع أن هذا التكوين التربوي الذي يجمع بين التوجيه النظري والعملي لا يكاد يختلف في شيء عن التكوين العصري في أرقَى مدارس العالم .

وكان للسادة[49] سلطة واسعة في مناطق نفوذهم مما آل بهم إلى الاستبداد منذ عهد المستنصر ، كما فعل أبو علي والي إشبيلية في عهده فقد استغل نفوذه إلى درجة أنه كان يقبض الرشوة على المناصب الهامة فيؤخر بذلك الأكفاء والمستحقين ، وكما فعل المامون الذي خلع بيعة أخيه وهو نائب عنه بالأندلس .

---

(49) نذكر هنا بأن لفظ السيد كان يطلق على الأمير (زركشي ، تاريخ الدولتين ، ص 9) .

ليس من المبالغة أن يقال بأن نظام القضاء في عهد الموحدين كان نسخة طبق الأصل من النظام الذي عرفه المرابطون قبلهم . وكان كبار القضاة يعينون في مراكز العمالات . وظل القاضي يختص بأكثر المهام التي كان يختص بها زميله في عهد المرابطين .

وفي الرسائل الموحدية[50] منشور قيم بعث به يعقوب المنصور إلى «الطلبة والموحدين والأشياخ والأعيان والكافة» باشبيلية ، يأمرهم بالعمل على إراقة المسكرات وتجريم بيعها وتحويل الحانات إلى حوانيت لبيع الأشياء المباحة . والمنشور يدل على النفوذ الذي تمتع به طلبة الموحدين وأشياخهم حيث يكلفهم بتنفيذ عمل هو قبل كل شيء من اختصاص القاضي ، وإن كان في الظاهر موجها إلى عموم السكان .

وقد جاء في المنشور المذكور قوله :

«...إن الناس تجوزوا في أمر الرب تجوزا أغفلوا فيه الاجتهاد ورتعوا حول حماه رتعا أوقعهم فيه أو كاد . وتسامحوا فيه تسامحا خرق المتعارف من المأذون فيه والمعتاد ، وحاول اتخاذه وبيعه من لا يتوقف على احترام ولا يتخوف بما يكتسب من آثام ، ولا يقف عند قوله عليه السلام : ما أسكر كثيره فملء الكف منه حرام ...»

ثم يقول بعد كلام طويل :

«فإذا وافاكم كتابنا هذا بحول الله عز وجل ، فاقطعوه جملة وتفصيلا ولا توجدوا أحدا إلى بيعه سبيلا... وأخلوا الحوانيت التي كان يباع فيها منه وأقفروها. وأصرفوها لغير ذلك من المباحات وصيروها الخ ..» .

وكان أكبر القضاة رتبة بدون شك ، قاضي الجماعة الذي هو في نفس الوقت القاضي الخاص الذي يستشيره الخليفة في الشؤون القضائية.ومن أشهر من تولى هذا المنصب عيسَى بن عمران التازي قاضي ابن يوسف ومحمد بن طاهر الحسيني قاضي المنصور[51] .

(50) رسائل موحدية ، ص 161 .

(51) راجع : ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص 224

أما الأول فكان أديبا كبيرا إلى جانب تضلعه في الفقه. كما كان خطيبا مصقعا. وأما الثاني فكان من كبار المدرسين والزهاد، واتصل بالمنصور سنة 587 فحظي عنده وولاه قضاء الجماعة. وكان يقول: «وصل إلي من صلات أمير المومنين المنصور منذ عرفته إلى أن مات تسعة عشر ألفاً دون الخلع والمراكب والأقطاع» وكان مع هذا جواداً وقد توفي إثر غزوة العقاب بإشبيلية[52].

ومن قضاة بلنسية أبو القاسم الغافقي وأبو الحسن بن أبي عشرة وهو فاسي. وعلي الأنصاري من أهل أبذة. ومن قضاة سجلماسة أبو عمران حجاج، ومن قضاة فاس علي الأنصاري ويوسف بن عيسَى التازي، وأحمد بن مضاء القرطبي وأحمد بن بكار من فاس. ومن قضاة بجاية علي التازي.

وكانت تحدث حركة عزل وتنقيل في سلك القضاة كما كان الأمر في عهد المرابطين أيضاً، وقد يعين قضاة من الأندلس في المغرب أو العكس.

واحتفظ الموحدون باحترام هيبة القضاء، فاستشاروهم في مختلف شؤون الدولة. حتَّى إن المامون استفتَى القاضي المكيدي في قتل من نكثوا بيعته ومنهم شيوخ الموحدين المستشارون، فأفتاه بقتلهم، حتَّى بلغ عدد القتلى أربعة عشر ألفاً علقت رؤوسهم بأسوار مراكش، وقيل أربعة آلاف.

وكان الخلفاء يلون بأنفسهم المظالم ويخصصون لها أياماً معلومة من الأسبوع. وإذا استقبلوا وفداً استفسروه عن سيرة العمال والقضاة قبل كل شيء.

وكان المحتسب من أهم الموظفين التابعين لسلطة القاضي، بينما كان تحت نظر المحتسب أمناء الأسواق بالمدن والقرَى. وقد يستقبل الخليفة نفسه هؤلاء الأمناء أحيانا فيسألهم عن الأحوال الاقتصادية والأسعار كما كان يفعل عبد المومن والمنصور.

وإلى جانب القاضي في المدن الكبرَى كان يوجد قاض خاص بشؤون الزوجية والطلاق يسمَى قاضي الأحكام، حتَّى يعين زميله القاضي الرئيسي بالتخفيف عن بعض مهامه. وممن تولى خطة الأحكام علي الأنصاري الأبذي بمراكش وتوفي[53] سنة 651.

(52) م. مجهول، الذخيرة السنية، ص 50.

(53) صلة الصلة 139، وراجع أسماء وتراجم عدد من القضاة في تكملة الصلة لابن الابار،

وفي عهد الموحدين أخذت وظيفة العدالة تتخذ طابعاً خاصاً . على أن المراجع المعتمدة لا يذكر أحد منها متى أصبحت مهمة العدل وظيفة رسمية بالمغرب . وقد حدد ابن خلدون شروط هذه الوظيفة في «الاتصاف بالعدالة الشرعية والبراءة من الجرح ثم القيام بكتب السجلات والعقود[54]» .

أي أن «العدالة» في الواقع شرط من شروط العدل وليست في أساسها وظيفة .

وكان العدول تابعين للقضاة ، وتشترط فيهم المعرفة بالفقه . ومن مشاهير العدول الموثقين في عهد الموحدين :

1) **أحمد بن علي الترجالي** : كان من الموثقين بمراكش ، ووصفه صاحب الديباج بأنه كان «فقيها حافظاً عاقداً للشروط بصيراً بها مميزاً في المعرفة بعللها والضبط لأحكامها» كما كان أكبر الموثقين بالعاصمة ، محترما من لدن القضاة والرؤساء ، توفي سنة 649 .

2) **أحمد التجيبي** : كان أحد عدول إشبيلية ثم تولى بها خطة الحسبة . وقد وصف بأنه كان «مبرزاً في عقد الشروط[55]» وتوفي سنة 630 .

الجيـــش

كان جيش الموحدين يتألف من عناصر عديدة :

1) الموحدون أنفسهم ، وهم يكونون سبع قبائل تقدم ذكرها . وكانوا ينقسمون إلى طبقتين إحداهما طبقة المرتزقة الذين يكونون عادة بمراكش ، وطبقة العموم وهم الذين يدعون للقتال عند النفير العام .

2) العرب ويتكونون من القبائل المرحلة من إفريقية في عهد المنصور ، بالاضافة إلى عرب الأندلس .

3) الغز وقد قدموا في عهد المنصور أيضاً .

= صفحات : 113 ، 115 ، 119 ، 187 ، 194 ، 221 ، 279 ، 560 ، 681 ، 683 ، 923 .

(54) مقدمة 195

(55) الاعلام 1 ص 350 وانظر اسم وترجمة عدل آخر من أهل سبتة ، واسمه محمد بن حسن بن غازي في تكملة الصلة ، ص 679 .

4) قبائل البربر عموماً وضمنهم قسم من المرابطين.

5) الروم ومعظمهم انضافوا إلى جيش المامون وكان عددهم يبلغ اثني عشر ألف مقاتل.

6) السودان الذين استخدمهم المرابطون فيما قبل. أو استجلبوا شراء.

وأورد العمري في مسالك الأبصار معلومات مفصلة عن طبقات الجيش الموحدي[56] حيث أوضح أن الجند يتألف «من الموحدين والأندلسيين وقبائل بها من المضافة إليهم، ومن قبائل العرب، ومن هاجر إليهم من العرب القدماء الذين هاجروا في مدة بني عبد المومن، والمماليك الترك المبتاعة من الديار المصرية ومن الفرنج وغيرهم».

وتتركب طبقات الجند كما يلي[57]:

1) الأشياخ الكبار من الموحدين. وهم بقايا أتباع المهدي.

2) الأشياخ الصغار وهم دون هؤلاء في الرتبة.

3) الوقافون وهم الحرس الملكي الذي يقطن بالقصبة. وفيهم وقافون كبار ووقافون صغار والجميع يقف بين يدي السلطان أثناء استقبالاته.

4) عامة الجند

5) الجند من قبائل العرب.

6) الصبيان، وهم جماعة من الشباب «بمثابة المماليك الكتانية بمصر». ويعملون في خدمة السلطان.

7) جند الأفرنج الذين يدعون بالعلوج وهم موضع ثقة السلطان الذي «لا يطمئن إلا إليهم».

وكان قواد الموحدين يتلقون تدريباً عسكرياً منظماً في عهد عبد المومن، وقد تقدمت الاشارة إلى ذلك في موضوع الولاة.

---

(56) نقلا عن صبح الأعشى. 5، 137

(57) نفس المصدر ص 138. ويلاحظ أن هذا التوزيع لا يختلف فيما بين الحفصيين والموحدين.

وكان عدد الجيش لا يقل عن ستمائة ألف مقاتل سدسهم تقريباً من الفرسان ولكن هذا العدد انخفض منذ وفاة الناصر ، وفي الغزوات الكبرى يشارك الخليفة بنفسه في الحملة حيث يقود الجيش . فإذا خرج للقتال في مكان بعيد عن العاصمة ، فإنه يسير بالجيش على مراحل . ويضرب طبل دوره خمسة عشر ذراعا عند الصبح ، فيستعد الجيش للرحيل . وقد قطع جيش عبد المومن ستة أشهر من سلا إلى تونس .

وكان البت في إعلان الحرب يتم في مجلس حربي يشترك فيه عادة شيوخ المجلسين وقواد الجيش البارزون . وقبل احتدام المعركة مباشرة ينتظم الجيش في شكل مربع يحيط به حملة القنا ووراء الصف الأمامي منهم حملة الحراب فأصحاب المخالي بالحجارة فالرماة ، وفي الوسط كوكبة من الخيالة التي تنفذ من فرج بين الصفوف ثم تعود إلى أمكنتها بعد أن تنال من العدو وتنقلب مرة أخرى وهكذا . على أن المتطوعين الذين يحتلون الصفوف الأمامية يشرعون في الحملة قبل غيرهم ، فإذا اختلت صفوفهم حمل على العدو أصحاب القنا . ثم تلاهم حملة الحراب فالفرسان ، وأخيراً يحمل الجيش الاحتياطي الذي يكون في آخر المربع يقوده الخليفة أو القائد العام . وقد سلك هذا النظام خاصة عبد المومن ، واختلف عنه خلفاؤه بعض الشيء بعد أن تكاثرت عناصر الجيش .

وعلى العموم فقد كان المتطوعة والغز والرماة يحتلون المقدمة . وجند الأندلس في الميمنة وسائل القبائل في الميسرة ، وفيهم العرب والمصامدة وزناتة وغيرهم . بينما يحتل الخليفة القلب ومعه كوكبة من فرسان هنتاتة .

وكان الخليفة يقوم بعرض عام للعسكر بين آن وآخر ، فيجلس في مكان مشرف وتمر الجيوش بين يديه كتيبة كتيبة بكامل عددها وأسلحتها . وكان يتقدمهم عادة ذرية أبي حفص الصنهاجي ثم فرسان بني عبد المومن فأهل الجماعة فطبقة الخمسين ثم القبائل تتقدمها هرغة فأهل تينملل فكومية فسائر الموحدين .

واستعمل الموحدون الأسلحة التقليدية من سيوف وحراب وسهام ودرق . وكان يصنع من السهام وحدها عشرة قناطير يومياً كما استخدم الموحدون المنجنيقات في فن الحصار .

وكان يتقدم الجيش عادة ، كوكبة من الطبالة لا يقل أفرادها عن مائتين ،

وكانت الطبول في منتهى الكبر، وتقرع حين السير للقتال إثارة لحماس الجيش.

أما في الحصار فقد استخدموا المنجنيقات التي كانت تقذف الأحجار الضخمة على الأسوار فتدكها. وربما استخدموا آلات نارية لاسقاط الأبراج على ما ذكره أشباخ. وتفوقهم في فن الحصار على المرابطين هو الذي مكنهم من الاستيلاء على فاس ومكناس ووهران وغيرها من المدن الحصينة.

ولما كان البياض شعار الموحدين فقد استعملوه في راياتهم، فكانت تضرب خيمة الخليفة على مقربة من ميدان القتال يخفق عليها علم أبيض، ولم يكن الخلفاء يسمحون لأحد باتخاذ الراية إلا للعمال والقواد والولاة. وتكون عادة من الكتان الأبيض. وقد تبلغ الرايات أثناء الحرب سبعاً أو أكثر حتَّى إن أكثر من ثلاثمائة بندوراية خفقت على رأس عبد المومن بن علي. وكان الطبل الكبير الذي يقرع عند الرحيل موشًى بالأخضر. وكان العلم الأكبر الذي يتقدم طليعة الجيش ملونا بالأبيض والأزرق وعليه هلال مذهب، بينما كان لكل قبيلة علمها الخاص.

أما قيادة الجيش العامة، فكان يعهد بها إلى أحد أفراد الأسرة المالكة أو شخص من ذرية أبي حفص الهنتاتي. فكان أبو يحيَى بن أبي حفص قائداً عاماً في حروب المنصور بالأندلس، وكان علي بن عمر بن عبد المومن قائداً أول لجيوش الناصر، كما كان أبو دبوس قائد جيش المرتضَى قبل أن ينقلب عليه. وكان أبو حفص الهنتاتي قائد جيوش عبد المومن.

وكان لكل حامية قائدها ولكل قبيلة قائدها الخاص أيضاً. لأن الموحدين تركوا القبائل تحارب كل منها كمجموعة ضمن المجموعة الكبرَى للجيش فكانت قيادة القبائل العربية يتولاها رؤساء البيوتات الكبرَى فيهم كبني جرمون في قبيلة سفيان، وهلال بن حميدان في قبيلة الخلط. وكانت القيادة لبني محيو بن عبد الحق في بني مرين وعباس بن عطية في بني توجين وابن منغفاد في غمارة ومنديل بن عبد الرحمن في مغراوة. وقد يتولى العرب قائد عام منهم كما فعل المنصور بتولية جرمون بن رياح عليهم في غزوة الأرك.

وكانت الخطط الحربية تدبر بمحضر الخليفة الذي كان يشارك بنفسه عادة في كل الحروب المهمة، وقلما شد خليفة عن المشاركة في الحملات بنفسه.

وعلى العموم فقد كانت شخصية الخليفة وهيئاته الاستشارية ذات أثر قوي في فشل الحملة أو نجاحها .

الأسطـول

بدأت عناية الموحدين بانشاء الأساطيل في عهد عبد المومن بن علي[58] حتّى بلغ عدد قطعها 400 وزعها بين أهم موانئ مملكته ، فكان منها بالأندلس ثمانون وبشمالي المغرب مائة وفي المهدية مائة وعشرون وفي افريقية والجزائر مائة . وكانت أهم الموانئ قادس وسبتة والمهدية وباديس ووهران وطنجة وعنابة .

وكانت الترسانات تعرف بدور الصناعة ؛ ومن ضمنها دار الصناعة بقصر مصمودة وكان يصنع بها المراكب والحراريق المعدة للنقل إلى الأندلس . ودار الصناعة بالحبلات قرب وادي فاس وكان يصنع بها القوارب وصغار المراكب[59] .

أما القطع المستعملة فهي 1) المراكب . 2) الحراقات[60] .وكانت تحمل المنجنيقات التي ترمي بالنفط المشتعل على العدو . 3) المسطحات وهي عبارة عن سفن ضخمة تجري وراء السفن الصغيرة لانقاذها في حالة الخطر . 4) الزوارق . 5) الشلنديات وواحدتها شلندي ، وهي أيضاً سفن كبيرة لحمل الأسلحة والمجاهدين . 6) الطرادات : سفن صغيرة شديدة السرعة . 7) الشونات وهي مراكب كبيرة تنصب فيها أبراج للدفاع .

ومن كبار قادة الأسطول الموحدي عبد الله بن سليمان في عهد عبد المومن[61] وأحمد الصقلي في عهد أبي يعقوب وهو من جربة ؛ أسرهُ النرمنديون وحملوه إلى بلاط صقلية فربي في كنف ملكها ، وكانت له مواقف خالدة في جهاد النصارَى سواء في الأندلس أو سواحل البحر المتوسط . ويقول ابن خلدون في مقدمته بأن أساطيل المسلمين انتهت في عهده إلى ما لم تبلغه من قبل ولا من بعد من حيث الكثرة وجودة الصناعة ، وقد عمل أحمد الصقلي هذا في قيادة أسطول المنصور

---

(58) مقدمة ابن خلدون 222

(59) المنوني 255

(60) تاريخ التمدن الاسلامي زيدان ج 1 ص 220

(61) البيان المغرب 1 ص 456

أيضاً إلى جانب محمد بن إبراهيم بن جامع ومحمد بن عطوش[62] . ومن أمراء البحر في عهد الناصر . ابن طاع الله الكومي[63] وأبو العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المومن[64] ويحيى بن أبي زكريا الهزرجي[65] .

وبواسطة الأسطول تمكن الموحدون من افتتاح الجزر الشرقية وسهل عليهم فتح اقطار الشمال الافريقي التي تحميها موانئ قوية ولم يمض على سقوط المرابطين اثنا عشر عاماً حتّى بعث عبد المومن إلى إفريقية بأسطول يقوده عبد الله بن سليمان . لاستكتشاف أحوال البلاد ومنازلة النصارَى . وبعد سنتين من هذه الحملة ، فتحت المهدية سنة 555 وهي يومئذ أعظم موانئ إفريقية ، وقد عجز النرمانديون عن إنقاذ المهدية بواسطة أسطول من مائتي قطعة وانهزم القطلونيون قرب طرطوشة أمام الأسطول الموحدي في عهد يوسف بن عبد المومن[66] .

وكان أمراء البحر يتلقون تدريباً خاصاً في شؤون التجذيف وقيادة السفن قبل أن يعهد إليهم بمهمة القيادة ، وكانوا يشتركون في ذلك مع سائر الحفاظ الذين كان يعين منهم العمال والولاة وقواد الجيش . وكان هذا التدريب يجري في بحيرة عظيمة بقصر الخليفة بمراكش ، وهي مربعة يبلغ محيطها ثلاثمائة باع[67] .

نظام الجباية

من المعلوم أن عبد المومن قد مسح أراضي الشمال الافريقي وأسقط من التكسير الثلث في الأنهار والطرق والجبال والغابات . وألزم الأراضي الممسوحة بالخراج ولو لم تنتج شيئاً . وكانت الدولة تتكفل باستخلاص الأعشار والزكوات وعدة ضرائب ومكوس على المباني والأبواب والأسواق .

وقد الزم عبد المومن كل قبيلة بمقدار ما تتوفر عليه من الأرض . ويذكر مصدر

---

(62) الاستقصا 143
(63) تاريخ ابن خلدون 6 ص 516
(64) المعجب 314
(65) الاستقصا 192
(66) اشباخ 490
(67) الحلل الموشية 125

متأخر أن ذلك كان تبعا لكثرة النفع وقلته . وشمل التكسير مجموع الأراضي الخاضعة للدولة من برقة إلى نول[68] .

وكان المشرف على استخلاص الجبايات يدعى بصاحب الأشغال ، ويكون في الغالب من الموحدين ، ووظيفته من أسمَى المراتب في الدولة ، إذ كان يباشر الرقابة حتَّى على الولاة والعمال فيما يخص استخلاص الضرائب والزكوات . وكانت أموال زكاة الفطر تدفع أحياناً إلى القاضي ليتولى بنفسه توزيعها على الفقراء والمساكين[69] .

ومكنت هذه الموارد دولة الموحدين من إنشاء جيش عظيم وأسطول ضخم . بالاضافة إلى المباني الهائلة التي أقاموها في مختلف بلاد المغرب . وقد بلغ خراج إفريقية وحدها ما يعادل حمل مائة وخمسين دابة . وعندما تولى المنصور أخرج مائة ألف دينار ذهباً ، لصالح الفقراء . كما تصدق بأربعين ألف دينار قبل خروجه لغزوة الأرك .

ومع أن فرض الضرائب كان عاماً فقد كان يراعى فيه حالة السكان وانتاج الأرض أحياناً ، وقد ساعدت مناجم الأندلس وشمالي إفريقيا وكذا الغنائم الحربية على تضخم موارد الدولة التي اهتمت ببناء المستشفيات والملاجئ وسائر المباني العمومية . وكانت هناك مكاتب جمركية في الموانئ لاستخلاص الأعشار والرسوم المقررة[70] .

ومن الانصاف القول بأن الضرائب كانت فاحشة في أكثر الأحيان . فالفواكه الصيفية والخريفية كانت الدولة تأخذ نصفها . أما الزيتون فتأخذ ثلثيه وتبيع حظها من الانتاج قطعة قطعة ، وكان المشترون يدعون بالقشاشين ، وكانوا يضطرون الفلاحين أحياناً إلى بيع حقهم الهزيل بأثمان بخسة . أما إذا اشترى صاحب الأرض حق الدولة فيأخذه لقاء تكاليف باهظة . مما اضطر الدولة في النهاية إلى التخفيف على الفلاحين في جباية الزيتون والأخذ بنظام المقاطعة على الفواكه[71] .

(68) زياني ترجمان، ص 288، روض قرطاس 2، 161 و174.
(69) رسائل موحدية ، ص 167
(70) Le Comte de Mas ; Relations et commerce avec les nations chrétiennes p.95
(71) ابن غازي : الروض الهتون ، ص 10

وكان الموحدون مع هذا يلجأون في أوائل دولتهم إلى مصادرة أموال خصومهم . كما كانوا يفتخرون بانهم قد رجعوا بالضرائب المقررة إلى الأنظمة الشرعية .

السكـــة

اشتهرت سكة الموحدين بارتفاع قيمتها ليس فقط في شمالي افريقيا بل في الشرق الاسلامي أيضا ، ونسبت أقوى قطع هذه العملة إلى عبد المومن ، فكان يقال الدينار الموني والدرهم الموني ، وقد سك المهدي بن تومرت سكة مربعة استمرت على هذا الشكل إلى عهد المامون الذي ألغاها وعاد إلى تدوير السكة . وكتب على أحد وجهي هذه السكة المربعة على التوالي هذه العبارات : 1) الله ربنا . 2) محمد رسولنا . 3) المهدي إمامنا . كما رددت نفس العبارات في الوجه الثاني ، ويحمل كل من الوجهين اسم الخليفة .

وقد سك المنصور عملة ثقيلة[72] فبلغ وزن الدينار في عهده ما يعادل 4،729 غرامات[73] . ولم يكن يتجاوز قبله 3،960غ كما اختلف وزن السكة بعده باختلاف الملوك .

وكانت العملة تسك قبل الناصر بعدوتي الأندلس والقرويين من فاس ثم أصبحت تصنع في دار بناها الناصر بقصبة فاس .

والظاهر أن أمر صناعة النقود قد اختصت به الدولة وحدها من غير أن تسمح للعمال والولاة بانشاء نقود محلية أو مصانع محلية على الأصح . ولم يكن الأمر كذلك في عهد المرابطين الذين تقدم أنه كان لهم دور عديدة لسك النقود في مختلف أجزاء المملكة .

2 – الحياة الاجتماعية

حياة السكان :

انضافت إلى المجتمع المغربي أفواج بشرية جديدة من العرب الذين عمروا سهول المغرب وصحاريه . وبدأ المغرب يستقبل بالتدريج عائلات مهاجرة من الأندلس .

(72) محمد المنوني : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ، ص 258
(73) عبد العزيز بنعبد الله : مظاهر الحضارة 1 ، 76

على إثر سقوط عدة مراكز من الأندلس في يد العدو. وما من شك في أن هجرة بني هلال وسائر القبائل العربية التي صاحبتهم من إفريقية. قد عملت على تعريب عدة قبائل من المغرب، وكان أحظى أجزاء هذه البلاد من هذا التعريب. المناطق التي استقروا بها طبعا، وهي تشكل أغنى بقاعه، وقد عمل استيطان العرب في السهول الأطلسية على تجمع البربر وتكتلهم في جبال الأطلس خصوصا المتوسط. حيث استعاضوا بسفوحه الغنية. عن سهول المحيط الأطلسي. كما انضاف إلى سكان المغرب أيام الموحدين. عناصر من الغز وعدة عائلات من القيروان وحوالي أربعين ألفاً من قبيلة كومية.

وقد اختلفت معاملة الموحدين لعناصر السكان. عن معاملة المرابطين لهم، فبينما اتخذ الأولون سبيل العنف في القضاء على ثوارهم واستخلاص الضرائب منهم وإخضاعهم للنظام القائم، كان المرابطون يتجنبون كل سبيل للشدة، ولا تبلغ عقوبتهم حد القتل إلا نادراً، وعلى العكس من ذلك كان الموحدون، ولا يكاد يشذ في ذلك أحد خلفائهم.

على أن سياسة العنف انتهجها الموحدون خاصة عند قيام دولتهم، حتَّى إنهم عندما دخلوا إلى مراكش. استولوا على دورها وباعوا نساءها واطفالها بيع العبيد. إلا زينب بنت يوسف التي احترموها لمكان زوجها يحيى بن إسحق الذي دخل في طاعتهم[74].

أما اليهود فقد الزمهم الموحدون بلباس خاص، فكانوا يلبسون أيام المنصور ثياباً كحلية وطاقيات كبيرة ثم تغير هذا الزي في أيام الناصر إلى ملابس صفراء وعمائم من نفس اللون. ولا يستغرب أن يأخذ الموحدون اليهود بالشدة، بعد أن كفروا المرابطين واتهموهم بالتجسيم وعاملوهم على أساس أنهم كفار إلا من دخل في دعوتهم منهم، وقد خاف اليهود بطش الموحدين حتَّى اضطروا إلى إظهار الاسلام وإخفاء دينهم حتَّى نسب إلى المنصور أنه قال: «لو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيئاً للمسلمين»[75]. ويجب التذكير هنا أن اليهود وجدوا من الدول الحاكمة قبل المرابطين تسامحا عظيماً، وما من شك في أن

---

(74) الحلل الموشية 118

(75) المعجب ص 305

بعض العناصر اليهودية الأندلسية لم تكن مخلصة للدولة الموحدية كما كان لها دور في عدم احترام تعليمات الدولة بشأن بيع الخمر للسكان المسلمين.

وفي مقابل هذه الشدة التي عرف بها الموحدون على العموم، نجد أن طريقتهم في الاحسان إلى الفقراء والعطف على المرضى والعجزة. تتخذ طابعاً انسانياً رائعاً. ومارستان مراكش يعطي صورة مصغرة عن ذلك.

وشهد السكان في عهد الموحدين رخاء عظيماً خصوصاً في أيام الخلفاء الكبار. أما في أواخر عهدهم فقد اشتد الوباء والمجاعة حتى بيع قفيز القمح بالمغرب والأندلس بخمسة عشر دينارا سنة 624 وارتفع إلى ثمانين ديناراً سنة 630. ولكن الرخاء عاد من جديد إلى الأسواق المغربية عندما أوشكت دولة الموحدين على السقوط سنة 657 واستمر هذا الرخاء مدة خمس عشر سنة بلغ ثمن القمح خلالها ستة دراهم للصحفة الواحدة[76].

وقد ترك لنا صاحب المعجب وصفا جيدا عن حالة سكان فاس في أيام الموحدين، فلاحظ تقدمهم الحضاري ووصفهم بالكيس ونهاية الظرف كما ذكر أن لغتهم أفصح اللغات في المغرب «وما أظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس، أكثر مرافق وأوسع معايش وأخصب جهات، وذلك أنها مدينة يحفها الماء والشجر من جميع جهاتها، وتتخلل الأنهار أكثر دورها زائدا على نحو من أربعين عينا ينغلق عليها أبواب ويحيط بها سورها، وفي داخلها وتحت سورها نحو من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء، ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شيء يجلب إليها من غيرها إلا ما كان من العطر الهندي سوى مدينة فاس هذه[77].

ومع ذلك فقد تسلطت الحرائق عدة مرات على هذه المدينة، وكان أهمها سنة 646 حيث احترق سوق السقاطين والغمادين والسبيطريين والصباغين والصوابين[78].

أما مراكش العاصمة السياسية فقد شهدت بدورها ازدهاراً عظيماً في عهد

(76) مؤلف مجهول، الذخيرة السنية، ص 97
(77) المعجب 158
(78) الذخيرة السنية 80.

الموحدين . فكانت طرقها وساحتها رحبة وأسواقها عامرة ، وأتم الموحدون عمل المرابطين في تزويدها بالمياه الكافية .

وفي مكناس بدأت الحضارة تتخذ طريقها إلى السكان البربر ، فجلب إليها الماء على ستة أميال . وكان بها أيام الموحدين ثلاثة حمامات أحدها البالي والثاني الجديد والثالث الصغير. وكان يسكن بها في العشر الثانية من القرن السابع ابن أخت الفونس ملك قشتالة . وكان قد دخل في دين الاسلام[79] .

أما سلا الحالية التي يبدو أن نشأتها ترجع إلى عهد المرابطين فقد قطن بها البربر بعد عهد عبد المومن بن علي ، وكان مجيئهم من إفريقية فأنشأوا بها البساتين . وعلموا أهلها طرق الري وغراسة البساتين ، وبدأت أهمية سلا تزداد منذ أن أظهر يعقوب المنصور عنايته بتعميرها وإنشاء مسجدها الأعظم بالطالعة وهي أقدم حومة بها[80] وقد اتخذها بنو العشرة الأندلسيون مقرا لهم[81] ، ويتحدث صاحب الاستبصار عن ازدهارها في عهد المنصور ، وهو معاصر له .

وقد ذكر نفس المصدر عن وجدة أنها كثيرة المياه والعيون طيبة الهواء ، ومراعيها أنجع المراعي وأصلحها للماشية ، ويصنع من صوفها أكسية جيدة . وهي طريق المارة بين سجلماسة والمشرق .

وتمتعت البوادي بحقبة طويلة من الأمن . وإنما بدأ صفو هذا الهدوء يتعكر بعد أن سمح الموحدون للعرب بالتدخل في الشؤون السياسية والتضريب بين أمراء الأسرة المالكة ، وكان خطأ الموحدين الأعظم كما قدمت في غير هذا الموضوع أنهم لم يوزعوهم توزيعاً ملائماً ، ولم تأخذ المدن الكبرى حظها منهم فتعمل بذلك على تقريبهم من سكانها وتهذب من طابعهم البدوي . ومنذ سنة 620 أصبحوا يغيرون على المزارع والقرى الآمنة . وجاراهم في ذلك بعض القبائل التي أقصتها الدولة عن الحكم كصنهاجة وأوربة فضعفت موارد الدولة واشتد الغلاء[82] وبدأ سكان البوادي يتناقصون .

(79) ابن غازي ، الروض الهتون ، ص 10

(80) Champion, Le Maroc et Ses Villes d'art Tome 2, p.18

(81) كان نزول بني العشرة بسلا أيام المرابطين ، راجع اتحاف أشراف الملا للدكالي ، خزانة عامة 11 د ، الرباط .

(82) الذخيرة السنية 33

ومال السكان في هذا العصر إلى الأخذ بأسباب اللهو . فشاع الطرب والغناء في بلاط الملوك وبين طبقات المجتمع على السواء وشارك النساء في ذلك أيضا . وهكذا فقد أحل الموحدون ما حرموه أو نقموه على المرابطين قبلهم .

وأولع الموحدون بالصيد . حتى قيل إن ابن حماد صاحب القلعة الذي نفي إلى المغرب . صاد مرة شبلا وأدخله على الخليفة في مجلسه ، فمشى بين يديه واخترق الصفوف حتى وصل إليه وربض لا يتحرك . وكان لابن حماد وعبد المومن وكثير من ملوك الموحدين الآخرين ولع شديد بجمع الحيوانات في حدائق قصورهم .

أما من حيث لهجات السكان . فقد أخذنا نشاهد ألفاظاً كثيرة نستعملها حتى اليوم في الدارجة . وهي لاشك ناتجة عن الاختلاط بالعرب وأهل الأندلس وهكذا شاع حينئذ . استعمال كلمة تشامير و«الدوارة» و«النافخ» و«البراح»[83] وأمثالها .

وقد اهتم الموحدون بتلقين العقائد باللسان البربري حتى كانوا لا يقدمون للخطبة في الجوامع الا من كان يتقن عقائد التوحيد دراسة وتلقينا بالبربرية[84] .

3 – الحياة الاقتصادية

قامت نهضة اقتصادية عظيمة في عهد الموحدين . سواء في الميدان الصناعي أو الفلاحي أو التجاري .

ففي الميدان الصناعي عني الموحدون على الخصوص بصناعة التعدين والانتاج الميكانيكي والفني . وقد خصص صاحب المعجب نبذة عن المناجم التي عرفت في عهده وكان السكان يستغلونها سواء بالمغرب أو الأندلس . وهكذا فقد كانت مناجم الحديد توجد بتمسامان وساحل المحيط الأطلسي بين سلا ومراكش وقرب المرية وبين شاطبة ودانية ، أما الذهب فكان يجلب من السودان . والتوتيا والنحاس من السوس ، والكبريت من حص طلميثة بين برقة وطرابلس . والزئبق من شلون قرب قرطبة والفضة من حصن وركناس بقرب مكناس .

---

(83) اداب الحسبة للسقطي ص 31 و34 و17 و59 ج 1 وفي مجلة هسبريس مجلد 10 ع 1 بحث هام عن تطور اللغة في عهد الموحدين

(84) الجزنائي ، زهرة الاس ، ورقة 108 ، م. خزانة عامة ، رقم 11 د ، الرباط .

وفي عهد المنصور أسست مصانع الورق التي كانت منبثة في فاس وسبتة بالاضافة إلى قسنطينة والقيروان . وسمح إنتاج الورق في عين المكان بتيسير وسائل التأليف في مختلف العلوم مما سيرد ذكره فيما بعد . وكانت مصانع النسيج تنتج ثياباً فاخرة بالاضافة إلى الثياب العادية . ولا أدل على ذلك من صورة الستارة التي نقلها جرجي زيدان في تاريخ التمدن الاسلامي .

أما أهم شيء برع فيه أهل الصناعة في هذا العهد على الاطلاق ، فهو الصناعات الميكانيكية . وتتمثل في الآلات الحربية من مجانيق تدك الخنادق والأسوار دكاً[85] وترسل النيران على الأعداء فتحرقهم[86] . وسيوف قاطعة نافذة الطعنات إلى غير ذلك من أنواع الأسلحة التي عرفت قبلهم وتفوقوا هم في تجويدها . على أن أحسن مثال لهذه الصناعات الميكانيكية . هو تابوت مصحف عثمان ومقصورة عبد المومن .

ومما يدل على ازدهار الحركة الاقتصادية في هذا العهد أن فاس وحدها كان بها في أيام الناصر 9082 دكاناً و86 مدبغة و12 معملا للنحاس و113 مصبغة و472 رحَى و136 فرنا للخبز و400 معمل لصنع الورق وقيساريتان

أما في الميدان الفلاحي فإن المصامدة المعروفين بأنهم من أهم القبائل المستوطنة بالمغرب ، قد اهتموا منذ القديم بالزراعة وغرس الأشجار . وبفضلهم ازدهرت الفلاحة في أراضي كانت مهجورة من قبل[87] ، وقد توارد على المغرب مهرة الفلاحين من إفريقية . واستوطن بعضهم سلا وأنشأوا بها البساتين وعلموا أهلها الفلاحة والغراسة ، ولا يزال كثير من أهلها يتعاطون هذه المهنة .

وأكثر الموحدون من غرس الزيتون بناحية فاس ومكناس وتازا . حتَّى كان زيتون بحيرة مكناس يباع بخمسة وثلاثين ألف دينار سنويا وزيتون فاس بنحو 50 ألف دينار وزيتون تازا بخمسة وعشرين ألف دينار .

ومن أشهر البساتين التي أنشأها الموحدون بستان المسرة وجنان الصالحة بأكدال

---

(85) رسائل موحدية 107 و204

(86) رسائل موحدية 204

(87) الروض الهتون 10 ، 18

مراكش . وقد بلغ من شهرة بستان الصالحة أن تغنى به أطفال الكتاتيب القرآنية ولا يزالون[88] .

وفيما يخص النشاط التجاري فقد كانت الرباط وطنجة تشكلان أهم موانئ المغرب . وكانت طنجة تصدر الصوف والجلود والفواكه المجففة والشمع والعسل بينما يرد إلى مينائها الثياب والأسلحة والخرداوات . هذا بالاضافة إلى أنها كانت ميناء حربياً تتنقل منه السفن إلى تونس والأندلس . وكان بها ترسانة عظيمة[89] .

وقد أورد أندري جوليان تفاصيل هامة عن الحياة الاقتصادية في عهد الموحدين واعتمد في بعضها على مستندات معاصرة . ومن المفيد أن ألخص كلامه فيما يلي :

إن الموحدين لم يعنوا بتحسين الحالة الاقتصادية في المغرب فحسب . بل عملوا كذلك على ازدهارها في الأندلس وإفريقية طبعاً وهكذا كانت بعض مدن الأندلس كالمرية وجيان تصنع الحرير ضمن أنواع النشاط الأخرى التي كانت تمارسها وتبلغ 800 مهنة . وكانت سبتة مشهورة بورقها الذي ينسب إليها .

وكانت الأندلس تصدر إلى المغرب . الأخشاب والمزروعات ومنتجات الشرق . كما كان التبادل قائما بين المغرب وتونس وبجاية وقسنطينة ووهران وتلمسان . وجنوة وبيزه والبندقية ومرسيليا التي كان لها فندق تجاري بسبتة وقد ترك السيد سايوس تعاليق عن طريقة المعاملة بين تجار إفريقية والنصارى الذين لم يكتفوا بالتجارة مع المسلمين فحسب . بل استقر بعضهم بافريقية . وكانوا يشترون من تجار الشمال الافريقي الغنم والشمع مقابل الثياب والمنتجات الشرقية . والخمر أحيانا . وقد حصل البيزيون على ضمانات لحماية ممتلكاتهم وأشخاصهم سنة 1157م وأسسوا فندقا خاصا بهم في إفريقية . وكانوا يبادلون أهلها المزروعات مقابل الصوف والجلود والشمع . وكان المسلمون يثقون في أمانتهم إلى حد أنهم كانوا يقدمون إليهم البضائع قبل الحصول على المال بوقت طويل .

وقد كان المرسيليون يروجون أموالا عظيمة في النقل والتجارة بافريقية كما كان الجنويون أول من عقد وثيقة تتعلق بشؤون الصرف مع تونس . وفيما بين سنة 1212

(88) يقولون : «اجراده مالحة ! . فاين كنت سارحة ! في جنان الصالحة .. الخ»

(89) Mission Scientifique, Villes et Tribus du Maroc, 7, 54

و1246م باع المرسيليون بواسطة اليهود في سبتة وبجاية ووهران وتلمسان قطعاً مالية عربية تساوي نصف درهم ضربوها في مونطبولي بقصد تصديرها . أما البندقيون فلم يتبوأوا في تجارة إفريقية مكانا عاليا الا منذ عهد الحفصيين[90] .

وقد كان التجار المسيحيون يحظون في دول المغرب العربي خلال القرون الوسطَى بحماية عمال الأقاليم مباشرة[91] .

4 – العمارة والفن

لم يتخلص الموحدون من التأثير البربري شأن سابقيهم المرابطين ، وهكذا ظلوا يعنون بعنصر القوة والضخامة في مبانيهم متأثرين مع ذلك بالفن الأندلسي من حيث نموذج البناء والزخرفة ، بل إن الموحدين بعد فتحهم الشمال الافريقي إلى طرابلس قد تأثروا بمؤثرات فنية هي مزيج من فن القيروان وقلعة بني حماد ، وقد أخذت القيروان غير قليل من الفن المصري والعراقي .

واهتم الموحدون بانشاء المدن وتوسيعها ، وببناء الموانئ والحصون والقناطر ، وكانوا يبنون المدن في المواقع الستراتيجية التي تكتسي صبغة حربية خاصة كتازا والرباط والمهدية .

المـــدن

لم يكتف الموحدون بانشاء مدن جديدة ، بل وسعوا أو جددوا عدة مدن أخرى . ومن المدن التي أنشأوها :

1) تـــازا

أسسها عبد المومن بن علي سنة 538هـ في الممر الذي اشتهر باسمها والذي يصل بين فاس والمغرب الشرقي ، وقد شيد بها الموحدون والمرينيون آثاراً عظيمة لا يزال بعضها قائماً كالمسجد الأعظم الذي يحتفظ بثرياه الرائعة من عهد المرينيين كما يحتفظ بمنبره المريني أيضاً ، ومن الآثار القائمة بها المدرسة المرينية ومشور بوحمارة من عهد العلويين .

(90) اندري جوليان ج 2 ص 122 إلى 124

(91) Le Comte de Mas Latrie, Relations et commerce, p.161

وقد تقدم أن الموحدين غرسوا بناحية تازا أشجار الزيتون التي كانت تغل في عهدهم أموالاً قيمة . وكانت تازا مجرد رباط قبل الموحدين فصارت أيامهم مدينة منذ سنة 538هـ والمرابطون لا يزالون بمراكش[92] ، وتراقب تازا كلا من منطقة الريف والمنطقة الشرقية .

2) المهديـة :

تقع على الضفة اليسرَى من نهر سبو ، وهي من المدن التي أحدثها اليفرنيون ثم خربها البرغواطيون وجدد بناءها جوهر الصقلي سنة 344 ثم أعاد بناءها يعقوب المنصور الذي أنزل بها بني رياح من عرب بني هلال ، ثم حطمها البرتغال سنة 663 وبقيت كذلك إلى أن وقعت في قبضتهم سنة 923 فحصنوها ثم استولَى عليها الاسبان سنة 1033 وتركوا بها عدة آثار[93] ، وهي قريبة من القنيطرة . وكانت تسمى بالمعمورة أو حلق الوادي ، وإنما سميت المهدية بعد أن استرجعها السلطان إسماعيل العلوي[94] سنة 1092هـ .

3) الربـاط

قيل : كان الرباط قبل بنائه مربطا للجيوش الاسلامية خصوصا جيوش المرابطين المحاربين ضد برغواطة ، وحسب ما ساقه ابن حوقل فربما استعمل اللفظ للدلالة على رباط استقر به سكان شالة بعد خرابها[95] وعند تأسيس الرباط الموحدية سميت رباط الفتح . ويقول شامبيون بأن المرابطين أول من أقاموا في مكان المدينة الحالية رباطاً للجهاد . وإذا صدقنا ما يقوله هذا المؤرخ ، فإن عبد المومن أول من بدأ البناء بهذه المدينة من الموحدين ، ولو أنه لم يكن يقصد بناء مدينة بجميع مرافقها ، فقد شاد بها قصرا سرعان ما بنَى رجال حاشيته منازل حوله ، وسميت هذه المجموعة من المباني بالمهدية نسبة إلى المهدي بن تومرت ، على أن المهدية هذه كانت قصبة بسيطة أيام المرابطين ، وكان عبد المومن ينزل بها مع وزرائه إذا قدم إلى سلا[96] .

(92) زياني . ترجمان ، ص 287

(93) عبد الرحمن بن زيدان . اتحاف أعلام الناس . 2 . 72

(94) بوجندار . مقدمة الفتح ص 44 . 45

(95) بوجندار . مقدمة الفتح . ص 72

(96) نسبت أيام العلويين إلى جيش الأودايا فأصبحت تسمى بالأودايا (بوجندار ص 42) .

أما صاحب المعجب فيذكر أن يوسف بن عبد المومن هو الذي أسس مدينة الرباط وابتدأ في بنائها ثم اتمها المنصور الذي بنَى مسجدها العظيم بصومعته المشهورة باسم حسان ويبدو أن المدينة كانت تمتد طولا على الساحل أكثر مما تمتد نحو الداخل. وكان طولها في عهد الموحدين نحو فرسخ. وعلى كل، فإن عبد المومن قد جعل من المهدية قصبة ظلت قائمة حتَّى القرن الثامن عشر الميلادي، وجلب إليها الماء من عين غبولة القريبة من المدينة، وتدعَى الآن بقصبة الاوداية، ولم يبق بها من آثار الموحدين سوَى بابها العظيم. وحسبما يستقى من كلام صاحب المعجب فإن العمل بالمدينة في عهد المنصور بدأ منذ ولايته سنة 580 واستمر البناء إلى سنة 594. وخلال غيبته بالأندلس تم بناء السور وصنع الأبواب كما شيد منار حسان، وإلى ذلك الحين كانت مجموعة السكان تتكون من حاشية السلطان والجنود، إلا أن المنصور جلب اليها جماعة من المثقفين والصناع والفلاحين، وكان يقيم فيها ستة أشهر من كل سنة، وكان يقصد بها على حد تعبير ليون الافريقي منافسة الاسكندرية سواء من حيث ضخامة البناء أو جماله. وقد أنفق فيها أموالا طائلة، وكان البناة من أسارى الأسبان ولم يكن بناء المنازل وثيقا إذ سرعان ما تحطم كثير منها أيام المنصور نفسه[97]، ولكن المدينة مع ذلك شهدت ازدهاراً عظيماً بعد المنصور حتَّى تخرب أكثرها خلال الحروب التي نشبت بين المرينيين والموحدين وأدت إلى سقوط الدولة الموحدية.

المساجـد

لا يختلف تصميم المساجد الموحدية عنه في دولة المرابطين إلا في بعض الفروق فقد ظلت عقود المساجد بعيدة عن الزخرفة إلا ما كان من المنارات التي انتشرت فيها شبكات من المعينات البارزة، كما أنها كانت تميل إلى الارتفاع والضخامة شأن طريقة الموحدين في سائر مبانيهم. وقد ظلت العقود تتجه نحو جدار القبلة كما كان الشأن في الماضي، ولكن إذا كان الموحدون قد حصلوا على الحجر الصالح لبناء منارة حسان وإشبيلية فقد بنوا الكتبية من الآجر، إذ أن حجر جيليز لم يكن فيما يبدو ملائماً لبناء هذه المنارة.

---

(97) Champion, le Maroc et ses villes d'art, p.34

- جامع حسان :

اختط هذا الجامع وشرع في بنائه المنصور، ولم يتمه هو ولا من جاء من بعده، ولو أن بناء الرباط تم في عهده. وكان من المنتظر أن يكون هذا المسجدُ أعظم مساجد المغرب لو كمل بناؤه، أما المنارة التي اشتهرت باسم حسان فقد تكون أعظم منارة إسلامية لو تمت هي أيضا. ويستنتج بعض الباحثين أن أعمدة المسجد قد جلبت من أماكن بعيدة بواسطة عربات. ويرتفع الجامع بنحو ثلاثين متراً عن سطح البحر، ويبلغ طوله 183م وعرضه 139، وقد بنيت المنارة بحيث تتوسط أحد جوانب المسجد الأربعة، وهو تصميم لا يوجد في أي مسجد آخر بالمغرب حيث تشيد الصومعة عادة في الركن المواجه للمحراب. وتبلغ مساحة قاعة الصلاة 19321متر مربع وفي كل جانب منها 139م. ويبلغ عدد الأبواب ستة عشر، منها أربعة في جهة الشمال، وأربعة في الجنوب، واثنان في الجهة الشرقية، واثنان في الجهة الغربية، ويبلغ ارتفاع جدرانه تسعة أمتار. غير أن الأعمدة تختلف ارتفاعاً من ثلاثة أمتار وربع متر إلى ستة أمتار وثلاثة أرباع المتر، ويبلغ عددها 360، أما المحراب فلم يبق منه شيء. وتقع المنارة في الجانب الشمالي وعرض كل جانب منها 16م و20سم. أما ارتفاعها فينتهي إلى 67م ونصف م، وعرض جدرانها متران ونصف. ويصعد إلى أعلاها بواسطة عقبات صغيرة يبلغ عرضها مترين تقريباً. وحسب تصميم أحد الخبراء فقد كانت المنارة ستبلغ ارتفاع 80م لو تم بناؤها[98]، وهي على أي حال أهم أثر ظل قائماً في هذا الجامع. وتمتاز بزخرفتها التي تتمثل في معيناتها ومقرنصاتها.

وقد عملت يد التخريب والنهب عملها في هذا الجامع العظيم، وبدأ ذلك على يد الموحدين أنفسهم، إذ في سنة 641 نقض السعيد أخشابه وصنع بها سفنا حربية لم تلبث أن أحرقت في أزمور[99].

وتوالى التخريب بعد ذلك حتّى كانت سنة 1755م فحدث الزلزال المشهور الذي حطم لشبونة وتأثرت به عدة مدن من المغرب كوليلي ومكناس والرباط.

والظاهر أن المسجد كان يختلف ارتفاعاً بدليل أعمدته، ويبدو أنه كان قد شرع

(98) مجلة العالم عدد 11 سنة 9

(99) الذخيرة السنية 66

في تبليطه ، إذ تكون عدة بلاطات قد اقتلعت منه كما اقتلعت الأبواب وغيرها . وكان الجامع يحتوي على عدة «مطافئ» تختزن مياه الأمطار ويجري الماء منها بواسطة قنوات صغيرة وعلى كل حال فإن المسجد ظل على شكله حتَّى كان الزلزال المذكور ، وقد شارك السعديون بدورهم في نهب أخشابه . وكان الملك المرحوم محمد الخامس قد أبدَى رغبته في إتمام وترميم المسجد ، بيد أن ذلك يتطلب فيما يبدو نفقات طائلة ، وقد بني له ضريح حافل بهذا الجامع إلى جانب مسجد ملحق به .

أما لفظ «حسان» فلا يعرف بالضبط ما إذا كان اسم المهندس الذي بناه أو هو اسم لقبيلة قطنت ذلك المكان أو غير ذلك[١٠٠] .

مسجد تينملل

أسس سنة 548 على يد عبد المومن الذي أطلق عليه اسم المهدي بن تومرت . ويبلغ طوله 46 مترا وعرضه 49 ويوجد قبر المهدي قريبا منه . وللمسجد ثلاثة أبواب جنوبا وثلاثة شمالا . وأهم ما بقي من المسجد محرابه الذي يمتاز بروعة مقرنصاته ولا تتجاوز بلاطاته تسعا ، وأمام محرابه ثلاث قباب وسطاها تقع على أسطوانة المحراب ويحيط بها قبة من كل جانب وهو من حيث الشكل يشبه بجامع الكتبية . وقد ظلت مئذنته قائمة .

الكتبيـــة :

كان البدء ، في بناء هذا المسجد بمراكش سنة 553 وقد كمل في نفس السنة[١٠١] ، وهو يحتوي على 7 أساكيب ترتفع فوق كل منها قبة وتتجه خمس من بلاطاته نحو المحراب في شكل متسع بالنسبة لباقي البلاطات . وتتجلى البساطة في محرابه ولكن العقود والقباب تسودها المقرنصات التي تعتبر أهم ما امتاز به الفن الموحدي. أما المنارة نفسها فقد بناها المنصور . وقد بني المسجد على أنقاض جامع بناه المرابطون . وكانت سياسة الموحدين تهدف في نظرهم إلى تطهير البلاد من آثار المرابطين حتَّى الدينية منها باعتبارهم مجسمة . وقيل إن منار الكتبية كان قد بناه عبد المومن ثم هدمه المنصور وأقام مناراً آخر حيث كان الأول منحرفاً وسمي المسجد

---

(100) انظر دراسة عن جامع حسان للمؤلف . في مجلة دعوة الحق 1 . 1962

(101) النفح 2 ص 145

بالكتبية نسبة إلى باعة الكتب الذين كانوا يروجون بضاعتهم بجانب المسجد . وكانت الصومعة تتوسط الجامع ولكن المرينيين هدموا جانبا منه كان يلتجئ إليه بعض اللصوص ، وأجمل ما في المنارة أعلاها حيث توجد قبة قد بلطت أرضها ببلاط صغير ، أخضر لازال يحتفظ بلمعانه وشكله . وقريبا من المسجد كانت توجد الأحياء التي يقيم بها الجيش النصراني الذي كان يعمل في خدمة الموحدين . ويبلغ عرض كل ضلع من المنار 12،50م وعلوه 67م ونصف متر .

هذه أهم المساجد التي تبقت من عهد الموحدين إلى جانب مسجد الطالعة بسلا ومسجد الخيرالدة باشبيلية ، ومن المعلوم أن كلا من الخيرالدة والكتبية وحسان قد أنجز بناؤه في آن واحد على يد المنصور .

المـــدارس

عني الموحدون ببناء المدارس ، ولو أنه لم يبق لها أثر ، إذ من المحتمل أن المرينيين هدموها وأقاموا مكانها مدارس تحمل أسماء ملوكهم وطابعهم الخاص ومن المدارس التي ذكرها المؤرخون مدرسة المسجد الأعظم بالطالعة في سلا ، وقد انطمست معالمها بينما ظلت مدرسة المرينيين قائمة ، ثم مدرسة بمراكش حبسها المنصور مع دار للسكنى على أبي العباس السبتي[102] أما أول من أسس مدرسة خصوصية بالمغرب على النموذج الشرقي فهو عالم من سبتة يدعى بعلي بن محمد الشاري ، ويحدثنا عنه مؤلف صلة الصلة بقوله : «وكان قد تحصل عنده من الأعلاق النفيسة وأمهات الدواوين العلمية ما لم يكن عند أحد من أبناء عصره ولا تحصل عند كثير ممن تقدمه . وبنى مدرسة ببلده سبتة ووقف عليها من الكتب ما يحتاج إليه ، وشرع في تكميل ذلك على النسق الجاري بالمدارس ببلاد المشرق ، فعاق عن كمال غرضه في ذلك قواطع الفتن[103] ...» وهو يعني هنا بدون شك المعارك الطاحنة التي جرت بين بني مرين والموحدين .

وقد عني الموحدون ببناء مدارس لتخريج الضباط والولاة كالمدرسة الملحقة بقصر عبد المومن وكمدرسة الوداية لتخريج ضباط البحرية .

(102) المراكشي . الاعلام . 1 ، 269

(103) ابن الزبير . صلة الصلة . قسم أخير . ص 153

وقد جرَى التعليم في عهد الموحدين على الطريقة التقليدية في الكتاتيب والمساجد ، حيث يبدأ التلميذ بحفظ القرآن ثم يدرس مبادئ الدين ويتدرج بعد ذلك في دراسة العلوم التي يميل اليها . وقد سلكوا نوعا من التعليم الاجباري حيث كان لا يستحق عندهم الدخول في مذهبهم إلا من درس عقائد المهدي إلى جانب أحاديث في الجهاد والقرآن الكريم .

مقصورة مراكش

يحدثنا كل من صاحب الحلل الموشية ونفح الطيب[104] بأن عبد المومن قد صنع بالمسجد الأعظم الذي بناه على انقاض المسجد المرابطي ساباطاً يتصل بقصره ويدخل منه المسجد دون أن يشعر به أحد ، كما نقل إلى المسجد منبراً صنعه بالأندلس من عود الصندل الأحمر والأصفر وصفائحه من الذهب والفضة . أما المقصورة فقد صنعها من الخشب على ستة أضلاع ، وتَسَعُ أزيد من ألف مصل ، وكان على يمين المحراب باب يدخل منه المنبر ، وعلى يساره باب يؤدي إلى المقصورة ، وكانت تطلع بصفة ميكانيكية إذا جاء الخليفة ثم تختفي بعد ذهابه ويتحرك معها المنبر في نفس الوقت دون أن يحدث المنبر ولا المقصورة حساً ، واذا أخفيت المقصورة أرجعت البسط إلى مكانها وقد صنعها مهندس مالقي يدعَى الحاج يعيش .

ويحكي المقري أنه شاهد آثار هذه المقصورة سنة 1010هـ .

مارستان مراكش

بنَى المنصور مارستانا عظيما بمراكش ، ويبدو أن الموحدين هم أول من اهتدَى إلى إنشاء المارستانات بالمغرب نقلا عن المشرق . والمؤرخ الوحيد المعاصر الذي أورد وصف هذا المارستان هو المراكشي . ولابأس بايراد هذا الوصف كما سجله المراكشي نفسه ولو أنه متداول في شتَى الكتب التاريخية الخاصة بالمغرب والتي نقلته عن «المعجب» .

قال صاحب المعجب عن مارستان المنصور :

(104) الحلل الموشية ، ص 119 ، والمقري ، نفح ، 4 ، 222

«وبنى بمدينة مراكش بيمارستانا ما أظن أن في الدنيا مثله ، وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد ، وأمر البنائين باتقانه على أحسن الوجوه ، فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة مازاد على الاقتراح ، وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات ، وأجرى فيه مياها كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على أربع برك في وسطه ، احداها رخام أبيض ، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت ، وأجرى له ثلاثين دينارا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة ، خارجا عما جلب اليه من الأدوية ، وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال ، وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم ، من جهاز الصيف والشتاء ، فإذا نقه المريض ، فإن كان فقيراً ، أمر له عند خروجه بمال يعيش به ، ريثما يستقل وإن كان غنيا دفع اليه ماله وتركه وسببه ، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء ، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله ، يعود المرضى ويسأل عن أهل بيت أهل بيت ، ويقول : كيف حالكم ؟ كيف القومة عليكم ؟ إلى غير ذلك من سؤال ، ثم يخرج ، لم يزل مستمرا على هذا إلى أن مات رحمه الله» .

الحصون والقناطر

وجد الموحدون حصونا كثيرة بالمغرب والأندلس من بناء المرابطين فرمموها أو أضافوا إليها حصونا جديدة خصوصاً حصن جبل طارق سنة 555 ، كما عنوا ببناء القصبات في عدة مدن من المغرب وأشهرها قصبة مراكش التي لاتزال قائمة بما فيها المسجد ومنارته والكل من بناء المنصور . ولم يقتصر الموحدون في بناء الحصون على المغرب فقط ، بل شيدوا عددا منها في سائر امبراطوريتهم ، فقد أنشأ عبد المومن في تونس حصنا مثلث الزوايا في أعلى مكان منها[105] ، وأنشأ خلفه يوسف ثم يعقوب حصونا أخرى في المواقع الستراتيجية من المملكة .

وفيما يخص القناطر ، فقد رمم الموحدون قنطرة تانسيفت وبنوا قنطرة بين سلا والرباط وصفها صاحب الاستبصار بأنها مركبة على ثلاث وعشرين معدية مدت

(105) اشباخ ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، 2 ، 496

عليها أوصال الخشب ، وصلبت عليها الألواح والفرش الوثيق الذي لا يؤثر فيه الجافر ، تجوز عليه العساكر والمسافرون ، ويمد البحر فترتفع القنطرة فتغطي الجسر ، فتعوم عليه المراكب ، وترسي دونها الأجفان الكبار .

وكانت القنطرة تصل بين سلا وسيدي مخلوف ، وبعد أن كانت تتكون من مراكب خشبية استعيض عنها ببناء محكم ، وكان عرضها حينئذ يبلغ عشرة أمتار ، وقد كان بناؤها في عهد المنصور ، وكانت تمتد إلى الجانب الجنوبي من سور سلا حيث فتح «باب الريح» . وفي مكان الملاح من سلا كانت توجد ترسانة تصنع فيها السفن التي يستورد خشبها من المعمورة . ومن المعلوم أن المنصور هو الذي بنَى حومة الطالعة ومسجدها . وقد بنَى يوسف بن عبد المومن قنطرة من السفن على الوادي الكبير .

أما الأسوار فقد جدد الناصر سور سلا الذي رمم بعده عدة مرات . وأجدر الأسوار بالذكر هنا سور الرباط الذي يمثل الجانب المشرف منه على شالة نموذجا حقيقيا لباقي الأسوار الموحدية .

القصـــور

بنَى الموحدون قصوراً عديدة اندثرت كلها بسبب تعاقب الأيام والفتن وتغير الدول ، ولكن التاريخ يحفظ لنا أسماء عدة قصور موحدية وأحياناً وصفاً كافياً لبعضها ، وأهمها بدون ريب قصور مراكش التي قال عنها صاحب المعجب : «لم يكن مثلها لملك ممن تقدمهم من الملوك»[106] . وذكر ابن سعيد أنه لم ير ما يشبه الأندلس في حسن المباني والتشييد والتصنيع إلا ما شيد بمراكش في دولة بني عبد المومن ، وكانت القصور الكبرَى بمراكش أشبه شيء بالمدن المستقلة لتعدد مرافقها وعظم بساتينها . وكان قصر الخلافة يتكون من عدة دور يطلق على كل منها اسم خاص وضمنها دار خصصت للوزارة ، بالاضافة إلى قاعات الاجتماع المخصصة للحفاظ والطلبة ومجلس الخمسين والسبعين ومن أشهر قصور الموحدين بمراكش قصر أبي الربيع . ومن قصور الرباط قصر عبد المومن الذي بناه قبل تأسيس المدينة . وفي سلا كان يوجد في مكان حومة الطالعة الحالية قصر ابن عشرة الذي كان ينزل به عبد المومن ، وكان في الأصل منزلا بناه شخص يدعَى ابن عشرة استقر بسلا أيام

(106) المعجب ص 360

المرابطين وكان قد هاجر من قرطبة مع عائلته ، وقد جدد بناءه عبد المومن . وقد كان كل من المنصور وجده عبد المومن ووالده يوسف كلفاً بناحية سلا ، حتَّى شادوا بجانبها مدينة هي اليوم عاصمة المغرب .

ومن قصور الأندلس قصر أبي يحيَى بن أبي يعقوب الذي بناه خارج قرطبة ، ورفعه على أقواس فوق نهر الوادي الكبير ، ثم قصر المامون بمالقة وكان يدعوه بالقصر السعيد . .

نقل المياه

برع المرابطون في ابتكار الخطاطير بينما أبدع الموحدون في جلب المياه وتصريفها ، وهكذا جلب عبد المومن الماء من عين أغبولة إلى المباني التي أنشأها في مكان الاوداية الحالية ، كما نقلوا الماء إلى مكناس من عين تاجما على بعد ستة أميال ، وإلى إشبيلية من قلعة جابر في عهد المنصور ، وإلى حدائق الخلافة بمراكش من أغمات ، وكانت تحتوي على عدة نوافير بديعة كما يقول أشباخ . ونقل المنصور الماء إلى آسفي من تساوت بواسطة ساقية كبيرة . وكانت الرباط تمد سلا بالماء عن طريق قنطرة تجر الماء الذي يصل إلى الرباط من عين أغبولة . وكان الماء يصرف على القصور والحدائق في مراكش بقدر محدود مما يدل على مدَى رقي نظام الري في هذا العهد . ونقل الماء إلى عدوة الأندلس بفاس من باب الحديد .

5 – الحركة الفكرية

كان الموحدون يشجعون الحركة الفكرية في جميع مظاهرها باستثناء الفلسفة التي لم يكتب للمغرب أن ينجب فيها جهابذة بسبب السيطرة الشديدة التي كان يبسطها الفقهاء حتَّى في الميدان الفكري بل الميدان الروحي والشرعي .

والحق أن عصر الموحدين يمثل الذروة في النشاط الفكري بهذه البلاد أما أسباب ذلك فتعود إلى أن علماء وأدباء كثيرين هاجروا من القيروان والأندلس الى المغرب إبان الحكم المرابطي وفي عهد الموحدين لأسباب سياسية في الغالب ، إذ انتشرت الفتنة في الأولى بسبب وجود القبائل العربية المكتسحة ، وفي الثانية بسبب نشاط النصارَى وغدر بعض الأندلسيين الذين تقربوا إليهم . ثم إن موارد الدولة الضخمة مكنتها من أن تغدق بسخاء على طلاب العلم فتبني لهم المعاهد التي كان

من بينها معاهد التخصص ، وتضع تحت تصرفهم خزائن الكتب لينموا ثقافتهم ويوسعوا مداركهم . وكان ملوك الدولة أنفسهم من كبار العلماء والأدباء كعبد المومن والمنصور والمامون ، فكانت مجالسهم مجالس علم وأدب وسياسة في آن واحد . بل إن مؤسس الدولة ابن تومرت قد أقام مذهبه على مبادئ كان من أهمها دراسة العقائد والأحاديث التي تتصل بمذهبه وذلك يتطلب تعلماً أولياً .

نعم ، كانت الدولة ترى المغرب يتوفر على كثير من علماء الدين وكبار الأدباء . ولكنه كان يفتقر الي الاختصاصيين الاكفاء في العلوم الأخرى من هندسة وطب وتنجيم وغير ذلك ، وظهر عجز المغرب واضحا في الميدان الفني ، فمعظم الذين وضعوا تصميات المباني الموحدية العظيمة التي كانت في عهد الخلفاء الأولين ، إنما كانوا من الأندلس ، وأشهر أطباء الدولة كانوا من الأندلسيين . فعناية الدولة بعلوم الدين كانت تسايرها عنايتهم بالعلوم الأخرى . وقد مكن اهتمامهم بشؤون الثقافة من ظهور شخصيات مغربية كثيرة لمعت في سماء الفلك والطب والتاريخ والجغرافيا إلى جانب علوم اللغة والأدب وعلوم الشريعة . وما من شك في أن الموحدين حاولوا بكل ما لديهم من الوسائل أن يبزوا سابقيهم المرابطين في تشجيع الحركة الفكرية . وقد نجحوا ، لولا أنه لا يليق أن نستهين بالمجهود الذي بذله المرابطون في هذا الصدد ، وهم أول من وحد بين المغرب والأندلس فكريا وسياسياً من دول المغرب .

وكان يحضر في مجالس الخلفاء والأمراء علماء كثيرون من بينهم أبو بكر بن الجد وعبد الواحد المراكشي وأبو بكر بن زهر وابن رشد الحفيد وأبو بكر بن طفيل وأبو الوليد الشقندي ، بل إن الخلفاء كانوا يطلبون العلماء في منازلهم فقد كان أبو يعقوب يقيم عند ابن طفيل عدة أيام بلياليها ، وكانوا يقررون لهم جامكيات يستعينون بها على الحياة .

ولما توفي حجاج بن يوسف الهواري قاضي الجماعة بمراكش وكان عالما أديباً حضر السلطان أبو يعقوب دفنه سنة 572 . وقد نال جاها عظيما في حياته .

ولما سكن ابن المالقي عبد الله الأنصاري الأندلسي بمراكش نال دنيا عريضة بخدمة السلطان كما يقول ابن الأبار ، وكانت وفاته سنة 574هـ .

وقد تشبه ملوك الدولة بخلفاء بني العباس في مجالسهم ، فكانوا يفتحون باب

المناقشة بين العلماء ويشاركون فيها بأنفسهم ، وكانوا يتخذون لأولادهم مؤدبين مبرزين .

على أن علماء المغرب شاركوا بدورهم في تنمية الحركة الفكرية خارج المغرب الأقصَى ، فعلي بن حسن الصديني الفاسي كان نحويا متمكناً من علوم العربية والدين ، وقد وصفه صاحب صلة الصلة بأنه كان بارعاً في معارفه جليلا في علومه وقد تولى قضاء غرناطة ودرس بها ، كما درس على الشاري السبتي طلبة كثيرون بالمرية ومالقة التي تخرج فيها عليه المحدث الطنجالي والقاضي ابن ربيع وغيرهما ، وممن قام بالتدريس في الأندلس عيسَى بن علي المراكشي المحدث الفقيه وقد توفي سنة 637 . وممن درس بمصر أبو الخطاب بن دحية 640 . وقد حظي عند الولاة بها كما يقول ابن الزبير .

ومن العلماء المغاربة الذين استقروا بالمشرق محمد السلاوي الذي اعتنق المذهب الحنفي بمصر حيث زاول تدريس الفقه بها[107] ؛ وعلي بن أحمد التجيبي الحرالي نسبة إلى حرالة من أعمال مرسية ، ومولده بمراكش ، وحج ودرس بالمشرق حيث مال إلى علم الكلام والفلسفة وعلم الحروف والأعداد . قال السيوطي : «وله تفسير فيه عجائب» . وقد استقر بحماة حيث توفي[108] سنة 637 .

ويدل اهتمام الموحدين بجمع الكتب على مدَى تقديرهم للعلم ، وكثير من مؤلفات ابن رشد الفيلسوف كانت بأمر من بعض الأمراء . وكان يوسف مشهوراً بجمع الكتب حتَّى قيل إن خزانته كانت تقارب خزانة الحكم ، وتبارى الخاصة بدورهم في اقتناء الكتب وتحبيسها كما فعل الشاري مؤسس مدرسة سبتة . وللأستاذ المنوني بحث قيم عن عناية الموحدين بخزائن الكتب في مؤلفه «العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين» فليرجع إليه المستزيد .

وفيما يلي أذكر بايجاز تطور الحركة الفكرية أيام الموحدين في مختلف فروع المعرفة :

1) الفقــــه

حاول الموحدون القضاء على مذهب مالك باحراق كتبه عكس ما فعل

(107) ابن قطلوبغا . تاج التراجم ، ص 61

(108) السيوطي . طبقات المفسرين . ص 22 - 23

المرابطون قبلهم إذ أحرقوا كتاب الاحياء وشجعوا كتب الفروع فقط ، وهي نفس الكتب التي صادرها الموحدون وأحرقوها وكان ضمنها «الواضحة» لابن حبيب ومدونة سحنون والتهذيب للبراذعي وبينما وقف عبد المومن وابنه يوسف عند حد إصدار القرارات والمراسيم في شأن منع استعمال كتب الفروع . تولى المنصور مهمة مصادرة هذه الكتب وإحراقها وكان يهدف إلى محو المذهب المالكي من المغرب ، أو على الأصح ، إلى محو الخلافات الكثيرة التي شوهت بساطة هذا المذهب . وحديث أبي يعقوب مع أبي بكر بن الجد في شأن هذه الخلافات وكتبها مشهور ولا داعي لترداده في هذه المقام . ومع ذلك فإن أبا يعقوب لم يستعمل العنف في إخضاع الناس للرجوع إلى الأصول بقدر ما استعمله ابنه يعقوب .

وقيل إن المنصور قد وضع بنفسه أحاديث منتخبة تتصل بالمذهب الظاهري الذي سبق الحديث عنه في مبحث خاص ، وكان يمليها على الناس ويجزل العطايا لمن حفظها ، أو أنه أمر جماعة من المحدثين بجمعها وتحفيظها .

ومن المؤسف أن لا يجود هذا العصر بفقهاء كبار منتجين على شاكلة عياض وابن رشد ، فمحاربة المذهب المالكي كانت بدون ريب تعوق دون هذا الانتاج ، ولو أن العصر لم يخل من فقهاء أجلاء قاموا بالتدريس وتلقين العلم رغم صرامة الدولة في محاربة الفروع ، وحتّى ما كان الفقهاء يدرسونه أو ينتجونه في هذا العصر كان يتصل أكثره بالمدونة شرحاً أو تعليقاً كما فعل أبو الحسن الرجراجي الذي ألف مناهج التحصيل فيما للأئمة على المدونة من التأويل ، وأبو محمد عبد الله بن عيسَى التادلي الذي قيل إنه أملى المدونة من حفظه بعد إحراقها وفقدانها[109] ، وإسحق ابن إبراهيم الغماري الذي كان لا يخالف آراء المدونة .

ومن العلوم التي نفق سوقها في هذا العصر علم التوحيد على طريقة الأشعرية ، وبفضل الموحدين ظل علم التوحيد يدرس في معاهد المغرب الدينية حتّى عصرنا هذا ، وكان يدعَى يومئذ بعلم الكلام وقد وضع فيه عثمان السلالجي مذكرته المعروفة بالعقيدة البرهانية . ومن علماء الكلام في هذا العهد أيضا عمر بن النجار الفاسي

(109) ترجم له ابن الأبار في التكملة ص 921 ــ 923 وذكر أن أباه أيضا كان من حفاظ المذهب المالكي ، ولم تضبط سنة وفاته التي قد تكون فيما بين نهاية القرن السادس وأوائل السابع .

الذي كان يلقن هذا العلم بالمغرب والأندلس وكانت وفاته سنة 625 ومحمد بن عبد الكريم الفندلاوي المتوفي سنة 596هـ والذي قال عنه ابن الابار إنه كان إماما في علم الكلام وأصول الفقه وأنه تخصص لتدريسهما طول حياته.

وفيما يخص الفرائض والوثائق فقد وضع علي بن القاسم الصنهاجي 584هـ مجموعة من الوثائق التي ظلت مرجعاً للموثقين وقتاً طويلا ولا تزال مخطوطة بمدريد، وألف الحرالي كتاباً مفيداً في علم الفرائض.

ومن الملاحظ أن علم الكلام كان يرتبط غالباً بالأصول في هذا العهد، وبفضل هذين العلمين المأخوذين عن المشرق، انقطع الخلاف بين الفقهاء والمتصوفة وعلماء الكلام[110].

2) الحديث

من الطبيعي في عهد الموحدين أن يخلف المحدثون الفقهاء فيما كان لهم من جاه، والحديث في مذهب الموحدين أحسن، كمورد مباشر للتشريع، من كتب الفروع، كالواضحة وغيرها. وقد ظهر في هذا العهد محدثون كبار من بينهم:

1 — أبو الحسن علي بن محمد الكتاني المعروف بابن القطان 627 وهو فاسي من أصل أندلسي، وصفه ابن الأبار بأنه كان من أبصر الناس بصناعة الحديث وأحفظهم لأسماء رجاله وأشدهم عناية بالرواية، ورأس طلبة العلم بمراكش.

2 — أبو عبد الله المواق الفاسي، وضع شرحا للموطأ ومقدمة صحيح مسلم.

3 — أبو الخطاب بن دحية الكلبي.

4 — ابن عبد الجليل القصري وضع كتاب تنبيه الأنام في مشكل الحديث، وتوفي سنة 606.

5 — محمد بن أحمد بن مرزوق التعمري السبتي، تلقى الحديث وقام بتدريسه في المشرق والأندلس.

6 — محمد بن قاسم التميمي الفاسي الذي درس بالمشرق عما لا يقل عن مائة

---

(110) كنون، النبوغ المغربي، 1، 58

شيخ وجمع أسماء أساتذته في فهرسة كبيرة سماها بالنجوم المشرقة ، وزاول تدريس الحديث بكل من الإسكندرية وتونس وفاس[111] .

3) **التفسير والقراءات**

اتسعت العناية بتفسير القرآن إذ كان المصدر الوحيد الذي يستقي منه الفقهاء في هذا العهد إلى جانب الحديث ، ومن ثم ظهرت المحاولات الأولى لوضع تفاسير كاملة ، كما وضعت كتب أخرى تمس التفسير من قريب أو بعيد ، ومن أهم مفسري هذه الفترة :

1 — أبو الحجاج يوسف بن عمران المزدغي المدرس بالقرويين أخذ عن أبي ذر الخشني وأبي عبد الله التجيبي وغيرهما ، ووضع كتابا في التفسير بلغ به تبارك ، وله مؤلفات أخرى منها : «الفرق بين الأغنياء المعنيين والفقراء المضطرين» ويشبه أن يكون كتابا اشتراكيا ، وكانت وفاته سنة 655 .

2 — أبو العباس أحمد بن فرتوت السلمي 660 ، وضع تعليقاً كمل به كتاب السهيلي : «التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن العزيز من الأسماء والأعلام» .

3 — ابن عبد الجليل القصري 606 وضع كتاب «الناسخ والمنسوخ» وكتاب «تفسير القرآن» .

4 — علي بن أحمد التجيبي الحرالي من مراكش 637 ، وضع كتاب «مفتاح اللب المقفل على فهم القرآن المنزل» .

وأغلب هذه الكتب مفقودة أو في حكم المفقودة فيما أعلم .

ومن أشهر من نبغ في القراءات :

1 — أبو عبد الله محمد بن حسن الفاسي 656 صاحب شرح الشاطبية .

2 — علي بن محمد الشاري الغافقي من سبتة 649 وكان يقوم بتدريس

---

(111) تكملة الصلة لابن الأبار ، ص 682 وانظر أيضا 683 و684 . ووضع الاستاذ عبد الهادي الحسيسن دراسة خاصة عن مظاهر النهضة الحديثية في عهد المنصور ، (منشورات الأوقاف المغرب) .

القراءات السبع والحديث والتفسير، وهو من كبار العلماء في هذه الفنون التي تلق العلم عن أفذاذها كالخشني وابن عبيد الله الحجري وابن غازي السبتي وعبد الرحيم بن الملجوم.

4) الجغرافية والرحلات

إذا كان الادريسي قد فتح السبيل إلى علم الجغرافيا بين المغاربة، فإن كثيرا من العلماء والمغامرين قد سلكوا طريقه بعده ولو أنه ظل يتفوق عليهم جميعا من حيث توفقه لأول مرة في وضع مقاييس صحيحة للجغرافية الرياضية والسياسية والاقتصادية. وقد ذكرته كنابغة في هذا العلم أيام المرابطين لأنه تلقى ثقافته وتكوينه في أيامهم ولأن تكوينه استغرق من عهد المرابطين أكثر مما استغرق من عهد الموحدين، على أن اعتباره من هذا العهد أو ذاك لا يهم، إنما المهم أن يفتخر المغرب بهذه الشخصية الفذة التي أقل ما لها من الفضل أنها هونت سبيل الاكتشاف والمغامرة على كثير من الشخصيات المغربية التي جاءت بعدها.

ولدينا شخصية جغرافية أخرى لمع اسمها في هذه الفترة، ولكن يحيط به الغموض، ألا وهو صاحب الاستبصار في عجائب الأمصار، وقد عاش في النصف الثاني من القرن السادس، وتدور رحلته حول أقطار الشمال الافريقي إلى طرابلس.

وتدل المعلومات القيمة التي أفادنا بها عبد الواحد المراكشي عن جغرافية المغرب والأندلس على متانة ثقافته التي شملت التاريخ والأدب والجغرافيا، ونلاحظ أن مؤرخي المغرب والأندلس فيما بين عهد المرابطين والموحدين قد جمعوا في الغالب بين التاريخ والجغرافيا كما هو شأن البكري والادريسي والمراكشي.

وقد أولع المغاربة بالسياحة والترحل منذ القدم، وكانت رحلاتهم إلى الشرق غالبا بقصد الحج أو الدراسة، وأحيانا للتدريس. أما تنقلاتهم عبر الأقطار الأخرى فكانت بقصد التجول أو التجارة، وأحيانا لتأدية مهام سياسية.

ويشمل الغموض كثيرا ممن قاموا برحلات من المغاربة خصوصاً في عهد الموحدين، إذ لم يثبت أن مغربياً قد حفظت رحلته من أهل هذا العصر إذا استثنينا صاحب الاستبصار في عجائب الأمصار. أما العصر الذهبي للرحلات فهو عصر المرينيين، وتتوجها جميعاً رحلة ابن بطوطة.

5) التاريـــخ

أرخ لدولة الموحدين كثير من المعاصرين ، بعضهم اهتم بنشأتها كما فعل البيدق وصاحب كتاب الانساب في معرفة الاصحاب والبعض الآخر تتبع ملوكها إلى عصره كعبد الواحد المراكشي ، وهناك من أضاف إلى الموحدين دولة المرابطين ، وبعض المتأخرين أضافوا إليهم دولة الحفصيين .

والجدير بالذكر أن هذه المراجع لو بقيت كلها لأمدتنا بمعلومات مفيدة عما لا نزال نجهله من تاريخ الموحدين وسابقيهم .

والآن نستعرض أهم الكتب التي ألفها معاصرو هذه الدولة :

1 — أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين لأبي بكر بن علي الصنهاجي الملقب بالبيدق 524 ، وقد تم طبع هذا الكتاب الصغير الحجم مع ترجمة له بالفرنسية . وأسلوبه ركيك في جملته ، وكثيرا ما يستعمل كلمات عامية لا تزال مستعملة حتَّى الآن بالمغرب .

2 — المعرب عن سيرة ملوك أهل المغرب لغريب بن سعيد ، وقد تم تأليفه بالعراق سنة 579 ، والمؤلف أندلسي من قرطبة .

3 — الاكتفاء في أخبار الخلفاء لأبي مروان عبد الملك بن أبي القاسم الكردبوسي ، أرخ للدولة الموحدية إلى زمن المنصور سنة 595 والكتاب موجود منه نسخة فيما قيل[112] .

4 — تاريخ الموحدين أولاد عبد المومن بن علي الكومي ، ومؤلفه يوسف بن عمر الاشبيلي .

5 — البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري محمد المراكشي ، طبع منه جزآن في ليدن سنة 1848م و1849م وطبع الثالث على يد بروفنسال بباريز 1930 وطبع الرابع بتطوان على يد السيد إبراهيم الكتاني الذي حصل عليه بتامكروت. ثم طبع القسم الموحدي على يد لجنة من الباحثين المغاربة.

ويكاد هذا الكتاب يكون الوحيد من نوعه مما ألفه المغاربة، فهو يستعرض

(112) عبد السلام بن سودة ، دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، 1 ، 124

أخبار المغرب العربي بجميع دوله منذ الفتح إلى عهد المرينيين ويسلك فيه نظام السنوات مع مراعاة ترتيب أخبار الدول التي يؤرخ لها ، وهو من جملة مصادر ابن خلدون وقد عاصر مؤلفه أيام ضعف الموحدين وقيام المرينيين.

6 ـ نظم الجمان في أخبار الزمان لابن القطان علي بن محمد الكتامي 628 استعرض فيه دول المغرب ، وأهم أجزائه المجلد الخاص بالموحدين الذي عثر عليه بروفنصال وكان في نيته طبعه.

7 ـ تاريخ في دولة عبد المومن وحزبه لأحمد بن محمد الفهري الاشبيلي توفي أوائل ق 7.

8 ـ تاريخ في الدولة الموحدية لعبد الرحمن السهيلي الولي المدفون بمراكش 583.

9 ـ تاريخ المرابطين والموحدين لأبي عبيد المراكشي.

10 ـ المعجب في أخبار المغرب[113] ، وهو أهم ما بقي من هذه الكتب جميعا فيما يرجع إلى نشأة الدولة الموحدية وعصر نهضتها. وصاحبه عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي ولد سنة 581 في خلافة يعقوب المنصور بمراكش ، ثم درس بفاس وهو صغير السن ، كما سمع عن أبي بكر بن زهر وسنه لا تعدو الرابعة عشرة. حتى إذا بلغ الثانية والعشرين قصد الأندلس مستزيدا من العلم ، وكان أبو جعفر الحميري الأديب أهم شخصية لازمها ، حيث ظل يدرس عليه بقرطبة عامين منذ سنة 606 ، وخلال ذلك تعرف إلى الأمير أبي إسحق بن يعقوب باشبيلية بواسطة الكاتب محمد بن الفضل ، وقد أعجب المراكشي بهذا الأمير وكرمه. وعاد المراكشي إلى المغرب حيث شهد بيعة الناصر واتصل بشخصيات من رجال الدولة. ثم ودع صديقه الأمير أبا اسحق سنة 613 وقصد مصر عن طريق تونس. وفي مصر كان يتلقى أنباء الموحدين في أدق تفاصيلها. وهكذا بلغته وفاة أبي اسحق سنة 617 ووفاة أحد الكتاب سنة 619 كما كان يبلغه خبر الثورات التي كانت تنشب ضد الخليفة بين آن وآخر. ولا نعرف بالضبط ، الأسباب التي أدت به إلى هجرته

(113) راجع ما كتبه الأستاذ محمد الفاسي عن الكتاب ومؤلفه في مجلة رسالة المغرب عدد 1 سنة سادسة ، الرباط ، ومجلة البينة ، يونيو 1962 ، ويناير 1963 ، الرباط

الطويلة عن المغرب ، تلك الهجرة التي لم يعد اليه بعدها فيما يعلم . ونسمع عنه فجأة ببغداد سنة 621 حيث صار في خدمة وزير الناصر لدين الله . وقد كلفه بتأليف كتاب يضم أخبار المغرب ودولة الموحدين خاصة ، فألف له كتاب المعجب .

وخلافاً لما ذكره بعض الباحثين من أن المراكشي كان يعيش في خفض من العيش نجد المؤلف نفسه يتأسف في نهاية كتابه على ضيق ذات يده مما لم يتمكن معه من تأليف كتاب ضخم عن تاريخ المغرب كما كان يتمنّى ولا نعرف تاريخ وفاته بالضبط ، وقد تكون سنة 625 أو 647 فيما ذكره الزركلي على التعاقب .

وأظن أن صاحب المعجب يكون قد اتصل بابن الأثير صاحب الكامل الذي كان معاصراً له وهو من مشاهير رجالات العراق ، ولا يبعد أن يكون قد أمده بمعلومات عن تاريخ المغرب ضمنها كتابه المذكور ، وإلا فبأي طريقة حصل ابن الأثير على التفاصيل الضافية التي سجلها خصوصا عن نشأة دولة الموحدين ؟

وقد بدأ الكتاب بلمحة عن تاريخ الأندلس وجغرافيتها ، ثم يقف عند الحكم ابن هشام حيث وقع بتر في النسخة الخطية إلى الحكم المستنصر . أما معلوماته عن ملوك الطوائف فتفوقها معلومات ابن الخطيب في أعمال الأعلام ، ولكنه يتفوق في الأخبار الأدبية خصوصا عن المعتمد ونكبته . ويفيدنا عن المرابطين بمعلومات هامة فيما يرجع إلى كتابهم ، ولا يكاد مع ذلك يعطينا شيئا عن نظم الحكم لديهم . أما معلوماته عن الموحدين فتكتسي أهمية فائقة فهو يحدثنا عن نشأة الدولة وشباب عبد المومن ونشاط المهدي في الجزائر وغيرها . وإذا بلغ المنصور قدم إلينا أخباراً عن وزراء وكتاب وحجاب وقضاة كل من الخلفاء الذين عاصرهم ، ويتخلل كل ذلك أخبار أدبية وسياسية بطبيعة الحال ، ويقف عند خلافة أبي محمد عبد العزيز بن يوسف الأول . ولا ذكر لهذا الاسم في كتب التاريخ الأخرى بوصفه خليفة فرواية المعجب تقتضي أنه خلف المستنصر وباقي الروايات تذكر أن الذي خلف هذا هو عبد الواحد المخلوع .

وينتهي الكتاب بالحديث عن أخبار المصامدة الذين يذكر أنه أرخ لهم إجمالاً لا تفصيلا وأن ضرورات المعاش هي التي دفعته إلى ذلك ثم يقول : «وجهدت أن لا أنقص أحداً ذرة مما له ، ولا أزيده خرذلة مما لا يستحقه» .

وفائدة الكتاب أن صاحبه لم يؤلفه ليتملق به الدولة وقد كان بعيدا عنها في المشرق حيث كتبه ، كما أنه لم يسلك سبيل الدعاية لمذهب المهدي شأن البيدق وأضرابه . لذلك سيظل «المعجب» مرجعا جديرا بالتقدير فيما يخص تاريخ الموحدين .

وقد طبع الكتاب في ليدن سنة 1887م ثم في سلا سنة 1357هـ مقدما ببحث قيم للسيد محمد الفاسي . وآخر طبعة للكتاب كانت بالقاهرة على يد السيد سعيد العريان والسيد محمد العربي العلمي . وقد قدم لها وعلق عليها الأول فيما أظن ، إلا أن هناك نقطاً كثيرة من هذه التعاليق يتعين أن يعاد فيها النظر أما المراجع المتأخرة التي عالجت تاريخ الموحدين فأهمها ما كتبه ابن خلدون وصاحب روض القرطاس .

ومن المؤسف أن تضيع معظم المصادر التي كتبت عن تاريخ الموحدين وغيرهم من دول المغرب ، ثم لا نعرف مع ذلك شيئا يستحق الذكر عن المؤرخين المعاصرين بما فيهم ابن عذاري وعبد الواحد .

ومما يسترعي الانتباه أن يكون كثير من مؤرخي هذه الدولة إما من أهل مراكش العاصمة أو ممن شغلوا في الدولة وظيفة معينة ، وهكذا فأبو عبيد والسهيلي وعبد الواحد وابن عذارى كلهم عاشوا بمراكش وشهدوا عن كثب مجرَى الأحداث أيام دولة الموحدين .

ومن الكتب التي وضعت في هذا العصر ، وترتبط بالتاريخ :

1 ــ كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب ، أي أصحاب المهدي ، ومؤلفه مجهول ، والكتاب صغير جداً طبعه بروفنصال مع كتاب البيدق .

2 ــ الدر المنظم في مولد النبي المعظم ، وضعه أحمد أبو العباس العزفي 633 وأتمه ولده .

3 ــ تاريخ الدولة العباسية لابن دحية

4 ــ رسالة في تفضيل المغرب على الأندلس لأبي يحيى بن المعلم الطنجي يعارض فيها رسالة الشقندي المشهورة .

هذا بالاضافة إلى ما ألفه القاضي عياض الذي عاصر المرابطين ونشأة دولة الموحدين . وقد تقدم ذكره في تاريخ المرابطين .

6) الرياضيـــات

دعت الحاجة طلاب العلم إلى دراسة العلوم الرياضية التي كانت الدولة تحتاج إلى المتخصصين فيها لمباشرة مهام التوقيت وهندسة البناء. وتوالى اهتمام المغاربة بهذه العلوم بعد الموحدين في الوقت الذي انقطع الاشتغال بها في بلاد المشرق. أما اهتمامهم بالهندسة الآلية فكان عظيما مما يؤكده بناء مقصورة المسجد الأعظم بمراكش وطرق الري وقنطرة إشبيلية وسلا وغير ذلك. ومن أشهر من اشتغلوا بالهندسة وسائر العلوم الرياضية :

1 — أبو محمد عبد الله بن محمد بن حجاج الفاسي الفندلاوي الذي خدم المنصور والناصر واشتهرت أرجوزته في الجبر بالمغرب والأندلس ، وقد قتله بعض أعدائه بمراكش 601هـ ولاتزال أرجوزته محفوظة في بعض الخزائن. وكان يعرف بابن الياسمين وأصله من ضواحي فاس كما أشار إلى ذلك ابن الأبار في التكملة.

2 — أبو علي المراكشي 660 وقد جاب اسبانيا وشمال افريقيا وحرر ارتفاع القطب الشمالي في إحدَى وأربعين مدينة ويقول حاجي خليفة عن كتابه «جامع المبادئ والغايات في البحث عن آلات علم الفلك» : وهو أعظم ما صنف في هذا الفن ، رتبه على أربعة فنون الأولى في الحساب والثاني في وضع الآلات والثالث في العمل بالآلات والرابع في مطارحات يحصل بها الدراية والقوة على الاستنباط ، وهو يشتمل على أربعة أبواب في كل منها مسائل على طريق الجبر والمقابلة[114] .

هذا بالاضافة إلى الأشخاص الذين جمعوا بين بعض العلوم الرياضية وغيرها كأبي العباس السبتي الذي جمع بين علوم الدين والعربية والحساب ، وروي أنه كان بمراكش «يقرئ الحساب والنحو ويأخذ على ذلك أجرة ، فكان له رسم في بيت المال مع طلبة الحضر»[115] وابن القطان الذي سبق ذكره في التاريخ وأبي محمد بن العابد الفاسي 662 .

كما أن كثيراً من الفلكيين والمهندسين من الأندلس قد عملوا في خدمة الموحدين بالمغرب وخصوصاً أحمد بن حسان القضاعي 598 وهو الذي قيل انه وضع تصميم

(114) المنوني العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين. طبعة أولى. ص 110
(115) عباس المراكشي. اعلام 1 . 243

مسجد حسان والحاج يعيش باني المقصورة وحصن جبل طارق .

ومن الحيسوبيين الذين اشتغلوا بتدريس الحساب علي بن محمد بن فرحون القرطبي 601 ، قال عنه صاحب صلة الصلة : «واستقر بمدينة فاس وسكنها مدة وأقرأ بها الحساب وكان بصيراً به» .

وكان من اهتمام الموحدين بشؤون الفلك بناء مرصد إشبيلية لمراقبة النجوم وبرج الكوكب بفاس لمراقبة الهلال وكان يوجد بأعلى مكان من المدينة ، ولعل هذا من ابتكار الموحدين .

7) الـطـــب

ظل الطب في هذا العهد وبعده بكثير مرتبطاً بالفلسفة ، ولو أن شخصيات برزت بالذات في هذا العلم أو ذاك ، وكان المنصور نفسه ممن يعنون بالحكمة والطب ، وهو باني مارستان مراكش المشهور ، ولا نعرف ما إذا بَنَى الموحدون مستشفيات مماثلة في مدن أخرى ، وإذا استثنينا المعلومات التي قدمها لنا المعجب عن المارستان المذكور فلا نكاد نعرف عنه شيئا إضافياً ، وكان ضمن الذين تولوا رئاسته أبو جعفر الذهبي . وأكثر أطباء الخلفاء أندلسيون كابن طفيل وابن رشد والمريبطري . ومن الملاحظ أن عائلة بني زهر عملت في الطب رجالا ونساء بدار الخلافة . وقيل إن المنصور بنى مستشفًى بشالة والقصر على غرار مستشفَى مراكش ؛ ولكن أين موقعها ؟ وكيف كان نظامها ومن هم أطباؤهما ؟ كل ذلك لا يزال مجهولا كما نجهل أشياء كثيرة عن نشاط هذه الدولة العظيمة .

ومادام يهمنا هنا الاطباء المغاربة فقط فينبغي أن أذكر أمثلة لهم في هذه الفترة ، وهم :

1 — يحيَى بن محمد بن بقي السلوي 563 .

2 — سعيد الغماري ، ومن الملاحظ أن كثيرا من المشتغلين بالتنجيم والطب ينتسبون إلى غمارة .

3 — يوسف بن سمعون الفاسي وهو اسرائلي 623 وكان يجمع بين الطب والحكمة والعلوم الرياضية ، هاجر إلى مصر والعراق والهند ثم الشام حيث استقر

بحلب وعمل في خدمة الدولة الظاهرية ، ومن كتبه : إصلاح هيئة ابن أفلح — شرح الفصول لأبقراط — ترتيب الأغذية اللطيفة والكثيفة .

8) الفلسفة والمنطق

كادت الفلسفة تنحصر في بعض خلفاء الموحدين خصوصا أبا يوسف ووالده ، وإن كان ذلك لم يمنع اشتغال بعض الخاصة بها من رعايا الدولة لاسيما أهل الأندلس . أما أبو يعقوب وأبو يوسف فلم يكن هينا على الفقهاء أن يتجاسروا عليهما بالنقد والطعن مع ما عرف عنهم من محاربة الفلسفة مع الأسف ، وقد كان الخلفاء الموحدون صارمين ضد كل من تخول له نفسه النيل من كرامتهم ، وأما طلاب العلم فقد أهمل أكثرهم الفلسفة تحت تأثير الفقهاء من غير شك ، وكل هذا في المغرب على الخصوص ، أما في الأندلس فإن أهلها جبلوا على حرية الرأي والتفكير رغم تزمت الفقهاء المصطنع ، ومن ثم نشأ أعظم فلاسفة الاسلام في هذا العصر : ابن طفيل وابن رشد وهما أندلسيان .

على أن عناية المنصور بالفلسفة سرعان ما تحولت إلى اضطهاد وتحريق لكتبها أكثر فلاسفة الاسلام الذين اتخذوا هذا المذهب خشية بطش الولاة ومحاربة الفقهاء . وكان ابن طفيل يتوفر على ثقافة عالية واسعة . وكان يجمع بين الفلسفة والطب والأدب وعدة معارف أخرى ، وكان يأخذ جامكية على كل من هذه الفنون ، وكان أبو يعقوب معجباً به ، وقد تقدم أنه كان يقيم عنده عدة أيام يناقشه ويدارسه .

وأما أبو الوليد بن رشد فهو حفيد القاضي المشهور ويروي عبد الواحد المراكشي في موضوع ثقافة أبي يعقوب الفلسفية الحكاية التالية نقلا عن أبي الوليد ابن رشد إذ يقول :

لما دخلت على أمير المومنين أبي يعقوب وجدته هو وأبا بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما ، فأخذ أبو بكر يثني علي ويذكر بيتي وسلفي ، ويضم بفضله إلى ذلك أشياء لا يبلغها قدري . فكان أول ما فاتحني به أمير المومنين بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي ونسبي أن قال لي : ما رأيهم في السماء ؟ — يعني الفلاسفة — أقديمة هي أم حادثة ؟ فأدركني الحياء والخوف ، فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة ، ولم أكن أدري ما قرر معه ابن طفيل . ففهم أمير المومنين مني الورع والحياء ، فالتفت

إلى ابن طفيل ، وجعل يتكلم عن المسألة التي سألني عنها ، ويذكر ما قاله أرسطوطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة ، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الاسلام عليهم فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له ، ولم يزل يبسطني حتّى تكلمت ، فعرف ما عندي من ذلك ، فلما انصرفت ، أمر لي بمال وخلعة سنية ومركب.

وكان في نية أبي يعقوب تلخيص كتب أرسطو ، ولكنه فضل أن يكلف بذلك ابن رشد ، وذكر له أن الذي منعه من القيام بذلك كبر سنه ومهامه كملك.

أما المنصور فكان في ميدان الفلسفة أقل معرفة من والده . ويروي المراكشي أيضا أن ابن رشد عندما كان بصدد شرح كتاب الحيوان لأرسطو كان من جملة ما أضافه اليه في حديثه عن الزرافة قوله : «وقد رأيتها عند ملك البربر» وكانت هذه العبارة في نظر المنصور إهانة في حق الموحدين . فاستدعاه بقرطبة وأوقفه على هذه العبارة ثم طرده من مجلسه شر طردة . وأمر بعد ذلك باحراق جميع كتب الفلسفة ولكنه سرعان ما ندم على ذلك وأرسل من مراكش يستدعي ابن رشد لاسترضائه ، فلما كان في الطريق إليه مات سنة 594 عن سن الثمانين.

على أن أهل الشرق إذا كانوا قد تفوقوا في فن الفلسفة على المغاربة ، فمرد ذلك لا إلى الحرية النسبية التي تمتع بها الفلاسفة هناك في ظروف محدودة ، ولكن لأن ظروف المجتمع الشرقي التي أظهرت الحاجة إلى الخوض في الفلسفة منذ اختلط العرب بشتّى الأجناس والنحل والطوائف من روم ويعاقبة ونساطرة ومانوية وزرادشتيين وغيرهم ، فشجع العباسيون أنفسهم طلاب العلم على الاشتغال بالفلسفة والتأليف والترجمة فيها ليقاوموا أباطيل هذه النحل ويقارعوا الحجة بالحجة . أما في المغرب ، فكانت الفلسفة تدرس لمجرد العلم إذا درست ، وظلت مع ذلك مرتبطة بالدين كما حدث في الشرق أيضا ، وإذ لم تكن هناك نحل أو مذاهب شاذة بالمغرب مع ما عرف عن المغاربة من صفاء العقيدة والتمسك بالدين في خضوع وامتثال ، فقد عدلوا عنها ، ولا فائدة في البحث عن أسماء نعزو إليها التفوق في الفلسفة من بين المغاربة في هذا العهد . إلا أننا نجد شخصية مغربية صميمة تناولها لأول مرة بالدرس البحاثة عبد الله كنون[116] ، ألا وهي شخصية أبي الحسن علي بن خليل

(116) مجلة التربية الوطنية عدد 8 سنة 1960 الرباط

المسفر السبتي ، ويقول ابن عربي إن كتاب «منهاج العابدين» هو من تأليف هذا الفيلسوف بالاضافة إلى كتاب «المضنون الصغير» وكلاهما ينسب خطأ إلى الغزالي . أما أروع أثر شعري فلسفي لهذا الفيلسوف الذي يسود الغموض حياته فهو قصيدة نونية نسبت إلى الغزالي خطأ على ما حققه الأستاذ كنون . والظاهر أن ابن عربي قد تلمذ على هذا الفيلسوف المتصوف الذي يشبه في اتجاهه طريقة الغزالي ، وفي هذه القصيدة التي أستأذن الباحث كنون في نقلها كاملة حفظاً للتاريخ ينعكس السمو الروحي الذي تتسم به شخصية الفيلسوف الذي يقول بوحدة الوجود في أبياتها الأخيرة وهو يشبه نفسه في الدنيا كطائر سجين في قفص ، بل ميتاً خلع كفنه وعاد إلى الحياة بعد أن يلقى جوار ربه . أما القصيدة فهي :

فاهدموا بيتي ورضُّوا قفصي	وذروا الطلسم بعدي وثنا
وقميصي مـــــزقوه ربما	ودعوا الكل دفينا بيننا
قد ترحلت وخلّفتكم	لست أرضى داركم لي وطنا
حي ذي الدار نؤوم مغرق	فإذا مات أطار الوسنا
لا تظنوا الموت موتا انه	لحياة هي غايات المُنى
لا ترعكم هجمة الموت فما	هي الا نقلة من هاهنا
فاخلعوا الأجساد عن أنفسكم	تبصروا الحق عيانا بينا
وخذوا في الزاد جهدا لا تنوا	ليس بالعاقل منا من ونَى
حسنوا الظن برب راحم	تشكروا السعي وتاتوا أمنا
ما أرَى نفسي إلا أنتم	واعتقادي انكم أنتم أنا
عنصر الأنفس منا واحد	وكذا الجسم جميعا عمنا
فتَى ما كان خير فلنا	ومتَى ما كان شر فبنا
فارحموني ترحموا أنفسكم	واعلموا أنكم في إثرنا
أسأل الله لنفسي رحمة	رحم الله صديقا أمنا
قل لاخوان رأوني ميتا	فبكوني ورثوني حزنا
أعلى الغائب مني حزنكم	أم على الحاضر معكم ها هنا ؟
أتظنون بأني ميتكم ؟	ليس ذاك الميت والله أنا !
أنا في الصور وهذا جسدي	كان لبسي وقميصي زمنا
أنا كنز وحجابي طلسم	من تراب قد تهيا للفنا

أنا در قد حواني صدف	طرت عنه فتخلى رهنا
أنا عصفور وهذا قفصي	كان سجني فألفت السجنا
أشكر الله الذي خلصني	وبنَى لي في المعالي ركنا
كنت قبل اليوم ميتا بينكم	فحييت وخلعت الكفنا
فأنا اليوم أناجي ملأً	وأرَى الله جهارا علنا
عاكف في اللوح أقرا وأرَى	كل ما كان ويأتي ودنا
وطعامي وشرابي واحد	هو رمز فافهموه حسنا
ليس خمرا سائغا أو عسلا	لا، ولا ماء ولكن لبنا
هو مشروب رسول الله إذ	كان يسري فطره مع فطرنا
فافهموا السر ففيه نبأ	أي معنًى تحت لفظ كمنا !

أما الجدل والمنطق فقد احتيج إليهما للدفاع عن مذهب المهدي بطبيعة الحال. وبما أن هذا المذهب قد اعتنقته الدولة ، واشتدت في حمل الناس على اعتناقه . فإن ذلك لم يشجع خصومها من العلماء على وضع كتب أو رسائل تناقض هذا المذهب ، على أن أحسن ما تبقى لدينا في هذا الباب رسالة السلالجي التي سبق استعراضها في غير هذا المقام.

وممن عرفوا بالبراعة في الجدل والمنطق المهدي بن تومرت وأبو العباس السبتي وابن زغبوش المكناسي الذي وضع رسالة في الدعاية لمذهب الموحدين ، وكثيرهم الذين تملقوا لهذه الدولة بانتاجهم.

9) علوم اللغة

كثر الاقبال على اللغة وعلومها لأن لسان القوم كان بربرياً في الغالب ، وبدأ هذا الاقبال منذ وقت مبكر من تاريخ المغرب الاسلامي ، ولكنه اتخذ في عصر الموحدين صبغة الانتاج وعقد مجالس المناظرات ، مما كان له أثر عظيم على دراسة اللغة والنحو ، وقد ظل هذا الأثر مستمراً حتَّى الآن في المعاهد الدينية على الخصوص ، وبينما شاع اللحن على لسان كثير من اخواننا المثقفين بالشرق ، يتمسك مثقفونا بسلامة لغتهم من اللحن كلما قرأوا أو تحدثوا باللغة الفصحَى[117] ، وما من

(117) هذا شيء كان في أوائل الاستقلال ، وهو من أثر الماضي

شك في أن هذا أثر يرجع إلى شعور متأصل في المغاربة يوم كانت البربرية لسانهم الوحيد ، وهذا الشعوب بالنقص حدا بهم إلى اتقان اللغة والنحو حتّى تفوقوا فيها .

ومن أبرز شخصيات العصر الموحدي في علوم اللغة :

1 — أبو عبد الله محمد بن أحمد بن هشام اللخمي السبتي 577 ، درس على أبي بكر بن العربي وأبي الطاهر السلفي ؛ ووضع مؤلفات هامة في اللغة ، منها رسالة في تقويم لحن العامة ، وشرح الفصيح لثعلب و«إصلاح ما وقع في أبيات سيبويه وشرحها للأعلم من الوهم والخلل» والفصول والجمل في شرح أبيات الجمل وشرح مقصورة ابن دريد ، وأهم ما يلفت النظر في هذه المؤلفات رسالته المذكورة في تقويم لحن العامة . والتي سماها «المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان[118]» وقد نشرها المستشرق كولان في مجلة هسبريس .

2 — أبو موسَى الجزولي عيسَى بن عبد العزيز من مراكش التي توفي بها سنة 610 ، وقد تلقَى علمه بالمغرب ثم بمصر على يد ابن بري ، ثم عاد للتدريس بالمرية وبجاية ومراكش التي تولى فيها الخطابة ، ومن أبرز تلاميذه ، الشلوبين وابن معط . ومن مؤلفاته : شرح أصول السراج والأمالي في النحو ، ومختصر الفسر لابن جني في شرح ديوان المتنبي . واشتهر في المشرق برسالته في النحو التي سماها القانون ، وكانت تشتمل على رموز وجداول كان يعسر فهمها على الكثيرين حتّى اضطر إلى اِن يضع لها شرحا فيما قيل[119] . وقرظها ابن ظهير الاربلي بقوله :

مقدمة في النحو ذات نتيجة ... تناهت فأغنت عن مقدمة أخرى
حبانا بها بحر من العلم زاخر ... ولا عجب للبحر أن يقذف الدرا

وقد كان هذا العالم ضليعا في مادة النحو واللغة حتّى كان مشهورا في المشرق والمغرب .

3 — مالك ابن المرحل الذي سيأتي الحديث عنه كشاعر ، وكان له اطلاع واسع في علوم اللغة . ومن كتبه مقالة تحت عنوان «كان ماذا» وذلك ان هذه العبارة وردت في شعره فأنكر عليه أبو الحسين بن أبي الربيع استعمالها ؛ فقال ابن المرحل :

(118) محمد الفاسي دعوة الحق 10 سنة 3

(119) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 1 ، ص 498 — 499

عاب قوم كان ماذا ليت شعري لم هذا ؟
وإذا عابوه جهلا دون علم كان ماذا ؟

ثم ألف مقالته المذكورة في الرد على منتقديه . وقد علق الأستاذ الفاسي على هذه القضية بقوله :

«هكذا تطلعنا هذه القصة على تعلق القوم بلغتهم والذب عنها والمحافظة على صفائها بهذا الحماس الذي لا يتجلى عادة إلا في العقائد والمبادئ ، وقد تبوأت عندهم اللغة مكان العقيدة والايمان» .

كما وضع ابن المرحل منظومة «الموطأ» في نظم الفصيح لثعلب مع شرحها ، ومنظومة أخرى في غريب القرآن وثالثة في إصلاح المنطق .

والجدير بالذكر أن ابن المرحل قد عاصر الموحدين منذ الناصر ، وامتدت به الحياة إلى أيام ازدهار دولة بني مرين حيث توفي سنة 699 ، وسيأتي عرضه كشاعر في أيام المرينيين ولو أنه نبع في الشعر أيام الموحدين أنفسهم .

4 — أبو زكريا يحيى بن معط 628 وهو تلميذ الجزولي الذي تقدم ذكره . وعاش أكثر حياته بالمشرق مشتغلا بالتدريس في الشام ومصر . وكان كثير النظم للمتون في اللغة والنحو وسائر العلوم ، وإلى ألفيته في النحو يشير ابن مالك بقوله :

وتقتضي رضا بغير سخط فائقة ألفية ابن معط

والجدير بالذكر أن هذا العصر يعتبر عصر نظم المتون التي كان يقصد بها أصحابها إلى اختصار العلوم وإرساخها في الأذهان عن طريق الحفظ والاستظهار ، وقد أدّى المغاربة خدمة جلى في هذا الباب بالرغم مما انتقد على المتون .

10) الأدب

يقتضي البحث في هذا الباب صفحات كثيرة لا يتسع لها المقام ، ومع ذلك فإني محاول بعون الله إبراز معالم النهضة الأدبية في هذه الحقبة بايجاز .

اتسم الأدب المغربي في هذا العصر كما في غيره من العصور بوجهة عامة ، بطابع الجد والحشمة ، فخلا من بعض أنواع الأدب التي طبعت الأدب في المشرق وحتّى في الأندلس نفسها كالخمريات والغزل المذكر إلا ما دخل في حكم النادر . والظاهر

أن ذلك يرجع إلى صرامة الدول الحاكمة بالمغرب وكونها كانت تعتبر نفسها حامية للدين الاسلامي ، ولو أن هذا لا يعني أن شرب الخمر والشذوذ الجنسي مما تنزه عنه عامة الأدباء وغيرهم بالمغرب .

وليس من السهل أن نفصل الأدب الموحدي عن المرابطي إذا صح أن الأدب ينسب إلى الدول ، وذلك لأن كثيرا من الشعراء الذين عاشوا في عهد المرابطين شهدوا فترة من حكم الموحدين . ومن باب التكرار القول بأن أدب أمة لا يتغير بمجرد سقوط دولة وصعود أخرى إلى الحكم . ومع هذا وذاك فالشبه كبير بين الموحدين والمرابطين من حيث أن كلا منهم قام على أساس عقيدي أو ديني . أما الفرق الجوهري فهو أن الأدباء في عهد الموحدين وجدوا من التشجيع ما لم يجدوه من المرابطين ، ولكننا لا ندري ماذا سيكون اتجاه المرابطين ، لو استمروا في الحكم زمنا أطول .

وأهم شيء شجع المثقفين على خوض الأدب وقرض الشعر أن الخلفاء الموحدين كانوا هم أنفسهم يتذوقون الأدب ويقرض بعضهم الشعر ، بل إن بعضهم كان له باع طويل في ميدان الأدب كعبد المومن ويوسف والمنصور، وكانت الاحتفالات الرسمية والدينية مناسبة ينتهزها الشعراء فينشدون قصائدهم بمحضر الخليفة الذي يثيبهم على قدر إجادتهم ، وقد يناقشهم في شعرهم كما كان من عادة عبد المومن .

يروَى أن شاعرا إشبيليا يدعَى ابن سيد مدح عبد المومن بقصيدة مطلعها

غمض عن الشمس واستقصر مدَى زحل
وانظر إلى الجبل الراسي على جبل
أنَّى استقر به أنَّى استقل به
أنَّى رأى شخصه العالي فلم يزل

فقال له عبد المومن : لقد ثقلتنا يا رجل ! فأمر به فأجلس[120] .

وقيل إن عبد المومن عندما عزم على غزو الأندلس كتب إلى عرب بني هلال وهم يومئذ في إفريقية رسالة يستصرخهم فيها ، وقد ذيلها بقصيدة منها :

أقيموا إلى العلياء هوج الرواحل وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل

(120) المعجب 217

وقوموا لنصر الدين قومة ثائر   وشدوا على الأعداء شدة صائل
بني العم من عليا هلال بن عامر   وما جمعت من باسل وابن باسل
تعالوا فقد شدت إلى الغزو نية   عواقبها منصورة بالأوائل

ويروَى أن ابن مجير الفهري أنشد يوسف بن عبد المومن يهنيه بفتح :

إن خير الفتوح ما جاء عفوا   مثلما يخطب الخطيب ارتجالا

وكان أبو العباس الجراوي حاضرا فقاطعه قائلا : يا سيدنا ، اهتدم بيت وضاح :

خير شراب ما كان عفوا   كأنه خطبة ارتجالا

فبدر المنصور وهو حينئذ وزير أبيه ، وسنه قريب من العشرين . وقال : إن كان اهتدمه فقد استحقه لنقله إياه من معنًى خسيس إلى معنًى شريف ، فسر أبوه بجوابه ، وأعجب الحاضرون[121] .

ووقف المنصور يوما على قبر الحافظ ابن حزم وقال : عجبا لهذا الموضع يخرج منه مثل هذا العالم ، ثم قال : كل العلماء عيال على ابن حزم ، ثم رفع رأسه مخاطباً ابن مجير وقال : كما أن الشعراء عيال عليك يا أبا بكر .

هذه الروح الأدبية هي التي استمد منها أدباء المغرب وكانت لهم أسمَى مثل يحتذَى في سمو الذوق وسعة الثقافة .

غير أنه من العسير الادعاء بأن تجديدا يستحق الذكر ، قد دخل على الأدب العربي بالمغرب في هذه الفترة ، فمدنية الشرق والأندلس التي احتك بها المغاربة من قبل هي نفس المدنية التي احتكوا بها أيام الموحدين مع إضافة عناصر محلية لم تؤثر على الأدب في شيء ولكنها أثرت في غيره من مظاهر الحضارة كالبناء والفلاحة والفنون .

وهكذا فقد ظل الأدب المغربي بعيدا عن روح الهجاء التي سادت الأدب طويلا في المشرق والأندلس ، وظل المدح وسيلة للتكسب واتسم مع ذلك بطابع المبالغة أحيانا . أما الغزل فكان عفيفاً في جملته ، بينما خلا الأدب من الحكمة التي

(121) نفح 4 ص 222

عرفناها في شعر المتنبي والمعري وابن هانئ ، لأن الأديب المغربي لم يأخذ بنصيب من الفلسفة المضطهدة أو المنبوذة على الأقل . ودخلت الصنعة النثر المغربي خصوصاً في الرسائل ، أو على الأصح فقد أصبحت الصنعة في هذا النوع من الأدب أمراً عادياً فيما يخص أسلوب الرسائل الرسمية كما نقرأ ذلك في مجموع الرسائل الموحدية .

ومن أهم ما يلفت النظر في أبواب النثر الفني خلال هذا العصر روعة الأسلوب والمعنَى في التوقيعات التي كان يكتبها الخلفاء وعلى رأسهم عبد المومن والمنصور .

حكي أن الأخير طلب من قاضيه أن يبحث له عن معلمين لولده ، فعرفه برجلين وصف أحدهما بأنه بحر في علمه والثاني بأنه بر في دينه ، فلما اختبرهما المنصور لم يجدهما كما ادعَى القاضي فوقع له : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ظهر الفساد في البر والبحر .

وشكت امرأة إلى المامون بن المنصور جنديا نزل دارها وآذاها ، فوقع على رقعتها : يخرج هذا النازل ، ولا يعوض بشيء من المنازل .

أما الخطابة فقد برع فيها كثير من خلفاء الموحدين ومؤسس دولتهم المهدي بن تومرت . وفي هذا العصر بدأت تنتشر في الشعر الأمداح النبوية التي لا ريب كانت من تأثير المتصوفة الذين كان خطرهم يتزايد يوما عن يوم . وفي هذه الأمداح يتوسل الشعراء إلى النبي ويدعون الله لانقاذ الاسلام من الكفار ، وقد فتحت الموشحات التي نشأت على ما يعتقد في هذا العصر[122] صدراً رحيبا لهذه الأمداح ولفنون أخرى من الأدب ، إذ لم تنتشر حقيقة إلا منذ العصر المريني ، كما ظهر فن الزجل بالمغرب في هذا العصر على يد مغاربة . وكل من الموشحات والزجل من مستحدثات أهل الأندلس .

وقد تميز عهد الموحدين بظهور شعراء كثيرين ضمنهم عدة أمراء من العائلة المالكة كأبي الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المومن وعلي بن عمر . ومن سائر الأدباء أبو جعفر بن عطية وأخوه أبو عقيل وأبو بكر بن عتيق وأبو العباس الجراوي وأبو الخطاب بن دحية وميمون ابن خبازة ومحمد بن عبدون المكناسي وعشرات غيرهم . وأقتصر هنا على دراسة ثلاثة أدباء بارزين أحدهم عاصر المرابطين

(122) ابن خلدون . مقدمة ، ص 542

والموحدين وهو أبو جعفر والاثنان الآخران ميمون الخطابي المعروف بابن خبازة وأبو العباس الجراوي . وقد مرت ترجمة الأول ككاتب في دولة المرابطين مع ذكر النكبة التي تعرض لها هو وأخوه على يد عبد المومن وينبغي أن نشير هنا إلى أن أسلوب أبي جعفر يمثل أصالة الفن الأدبي بالمغرب في الفترة الأولى من حكم الموحدين . فالنثر الفني يمثل لدَى هذا الكاتب طرق الصنعة التي سادت الترسل خاصة . ومع أن أبا جعفر كان ذا براعة في التلاعب بالألفاظ والمعاني مقتبسا على طريقة ابن العميد من القرآن والأحاديث والأمثال ، فإن كاتبا يدعى ابن عياش من أهل الأندلس قد أثر في طريقة الترسل بالمغرب ، إذ «جرى الكتاب بعده على أسلوبه وسلكوا مسلكه لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة[123]» ومع ذلك فإن ابن عطية يفوقه ثقافة وسعة إطلاع . ولما كان المجال هنا محدودا ، فإني اكتفي فيما يلي بتقديم نموذج من أسلوب ابن عطية ، مع العلم بأن ابن عياش كان كثير العناية بالسجع والجناس والطباق مع قصر سجعاته على العموم ، ولو أن سجعات ابن عطية أقصر .

يقول أبو جعفر من رسالة طويلة عن عبد المومن ، إلى طلبة تلمسان[124] :
«...ولم تزل القبائل ترد أفواجا ، وتفد أقواماً . وخلال التلوم باكتمالهم ، أخذوا بالقراءة والتعلم ، ومدارسة التوحيد ، وتحفظ ما تقام الصلاة به من القرآن ، وكان لهذا الأخذ من كل طبقة وصنف ، عمل علت به الأصوات ، وعظم الأثر ، وقد ظهر من مبادئ هذه المنازعات وانقراض هذه المقدمات ما شخصت له الأبصار ، وجد فيه الاعتبار ، وخامر منه النفوس الخوف المقلق الحذار ، وسرَى في قلوب الخاصة والعامة الايحاش لأمر من أمور الله والاستشعار ، وتوقع ظهور آية تفرق بين المحق والمبطل ، وتميز الخبيث من الطيبب ، وتلبس كلا رداء سريرته ، وجلباب طويته ، وما ذاك ببعيد عمن أعرض عن الحق واتبع هواه ، وأحل بعهده الذي عاهد عليه ، واستبطن غير ما أظهر ، ولله في هذا الأمر العزيز أسرار مخبوءة ، وودائع مكتومة ، يمحض الله بها المومن ، ويمحق الكافر» .

أبو العباس الجراوي

أحمد بن عبد السلام الجراوي من تادلا ثم فاس درس على ابن سيد وابن الأعلم وغيرهما ، واشتهر بمدح عبد المومن وابنه يوسف وحفيده المنصور وبهجائه

(123) المعجب 264
(124) رسائل موحدية 53

المقذع ، وقد جمع أشعاراً كثيرة ضمنها كتابا بعنوان «صفوة الأدب وديوان العرب» على غرار الحماسة لأبي تمام. ويدعَى أحياناً بالكرواني .

روي أنه كان يوماً على باب يوسف بن عبد المومن ، وكان الطبيب سعيد الغماري حاضراً ، فقال الخليفة لخادمه : انظر من بالباب من الأصحاب ، فبحث الخادم فوجد الشاعر الكرواني فقال : من عجائب الدنيا شاعر من كروان وطبيب من غمارة ! فبلغ ذلك الكرواني فقال : وضرْب لنا مثلا ونسي خلقه ! أعجب منهما والله خليفة من كومية ! فلما بلغ ذلك يوسف قال : أعاقبه بالحلم عنه ففيه تكذيب له . وكانت وفاة هذا الشاعر سنة 609 . وكان عبد المومن معجبا به .

وكان الجراوي لا يعترف بالفضل لأحد ، حتَّى لقد هجا قومه بني غفجوم ، وهو في ذلك أشبه ما يكون بالحطيئة الذي هجا نفسه وأسرته :

يا ابن السبيل إذا مررت بتادلا   لا تنزلن على بني غفجوم
أرض أغار بها العدو فلن ترَى   إلا مجاوبة الصدَى للبوم
قوم طووا ذكر السماحة بينهم   لكنهم نشروا لواء اللوم
لا حظ في أموالهم ونوالهم   للسائل العافي ولا المحروم
لا يملكون إذا استبيح حريمهم   إلا الصراخ بدعوة المظلوم

ويمتاز مدحه بالمبالغة التي كان يطرب إليها الخلفاء الموحدون ، وكانوا يتشبهون ببني العباس من حيث الميل إلى الفخفخة ومظاهر الملك ، والجراوي كغيره ممَّنْ مدحوا خلفاء الموحدين وككثير ممن عاشوا على التزلف إليهم ، كان يظهر تعلقه بالمهدي ومذهبه ، وينسب إلى الخليفة من الخوارق ما لا ينسب إلى الأنبياء شأن كثير من المتشيعين[125] .

عن أمركم يتصرف الثقلان   وبنصركم يتعاقب الملوان
وبما يسوء عدوكم ويسركم   تتحرك الأفلاك في الدوران
جاهدتم في الليل حق جهاده   ونهضتهم بحماية الايمان

ابن خبازة

ميمون بن علي بن عبد الخالق الخطابي المعروف بابن خبازة ، صنهاجي من

(125) انظر معلومات إضافية عنه في تكملة الصلة ص 128

مدينة فاس ، عاصر دور الضعف في تاريخ الموحدين وكان مجيدا في النظم والنثر يرتجل الشعر أحيانا . وقد ضاع كثير من شعره إذ لم يفكر أحد في جمعه . وأهم ما بقي من شعره قصيدة طويلة سجلها صاحب أزهار الرياض في مدح النبي ﷺ . وقد تزهد ابن خبازة في آخر حياته وانقطع للعبادة وتعتبر قصيدته في مدح الرسول من أوائل الأمداح الشعرية النبوية بالمغرب كما ورد في «الأدب المغربي» . وفيها يذكر بمعجزات الرسول التي عددها في كثير من البراعة ومن أبياتها الأولى قوله :

حقيق علينا أن نجيب المعاليا . لنفني في مدح الحبيب المعانيا
ونجمع أشتات الأعاريض حسبة ونحشد في ذات الا له القوافيا
ونقتاد للأشعار كل كتيبة لنصر الهدَى والدين تردي الأعاديا
فألسن أرباب البيان صوارم مضاربها تنسي السيوف المواضيا
لنطلع من أمداح أحمد أنجما تلوح فتجلو من سناه الدياجيا
كواكب ايمان . تنير فيهتدي بأضوائها من بات للحق ساريا
سَهِرْت بمدح الخلق دهري فهذه سجودي لجبري كل ما قلت ساهيا
فلا مدح إلا للذي بمديحه تطيع إذا ما كنت بالمدح عاصيا

ولابن خبازة غزل رقيق ولكن لا تجديد فيه من حيث المعاني :

أبدت لنا حلي الطلى وتبسمت زهرا فراق مقلد ومقبل
ومن العجائب أن أهيم بجنة حلت بقلبي وهو نار تشعل

أما رثاؤه فيتجلى فيه صدق العاطفة ، يصف فيه هول النكبة وأثرها في القلوب ويحاول أن يصبر المحزونين مذكرا إياهم بأن قضاء الله لا مفر منه ، وأن صفاء الحياة يكدره الموت ، وإذا كان ابن خبازة يبدو صادق العاطفة ، فإننا نجده يتكلف أحيانا في صوغ المعاني ويتلاعب بالألفاظ :

فاسمع بقلبك فالأشياء ناطقة وألسن الحال تغني عن كل تحرير
مقدمات الليالي طالما فضحت نتائج الغدر منها كل مغرور
جمع السلامة معدوم الوجود بها وكم بها للردَى من «جمع تكسير»
والدهر «يعرب بالافعال» يظهرها طورا ويعجم منها كل مسطور
وإنما الخلق أسماء تعاورها إعرابه بين «مرفوع ومجرور»

ولا شك أن قيمة ابن خبازة تتجلى في مديحه أكثر من أي شيء آخر[126] وقد توفي هذا الشاعر بالرباط سنة 637هـ.

(126) تراجع بشأن الأدب الموحدي دراسة للسيد ابن تاويت في مجلة البحث العلمي عدد 1384/2 ــ 1964، وهناك دراسات متعددة للأستاذ محمد الفاسي تراجع عناوينها وأماكنها في متنوعات الاستاذ محمد الفاسي (نشر المركز الجامعي للبحث العلمي، وانظر دراسة عن ابن خبازة في رسالة المغرب ع.4 سنة سادسة. هذا بالاضافة إلى دراسات محدثة لعدد من الأدباء والمثقفين، نشرت في «دعوة الحق» والثقافة المغربية وغيرهما.

مراجع باب الحضارة في عهد الموحدين

الانساب في معرفة الأصحاب للصنهاجي
المعجب للمراكشي
تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة حسين مؤنس
تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لشباخ
الأعلام بمن حل بمراكش من الأعلام لعباس المراكشي
مجموع رسائل موحدية، من إعداد ليفي بروفنصال
النبوغ المغربي في الأدب العربي لعبد الله كنون
نفح الطيب للمقري
الذخيرة النسبية في أخبار الدولة المرينية لمؤلف مجهول
دليل مؤرخ المغرب الأقصى لعبد السلام بن سودة
مقدمة ابن خلدون
صلة الصلة لابن الزبير
الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون
مظاهر الحضارة المغربية لعبد العزيز بنعبد الله
الكامل لابن الأثير
الحلل الموشية لمؤلف مجهول
آداب الحسبة للسقطي
اتحاف أعلام الناس لابن زيدان
أبو العباس الجراوي لمحمد الفاسي
وفيات الأعيان لابن خلكان
التكملة لابن الابار
ازهار الرياض للمقري
الأنيس المطرب لابن عبد الحليم

الاستقصا للناصري
المن بالامامة لابن صاحب الصلاة
أخبار المهدي للبيدق
مقدمة الفتح من رباط الفتح ، لبوجندار

مجلة هسبريس ، ودعوة الحق والتربية الوطنية وأبحاث مختلفة .

André Julien : Histoire de l'Afrique du Nord - Payot-Paris 1921
Bousquet : Les Berbères «Collection Que sais-je»
Ernest Leroux : Villes et Trébus du Maroc,Paris 1921
Ernest Mercier : Histoire de l'Afrique Septentrionale-Paris 1888
E. Dermengham - Culte des Saints
Christain Gourtois : Bibliographie de l'Af.du Nord Alger 1953
E F. Gautier : Les siécles Obscurs de l'Af. du Nord
Gsell,Histoire ancienne de l'Af. du Nord «1re édition»
L. Chapelin : Le Maroc des Romains
A. Pellegrin : Histoire de la Tunisie
H.Terrasse,Histoire du Maroc,Edit. Atlantides,Casa - 1948
Le Sahara «Collection Que sais-je»

الفهـــارس

فهرس الأعلام الشخصية

(ا)

(ب)

(ت)

(ث)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

فهرس الجماعات

(ا)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

فهرس الأعلام المكانية

(ا)

(ب)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

فهرس الموضوعات



الإيداع القانوني رقم 1984/614